مستقبل الخوف

أحمد دعدوش

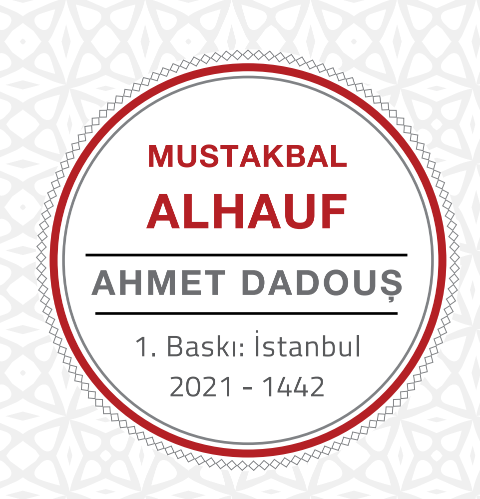








مستقبل الخوف


MUSTAKBAL
ALHAUF
AHMET DADOUŞ
1. Baskı: İstanbul
2021 - 1442



أحمد دعدوش



من إصدارات مؤسسة السبيل



مســـتقبل الخـوف

تأليف: أحمد دعـــدوش

القياس: 17 X 24 سم

عدد الصفحات : 368 ص

ISBN: 978-605-7618-58-0

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة



السبيل

من إصدارات مؤسسة السبيل

www.al-sabeel.net



ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - ISTANBUL

طبـاعـة ونشـر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31

info@arabfamilybs.com



Sertifika No: 35657





TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Enes Basın Matbaacılık Ltd. Şti. Litros Yolu Fatih San. Sit. No: 12/210 - Topkapı / İstanbul

الفهرس

الإهـــداء

إلى كل مسلم وصل إليه هذا الكتاب..

أرجوك، اقرأه كأنه كُتب خصّيصًا لك.





مقدّمة

لا أزعم أنّي باحث متعمّق في التاريخ، ولست أيضًا من المفكّرين المستقبليّين Futurists الذين تخصّصوا في استشراف المستقبل. لكنّ محاولة التأنّي للنظر في واقع اليوم، حيث يتسارع الزمن إلى درجةٍ يصعُب معها الإمساك بالحاضر، كانت كافية لدفعي إلى وضع هذا الكتاب على عَجَل، بالعُجالة ذاتها التي تدور بها عجلة الزمن!

ربما بات البعض يتساءل حقًّا، أيهما أسرع: **انقداح الفكرة في الذهن، أم تشكّلها في الواقع؟**

على أبواب القرن الحادي والعشرين، ألّف **بيل غيتس** -الذي جعلت منه التكنولوجيا أغنى رجل في العالم- كتابًا بعنوان «**الأعمال بسرعة الفكر**» Business @ the speed of thought، وكان يقصد بذلك أن التكنولوجيا التي ساهم في تطويرها باتت قادرة على تنفيذ الأفكار بمجرّد الشروع فيها، فطرح في كتابه توقّعات مستقبليّة جريئة، تحقّق بعضها بالفعل، وما زالت أحلامٌ أخرى تتحقّق مع الانتشار الواسع لتطبيقات شبكة الإنترنت، واقتحام ثورة الاتصالات مجالات كثيرة.

لكن المستقبل لا يبدو ورديًّا دائمًا، لا سيما عندما لا تقتصر نظرتنا على منظور روّاد وادي السليكون، فقبل أن يكتب **غيتس** كتابه بثلاثة عقود، وضع عالِم المستقبليات الأمريكي **ألفن توفلر** كتابه ذائع الصيت «**صدمة المستقبل**»، وتحدّث فيه عن الحالة النفسيّة التي تشبه الصدمة لدى الأفراد والمجتمعات المعاصرة، جرّاء تعرّضها لتغييرات ضخمة في

أنماط العيش والثقافة والدين والسياسة، وذلك خلال فترات زمنيّة قصيرة للغاية. ولم تخلُ رؤية **توفلر** من «**الخوف**»، بالرغم من إصراره على التفاؤل والتبشير بقوة بلاده الصاعدة في نشر رؤيتها الخاصة للحضارة، لتكون نموذجًا للعولمة.

والآن، وبينما أكتب هذه السطور في المرحلة الانتقاليّة بين العقدين الأول والثاني من القرن الميلادي الحادي والعشرين، تبدو لي «**الصدمة**» أشدّ وقعًا، وآثارها أكثر عمقًا. ومع أن الكثير من عامة الناس قد طوّروا في أنفسهم بعض مهارات **اللامبالاة**، ليتجاوزوا ما يعترض حياتهم اليوميّة من دواعي الصدمة، لكن الخوف هو السائد حيثما نظرت، **والغموض** هو شعار كل مرحلة جديدة.

كنت متردّدًا في البداية بشأن عنوان الكتاب، فكان الأقرب للذهن تسميته «**الخوف من المستقبل**»، غير أني لم أستسغ هذه الفجاجة، وآثرت تبديل الأدوار بين الخوف والمستقبل، ليصبح حديثنا عن «**مستقبل الخوف**»، مع أن مهمّة الكتابة تحت عنوان كهذا باتت أكثر صعوبة.

لن أطيل في الاستهلال، وسأحاول أيضًا ألا أسهب فيما يأتي من فصول الكتاب. وأكتفي بالقول وأنا أضع بين يديك -عزيزي القارئ- خلاصة قراءاتي وعصارة أفكاري: أرجو أن تضع كلماتي في موضعها الصحيح، فكتابي هذا ليس دراسة أكاديميّة لقراءة التاريخ واستشراف المستقبَل، ولا خارطةً طريق عمليّة لإرشادك في مستقبلٍ شعاره **الخوف**. فأنا لا أملك سوى التفكير والتحليل والتحذير، ولا أنسى التحلّي بروح الأمل، وأستأنس بالدعاء والتضرّع بين يدي المولى، عسى ألا تأسرنا ربقة الخوف.

ولا ينبغي أن أنسى في هذا المقام شكر كلّ من ساعد في إنضاج الكتاب وإخراجه، وأبدأ بالشيخ الدكتور **عبد السلام المجيدي** الذي أفادني بملاحظاته ومراجعاته، وكذلك العديد من الأصدقاء الذين استمتعت بمناقشة أفكاري معهم قبل وأثناء الكتابة، ومنهم الصديق والزميل **محمّد المختار ولد أحمد** الذي تتحوّل لقاءاتي به دائمًا إلى حلقات نقاشيّة

ثريّة، والشيخ **سالم القحطانيّ** الذي أثق بعلمه وأرتاح لتواضعه، والأستاذ **فراس مريش** الذي فتح عينيّ على معلومات ومصادر أجنبيّة مهمة باطلاعه الواسع، كما أشكر الصديق **عرابي عبد الحي عرابي** الذي تحمّل إلحاحي وإزعاجي له في متابعة مهامّ المراجعة والتدقيق، وأيضًا الفنان المبدع **أمجد بربور** الذي أكرمني بتصميم الغلاف.

* * * *

الفصل الأول
وباء كورونا.. الخوف المباغت

أكتب هذه السطور وأنا أحاول مقاومة الشعور بالخوف، فثمة ألف شخص تقريبًا يُعلَن كلّ يوم عن انضمامهم إلى قافلة المصابين بفيروس كورونا المستجد (كوفيد 19) في المدينة التي أعيش فيها منذ نحو عشر سنوات.

لدي تأشيرة للسفر تكاد صلاحيتها تنتهي، غير أن المطارات مُغلَقَةٌ، ولديّ بفضل الله وظيفة جيدة، لكن مكتبي انتقل بطريقةٍ لم تكن مُتَوَقَّعةً إلى غرفة نومي منذ شهرين، فيما أسمع قصصًا مؤلمة عن إفلاس البعض وفقدان وظائفهم، كما أن لديّ الرغبة في الخروج لترويض جسدي الذي يكاد يخسر ما جناه قبل شهرين من حمية قاسية، لكن قوانين العزل والحظر حوّلت منازلنا إلى سجون، ولا أحد يملك الجواب عن سؤال: **وماذا بعد؟**

التاريخ حافل بأمثلة لأوبئة كارثية مفزعة، فما نعيشه اليوم لا يكاد يقارَن -ولله الحمد- بتلك الأوبئة التي أفضت إلى إبادة جماعية، كما أني شهدت في كلّ عقدٍ تقريبًا من عمري قصة انتشار إحدى الفيروسات المرعبة، وقد اعتدت على ألّا أجزع طالما تنتهي القصة بسقوط سريع، كما هو حال مشاهير اللحظة وصائدي الفرص، فسرعان ما تختفي الأضواء ويذوي الفيروس (المشهور) في عالم النسيان؛ ولذا لم أخفِ تفاؤلي في بداية قصّة فيروس كورونا المستجد، التي ظهرت بدايةً في مدينة ووهان الصينية مطلع عام 2020، ولم أستبعد ما قيل عن احتمالات المؤامرة، فهناك من يشكّك في أن شركات الأدوية هي المستفيد الوحيد مع كل موجة فيروسية جديدة، حيث يتضح في نهايتها أن الأمر لم يكن يستحقّ الذعر، ولا شراء كل تلك الكميات من اللقاحات التي تفسد في مخازن الحكومات الغنيّة.

لكنّ الأمر بدا مختلفًا بالفعل هذه المرة، ولم تمضِ فترة طويلة حتى دبّ الذعر في قلوب العالم كله، وتوالت أنباء الانتشار السريع -المفضي إلى الموت- في إيران، ثم إيطاليا، وبقيّة دول أوروبا، مرورًا بالولايات المتحدة -التي أبدى رئيسها اليمينيّ المتطرّف دونالد ترمب الكثير من البرود في البداية- حتى أصبحت مركز الوباء العالمي، وصولًا إلى أمريكا الجنوبية، وخصوصًا البرازيل التي يحكمها رئيس يعتبره الإعلام نسخة لاتينية عن ترمب.

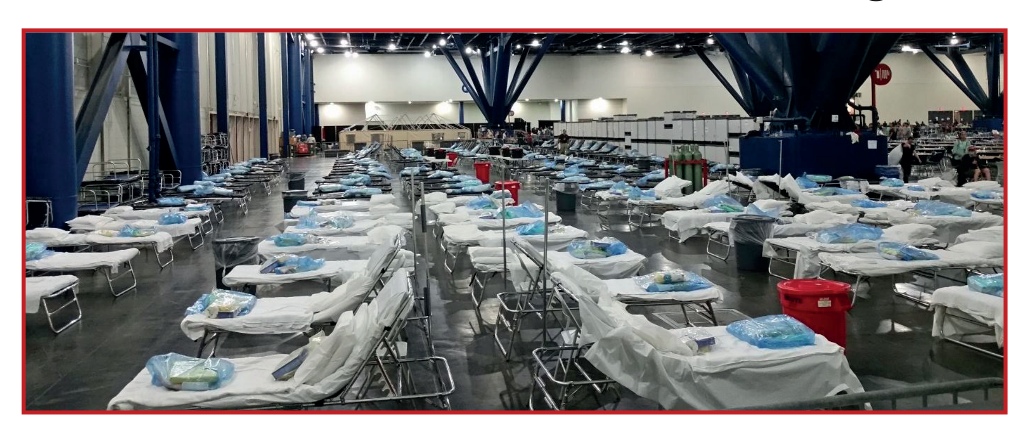
وبينما كان الجدل محتدمًا حول نشأة هذا الفيروس ومدى خطورته الفعليّة، سارعت الحكومات، واحدةً تلو الأخرى، إلى فرض إجراءات إغلاق وحظر غير مسبوقة.



وللمرة الأولى في التاريخ، اتفقت البشرية على أمر واحد، أو لنقل بعبارة أوضح: اشتركت الأمم الغنية والفقيرة، الظالمة والمظلومة، في المعاناة من محنة واحدة. ومع أن الغرب كان يتباهى بأنه تمكن من احتواء فيروسات أخرى مثل الإيدز وإيبولا، بينما سقطت في جحيمها الدول الفقيرة المنهوبة في أفريقيا، إلا أن البؤرة تركزت هذه المرة أساسًا في أوروبا وأمريكا، ولم يحوّل فيروس كورونا المستجد وجهته نحو الفقراء في الهند وأمريكا الجنوبية إلا بعدما كشَفَ عورات أوروبا، وأنهكها سياسيًّا واقتصاديًّا على نحو غير مسبوق.

في البداية، بدا ظاهرًا تململ «**الإنسان الحديث**» من إجباره على المكوث في البيت، وربما حُمل الأمر على محمل المزاح، حتى خرج العديد من عمداء المدن والقرى المنكوبة في إيطاليا وهم يصرخون على وسائل الإعلام الاجتماعي، مطالبين رعاياهم بالتحلي بالمسؤولية، حتى استدعت بعض السلطات قوات الشرطة، ثم الجيش، لإجبار الناس على البقاء في منازلهم.

لم يعد الأمر مضحكًا عندما توالت صور جثث المسنين، لا سيّما في دول متحضِّرة مثل إيطاليا، ثم إسبانيا. ولم يعد من المضحك أيضًا إعراب البعض على مواقع التواصل عن ضجرهم بعدما حُرموا من التسكّع في المقاهي والحدائق، فثقافة الاستهلاك التي تجعل من «الخروج» واللهو حقًّا من حقوق الإنسان باتت أيضا على المحكّ.



أصبحنا نتساءل للمرة الأولى منذ نحو قرن عن جدوى انتشار المطاعم والمقاهي في كل مكان، وكأن المرأة لم تعد متفرّغة لإعداد الطعام لأسرتها، أو ربما لم يعد «**إنسان الحداثة**» يرغب في الأكل والشرب إلا خارجًا، فنمط العيش Life Style الذي تسوّقه وسائل الإعلام يجعل من «**الخروج**» للتسوق وتناول الطعام وشرب القهوة، وربما الجعة، سلوكا يوميًّا مهمًّا. ولا أقول إن هذه العادات باتت من قبيل التباهي بالقدرة على الإنفاق، بل هي مفروضة على الطبقة الوسطى وما دونها بدون نظر للوضع المادي، فهي من مظاهر الرفاه التي لا تكتمل الحياة في المدن العصريّة بدونها.

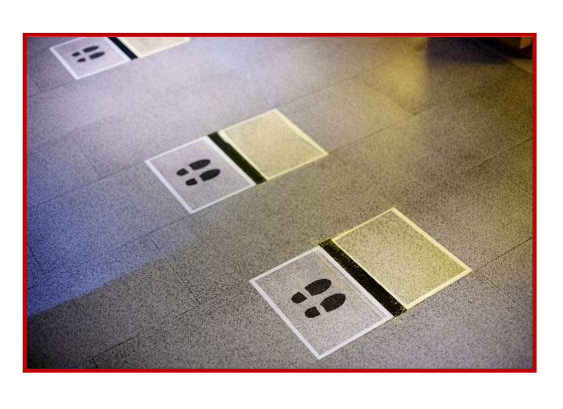
لذا بدا من المضحك المبكي في آنٍ معًا أن صراخ عمداء المدن الإيطالية كان بمثابة صرخة في وجه «**بلادة الإنسان الحديث**»، إذ رأينا على الشاشة عمدة يصرخ لأنّ رجلًا من رعاياه استنجد به لشراء طعام من نوع خاص لكلبه، وهو لا يباع إلا في متجر محدد، بينما فرضت الحكومة إغلاق كل الأسواق باستثناء عدد محدود جدا من متاجر المواد الغذائية الضرورية فقط.

أما الصور التي تدفقت لاحقًا عن المزارات السياحية في فلورنسا والبندقية وروما، فتلك قصّة أخرى. فمن كان يتخيّل أن تخلو الساحات والأزقة والكنائس والقصور التاريخية من آلاف الزوار اليوميّين لتصبح كمدن الأشباح؟ كيف عادت أجواء الحرب العالميّة الثانية بهذا الصمت الرهيب لتزرع الرعب في قلوبنا؟

ظل الإعلام منشغلًا طوال أسابيع برصد مشاهد السكون المخيف في كل مكان، حتى أصبحت الغزلان تتمشّى بأمانٍ في شوارع المدُنِ الكبرى حول العالم، بل زالت من أجواء تلك المدن غمامة الدخان الصناعيّ القاتل للمرة الأولى، وخلت السماوات من آلاف الطائرات، وبات الصمت سيد الموقف، حتى عادت للذاكرة مشاهد من أفلام هوليود التي تنبّأت بسيناريوهات «القيامة»، مع أنها كانت حتى وقت قريب جدًّا مجرد أفلام للتسلية.

التكيّف والمرونة

كان على العالم أن يتكيّف مع أنماط حياة جديدة في كل شيء تقريبًا، فانتقلت الدراسة والعمل إلى المنازل فجأة، ومُنِعت الاحتفالات والاجتماعات واللقاءات العائلية أو تم تضييقها بقوة القانون إلى أضيق الحدود، وأغلقت الأسواق والحدائق وكل المرافِق باستثناء الضروري منها وفي إطار قيود مشددة، وتوقف السفر تقريبًا لأول مرة منذ تشكل



شبكات المواصلات المعقدة التي تحيط بالكوكب، وأصبحت وجوه الناس ملثمة في كل مكان، وتخلّوا عن المصافحة والتلامس، وصارت لافتات التذكير بالتباعد لمسافة مترين عن الآخرين أمرا شائعا، كما أصبحت عبوات تعقيم اليدين بالكحول أكثر انتشارا بكثير من مياه الشرب.

كنا نتوقع في الأيام الأولى أن يبقى عالم النخب معزولًا عن تلك العادات الجديدة، وفي مشهد مبكّر تناقلته وسائل الإعلام رفض أحد الوزراء مصافحة المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل بعدما صافحها كل أعضاء حكومتها، فاستقبلَت الأمر بابتسامة وسط ضحكات الحاضرين، ثم سرعان ما صار هذا عُرفًا دبلوماسيًّا، وأصبح من المألوف رؤية رؤساء الدول وهم يستقبلون نظراءهم بالأقنعة ودون مصافحة، كما باتت اجتماعات الأمم المتحدة ومباحثات المسؤولين تُدار بالفيديو عن بعد.

انتعشت في هذا الإغلاق العالمي التجارة الإلكترونية بينما أفلس الآخرون، وانطلق عمال التوصيل للعمل على مدار الساعة بالتزامن مع فقد ملايين الموظفين والعمال وظائفهم. وصار التعامل مع قطاعات واسعة من الخدمات عبر الإنترنت وخدمات التوصيل جزءا من الحياة اليومية.



الكثير مما كان مستحيلًا أو مستبعدًا أو خياليًّا أصبحَ واقعًا خلال أسابيع، وكل سلوك طارئ أصبح يستدعي استنفارًا رسميًّا وشعبيًّا ومرونة لتقبّل الأفكار الجديدة، ثم انصياعًا تامًّا مع الشروع في التنفيذ.

أثبت هذا الوباء أن النفس البشرية قد تألف كل شيء، وبسرعة غير مُتَوَقَّعةٍ، فَمَن منّا كان يتوقع مثلًا أّن المساجد ستُقْفَلُ في كلّ أنحاء الأرض؟ ومَنْ كان يتخيَّلُ أن نرى في عصر التلفزيون صورًا لصحن الكعبة خاليًا تماما[1] ؟

(1) شهد التاريخ الإسلامي عشرات الحالات المشابهة لتعطُّلِ موسم الحج وتوقف الصلاة والعمرة في المسجد الحرام، بداية بفتنة القرامطة عام 317 للهجرة، ومرورًا بحروب ومجاعات وأوبئة أخرى، لكن ما شهدناه كان أول حالة إغلاق تُوثَّقُ بالكاميرات.

كان مشهدًا رهيبًا، تناقلناه جميعا مع تعليقات شاعرية وجَدَلٍ محتدم، ثم انقضى شهر رمضان كاملًا دون صلاة التراويح التي تشهدها الحشود المألوفة كل عام. وفي مطلع شهر ذي القعدة، أعلنت السعودية تعطيلًا شبه كُلِّي لموسم الحج والاقتصار على حجّاجِ الداخل ضمن شروط محددة.

وجدَتْ إدارات الشركات والمؤسسات والمنظمات في نمط العمل الجديد فرصة لإعادة حساباتها، فقبل الأزمة كان من النادر اعتماد أسلوب العمل في المنزل، ونُشرت عدة دراسات وإحصاءات عن حسنات وسيئات هذا النظام، لكن الوباء جعله أمرًا واقعًا، وأتاح لأصحاب الشركات –الذين لا يشبعون– التفكير جدّيًّا في الاستغناء عن بعض الموظفين، والاكتفاء بآخرين يعيشون في دول فقيرة ويوفرون نفس الخدمات برواتب أقل بكثير، وبدون التزامات قانونية تُذكر.

وبما أن الوباء تسبّب أصلًا بركود هائل، فقد بات تسريحُ الموظَّفين مبرَّرًا، ولم يمضِ شهران على بدء إجراءات الإغلاق حول العالم حتى انطلقت موجات التسريح في كل مكان، ممّا غذّى مُجدّدًا نظرية المؤامرة، والاعتقاد بأن هناك من يريد للعالم كله أن يُفلِس.

جدل المؤامرة

من منبري الصغير الذي تتيحُه مواقع التواصل، أخذت أدعو إلى الالتزام بإجراءات «**التباعد الاجتماعي**»، والذي بدا مصطلحًا يوحّد العالم كله، فالإحصاءات والدراسات التي بدأت تنتشر، أقنعتني بأن ما ترجّح في البداية من «مؤامرة» لشركات الدواء لم يعد رأيًا مقنعًا، وفي هذه المرة على الأقل.

لكن نظرية المؤامرة انتشرت بالفعل كالنار في الهشيم، فحجم الصدمة التي أحدثها مشهد الإغلاق الرهيب حول العالم كان فوق احتمال الكثير من الناس، و«**عقلية المؤامرة**» تميل دائمًا إلى الجنوح نحو هذا التفسير أمام الكوارث الكبرى، فطالما كانت هناك مصيبة فلا بد –حسب هذه العقلية– من مستفيد، ثم لا بد أن يكون المستفيد قد خطّط مسبقا لما حدث.

كانت الأوبئة حاضرة في القرون الماضية، وحتى عصر قريب. وتكيُّفُ الفيروسات وتحوّرها أمر معروف لدى الخبراء، لكن ضخامة الحدث وتداعياته تكاد تكون وحدها دليلًا قاطعًا لدى «**عقلية المؤامرة**» على وجود المؤامرة، ويبقى البحث عن الأدلة مجرد أمر ثانوي يأتي لاحقًا.

عدتُ إلى منابر مواقع التواصل، وناقشت في تسجيل مصور أهمّ تلك النظريات المتضاربة، والتي يكشف تعدُّدها وحده أنّ من يضعها ويروّجها يميلُ أوّلًا للاعتقاد بوجود المؤامرة ثم يبحث لها عن مسوّغ، وأكدت أنّه بالرغم من وجود احتمال المؤامرة فعلًا، فإن كل النظريات المطروحة لا ترقى إلى مستوى الأدلة.

حقّق التسجيل أكثر من ثمانمئة ألف مشاهدة، وحاول بعض منظّري المؤامرة إقناعي بطرحهم، ممّا زاد تمسُّكي بضرورة مقاومة هذه العقليّة، لا سيما أن عدة باحثين أكدوا من خلال مقارنة الإحصاءات أن المنشورات والتسجيلات التي تروّج لتلك النظريات على مواقع التواصل الاجتماعي تحقّق رواجًا أعلى بكثير من مثيلاتها التي تنقل معلومات طبية رصينة، ممّا دفع بإدارات تلك المواقع لاتخاذ إجراءات مضادة.

لا شك عندي في أن الأمم المتحدة منظمة أقيمت أصلًا على أساس شيطاني تآمري، وليس هذا موضع بسط الأدلة، ولكن أزعم أني لست مغفّلا حدّ الاعتقاد بأنّ كل ما ينتج عنها يجب أن يكون جزءًا من أجندة عَبَدة الشيطان، وأن كل ما تفعله منظمة الصحة العالمية التابعة لها يصب حتما في صالح مخطّطات تقليص أعداد البشر إلى «**المليار الذهبي**»[1].

لا أشكّ أيضًا في أن شبكات النفوذ في الشركات الكبرى والبنوك والإعلام وأروقة السياسة مترابطة غالبًا بخيوط تجتمع في نهايتها بأيدي النخبة المتآمرة، لكن هذا لا يسقطني بالضرورة في فخ الاستسلام للتأويلات الجاهزة كل مرة، فهناك فارق واسع بين المناقشة الموضوعية للأدلة وبين التسليم مسبقًا لما أسمّيه «عقلية المؤامرة».

---

(1) نظرية تقول إن النخب الحاكمة تسعى للتخلص من ستة مليارات والتحكم بمليار واحد فقط من البشر.

لكن اللافت جدًّا في هذه المرة -وكأن الوباء يصّر على أن يكون استثنائيًّا في كل شيء- أن رئيس الولايات المتحدة نفسها بات يشكو من المؤامرة؛ إذ أعلن ترمب أن إدارته تحقّق في احتمال أن يكون الفيروس قد صُنع في معهد علم الفيروسات بمدينة ووهان الصينية[1]، ثم خرج بالخطأ أو بأي طريقة أخرى إلى أسواق الحيوانات البرية ثم إلى البشر.

وبما أن كتابي هذا ليس وثيقة تاريخية فلن أشغلك عزيزي القارئ بتفاصيل الجدل ومعركة الأخذ والرد بين حكومتي البلدين، فالمهم أن ألفت نظرك إلى أن ترمب الذي قدم نفسه قبل أربع سنوات للحكم كان يسعى للظهور في مظهر المحارب للطغمة الحاكمة، أو المتآمرة بعبارة أوضح، ولا سيما العائلات المصرفية التي تحكم أمريكا وتستعبد العالم بالدولار.

ومع أني كنت متشكّكًا جدًّا في هذه النظرية بالبداية، إلا أني بدأت أربطها بخيوط أخرى لاحقًا حتى تكاثرت الأدلة على احتمال صحتها، وتبيّن لي فعلًا أن ترمب ليس سوى واجهة لنخبة أخرى تنافس نخبة المصارف التقليديّة (روتشيلد وأخواتها)، وأقصد بالضبط نخبة من الطائفة اليهودية الحسيدية (منظمة حباد أو اللوبافيتش) التي تدعم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، وهي تشارك النخبة الأولى في دعم إسرائيل والسعي لتعجيل خروج المسيح الموعود (المسيّا أو الماشيّح)، والذي لا أراه سوى المسيح الدجال، وهذه قصة لا يتسع لها هذا الكتاب، وتكفي هذه الإشارة إليها في سياق «**مستقبل الخوف**».

اعتادت الصحافة الليبرالية -المؤيّدة في العادة لتيّار العولمة والنخب المصرفيّة- على السخرية من عقلية ترمب، حتى أصبح من الشائع ألا تؤخذ تصريحات رئيس أقوى دولة في العالم على محمل الجد، لا سيما أن المهووسين بنظريات المؤامرة هم أشدّ أنصاره حماسًا، بل لم تتحّمس هذه الجماعات لرئيس أمريكي مثل ترمب.

(1) جاء ذلك في مؤتمر صحفي بالبيت الأبيض بتاريخ 15/ 4/ 2020، ينظَر: الخبر على موقع قناة الجزيرة عبر الرابط الآتي: https://bit.ly/3aH9KJI

ومع ذلك فقد كان لتصريحات أحد مسؤولي إدارته وقع خاص في رأيي، وأقصد هنا **ماثيو بوتينجر** نائب مستشار الأمن القومي، فهو رجل استخباراتي بامتياز وليس معنيًّا بنظريات المؤامرة. ففي مطلع عام 2021، قالت صحيفة التايمز البريطانية الرصينة إن بوتينجر أكد خلال اجتماع بالفيديو مع مجموعة سياسيين حول العالم أن هناك مجموعة متزايدة من الأدلة على أن معهد ووهان للفيروسات في الصين هو «على الأرجح المصدر الأكثر مصداقية للفيروس».

وأضاف **بوتينجر** أن المعلومات الاستخباراتية أظهرت أن الفيروس انتقل عبر «تسرّب أو حادث» من مختبرات معهد ووهان الخاضع لحراسة مشددة، والواقع على بعد 11 ميلاً من سوق الحيوانات في ووهان، ولم يتطور تلقائيًّا داخل جسد خفاش أو حيوان آخر قبل انتقاله إلى أحد الأشخاص في سوق ووهان كما هو شائع[1].

قد يبدو هذا التصريح مثيرًا لحماس المتطلعين إلى العثور على أي دليل يثبت وجود مؤامرة، لكن كشف الحقيقة ما زال معقّدًا، بل أصبحتُ أشعر مع مرور الوقت أنها تزداد غموضًا بدلًا من العكس، فبعد سنة كاملة من اكتشاف الفيروس وبدء انتشاره، سُمح لفريق التحقيق التابع لمنظمة الصحة العالمية بالوصول إلى مدينة ووهان وزيارة سوقها المشؤوم، وسرعان ما عقد رئيس فريق التحقيق بيتر بن مبارك مؤتمرًا صحفيًّا في الصين أعلن فيه استبعاد فرضية تصنيع الفيروس مخبريًّا، وهو ما أكدته منذ البداية بعض الدراسات العلمية على اعتبار أنه من المستحيل تصنيع الفيروس بهذه الطريقة في أي مختبر.

كنت أظن أن الملف سيُقفل بهذا التصريح، لكن بعد انتهاء المهمة وخروج الفريق من الصين بدأت وسائل الإعلام الغربية تحدثنا عن الضغط الذي كان المحققون يعانون منه في كل تحركاتهم، حتى أعلن بعضهم أن السلطات الصينية رفضت تقديم معلومات عن حالات الإصابة الأولى التي كانت ستساعدهم في تحديد كيف ومتى بدأ انتشار الفيروس،

(1) Biological weapons lab leaked coronavirus, claims US official, The Times. 4 January 2021.

وفوجئتُ بأن رئيس الفريق نفسه يعرب عن خيبة أمله، وهكذا عدنا إلى نقطة الصفر، وخرج علينا مدير منظمة الصحة العالمية **تيدروس أدهانوم غيبريسوس** في مؤتمر صحفيّ بجنيف، وبجانبه رئيس الفريق، ليقول تيدروس «إن جميع الفرضيات ما زالت مطروحة وتحتاج إلى مزيد من التحليل والدراسة»[1].

وطالما كانت تهمة التكتّم موجهة لحكومة مثل الصين، فأي أمل يُرجى في كشف الحقيقة؟ ففي ظروف كهذه لا نتوقع أن تصارحنا الحكومات الديمقراطية نفسها إذا كانت مُتَّهمة، ولا أستبعد أن تظل حقيقة الفيروس حبيسة التكهنات والأكاذيب المتعمدة عدة سنوات، قبل أن يترجح أحد الآراء وتتكاثر التسريبات والشهادات التي تؤيده بمرور الوقت.



سوق شعبي للطعام في مدينة ووهان

أما عن احتمال أن تكون هناك جهة مستفيدة من كل ما حدث، فقد قرأت وسمعت الكثير من محاولات الإجابة، لكن الجزم بصحة أيٍّ منها يبدو بعيد المنال، ومن أشهر الأطروحات التي تنسب الوباء إلى أزمة اقتصادية مصطنعة أو موجّهة هي نظرية «**إعادة الضبط**» Great Reset، وهي تستند إلى مشروع حقيقي طُرح على مائدة المفاوضات في

(1) تحقيقات كورونا.. الصين ترفض تسليم بيانات لمنظمة الصحة وأميركا تدخل على الخط، الجزيرة نت، 13 فبراير 2021.

المنتدى الاقتصادي العالمي «**منتدى دافوس**» في دورته الحادية والخمسين في 25 يناير 2021، وهو مؤتمر اقتصادي يعقد سنويًّا في منتجع دافوس الشتوي بسويسرا، ويجمع نخب الاقتصاد والسياسة والإعلام والمجتمع المدني. ففي هذه الدورة الاستثنائية التي جاءت بعد عام تقريبا من اجتياح الفيروس لاقتصادات العالم، كان الشعار المعلن هو «عام حاسم لإعادة بناء الثقة»، لكن الأنظار كانت موجهة نحو عبارة «إعادة الضبط الكبرى» التي أطلقها مؤسس المنتدى **كلاوس شواب** وولي عهد المملكة المتحدة الأمير **تشارلز فيليب** قبل انعقاد المؤتمر، ووافقهما عليها الأمين العام للأمم المتحدة **أنطونيو غوتيريش**.

يتلخّص المشروع في الإقرار بأن معالجة آثار الأزمة تتطلّب تجاوز الإصلاحات الاقتصادية المعتادة، وأن العمل العالمي ينبغي أن يُدعم برسالة لتغيير المجتمعات نفسها، وأن تسارع الحكومات إلى الانتقال نحو عصر الثورة الصناعية الرابعة، أي المزيد من الأتمتة والاعتماد على التقنيات الجديدة والذكاء الاصطناعيّ، وكذلك دمج جميع الأعمال في المجتمعات العالمية، أي المزيد من الانخراط في العولمة[1].

صندوق النقد الدولي، المعروف عالميًّا بأنه الراعي الرسمي لعمليات إعادة هيكلة الاقتصاد في الدول النامية كي تتواءَم مع منظومة العولمة، كان سباقًا في تبني «إعادة الضبط»، فنشرت مديرة البنك **كريستالينا غورغييفا** مقالًا في منتصف 2020 يتنبّأ بأن الوباء سيمحو كل المكاسب التي تحققت في الحد من الفقر على مستوى العالم خلال الثلاث سنوات الماضية، ويؤكد على ضرورة الانتقال من التكنولوجيا التناظرية إلى التكنولوجيا الرقمية لاستعادة التوازن، مع التأكيد طبعا على الجوانب الإيجابية مثل المساواة والتعليم والتنمية المستدامة[2].

في 2007، نشرت الصحفية الاقتصادية الكندية **نعومي كلاين** كتابا بعنوان «عقيدة

(1) Jonathan Michie, Davos 2021: to achieve a ‘great reset’, we can’t count on the same old globalists to lead the way, theconversation.com, 23 Jan 2021.

(2) كريستالينا غورغييفا، إعادة ضبط الاقتصاد العالمي: تشجيع تعافٍ أشمل للجميع، موقع صندوق النقد الدولي imf.org، 11 يونيو 2020.

الصدمة»، وفضحت فيه سياسات التيار النيوليبرالي، باعتماده على الكوارث التي تتسبب بصدمة هائلة لدى الشعوب، ما يدفعها لاشعوريا إلى تقبّل فرض النموذج الرأسمالي واقتصاد السوق الحر، بما في ذلك خصخصة المؤسسات الحكومية وإعادة تشكيل القطاعات الاقتصادية بما يناسب مصالح النخب الفاسدة، وهو ما حدث فعلا في دول عدة مثل تشيلي وبولندا وروسيا والعراق.

ومع بداية أزمة كورونا وإغلاق المصالح الاقتصادية على مستوى الكوكب، وربما لأول مرة في التاريخ، قالت كلاين في عدة لقاءات وحوارات إنها تستبعد أن تكون الأزمة مؤامرة بذاتها، إلا أنها تقدم فرصة لإحداث صدمة هائلة يمكن استغلالها من قبل أساطين العولمة، وأصبح هذا الرأي شائعا في الأوساط اليسارية ومناهضي العولمة.

قد يبدو تحليل كلاين مقنعًا من جهة، لكن الضربات الموجعة التي تلقتها العولمة نفسها خلال هذه الجائحة -كما سأبيّن لاحقًا- تجعل الأمر كله محل نظر وترقب. لكن محللا آخر بدا لي أكثر إقناعا وموضوعية، وهو الاقتصادي الروسي **فالنتين كاتاسونوف**، الذي قدم في حوار على قناة «روسيا اليوم»[1] رؤية مُحتمَلة -ولا أقول مؤكدة- لاستفادة النخبة المصرفية الأمريكية من هذه الكارثة، إذ يقول باختصار: إن النخب المصرفية (عائلة روتشيلد وأخواتها) التي تسيطر على الاقتصاد الأمريكي وطباعة الدولار هي المستفيد الأول من الإغلاق الذي كاد أن يلتهم اقتصادات العالم، فالأزمات الاقتصادية الدورية التي «يجب» أن تصيب النظام الرأسمالي كل عقد تقريبًا قد حان أوانها، نظرًا لأن آخر الأزمات وقعت في 2008، ولم يكن أمام هذه المنظومة المتوحشة سوى الاختيار بين حرب عالمية تقتل ملايين البشر، أو وباء يقتل عددًا أقل، غير أنه كاف لإعلان إفلاس عدد لا يحصى من الشركات والدول، وهو الأمر الذي لا بدّ منه لتصحيح الخلل وإعادة التوازن في منظومة تعوم على بحر من السيولة المالية الوهمية.

(1) جاء ذلك في حلقة من برنامج «رحلة في الذاكرة»، تحت عنوان «فايروس كورونا كبديل للحرب العالمية»، بتاريخ 8/ 4/ 2020.

ولا أحب أن أفوّت هذه الفرصة لألفت نظرك عزيزي القارئ إلى معضلة أخرى لا تكاد تلتفت إليها النخب المثقّفة، وهي الوجه المقابل تمامًا لعقلية المؤامرة، وأسميها «**عقلية اللامؤامرة**»، فإذا كانت الأولى -كما هو شائع بين المثقّفين- ضحية لما يسمى «الانحياز التأكيدي»، أي الميل اللاشعوري لتفسير الظواهر بطريقة تتوافَق مع المعتقدات المسبقة وإهمال المعطيات المناقضة لها، فإن الثانية ليست أفضل حالًا على الإطلاق، فهذا الانحياز مغروز في العقليّتين على السواء، وكلما سارع أحد المأخوذين بعقليّة المؤامرة لجمع المعلومات التي تؤيد اعتقاده بأن الفيروس مُصنّع أو أن إجراءات الاحتراز مبالغ فيها أو أن اللقاح يحتوي على تركيبة سرية للسيطرة على عقولنا، فإن خصومه من أسرى **عقلية اللامؤامرة** يفعلون الشيء نفسه لإثبات براءة المتنفّذين من احتمال إضمارهم أي شر تجاه العالم!

الوجه الآخر للحضارة

دعك الآن من جدل السياسة وصراعات النخب، وتعال أحدّثك مجددًا عما كشَفَتْه هذه الأزمة من فجوات كانت تستتر في أيام الرخاء.

في الأسابيع الأولى لانتشار الوباء بأنحاء أوروبا الغنيّة، تحدّث أحد الأصدقاء المهاجرين في هولندا عن صدمته من تعبير الكثير من الشباب والأطفال هناك عن سعادتهم بالتخلّص من كبار السن، وتذكّرتُ على الفور فيلما وثائقيا عن أزمة السكن في ذاك البلد الصغير الغني، والذي سبق أن احتل أمة بملايين السكان (إندونيسيا)، وهو يضيق اليوم بسكانه القلائل، حتى أصبح عثور الشاب أو الفتاة عن مكان يؤويهما بمثابة حلم، مما يدفع بعض الطلاب الجامعيين إلى التطوع بالعمل في دور رعاية المسنين مقابل الحصول على غرفة مجانيّة للمبيت[1].

سأل صديقي أحد الشباب الهولنديين: أنسيت أن أولئك المسنين هم الذين شيّدوا ما

(1) الفيلم من إنتاج قناة دويتشه فيله DW الألمانية عام 2019 بعنوان «أزمة السكن في أمستردام».

تراه حولك من حضارة؟ فأجاب: نعم، أشكرهم، ولكن بعد أن حصلوا على فرصتهم في هذه الحياة، آن أوان رحيلهم كي يفسحوا لنا المجال.

ولا داعي هنا لمناقشة الخلفيّة البراغماتية، والعقلية الداروينية الاستئصاليّة، في ثقافة هذا الشاب، لا سيّما أن الأخبار نقلت عن **الشرطة الأوروبية** (يوروبول) أن معدّلات الجريمة ارتفعت بشكل كبير مع تفشي الوباء، وأن المجرمين والعصابات المنظّمة استطاعوا تكييف أساليبهم بسرعة[1].

كما نشرت الوكالة الفرنسية (فرانس برس) تقريرًا تنبّأ فيه الصحفي الإيطالي **روبرتو سافيانو**، وهو متخصص في شؤون المافيا، أن تجد العصابات الأوروبية في هذه الجائحة فرصة نادرة لتوسيع نفوذها، عبر شراء ولاء الناس المحتاجين إلى الخدمات الأساسية التي قد لا توفرها الحكومات والقطاع الخاص، متحدّثًا عن سيطرة تلك العصابات أصلًا على جزء واسع من قطاعات البناء والفنادق والطاقة والزراعة وتدوير النفايات[2].

وبعد نحو عام، تأكدت هذه المخاوف، إذ أعلنت «**مديرية مكافحة المافيا**» في إيطاليا أن الوباء شكّل نعمة للمافيا عندما اضطرت السلطات إلى تخفيف الإجراءات المتعلّقة بالمناقصات والخدمات العامة، فتسلّلت العصابات إلى قطاعات اقتصادية مشروعة، وعلى رأسها قطاع الصحة[3].

وفي الوقت نفسه أيضا نشرت مجلة **فورين بوليسي** الأمريكية تقريرًا عن تزايد سلطة العصابات عالميًّا بسبب الجائحة، ففي المكسيك وجنوب أفريقيا والبرازيل والهند وجدت العصابات فراغا تركته الحكومات لتملأه بعرض خدماتها الاجتماعية مقابل بسط نفوذها[4].

---

(1) نقلا عن موقع دويتشه فيله DW ومواقع إخبارية عدة بتاريخ 27 مارس 2020.

(2) تقرير نشرته وكالة فرانس برس بتاريخ 14 مارس 2020.

(3) نقلا عن وكالة فرانس برس بتاريخ 24 فبراير 2021.

(4) The Pandemic Is Putting Gangsters in Power, Foreign Policy, 15 Feb 2021.

وبالعودة إلى بداية الوباء، تكرّرت أخبار العثور على جثثِ مسنّين فارقوا الحياة على أسرّتهم في دور الرعاية، وأيضًا في منازلهم، بعدما تخلّى عنهم موظفو الرعاية وحتى أقاربهم، خشية العدوى، وتوعّدت الحكومة الإسبانية بفتح تحقيق في إحدى هذه الحالات، متوعدة بعقوبات صارمة[1]، بينما اضطرت الحكومة الكندية لتدريب جنود الجيش على رعاية المسنين في دورات سريعة كي يحلّوا محل الموظّفين الهاربين.

توالت بعدها الصور المفزعة لأرفف المتاجر الخالية في الغرب، فالخوف من المجاعة كامن في نفوس المجتمعات الاستهلاكية الغنية أكثر بكثير من المجتمعات الفقيرة والنامية، وربما لا نحتاج لتحليل عميق كي نفهم هذه المفارقة، فالذي اعتاد على نمط حياة مرفّه قد يتعلق بتفاصيل عاداته اليومية إلى درجة تصوّره أن العالم سينهار لو لم يجد ما يسد حاجته اليومية من القهوة والسجائر، وربما يصاب باكتئاب حاد إذا انقطع اتصاله بالإنترنت، أما مثيله في إحدى قرى أفريقيا فيعدّ هذه الأمور من الكماليات، ومن ثم فهو ليس أسيرًا لها.

هذه المفارقات برزت بجلاء في منشورات الكثير من مواطني الدول الغنية على مواقع التواصل، وأظهرت معها ذعر الإنسان الحداثي من فقد سيطرته المفترضة على الطبيعة التي كان يظن أنها باتت مطلقة أو تكاد.

أما العقلاء فكانوا أكثر فاعلية في البحث عن البدائل ومناقشة الاستعداد لما هو أسوأ، حتى طرأ جدل غير مسبوق حول الاستغناء عن ورق الحمام والتطهّر بالماء، بعدما فُقد الورق من المتاجر أيضا، وارتفعت أصوات الاقتداء بالمسلمين على نحو مفاجئ!

اندلعت «**حرب الكمامات**» أيضًا بين الحكومات الأوروبية الغنية، فلا تكاد تسمع عن شحنة كمامات مستوردة من آسيا لتعبر بالشاحنات من إحدى الدول الأوروبية باتجاه جيرانها إلا تستولي عليها دون خجل، وكأننا نسمع عن قصص العصابات الهمجية لقطاع الطرق في «القرون الوسطى»، فماذا سيحدث إذن إن وقعت المجاعة؟!

(1) خبر نشره موقع «بي بي سي عربي» بتاريخ 24 مارس 2020.

لم يمر وقت طويل حتى بدأت الأصوات تتردّد في جنبات أوروبا عن مدى ترابط دولها، وصولًا إلى التشكيك في جدوى الاتحاد الأوروبي نفسه، أي ذاك التكتّل العملاق الذي استكتبني أحد أساتذتي بحثًا أكاديميًّا عن مستقبله، عندما كنتُ طالبا في الدراسات العليا قبل أكثر من خمس عشرة سنة، فجنحتُ إلى ما تنبّأ به كبار الاقتصاديين آنذاك، ورجحتُ أن يكون مستقبل العالم أوروبيًّا، وأن تنكفئ اليابان على نفسها، وتنشغل الولايات المتحدة بأزمات متلاحقة، بينما لم يكن واردًا آنذاك أن الصين ستدخل السباق أصلًا[1]!

ولكي تتّضح ملامح الأزمة، سأذكر لك مثالًا واحداً، إذ حذر رئيس الوزراء الإيطالي **جوسيبي كونتي** من أن يفقد الاتحاد الأوروبي «**سبب وجوده**» في حال ارتكابه «**خيارات مأساويّة**» إزاء الوباء، وتنبّأ أن يُغرق الكساد أوروبا[2].

وهناك تصريحات أخرى صادمة لمسؤولين في إيطاليا وهنغاريا استنكروا عدم مسارعة الدول الغنية في الاتحاد الأوروبي لمساعدتهم، في مقابل استغلال الصين لهذه الأزمة وإرسال شحنات من الكمامات وأجهزة التنفّس الصناعي وأدوات اختبار الفيروس.

ولا شك في أن هذه التصريحات خرجت تحديدًا من مسؤولي تيار اليمين المتطرّف الذي يعيش مرحلته الذهبية منذ قص أجنحته عقب هزيمة النازية والفاشية في الحرب العالمية الثانية، فلم يعد نفوذه يقتصر على حيازة بعض المقاعد البرلمانية وتنظيم المظاهرات والأنشطة الإعلامية، بل وصل إلى الحكم في دول كبرى مثل بريطانيا وإيطاليا والنمسا وهنغاريا، ونافس على انتخابات الرئاسة في فرنسا، وما زال يتمدّد في دول كانت تعتبر نموذجًا لليبراليّة مثل ألمانيا والسويد، أما وصوله إلى البيت الأبيض على يد ترمب فلم يكن أحد يتخيل حدوثه.

---

(1) كان بحثًا في الاقتصاد من مئة صفحة تقريبًا، وكنت أتمنّى أن أجد فرصة لنشره، أما اليوم فأحمد الله على أنه بقي حبيس الأدراج!

(2) خبر نقلته وكالات الأنباء بتاريخ 28 مارس/ آذار 2020.

وفي مقابلة مع صحيفة لوموند الفرنسية، قال عالم المناعة الفرنسي فيليب كوريلسكي، وهو المدير السابق لمعهد باستور، إنه فوجئ بحجم جائحة كورونا مع أن ذلك لم يكن ينبغي أن يحدث، موضّحًا أن ثلاث دول فقط في العالم كانت لديها خطط طوارئ جاهزة وتم اختبارها، وكلها في آسيا، وهي كوريا الجنوبية وتايوان والصين، لذا كانت استجابتها متقدّمة أكثر بكثير من الأنظمة الغربية[1]. ولعلّ هذا يفسّر لماذا أصبحت الولايات المتحدة أكثر الدول تضررًا من الوباء، ولماذا تركّزت البؤرة أولًا في أوروبا.

العولمة على المحك

ربما كان صعود اليمين المتطرف -المتواصل باطراد منذ سنوات- من أهم الدوافع التي جعلت ملايين الناس يقتنعون بوجود مؤامرة، فعقلية المؤامرة تميل تلقائيًّا إلى هذا التفسير عندما يجتمع عاملان أو ثلاثة، وتستبعد الصدفة على الفور.

اليمين المتطرف يحمل دائمًا لواء الانتصار للهويات الخاصة، وهي تحديدًا القوميّة nationalism والوطنيّة patriotism والأصلانيّة Nativism والطائفيّة Sectarianism، فهو منغلِقٌ على ذاته ومعتزٌّ بهويته، وقد يعادي الهُويّات الأخرى ويصطدم معها أو مع بعضها، أو يكتفي برفض الاندماج معها خشية الذوبان فيها، لذا فهو يرفض طرح العولمة ويعتبرها من أشد أعدائه، حتى لو كان هو الطرف الأقوى الذي يفرض على الآخرين التشبّه بثقافته والخضوع لها، إذ يظلّ الخوف مسيطرًا عليه من احتمال أن يعود الانفتاح عليه ببعض التأثّر، وهذا ما نراه في الجماعات الداعمة لترمب مع أنّها تنتمي للدولة الأقوى في العالم، أما الجماعات القوميّة الأوروبية فتبدو أكثر حذرًا، لأن العولمة تحمل الطابع الأمريكي حتى لو كانت في المجمل ذات هوية غربية.

(1) المقابلة نشرت مترجمة في موقع الجزيرة نت بعنوان «المدير السابق لمعهد باستور: كورونا أظهر نقاط ضعف بعض الديمقراطيات»، بتاريخ 29 يونيو 2020.

وبالعودة إلى ذكريات مقاعد الدراسة في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، فعندما كنت أدرس العلاقات الاقتصادية الدولية في الدراسات العليا كانت العولمة (بصبغتها الأمريكية) هي التهديد الأبرز الذي نسعى لمقاومته، وأذكر أن أول مقال نُشر لي في مجلة مطبوعة كان مقالًا طويلا بعنوان «**تحدّيات الثقافة في ظل العولمة**»، ثم نشرتُ مقالًا سياسيًّا يحمل عنوانا نضاليًّا: «من يقف في وجه العولمة؟».

كانت الكتب والمراجع التي تدرس هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى، لا سيما أننا كنا نعاني من تداعيات انفراد أمريكا بحكم العالم، الذي ورثه جورج بوش الابن عن بوش الأب إبان انفراط المعسكر الشيوعي قبل عشر سنوات.

لم تكن السيناريوهات المطروحة آنذاك تتخيّل ما انتهينا إليه، إذ كنا -نحن العرب المسلمون- غاضبين من أطروحات **ساموبل هنتنغتون** كتاب **صدام الحضارات** الصادر عام 1996، و**فرانسيس فوكوياما** كتاب **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** الصادر عام 1992، وكنا نخرج في المظاهرات للتنفيس عن غضبنا من قمع الصهاينة لانتفاضة عام 2000، ومن جرائم بوش في أفغانستان عام 2001، ثم من احتلاله السافر للعراق عام 2003. واليوم، يريد ترمب أن تنشغل أمريكا بنفسها، كما كان الآباء المؤسّسون يتحدّثون قبل أن تتحوّل أمريكا الناشئة إلى إمبراطورية.

وللمرة الأولى منذ صعود أمريكا لريادة العالم الرأسمالي بعد الحرب العالمية الثانية، ثم تسيّدها للمشهد كلّه بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، أصبح البيت الأبيض يتحدّث عن سحب قواته، وإعادة ترتيب أوراقه، ومحاولة تأخير الساعة التي ستصبح فيها الصين الاقتصاد الأقوى في هذا الكوكب.

الطريف أن العولمة أصبحت مثل وحش فرانكنشتاين، الذي ينقلب على صانعه ليأكله، فالدول الغربية اكتشفت لاحقًا أنّ العولمة التي كانت أداتها للسيطرة على العالم أصبحت تخدم القوى الصاعدة، مثل الصين وروسيا والهند والبرازيل، لذا أصبحت الصين الشيوعية نفسها تدافع عن العولمة، ولكن على طريقتها المعدّلة.

تخيّل الآن أن يظهر فيروس قاتل، ومن داخل الصين تحديدًا، ثم يشلّ اقتصاد العالم كله، لتعلن الصين نفسها بعد شهور قليلة أنها تمكّنت من احتوائه، بينما أصبحت أمريكا على رأس الدول المتضررة بحسب أعداد الوفيات والإصابات، وهذا وفقًا لما هو مُعلَن على الأقل ومع افتراض أن الصين لا تكذب.

في 16 مارس 2020، نشرت مجلة «**فورين أفيرز**» العريقة مقالًا بعنوان «**هل سينهي فيروس كورونا العولمة التي نعرفها؟**»[1]، وحذّرتُ فيه من تشكّل عالم جديد بالفعل. فعندما وجدت إدارة ترمب أن أمريكا تعاني من نقص حاد في الكمامات والأدوية، استغلت هذا الوضع لتهديد الدول الحليفة وتبرير المزيد من الانسحاب من سوق التجارة العالمية. بينما استخدمت الصين هذه الأزمة لإظهار قدرتها على قيادة العالم، فهي أسرع الدول تعافيًا، وأكثرها أهليّة لتقديم مستلزمات العلاج والوقاية إلى كل من يستنجد بها، ولا سيما في أوروبا الغنية.

المقال تحدّث أيضا عن «**هشاشة النظام المعولم**» التي كشفها فيروس كورونا، فالاقتصاد المفتوح تم بناؤه على عقيدة سلاسل الإمداد، بحيث يتطلّب إنتاج أي سلعة الاعتماد على نسيج متشابك من شبكات إنتاج القطع المختلفة في عشرات البلدان حتى يتم تجميعها في المصنع النهائي، ويبدو أن الذين أنشأوا هذا النظام المعقد لم يحسبوا حساب الأزمات التي يمكن أن تقطع خيوط هذه الشبكة دون سابق إنذار، إذ كان العُرف الرأسمالي لدى كبرى الشركات يستبعد تمامًا خيار التخزين الاحتياطي، على اعتبار أنه إجراء مكلف ولا ضرورة له.

مجلة «**فورين أفيرز**» نشرت أيضا مقالًا آخر بعد ثلاثة أيام يقول إن وضع أمريكا كقائدة للعالم خلال العقود السبعة الماضية لم يكن على أساس الثروة والقوّة فقط، بل أيضا على أساس جودة الحكم الديمقراطي، وتسهيل تزويد العالم باحتياجاته، وحشد الاستجابة

(1) Will the Coronavirus End Globalization as We Know It?, Henry Farrell and Abraham Newman, foreign affairs, March 16, 2020.

الدولية للأزمات، لكن وباء كورونا أثبت فشل أمريكا في هذه الاختبارات الثلاثة، بينما قفزت الصين بسرعة لتملأ هذا الفراغ.

وبعد مطالعتي للعديد من الصحف والمجلات الغربية، تولّد لدي انطباع بأن المحللين يكادون يجمعون على أن أمريكا هي الخاسر الأكبر في مقابل الصين من هذه الأزمة، ومن تلك التحليلات مثلًا مقال للكاتب البريطاني **باتريك كوبيرن** بصحيفة إندبندنت في 28 مارس 2020، حيث حمّل ترمب شخصيًّا مسؤولية الانهيار والفشل.

ومع أن حكومة ترمب كانت قد نجحت فعلًا بتحقيق نمو اقتصادي يتوافق مع وعوده في حملته الانتخابية، لكن الجائحة التي جاءت -كما يبدو- على غير ميعاد أفشلت الكثير من خططه، وأثبتت عجز واشنطن غير المتوقع عن مواكبة الكارثة.

وهذا الفشل أعاد إلى الواجهة النقاش بشأن قدرة النيوليبرالية على مواجهة الأزمات قياسًا لليبرالية الأقل توحشا في دول أوروبية أقرب إلى الاشتراكية، ومن ثم فإن الدولة التي تقود العالم الحر بهذا النظام غير المستقر لن تكون قادرة على حماية نفسها فضلًا عن قيادة الآخرين.

خذ مثلًا مؤشر البطالة كمقياس، ففي أمريكا ارتفع معدل البطالة خلال فترة الوباء من 4.4٪ في مارس 2020 إلى 14.7٪ في أبريل، ثم انخفض قليلا إلى 10.2٪ في يوليو، وبالمقارنة مع الدنمارك والسويد، البلدين الإسكندنافيَّين اللذين شهدا تقريبًا مسار الولايات المتحدة نفسه في تطوّر الوباء والتعاطي معه؛ نجد أن الدنمارك سجلت ارتفاعا لهذه النسبة من 4.1٪ في مارس إلى 5.2٪ في يوليو، في حين ارتفعت في السويد من 7.1٪ إلى 8.9٪ في الفترة ذاتها، أي بنسبة بلغت 27٪ مقابل نسبة ارتفاع بلغت 202٪ في الولايات المتحدة[1].

(1) Eric Zuesse, How U.S.'s Response to Covid-19 Could Precipitate 2nd Great Depression, moderndiplomacy.eu, 18 September 2020.

لـذا تنبّأ المـؤرخ الأمريكـي **إيريـك زويس** بـأن تشـهد بـلاده انهيـارًا غيـر مسـبوق، وأن المستفيد الوحيد من هذه الأزمة الكارثية هـو البنـوك التـي سـتطلق خطـة إنقـاذ ضـخمة كمـا حـدث عـام 2009، يليهـا ارتفـاع قياسـي في معـدلات التضـخم كمـا حصـل في «**جمهوريـة فايمار**» الألمانية بيـن عـامي 1918 و1933، والتـي مهّـدت لصعـود أدولـف هتلـر مستغلًّا الأزمة لتجييش الشعب وراء خطابه العنصري كالقطيع[1].

وفي سياق هذا السجال، رجّحت مجلة «**فورين بوليسي**» الأمريكيـة المعروفـة أيضًـا أن يتغيّر وجه العالم بعد الوباء، ونقلت عن خبراء اقتصاديين في تقرير بتاريخ 17 أبريل 2020 أن العديد من الوظائف المفقودة لـن تعـود بتاتًـا، وأن الحكومـات الغربيـة سـتعود للتمسّـك بـإغلاق أسـواقها واقتصـاداتها وحـدودها بـدلًا مـن العولمـة، وأن الاقتصـاد العـالمي سـيواجه فـترات ركـود عميقـة وطويلـة، بينمـا تـزداد الأصـوات الغاضـبة مـن اعتمـاد العـالم المفرط على الدولار الأمريكي في التمويـل والمعـاملات، وقـد شـهدنا لاحقًـا كيـف قفـزت قيمة عملة بيتكوين الرقميـة الافتراضيـة لتحقـق أرباحًـا أسـطورية، ممـا عـزّز المخـاوف مـن اهتزاز الثقة بالدولار.

وبعد خمسـة شـهور بالضـبط مـن تقريـر «**فـورين بوليسـي**»، قالـت كبيـرة خـبراء البنـك الدولي **كارمن راينهارت** إن تعـافي الاقتصـاد العـالمي مـن هـذه الأزمـة قـد يسـتغرق خمسـة أعوام، كما أكـدت أنـه لأول مـرة في غضـون عشـرين عامًـا سـتعود معـدلات الفقـر العالميـة للارتفاع.

ومع كل هذه المخاوف، ظل تركيز الخبراء منصبًّا على عجـز الولايـات المتحـدة أمـام هذه الأزمة أكثر من أي دولة أخرى فيما يسـمّى بالعـالم المتقـدم، ففـي تقريـر مطـول نشـرته مجلة «فورين بوليسي» بمنتصف سبتمبر 2020 أجرى الكاتبان **جوزيـف دي ويـك وإليتـرا أرديسينو** مقارنة بين الاقتصاد الأمريكي واقتصادات أوروبيـة عـدة، وأثبتـا أن معظـم الـدول

(1) المرجع السابق.

الأوروبية تمكّنت من مواكبة الأزمة في الموجة الثانية للوباء، بينما كانت الولايات المتحدة تتخبّط[1].

وحتى يزداد الأمر وضوحًا، توقّعت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية في منتصف سبتمبر 2020 أن الصين هي الدولة الوحيدة في مجموعة العشرين للاقتصادات الكبرى التي ستشهد نموًّا في نفس العام بزيادة قدرها 1.8٪، بينما يتّجه الاقتصاد العالمي إلى الانكماش بنسبة 4.5٪، وهو انكماش غير مسبوق في التاريخ الحديث.

وبعد مرور سنة على الأزمة، أظهر تقرير معهد التمويل الدولي ارتفاع الدين العالمي إلى مستوى قياسي، إذ ارتفع من 257 تريليونا في 2019 إلى 281 تريليونا في 2020، أي بزيادة قدرها 24 تريليونا، وهي أضعاف الزيادة إبان الأزمة المالية العالمية في 2008.

ولكي نفهم خطورة هذه الأرقام المهولة للديون، يكفي أن نعلم أنها تعادل 355٪ من إجمالي الناتج المحلي الإجمالي العالمي بنهاية 2020!

الرأسماليّة على المحك

الوباء أثبت أيضًا فشل النظام الرأسمالي الذي كان هو الحامل الاقتصادي للعولمة، فالحكومة الأمريكية التي تنفق على القطاع الصحيّ أكثر مما تنفقه على الجيش كانت عاجزة عن احتواء الكارثة، لأنها -كما رأى البعض- سلّمت مسؤوليّة صحة شعبها إلى القطاع الخاص، أي شركات التأمين وشركات الأدوية، والتي يديرها أثرياء جشعون لا يهمهم سوى الربح.

وعندما نتحدث عن نقد الرأسمالية الأمريكية فلن نجد لهذه المهمة من هو أفضل من المفكّر الأمريكي المعروف **ناعوم تشومسكي**، أستاذ اللسانيات في معهد ماساتشوستس

(1) Joseph de weck, elettra ardissino, The Pandemic Is Showing What the EU Is Good For, foreignpolicy.com, 8 September 2020.

للتكنولوجيا، إذ قال في حوار صحفي إن الأوبئة السابقة مثل سارس كانت مؤشّرًا واضحًا على احتمال حدوث وباء قريب، وإن وزارة الصحة كانت قد تعاقدت قبل سنوات مع شركة صغيرة لإنتاج أجهزة تنفس اصطناعي، لكن الشركة فسخت العقد عندما وجدت أنه ليس مربحًا بما يكفي.

وكعادته، اعتبر تشومسكي أن الرأسمالية تعاني من مشاكل بنيوية، فهي تعتنق عقيدة «الحكومة هي المشكلة»، والتي تعني ضرورة تسليم عملية صنع القرار بشكل شبه كامل إلى عالم الأعمال، وقال أيضًا إن عقيدة النيوليبرالية -التي يدافع عنها ميلتون فريدمان الحائز على جائزة نوبل- تدفع رجال الأعمال للتفكير بأن تعظيم الأرباح هو «التزام أخلاقي»، وأن التخلّي عنه قد يحطم أسس «الحياة المتحضرة»![1]

وكما هو متوقع، منح هذا الوباء لمشاهير الفكر الماركسي فرصة ذهبيّة للتشفي من الرأسمالية، ومنهم الفيلسوف وعالم الاجتماع السلوفيني الشهير **سلافوي جيجيك** الذي قال في حوار صحفي -سأشير له لاحقًا- إن الحكومات المحافظة باتت تضع تدابير «اشتراكية»، مثل فرض حكومة ترمب على القطاع الخاص الصناعي إنتاج أجهزة التنفس، وتأميم حكومة بريطانيا بقيادة بوريس جونسون السكك الحديدية مؤقتا. ومع أن إجراءات هذه كان من الممكن أن تثير نقدًا حادًّا، وربما مظاهرات غاضبة، إلا أنها باتت مقبولة ومبررة الآن.

والنقد لم يعد يقتصر على إدارة الحكومات الرأسمالية للأزمة، إذ استرجع النقاد كتابًا نُشر عام 2016 بعنوان كتاب «**المزارع الكبيرة تصنع إنفلونزا كبيرة**»، حيث يحلل فيه المؤلف وعالم البيولوجيا روب والاس الدور غير المباشر للجشع الرأسمالي في توليد أجيال جديدة من الإنفلونزا، ويرى أن تحويل الغابات التي كانت تضم أنظمة بيئية معقدة إلى مزارع ضخمة لزراعة المحاصيل وتربية الدواجن، أدى إلى سقوط الحواجز المناعية

(1)Noam Chomsky: Trump Has Adopted a "Viva Death!" Approach to the Presidency, truthout.org, 5 June 2020.

بين تلك الحيوانات ونظيرتها البرية التي كانت تعيش في الغابات، ومن ثم تحوّرت الفيروسات لتصبح بالشكل الفتاك الذي نعرفه الآن[1].

زد على ما سبق، أن الركود الذي تسبب به الوباء، والتراجع المتوقع للنزعة الاستهلاكية السائدة عالميًّا منذ السبعينيات، وميل الناس للادخار بعدما تعلموا من هذه التجربة المؤلمة أن كل شيء قد ينهار في لحظة، كل هذا سيؤدي على الأرجح إلى انهيار يشبه سقوط أحجار الدومينو لقطاعات واسعة في الاقتصاد الرأسمالي، فعندما يُمنع السفر، تفلس شركات السياحة والفنادق، وتتضرّر المطاعم والمقاهي ومحلات بيع التحف والتذكارات، ويعود الضرر إلى سلاسل توريد المواد الأولية لكل هذه القطاعات، وكذلك من يقدم لها خدمات التوصيل والنقل والتأمين.. إلخ، وهكذا تتغيّر أنماط حياة ملايين البشر بشكل يصعب إيقافه.

وهذا ما أكده البروفيسور الأمريكي -من أصل ياباني- في جامعة ستانفورد **فرانسيس فوكوياما**، ففي منتصف 2020 تنبأ بتغييرات عاصفة في النظام الرأسمالي، متوقعا انهيار مراكز التسوق، وسلاسل البيع بالجُملة، وقطاع السياحة والسفر.

وقال فوكوياما إن الشركات الضخمة ذات السيولة الكبيرة هي وحدها التي ستنجو، مع استفادة عمالقة التكنولوجيا من معظم الغنائم، بما أن أهمية التواصل الرقمي ستزداد بسبب إجراءات الإغلاق.

كما توقع فوكوياما، وهو مؤلف الكتاب الشهير «**نهاية التاريخ**» في التسعينيات، أن تسقط نظريات النيوليبرالية التي ظهرت خلال الثمانينيات، إذ كانوا يؤكدون أن تدخل الحكومة في السوق يشكِّل عائقا أمام النمو الاقتصادي، مما أدى إلى نشوء مذهب أيديولوجي يعادي أي تدخل للدولة وبما يحقق مصالح النخب الثرية، لكن هذا الفكر سيثبت فشله مع الاضطرار لتدخل الحكومات في ظل الجائحة[2].

(1) Rob Wallace ‹Big Farms Make Big Flu: Dispatches on Influenza, Agribusiness, and the Nature of Science, NYU Press, 2016.

(2) Francis Fukuyama, The Pandemic and Political Order, Foreign Affairs, July/August 2020.

الديمقراطية والحرية على المحك

لقد أظهر هذا الفيروس الصغير مدى تغلغل وترابط الكثير من المفاهيم فيما بينها، فتهديده للعولمة والاقتصاد الرأسمالي لن يمر دون العبث أيضًا بذاك الإرث الثقافي الذي يفخر به الغرب منذ عصر النهضة، وأقصد هنا الفكر الليبرالي، والنزعة الفردانية، ومبادئ الحكم الديمقراطي، وحرية الإنسان.

هذه المنظومة نجحت في تقديم نفسها أخلاقيا لكافة الشعوب والأمم منذ منتصف القرن العشرين عندما كان النموذج الشيوعي المقابل يمثل النقيض تماما، ثم استمرت بكل زهو عندما سقطت الشيوعية كما سقطت النازية، لكن بوادر الأفول بدأت بالظهور في السنوات الأخيرة مع تراكم العيوب الداخلية.

على سبيل المثال، يمكنك إجراء اختبار صغير لصلابة الديمقراطية وجدواها في أمريكا بالبحث عبر الإنترنت عن فرص العمل المتاحة لموظفي شركات الضغط (lobbyist)، وستفاجأ عندما تظهر لك مئات الوظائف المتاحة بمسميات مختلفة، ومنها مثلا وظيفة «منسق تشريعي» (Legislative Coordinator) و«مدير علاقات حكومية» (Government Relation Director).

هناك شركات نظامية في أمريكا تعمل على توظيف الخبراء الذين تدربوا في لجان الكونغرس أو عملوا في مكاتب أحد أعضائه، ومهمتهم تتلخص في ممارسة دور الضغط عبر حملات العلاقات العامة والإعلان والتسويق لترويج سياسات معينة لصالح العملاء، بحيث أصبح بإمكان أي طاغية عربي مثلا أن يوقع عقدًا مع هذه الشركات لترويج صورته أمام الرأي العام الأمريكي والأوروبي، ولفتح قنوات التواصل مع أعضاء الحكومات والنواب، تمهيدا لتمرير أي صفقة سلاح يريدها أو للتغطية على جرائمه. وهذا كله يحدث وفقا للآليات الديمقراطية النظامية، ودون أي خلل قانوني!

إزاء واقع كهذا، يمكن أن نفهم الخطر الذي يشكله وباء كارثي على الديمقراطية، لا سيما عندما تكون ثقة الشعوب في حكوماتها قد وصلت إلى الحضيض، لذا كنت أستمتع منذ بداية الأزمة بتتبع السجال الثقافي بين كبار الفلاسفة والمنظّرين الأوروبيين، والذين

أفردت لهم وسائل الإعلام مساحة مهمة للتعبير عن وجهات نظرهم المتضاربة، وربما الصادمة.

فعلى سبيل المثال، اتهم الفيلسوف الإيطالي **جورجيو أغامبين** في مقال بعنوان «اختراع وباء» حكومة بلاده وحكومات أخرى حول العالم باستغلال الوباء وتضخيم خطورته، وقال إن إجراءات الحظر والعزل تسعى لفرض «عسكرة حقيقية» على الناس وتقييد حريتهم، مذكرًا بكتابه المشهور «**حالة الاستثناء.. الإنسان الحرام**» الذي يعتبر أن السلطات عمومًا تستخدم الظروف الاستثنائية لتبرير تعطيل القانون والاستبداد، ومشيرًا لتحوُّلها إلى حالة دائمة حتى في النظم الدستورية الديمقراطية، وأثار هذا المقال الذي نُشِر في أواخر فبراير 2020 جدلًا طويلًا في إيطاليا، لا سيما أن الوباء كان في بدايته آنذاك، إذ في 22 فبراير أكّدت الحكومة عدم اكتشاف أي إصابة بفيروس كورونا في البلاد بالرغم من انتشار الإنفلونزا، وبعد ساعات تم الإبلاغ عن 79 حالة عدوى بالفيروس الجديد، وبعد أربعة أيام وصل عدد المصابين إلى 470، ففرضت السلطة حالة الطوارئ، مما أثار غضب أغامبين الذي دأب على انتقاد فلسفة الألماني الراحل **كارل شميت** المتعلّقة بالدولة التنفيذية القويّة، إذ كان **شميت** ينتقد حكومة **فايمار** الديمقراطية الليبرالية التي نشأت عام 1919، ويعتبرها سلطة رخوة، ممّا مهّد لصعود النازية لاحقًا.

وعلى مدى أسابيع، حفلت الساحة الثقافية الإيطالية بسجال طويل، ورأى الكثير من المثقفين أن حالة الذعر التي فرضها الفيروس ضرورية ليلتزم الناس بقواعد العزلة، وقال الفيلسوف **سيرجيو بنفينوتو** إن «الخوف في بعض الأحيان يتطلب شجاعة»، بينما كتب الفيلسوف **جيجيك** مقالًا ناقدًا وتساءل فيه مستنكرًا: هل من مصلحة السلطات وأصحاب رؤوس الأموال إثارة أزمة اقتصادية عالمية لدعم سلطتهم؟

كما صبّ **جيجيك** غضبه على ما أسماه «اليمين البديل واليسار المزيف»، معتبرًا أنهما يرفضان قبول حقيقة الوباء على حد سواء، وأن إجراءات مواجهة الوباء لا يجب أن تُختَزَل في نموذج «التحكُّم والمراقبة»، وهو عنوان كتاب للفيلسوف الفرنسي الراحل ميشيل فوكو،

الذي يعتبر أن السلطة في المجتمع الحديث تشبه شكل السلطة التي تراقب السجناء بشكل خفي داخل السجن، حيث سبق فوكو إلى التحذير من استغلال الحكومات للأوبئة كي تطبق أنظمة قمعية في حالة الطوارئ[1].

والطريف أن **جيجيك** (الماركسي) وجد في الوباء دليلًا على عجز الشعبوية القومية، معتبرًا أن شعار «أمريكا أولًا» الذي رفعه ترمب انتهى بعدما ثبتت استحالة إنقاذ أي بلد بدون تنسيق دولي، وهذا في مقابل الشعبويين الذين وجدوا في الوباء مبررًا لإغلاق الحدود والانكفاء على النفس[2].

ومع أن المقال السابق بدا فيه جيجيك متفائلًا، إلا أني وجدته بعد أيام يحاول الموازنة بين طرفي نقيض، ففي حوار أجرته معه صحيفة «**لاريبوبليكا**» الإيطالية قال إنه يخشى النوم بسبب تشاؤمه من المستقبل بعد هذا الوباء، وتوقع أن تجلب حالة الطوارئ حالة استبدادية جديدة بالرغم من تفاؤله السابق بأنها عزّزت الروابط المجتمعيّة، إلا أنه لم يسقط في العدمية أيضًا وقال إن الاستبداد المطلَق ليس ممكنًا، لأن الحكومات هي التي تشعر بالذعر وما زالت عاجزة عن السيطرة على الوضع[3].

وفي حوار آخر، تحدث **يورغن هابرماس** أشهر الفلاسفة الألمان لصحيفة **لوموند** عن قلقه من تداعيات الوباء والسياسية، فهو يعد من أبرز المدافعين عن الديمقراطية والاتحاد الأوروبي، ولم يخفِ قلقه من صعود الشعبوية اليمينية المتطرفة ومن امتداد حالة الطوارئ إلى فترات طويلة لتقييد حرية الناس. ولا بد أن تكون لكلماته تلك أهمية خاصة إذا علمنا أن الفيلسوف -الذي بلغ قبل بضعة أشهر تسعين سنة- كان معاصرًا لصعود النازية وما تلاها من كوارث.

(1) سنعرض في فصل «صناعة الخوف» أهم أفكار كتاب فوكو.

(2) هذا السجال استعرضه موقع الجزيرة نت في تقريرين، أولهما بتاريخ 26 مارس 2020 تحت عنوان «المراقبة والمعاقبة وعواقب كورونا الأخلاقية.. جدل فلاسفة أوروبيين بشأن حروب الجائحة»، والثاني في 20 أبريل بعنوان «شجاعة الخوف».. التفلسف الأوروبي زمن كورونا وخلط الفكر بالسياسة.

(3)Di Anna Lombardi, Slavoj Žižek: "Vedo un nuovo comunismo germogliare dal virus", repubblica, 6 Apr 2020.

لقد أشار **هابرماس** أيضًا، الذي يعدّ آخر رموز مدرسة فرانكفورت النقدية، إلى التحدّيات الأخلاقية التي طرحها الخوف على طاولة البحث، مُبديًا قلقه من أن يضطر الأطباء إلى تفضيل الشباب على المسنين عندما يتزاحم المرضى في وحدات العناية المركّزة[1].

ولتتسع زاوية الرؤية أكثر، دعنا نبحث عن فيلسوف أكبر عمرًا، وأظن أنك عزيزي القارئ لن تجد أفضل من عالم الاجتماع الفرنسي **ألان تورين** الذي يكاد يبلغ الخامسة والتسعين وهو ما زال يتمتّع بقواه العقلية، وأرجو ألّا تفزع إن أخبرتك بقوله إنه لم يجد طوال هذا العمر ما يشبه وضع العالم في هذا الوباء إلا الأزمة الاقتصادية التي هزت العالم الرأسمالي عام 1929، إذ كان حينها في الخامسة من عمره تقريبا، وكانت تلك الكارثة مقدمة لصعود أدولف هتلر كي يملأ الفراغ عندما تولّى زعامة ألمانيا عام 1933.

وفي حوار لصحيفة «**ألبابيس**» الإسبانية، أبدى الفيلسوف الفرنسي أيضًا مخاوفه من الفراغ الذي أحدثه صعود شخص غريب مثل ترمب إلى زعامة الدولة الأقوى في العالم، ولم يستبعد صعود الشعوبية والفاشية مجددًا، معتبرا أن موقف البلدان الأوروبية من المهاجرين هو الذي سيحدّد مصيرها[2].

أما الفيلسوف الفرنسي اليساري **ميشيل أونفري** فكان أكثر صراحة وعنفًا في مراجعاته للأزمة، فقال في حوار لمجلة «**لوبوان**» إن أوروبا أصبحت بمثابة «**عالم ثالث جديد**»، مستشهدًا بعجزها عن صنع الكمامات للفرق الطبية، واضطرارها لقبول مساعدات عاجلة من دول فقيرة، فضلًا عن الصين التي أرسلت مليون كمامة في حركة اعتبرها الكثيرون استعراضية.

(1) موقع الجزيرة نت، كورونا من منظور فلسفي.. هابرماس يرى تصرفًا عالميًّا ينمّ عن جهل صريح، 15 أبريل 2020.

(2) موقع الجزيرة نت، أكبر عالم اجتماع فرنسي يحلل الجائحة.. فراغ هائل وانتقال وحشي وكارثة بدون زعماء ولا أفكار، 17 أبريل 2020.

وانهال **أونفري** كعادته بسياط النقد اللاذع على الحضارة الغربية كلها، والتي دأب منذ سنوات على التذكير بأنها آيلة للسقوط، وقال إن الوباء جاء بالتزامن مع «انهيار أيديولوجية أوروبا» التي تتبع السياسة الليبرالية الهادفة إلى الربح فقط، متسائلًا عن المبرر الذي يسمح بوضع كبار السن في ممرات المستشفيات وتركهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

وأكثر ما لفت نظري أن **أونفري**، الذي اختار كلمة الانحطاط عنوانًا للمجلّد الثاني من موسوعته للفلسفة التي بدأ نشر أجزائها عام 2015، هو من رموز ما بعد الحداثة أصلًا، كما أنه أيضًا ملحد عنيد وساخط على الإسلام خصوصًا والأديان عمومًا، وما زال منذ سنوات ينعى الحضارة المادية التي يعتبرها امتدادًا «للحضارة اليهودية المسيحية» المنهارة منذ قرون، ونراه الآن يرصد في الوباء الحالي فصلًا جديدًا من فصول الانهيار، غير أنه يحاول النجاة من السقوط في العدميّة باللجوء إلى الفلسفة الرواقية[1]، مطالبًا الناس بقراءة كتب فلاسفتها أثناء مكوثهم في المنزل، وكأنها طوق النجاة الأخير لمن ينبذ أي بُعد روحي[2].

أما **فوكوياما**، الذي سبق أن تراجع عن أفكاره التفاؤلية في كتابه المشهور «**نهاية التاريخ**»، فلم يتردد في الدفاع عن الديمقراطية في هذه الجائحة، وقال إن الأزمة أظهرت زيف القيادات الشعبوية وأفضلية الحكم الرشيد وحكم المؤسسات على حكم أعداء الديمقراطية.

ومع إقرار **فوكوياما** بانتهاز حكومات في دول مثل هنغاريا والفلبين والسلفادور فرصة الأزمة وانتهاج سياسات الطوارئ، وأيضا استحضاره ما حدث بعد الكساد الكبير في عام 1929م من تغييرات سياسية أدت إلى صعود الفاشية والنازية، لكن هذا كله لم يمنع

---

(1) تعود هذه المدرسة الفلسفية إلى القرن الثالث قبل الميلاد في اليونان، ويدعو أصحابها إلى الانسجام مع الطبيعة وتقبُّل الواقع، وكبح النفس من الانقياد للذة أو الخوف من الألم أو القلق من المستقبل، ومع أنها فلسفة مفيدة عمليا وفيها الكثير من «الحكمة» التي يؤيّدها الملاحدة، إلا أن روّادها لم يكونوا ملحدين كما يُعتقَد، بل كان مؤسسها زينون يؤمن بوحدة الوجود وأن الإله يحلّ في الطبيعة.

(2) موقع الجزيرة نت، مراجعات صادمة لفيلسوف فرنسي.. هل ستنهار أوروبا وحضارتها العريقة؟، 20 مايو 2020.

فوكوياما من التفاؤل بأن الشعوب سترى بعينها خلال أزمة كورونا فشل الدكتاتوريات، وأن النجاح سيكون حليف الديمقراطية فقط[1].

وسأختم هذه الجولة الاستطلاعية بالعودة إلى تشومسكي، البالغ من العمر 91 عامًا، ففي حوار آخر مع الوكالة الفرنسية قال إن «الذي يقود البيت الأبيض (ترمب) هو شخص معتل اجتماعيًّا، مصاب بجنون العظمة، لا يكترث إلا لسلطته والاستحقاقات الانتخابية. عليه بالتأكيد أن يحافظ على دعم قاعدته، التي تضم الثروات الكبرى وأبرز أرباب العمل»، واعتبر أن هذه الأزمة دفعت بلاده سريعًا نحو الهاوية، وأنّ العالم سيخرج من هذا الوباء بضريبة عالية جدًّا.

وحذّر أيضا من التمادي في الرقابة الرقمية واستغلال مكافحة الفيروس للمزيد من تقييد حرية الناس، مشيرًا إلى أن اتساع ظاهرة «إنترنت الأشياء» -حتى قبل الأزمة- بات أمرًا خطيرًا، حيث «تذهب كل المعلومات إلى غوغل وفيسبوك والحكومة»، مما يجعل الأمر مشابهًا لما هو قائم في الصين، حيث تراقب الحكومة كل شيء[2].

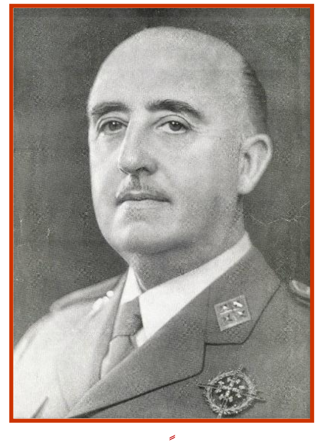
والآن إذا أخذنا بالاعتبار مخاوف هؤلاء المفكّرين الكبار، والذين حاول بعضهم الاستدراك بشيء من التفاؤل لترك باب الأمل مفتوحًا، فلا بدّ أن تشاركهم عامة الشعوب الغربية القلق، لا سيما أن التجارب السابقة لبعض الأنظمة الديمقراطية أفضت إلى كوارث حقيقية.

وأذكر هنا قصة صعود الدكتاتورية في إسبانيا، إذ كانت لها مقدّمات مختلفة عن صعود الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا. فإسبانيا التي كانت تنعم بالعزلة بعيدًا عن أجواء الحرب العالمية الأولى، عانت أكثر من غيرها من وباء الإنفلونزا الإسبانية عام 1918، لذا فرضت السلطة آنذاك إجراءات قاسية لمنع انتشار العدوى، وشكلت في بعض المدن

(1) Francis Fukuyama, The Pandemic and Political Order, Foreign Affairs, July/August 2020.

(2) في عالم ما بعد كورونا...الولايات المتحدة «تتجه نحو الهاوية» بحسب نعوم شومسكي، موقع swissinfo.ch، 25 مايو 2020.

مجالس عسكرية شبابية لمراقبة ومعاقبة من يخالف قواعد الصحة العامة، وكانت هذه العسكرة للمجتمع هي المقدمة التي سمحت للطاغية **فرانشيسكو فرانكو** -بعد عشرين سنة- بتحويل هذا البلد الديمقراطي إلى مزرعته الخاصة، تمامًا كما يفعل أي طاغية عربي في أيامنا هذه[1].



فرانكو ظل متمسّكًا بالسلطة حتى وفاته

ومع أن **هتلر وموسوليني** هَلَكا بنهاية الحرب بعد دمار بلديهما في منتصف عقد الأربعينات، إلا أن **فرانكو** تمسّك بعرش إسبانيا التي ظلّت معزولة عن الحرب العالمية الثانية كما كانت في الأولى، وخاض حربه الأهلية ضد شعبه نفسه، ولم تتخلّص إسبانيا من هذا الطاغوت السفاح إلا بموته عام 1975، لتستعيد الديمقراطية بعدما غصت الأرض بالمقابر الجماعية لضحايا الحرب والمجازر.

لا أريد أن أكون متشائمًا للغاية، فالإنسان هو الذي يصنع الأحداث بإرادته، وإذا كان الوباء قد أفضى إلى سلسلة من الكوارث في مكان ما فلا يعني أن هذه قاعدة تاريخية حديدية لا تُكسر في كل الأمكنة.

لكن لا أنسى الإشارة إلى أن مواقع التواصل حفلت خلال جائحة كورونا بتعليقات تداولها عامة الناس عن إعجابهم بطريقة الصين في إدارة الأزمة عبر قبضتها الحديديّة، مقابل تراخي الحكومات الديمقراطية في الأسابيع الأولى، بل عبّر بعض المثقفين عن خوفهم بالفعل من أن يتحوّل الوباء إلى دعاية للدكتاتورية على حساب الديمقراطية.

وبالعودة إلى **كوريلسكي**، عالم المناعة الفرنسي الذي استشهدت به سابقًا، فهو يرى أيضًا أن الفوارق تتلاشى بين الأنظمة الاستبدادية والديمقراطية في مثل هذه الظروف،

(1) Ryan A. Davis, The Spanish Flu: Narrative and Cultural Identity in Spain-1918, Palgrave Macmillan, 2013.

فالأمر يتوقّف على جودة الخبرة وثقافة القادة، ومدى قدرتهم على اتخاذ القرارات الصحيحة، مقارنًا بين حكومة الصين من ناحية، وحكومتي بريطانيا والولايات المتحدة تحديدًا.

كما نبّه **كوريلسكي** إلى أن أداء الديمقراطيات -سواء كانت شعبوية أو ليبرالية- في هذا الاختبار الصعب لم يظهر أي فارق مهم، فحكومة هنغاريا اليمينية المتطرفة كانت أسرع في الاستجابة للكارثة، بينما فشل الحكم الشعبوي في البرازيل والهند والولايات المتحدة، ما يفتح الجدل واسعًا أمام حقيقة لم تكن بمثل هذا الوضوح، فنظام الحكم لا يقدم بذاته أجوبة جاهزة في كل شيء. وبعبارة أخرى، قد يكون «**المستبد العادل**» أكثر كفاءة من الديمقراطي، سواء كان ليبراليًّا أو شعبويًّا أو اشتراكيًّا أو محافظًا.

ألم تكن هذه المفارقات مطروحة في بطون الكتب من قبل؟ ولكن مناقشتها في الفضاء العام كانت مغامرة كبيرة قبل هذه الأزمة. وها نحن الآن نسمع من مثقفين غربيين مراجعة عميقة تُنزل الديمقراطية عن عرشها المقدس، وتكاد تلمس ما كنّا نتحدث عنه في النظام الإسلامي عن «الحكم الرشيد» و«الشورى».

اقرأ معي جيدًا ما يقوله **كوريلسكي**: «الديمقراطيات -سواء كانت شعبوية أو ليبرالية- لم تصنع شيئًا مناسبًا، لأن القادة في هذه البلدان عندما يسترشدون بإرادتهم دون الاستماع إلى الخبراء فإنه غالبًا ما يتم اتخاذ قرارات سيئة»[1].

وحتى لا يكون التنبّؤ بصعود اليمين المتطرف مهيمنًا على هذا الطرح، بالرغم من أني أراه طاغيًا على معظم ما قرأته في الصحف الغربية، سأستشهد بمقال لكاتب بدا لي يجدّف عكس التيار، إذ يرى المحرر البريطاني في عدة صحف دولية **جيريمي كليف** أن الأزمة الخانقة التي تعصف باقتصادات الغرب ستكون فرصة نادرة لإعادة تنظيم صفوف

(1) نقلا عن الجزيرة نت، مرجع سابق.

«التقدميين»، أي تيار يسار الوسط، بعدما مُني بعقد كامل من الأفول[1]. ولست أدري حقًّا من أين أتى بهذا التفاؤل!

عودة إلى التاريخ

قد يبدو الحديث عن تغير وجه العالم بسبب الوباء مجرد مبالغة في رأي البعض، لكن استقراء تاريخ الأوبئة سيدفعنا بالتأكيد إلى أخذ الأمر على محمل الجد، أو على الأقل اتخاذ الحذر في حال إصرارنا على التفاؤل ونبذ الخوف.



دعني هنا أحدثك عزيزي القارئ بإيجاز شديد عن الطاعون (**وباء الموت الأسود**) الذي مزّق مساحات شاسعة من أوروبا والعالم الإسلامي، بدءًا من عام 1347م وعلى مدى عقود طويلة، إذ أدّى خلال سلسلة من الأحداث الكبرى -كما يرى مؤرّخون- إلى المساهمة في اندلاع انتفاضات جماهيرية وإنهاء النظم الإقطاعية، وبزوغ أنظمة سياسية واقتصادية جديدة.

سلسلة أحجار الدومينو بدأت بوفاة ملايين البشر، تقدر نسبتهم بنحو ثلث سكان أوروبا، ما أدى إلى ندرة العمال في قطاعات عديدة، وانهيار الطلب على الأراضي الزراعية، ومن ثم بدأ العمّال الباقون يطالبون بأجور أعلى بالرغم من تشريعات الطوارئ التي أدخلها الحكام لتحديد الأجور، في مقابل انخفاض أرباح أصحاب الأراضي والإقطاعيين، وهكذا تقلّصت الهوة بين الأغنياء والفقراء، وتزامن ذلك أيضًا مع انهيار ثقة الشعوب بالسلطات السياسية والدينية (بابا الفاتيكان) التي عجزت عن إدارة الأزمة، فتشجّع الناس على رفع أصواتهم، حتى اندلعت انتفاضات الفلاحين -وكانت أكبرها موجة احتجاجات وعصيان

(1) Jeremy Cliffe, The Covid-19 crisis is a chance for progressives to rediscover their lost internationalism, newstatesman.com, 13 May 2020.

في عام 1381- التي أجبرت السلطة الإقطاعية في النهاية على تقديم التنازلات، لا سيما في بريطانيا، وكانت هذه بداية تشكل النظم الديمقراطية التي نعرفها اليوم.

ولا أنسى الإشارة هنا إلى توسّع ظاهرة العنصرية والطائفية في أوروبا آنذاك، وخصوصًا في فرنسا وإسبانيا، حيث انتشرت شائعات بأن اليهود هم سبب الوباء عن طريق تسميم مصادر المياه، ممّا أدّى إلى قتل الآلاف منهم. وتكاد هذه الاتهامات تتكرر اليوم - ولو بشكل آخر- في بعض الدول «المتحضّرة» ضد المهاجرين، وحتى السيّاح، ومنذ الأيام الأولى لظهور فيروس كورونا.

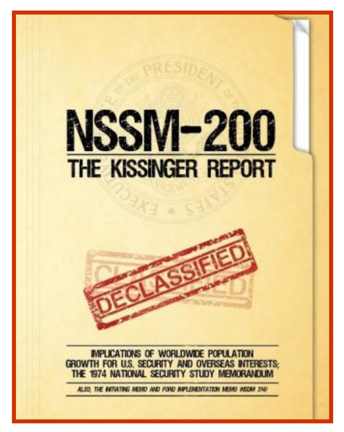
وعلى مدى القرون الخمسة التالية للطاعون، والتي شهدت ما يسمى بعصر التنوير والنهضة، تمكّن بعض الفلّاحين المحررين من امتلاك الأراضي الزراعية، ثم انطلقت الثورة الصناعية التي حولت الفلّاحين إلى عمال في المصانع. وبالرغم من تحسّن ظروف حياة البعض فإن التفاوت الطبقي ظل قائمًا في ظل النظام الرأسمالي، إلى أن ظهر وباء آخر أودى بحياة حوالي خمسين مليون إنسان، وهو الإنفلونزا الإسبانية عام 1918، الذي تزامن مع كارثة أخرى هي الحرب العالمية الأولى، لتبدأ مرحلة جديدة من النضال الشعبي الذي أسفر عن ظهور ما يسمى بدولة الرفاه.

الأوبئة كانت أيضًا سلاحًا بيد المحتلين، كما هو حال السلاح البيولوجي اليوم، ففي كتاب «**أميركا والإبادات الجماعية**»، تحدّث الأكاديمي في الجامعات الأمريكية **منير العكش** عن إبادة المهاجرين الأوروبّيّين 112 مليون إنسان من السكّان الأصليّين في أمريكا الشمالية، أو ما يسمى بالهنود الحمر، ومع أنّ الرقم قد يكون مبالغًا فيه وهو أكبر بكثير من الذي تعترف به الولايات المتحدة اليوم، إلا أنّ الكارثة كانت كبيرة بكل المقاييس، وكان **وباء الجدريّ** أحد أقوى أسلحتها[1]، إذ كان المحتلّون يقدّمون للسكّان الأصليّين بطّانيّات وملابس ملوّثة بالوباء لتنتقل العدوى بين أفراد قبائلهم المعزولة وتفتكُ بهم سريعًا، لا سيّما أن أجسامهم لم تجرّب هذا المرض من قبل.

(1) منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية: حق التضحية بالآخر، دار رياض الريس، 2002.

وإذا كان استخدام الأوبئة لإبادة شعوب أخرى واحتلال أرضها مفهومًا، فدعني أحدثك عن توظيف آخر للأمراض قد لا يخطر على بالك، فالمحتلون استخدموا مفهوم «**مقاومة الأوبئة**» ليخترقوا دولًا فقيرة في أفريقيا وآسيا والأميركيّتين، ولنقل الأفكار الاستعمارية وتطبيقاتها إليها، وهذا ما رصده عدة مؤرخين غربيين، ومنهم البريطاني **ديفيد أرنولد** صاحب كتاب «**الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية**»، الذي أكّد أن الطب الحديث الذي جلبه المستعمرون إلى البلاد المحتلة لم يكن الهدف منه سوى خدمة المصالح الاستعمارية، وكذلك البروفيسور **شيلدون واتس**، الذي درّس في جامعات عدة بأفريقيا، وأخرج كتابه «**الأوبئة والتاريخ.. المرض والقوة والإمبريالية**» عام 1999، حيث تتبّع العلاقة بين الاستعمار وانتشار الأوبئة في معظم المناطق المحتلة، وقال إنّ القطاع الطبي الذي تشكل في تلك المناطق -بما فيها بلادنا العربية والإسلاميّة- على يد المحتل الغربي لم يكن سوى أحد أدوات الاحتلال والسيطرة[1].

ويمكنك عزيزي القارئ أن تستحضر هذه القوة الناعمة للقطاع الطبي الاستعماري إذا علمت أن أهم حامل للتبشير المسيحي في كل الدول المحتلة كان الإرساليات الطبية، وما زالت بعض المستشفيات التابعة للكنائس والأديرة -التي أسّسها المستعمر- تعمل في بلادنا حتى اليوم.



واليوم يتداول ناشطون في الشرق والغرب قصصًا عديدة عن تورُّط منظمة الصحة العالمية ومنظمات دوليّة (**ربما بعضها يحمل شعارات خيرية**) في قضايا ومؤامرات لا علاقة لها بما تدعو إليه في الظاهر، وبما أن التحقق من هذه الروايات قد يكون متعذرًا، فسأكتفي برواية واحدة موثقة، وهي مؤامرة رهيبة تورطت فيها مؤسسات تابعة

(1) موقع الجزيرة نت، غيّرت مجرى التاريخ في العصور الوسطى.. كيف أسهمت الأوبئة في تطور العلوم والسياسات وتوزيع الثروة؟، 27 يونيو 2020.

لعائلتي روكفلر وفورد النافذتين، وقامت على أساس سياسة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق **هنري كيسنجر**، الذي قدم عام 1974 «**مذكرة دراسة الأمن القومي 200**» (**NSM 200**)، وهي تتضمّن توصيات بالتصدي للنمو السكاني في دول العالم الثالث، كي لا يشكّل تهديدًا للأمن القومي للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين، فكانت النتيجة قيام المؤسسات التي يفترض أنها خيريّة بعمليات لقطع نسل (تعقيم) النساء في بعض الدول الآسيوية.

واللافت أن **كيسنجر** نفسه لم يُخْفِ تشاؤمه من وباء كورونا، ولعله أكبر المعمّرين الذين يمكن أن أستشهد برأيهم في هذه الصفحات، إذ يناهز عمره 97 سنة، وكان مشاركًا في الحرب العالمية الثانية أواخر عام 1944 كجندي بفرقة المشاة، وها هو اليوم يستحضر تجربته تلك في مقال له بصحيفة وول ستريت جورنال، فيقول إن الأمريكيين كانوا آنذاك أكثر قدرة على التحمل لأنهم كانوا يعيشون في أجواء الحرب ويحملون همّ السعي لتحقيق غاية وطنية عظمى، أما في عام 2020 -وهو آخر سنوات حكم ترمب- فتعيش بلاده في ظل انقسام سياسي غير مسبوق، والخوف يملأ قلوب الناس من مستقبل غامض.

واختتم **كيسنجر** مقاله بتحذير قادة العالم من أنّ فشلهم في إدارة هذه الأزمة قد يؤدي إلى «**إشعال العالم**» وإلى «**تغيير النظام العالميّ للأبد**»[1].

وقبل أن تفاجأ من صراحة ثعلب الدبلوماسيّة الأمريكيّة، والذي يعدّ من أهم أركان النظام العالمي الحالي، فسأخبرك بأن عشرات المقالات والتصريحات قد ربطت بالفعل بين الوباء وتغيُّر النظام العالمي، ومنها مثلًا تصريح الرئيس التركي رجب طيب أردوغان في 10 أبريل 2020 بأن العالم مقبل على «**واقع جديد**» عقب تجاوز الأزمة، وتصريح الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش بأن «**العلاقة بين القوى العظمى لم تكن أبدا مختلة بهذا الشكل**»، وتصريح وزير خارجية الاتحاد الأوروبّي **جوزيب بوريل** بأنّ النظام العالمي

(1) Henry A. Kissinger, The Coronavirus Pandemic Will Forever Alter the World Order, wsj.com, 3 April 2020.

بات مختلًّا ويجب إعادة بناء نظام جديد متعدّد الأقطاب، وإعراب وزير خارجيّة ألمانيا السابق **زيغمار غابرييل** عن أمله بأن يكون الجيل الجديد أقلّ سذاجة فيما يتعلق بالعولمة.

إفلاس العلمانية

عندما أتحدث عن مأزق حاد لليبرالية والرأسمالية والعولمة والديمقراطية، فلا بد أن أعود بالنقد إلى الأصل الفلسفي الذي نشأت عنه كل هذا الأنظمة، ألا وهو رؤية الحداثة الغربية للإنسان، ولعلاقته بالمجتمع والطبيعة، ثم موقفها من الإله.

الحداثة التي تشكّلت بوادرها في عصر النهضة خلال القرن الخامس عشر هي طيف واسع من التيارات والمذاهب والفلسفات المتضاربة، بل كان بعضها محل صراع أممي، كالشيوعية مقابل الرأسمالية، والليبرالية مقابل الشعوبية القومية، إلا أن الخيط الناظم لهذه المدارس والفلسفات كلها يتصل في النهاية بنقطة واحدة لا تخطئها العين، وهي العلمانية.

قد يحاجج البعض بأن عدة مذاهب حداثية اتخذت من الإلحاد منطلَقًا لها، كالشيوعية مثلًا، وكذلك جناح من الوجودية، وأن الرأسماليّة الأمريكيّة استمدّت الكثير من فلسفتها في المقابل من مفاهيم مسيحيّة بروتستانتيّة تمجّد العمل وتتنكّر لقيم التقشف الكاثوليكية[1]، كما أن مبادئ السوق الحر التي صاغها **آدم سميث** (أبو الاقتصاد الحديث) كانت متأثرة بمفهوم «**التدخّل الإلهي في الطبيعة**»[2]، لكن هذا لا ينقض الأساس الذي ذكرتُه، فالمفهوم البروتستانتي للرأسمالية جعل من النجاح الدنيويّ وسيلة للتقرب إلى الله، وعند التطبيق العملي (البراغماتي) تمت إزاحة الدوافع الدينية لدى رجل الأعمال الأمريكي إلى آخر القائمة، وأصبح تعظيم الأرباح هو المعيار الوحيد للنجاح وليس رضا الرب، وبقي هيكل النظام الرأسمالي كما هو.

(1) هذه العلاقة حللها بالتفصيل عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية».
(2) أشرف إبراهيم، اقتصاديات «الدِّين».. هل الدول الملحدة هي الأنجح اقتصاديًّا؟، موقع ميدان، 9 أغسطس 2017.

في المحصّلة، لم يعد سلوك ومنطلقات المسيحي المؤمن في الغرب يختلف كثيرًا عما نجده لدى زميله الملحد، سواء في العمل أو في شأن من شؤون الحياة، ويمكن أن نستثني الشريحة المتديّنة -في المجتمع الأمريكي غالبًا- التي تحرِصُ على التمسّك بتعاليم الكنيسة.

واللافتُ أن موقف الحداثة من الإنسان يتنوّع أيضًا بين عدّة رؤى، ثم ينتظم في خيط العلمانيّة، وهو إزاحة الإله (جلّ وعلا) عن المركز. فالبعض قد يميل إلى تأليه الإنسان وإحلاله في مركز الكون، والبعض يجعله مجرد هباءة تافهة على هامش الكون الشاسع، وكلاهما متفق على ألا يتجه الإنسان إلى الله حتى لو آمن بوجوده.

وللتوضيح أكثر، فالعلمانية التي أتحدث عنها هي رديف الدنيوية، سواء اقترنت بالإيمان بوجود الله، وباعتناق دين ما، أو بالإلحاد. هي موقف يضع النجاح والسعادة في الدنيا على رأس الأولويات، ويجعل من الفلاح في الآخرة -إن كان هناك ثمة إيمان بها- تابعا للنجاح الدنيوي.

قسّم أستاذ فلسفة وأخلاقيات المعلومات في جامعة أكسفورد **لوتشيانو فلوريدي** التاريخ الحديث على أربعة مراحل ثورية، ووصفها في كتابه «**الثورة الرابعة: كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني**» الصادر عام 2014، وجعل من إزاحة مفهوم مركزيّة الإنسان في الكون معيارًا لهذه الثورات.

ففي القرن السادس عشر حدثت الثورة الأولى عندما أثبت **نيكولاس كوبرنيكوس** هامشية الأرض بصفتها كوكبًا يدور حول الشمس، وليست مركزًا للكون الذي كان يعيش عليه الرب (المسيح عليه السلام حسب المسيحية). ثم حدثت الثورة الثانية على يد **تشارلز داروين** عندما نشر كتابه «**أصل الأنواع**» عام 1859، مقدّمًا رؤية جديدة للإنسان على أنه كائن تطور عن كائنات غير عاقلة. ثم جاءت الثورة الثالثة على يد **سيغموند فرويد** الذي أسقطت نظريّاته في التحليل النفسي مركزية العقل والوعي الإنساني وأعطت اللاوعي دورًا

كبيرًا في سلوك وقرارات الإنسان، وأخيرًا أحدث العالم البريطاني **آلان تورينغ** الثورة الرابعة بوضعه أسس الذكاء الصناعي في منتصف القرن العشرين[1].

أما عالم الاقتصاد الألماني **كلاوس شواب**، وهو مؤسس المنتدى الاقتصادي العالمي (دافوس) الذي يعد من أشهر منابر العولمة، فقد ألف عام 2016 كتابًا مشابهًا أسماه «**الثورة الصناعية الرابعة**»، ومع أنه خالف **فلوريدي** في التقسيم فقد وافقه في المحصّلة، إذ يرى شواب أن الثورة الأولى بدأت بتحوّل نمط الاقتصاد في أوروبا وأمريكا من الزراعة إلى الصناعة مع ظهور المحرّكات البخاريّة ومدّ سكك الحديد والتحوّل إلى المكننة. تلتها الثورة الثانية مع ظهور الطاقة الكهربائيّة واستخدامها في الصناعات الثقيلة، ثم جاءت الثورة الثالثة (الرقميّة) في بداية الثمانينات، وها نحن نعيش الآن الثورة الصناعية الرابعة مع تطوّر تقنيّات الذكاء الصناعي وتغلغل البرمجيات الذكية في كل مناحي الحياة، والتي تبشر باقحام التكنولوجيا في جسم الإنسان، وحتى في دماغه وأفكاره.

والنتيجة التي يصل إليها المفكرون «العلمانيون» هي المزيد من تشييء الإنسان (تحويله إلى شيء مادي)، ثم دفعه نحو المؤخّرة في سياق المنافسة التي أقحموه فيها مع الآلة التي صنعها بنفسه!

الأمر يبدو لي وكأنه إعادة تشكيل لفكرة التنافس مع الرب نفسه، وهي نتيجة لعقيدة التجسيد التي زرعتها التوراة المحرفة في العقل الغربي الحديث، عندما زعمت أن الإله جل وعلا مجرد إله قومي يتجسّد ويتصارع مع نبيّه يعقوب عليه السلام[2]، ثم قامت فلسفة القبّالاه (كابالا) اليهودية الباطنية بالخطوة التالية، مع تغلغلها الحديث في الإعلام والترفيه وأروقة السياسة، فنشرت فكرة خلق آدم على صورة الإله (حرفيًّا) وإمكانية اتّحاده به، مما

(1) هذه الثورات حدثت في العقل الغربي تحديدا، بل لدى المؤمنين حصرا بنظرية التطور ونظريات فرويد، وهي ليست ملزمة لمن لا يرى فيها سوى أساطير.
(2) سفر التكوين: 32/ 24.

قلّص الحدود بين الخالق والمخلوق إلى أدنى درجة، ومنح الإنسان الحديث الأمل بالارتقاء إلى درجة الألوهية[1].

وبعد إقصاء الحداثة للدور الإلهي، سواء في الخلق أو إدارة شؤون الكون، أصبح الإنسان الحديث المتسلح بالتكنولوجيا بمثابة صانع الطبيعة والمسيطر عليها، وهو أيضًا صانع الروبوتات والأجهزة الذكية، وها هو اليوم يبدي خوفه من تمرد هذه «المخلوقات» عليه كما تمرّد هو من قبل على خالقه وأعلن استغناءه عنه.

يقول فلوريدي إن «تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المتاحة لدينا أفضل منا، وهي تفوقنا ذكاء وأداء.. فهي تعدِّل أو تستحدث البيئة التي نعيش فيها»[2]. وهذه الفكرة ما زالت متداولة منذ عقود، ويتزايد نطاق معتنقيها بين مبشر ومحذر، فبعد الحرب العالمية الثانية بقليل كتب عالم الرياضيات الأمريكي **جون فون نيومان** «قريبًا سنكون عاجزين أمام ما صنعنا من الآلات الأوتوماتيكية كما كنا عندما عجزنا أمام الظواهر الطبيعية المعقّدة»[3].

وفي السنوات القليلة الأخيرة تناقلت وسائل الإعلام جدلًا جادًّا بين أقطاب صناعة التكنولوجيا بشأن هذه المخاوف، ولعل أكثر هؤلاء المتشائمين شهرة هو **إيلون مَسك**، أغنى رجال العالم في قوائم 2020، ومؤسس ومدير عدة شركات ومنها شركة **سبيس إكس** لصناعة الصواريخ الفضائية، ففي واحدة من تصريحاته التحذيرية، كتب تغريدة على موقع تويتر بأواخر عام 2017 تقول إن «الخطر الذي يشكّله الذكاء الاصطناعي أكبر من الخطر الذي تشكّله كوريا الشمالية». والمفارقة المثيرة للسخرية أن مَسك كان وما زال من رواد هذه الصناعة.

---

(1) للمزيد عن هذا الموضوع، انظر مقال القبالاه في موسوعة السبيل على موقع السبيل https://al-sabeel.net/

(2) لوتشيانو فلوريدي، الثورة الرابعة: كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة لؤي عبد المجيد السيد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2017، ص 129.

(3) زيغمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2، 2019، ص 126.

في ظل هذه العلمنة المتطرفة، واعتناق عقيدة «العلموية» التي تجعل من العلم سبيل خلاصها الأوحد، ظهرت منذ بداية وباء كورونا عشرات المواقف الإلحادية التي تسبّح بحمد العلم وتتوسَّل إليه طلبًا للعلاج، ولم يتخلّف الإعلام العربي -الذي ترعاه الأنظمة- عن ركب السخرية من علماء الدين، وصوّرهم في هيئة العاجز أمام القدرات الخارقة لعلماء المخابر والمعامل، وكأن الإسلام يجعل من الدعاء والرقية علاجًا وحيدًا، وها هي كتب السنّة بين أيدينا تصف العلاج الذي كان يطبقه النبي ﷺ قبل أن يدعو ويَرْقي، فالإسلام لا يفصل بين الجانبين الروحي والجسدي، والمسلم لا يتعامل مع الطبيعة بشكل مجرد.

دعنا نستمع مجددا إلى **فيليب كوريلسكي** المدير السابق لمعهد **باستور**، الذي أشرت إلى بعض أقواله في هذا الفصل، فمع أنه يدافع دائما عن الاستخدام الأكثر منهجية للقواعد العلمية في الإدارة الاجتماعية، إلا أنه كان أكثر تواضعًا بكثير من مشاغبي العلموية، فيقول إن العلم باستخدام جوانبه الثلاثة، وهي المعرفة المثبتة والمستقرة، والبحث في حالات عدم اليقين، والمنهج العلمي، ساهم بسرعة في بناء معرفة عن هذا الفيروس الجديد الذي لم يكن موجودًا تقريبا وإن كانت «هذه الأزمة وضعتنا في حالة من عدم اليقين»[1].

إذن فالعلم مرشد لكنه لا يمنح اليقين، وعندما بلغت الوقاحة ببعض العلمويين نشر رسوم كاريكاتورية تُظهر علماء الدين وهم يتوسلون إلى علماء المخابر لم يكونوا يدركون قصور العلم عن درجة اليقين، وربما لم يكونوا مستعدين لتلقي الأنباء التي ظهرت خلال شهور هذه الأزمة عن ظهور أجيال متعددة من الفيروس نفسه، ومن فيروسات أخرى مثل إيبولا وسارس، فالأمل معقود على لطف الله في عدم انتشار الفيروسات الأخرى لتبلغ درجة الجائحة، ولو بلغت فلا أحد من العلماء يضمن أن ينجح العلم في ملاحقتها واحتوائها طالما كان تحوّرها أسرع بكثير من قدرة الإنسان على المواكبة.

(1) الجزيرة نت، مرجع سابق.



ولنقف هنا عند المفكر الفلسطيني -الشهيد بإذن الله- **إسماعيل راجي الفاروقي** الذي انتقد مطوّلًا منهجية العقل العلموي، وفحواه أن كل ما يتعلق بالإيمان والعقيدة يحيل تلقائيًّا إلى الاحتمالية والشك واللايقين، وأن الحقيقة لا تكمن إلا في العلم التجريبي[1]، وهذا ليس سوى سقوط تلقائي في مأزق خانق لا فكاك منه، ففلسفة العلم أفضت منذ منتصف القرن العشرين -على يد كارل بوبر وغيره- إلى اللايقين، وكأن العلمويّين يذهبون عمدا إلى العدمية السفسطائية[2].

ويقول الفاروقي إن «هذه الشكوكية مبنيّة على افتراض مسبَق مفاده أن الإنسان يعيش في حلم أبدي لا يمكن في ظله أبدًا تمييز الحق عن الباطل، وغير قابلة للانفصال عن العدميّة ونفي القيم»[3]، ثم يحذر من التساهل في المضيّ قدمًا بهذا المنهج دون الشروع الفوري في نقض الشكوكية، وإلا فإن العدمية هي المصير الحتمي[4].

ومع أن الكثير من منظري ما بعد الحداثة في الغرب يقرّون بكارثية الغرور الحداثي، إلا أننا بالكاد نجد أحدهم يجرؤ على الالتفات إلى ضرورة التواضع في حضرة الله، والبحث عن أجوبة لتساؤلات البشرية من داخل الأديان.

خذ مثلًا **زيغمونت باومان**، الفيلسوف البولندي المعمر الذي يعد من أشهر ناقدي الحداثة وصاحب سلسلة «**السيولة**»، إذ يقول إن «الوعد الحداثي المغرور الذي كان يرجى منه تحت إدارة البشر أن يقضي حاجات البشر على نحو أفضل، تحل محلّه رغبة تواقة في

(1) إسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة، ص 85.
(2) للتوسع في نقد العلموية أنصح بكتاب محمد أمين خُلال، العلم ليس إلها، مركز يقين، المغرب، ط1، 2019.
(3) المرجع السابق، ص 91.
(4) المرجع نفسه، ص 92.

إله يُصلح ما أفسده البشر»[1]. واللافت أن اعتراف **باومان** هذا يأتي في سياق نقده لصعود الأديان (التجليات الأصولية بتعبيره) وحلولها محل أديان شمولية كالماركسية التي كان يعتنق أحد أشكالها في شبابه، وهو مع تخطيه سن التسعين اليوم ما زال لا يؤمن بالأديان، ولا يطرح بديلًا عنها في نقده لما أسفرت عنه الحداثة الصلبة من سيولة جارفة في شتى مناحي الحياة.

وهذا هو حال رواد مدرسة **فرانكفورت** النقدية أيضًا، فهذا التيار الفكري الذي برع في كشف عورات الحداثة كلها، ما زال يتخذ موقفا معاديًا، أو على الأقل غير متصالح مع الدين.

ففي كتاب «**دور الدين في المجتمع**»، وهو كتاب حواري جمع بين الفيلسوف الألماني **رولف فيغرسهاوس** -أحد تلامذة مدرسة فرانكفورت المعاصرين- وعالم الاجتماع الليبي **مصطفى عمر التير**، يراوغ فيغرسهاوس في الاعتراف بالأهمية الاجتماعية للدين، دون تمييز بين الأديان التوحيديّة والسماويّة والشركيّة وحتى الشيطانيّة (حركة العصر الجديد مثلًا)، ثم يختتم طرحه في الصفحة الأخيرة من الكتاب، ومن منظور براغماتي (عملي)، قائلًا: إن الأديان بالمطلق تمنح القدرة على التعبير في القضايا الوجودية التي تسبب القلق لدى الإنسان، لذا فهي ذات قيمة دنيوية مرحّب بها، ثم يستدرك -كمفكر علماني غير مؤمن- مذكّرًا بأن الدين «ليس له حق الاحتكار»[2].

هذا الإصرار على استبعاد الدين حتى في أكثر الأزمات الحالكة غموضًا وسوداوية يكشف عن مدى نجاح مخطط إبليس لاستعباد بني آدم، فكلما اقترب وعد الآخرة وتكشّفت فتن آخر الزمان ازداد تمسّك البشر بالدنيا بدلًا من الزهد فيها، وازداد بحثهم اليائس عن الخلاص «الناقص» في أي مصدر أرضي، إنسي أو جني، بشرط استبعاد الوحي من البداية.

(1) الخوف السائل، ص 157.

(2) رولف فيغرسهاوس ومصطفى عمر التير، دور الدين في المجتمع، دار الفكر، دمشق، 2010، ص 193.

روي عن **عمير بن طلحة** النميري عن أبيه أنه جاء اليمامة ليقابل مسيلمة الذي ادعى النبوة، وعندما تحقق من كونه دجّالًا يأتيه شيطان لا ملَك، قال له بكل وضوح: «أشهد أنك كذاب وأن محمدًا صادق، ولكن كذّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»[1]، ثم ظل يؤازره حتى قُتل معه يوم عقرباء، فأولياء الشيطان يفضّلون الدجال على الصادق مع علمهم بذلك، والأغرب من ذلك أنهم قد يضحّون بحياتهم في سبيل الدجل «اللذيذ».

يقول الكاتب الأميركي **إريك وينر** في مقال نشره بصحيفة وول ستريت جورنال إن الفلسفة لا تقدم أجوبة عن أسئلة ليس من السهل الرد عليها، من قبيل: كيف تتحمّل ما لا يطاق؟ وكيف تجد اليقين في عالم غارق في الشك؟ ومع هذا الاعتراف الواضح بالفشل، فهو يشجع قرّاءه على استعادة تراث كبار الفلاسفة الذين وضعوا أفضل نظرياتهم في الأوقات العصيبة، فمع أن الجائحة أشعرتنا بالضآلة والعجز وبأنه لم يعد هناك شيء يقيني وحتمي تمامًا، حسب قوله، غير أن بعض الفلاسفة رأوا في ذلك أمرًا جيدًا يستحق التأمل، ولكن دون أي وعود بإيجاد أجوبة على الأسئلة المهمة[2].

قارن عزيزي القارئ بين هذا الاعتراف المسبق بالفشل، وبين الأجوبة القطعية التي يقدّمها لك القرآن الكريم، وهي توضح أن كل هذه الدنيا بأحداثها الكبرى وتفاصيلها الدقيقة لم تُخلَق عبثا، وأنها تصب في صالح الغاية النهائية للابتلاء وصراع بني آدم مع إبليس وجنوده من الجن والإنس.

في الشهر الأخير من عام 2020، الذي سمي بعام الجائحة، أعلنت شركة **فايزر** العملاقة للأدوية عن نجاح تجاربها الأولية للقاح المنتظَر، وفي الوقت نفسه أعلنت بريطانيا عن اكتشاف سلالة متحوّرة جديدة، وانشغل الناس مجدَّدًا بالجدل عن سبب تزامن الخبرين واحتمالات المؤامرة.

وخلال فترة وجيزة، ظهرت ستة لقاحات أخرى، وبدأ الصراع العالمي على جرعات

(1) ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، دار المعارف، 1967، ج 2، ص 508.
(2) Eric Weiner, Philosophy for a Time of Crisis, wsj.com, 27 Aug 2020.

اللقاح، وتجدد الجدل أيضا بشأن المؤامرات التي يمكن أن تكون وراء تلك المواد التي ستُحقَن في أجساد البشر، حتى كاد البعض يجزم أنها تحتوي على شرائح مجهريّة ستتحكم بعقولنا من قِبل «**الأخ الأكبر**» كما في روايات الخيال العلمي[1].

قبل ذلك، كانت الحكومات قد خفّفت إجراءات الإغلاق المتشددة التي فرضتها في بداية الوباء، ليس لأنها تمكّنت من احتوائه بالضرورة، بل لمنع وقوع كارثة أكبر في الاقتصاد وأرزاق الناس، فلم ينته عام 2020 إلا بعدما وثقت الولايات المتحدة (الدولة الأكثر تضررا) وفاة أكثر من 350 ألف شخص بالمرض وإصابة أكثر من عشرين مليونا. أما على مستوى العالم فكانت الإحصاءات المسجلة تشير إلى أكثر من مليون وثمانمئة ألف وفاة، ونحو 84 مليون مصاب[2]. علمًا بأن الأرقام الحقيقيّة أكبر من ذلك بكثير.

لم يشهد العالم احتفالات صاخبة وماجنة في يوم رأس السنة الميلادية الجديدة كما جرت العادة، وحتى حفل تنصيب الرئيس الأمريكي الجديد **جو بايدن** أقيم في 20 يناير 2021 دون حضور الحشود المعتادة، وما زالت مسابقات كرة القدم الدولية تقيم مبارياتها بدون جمهور.

العالم بدا أقل صَخَبًا من أي وقت مضى منذ بداية عصر العولمة، وبدأ الناس يتأقلمون مع نمط حياة جديد، قوامه الحذر والتباعد الاجتماعي وارتداء الكمامات في كل مكان ونقل العمل والدراسة والاجتماعات إلى الفضاء الافتراضي.

والأهم من هذا كله، ماذا تعلّمنا بعد مرور عام على هذه التجربة القاسية؟ هل انتهزنا هذه الفرصة النادرة لإعادة التفكير في ذواتنا وضعفنا وهشاشة عالمنا كي نبدأ بالتواضع؟ هل تصالحنا مع الله؟ هل اشتعلت الأشواق في قلوبنا إلى المساجد بعد هذا الغياب القسري؟ أم عاد الناس إلى اللهو في الأسواق والمقاهي والشواطئ وكأن شيئًا لم يكن؟ هل تغيّر شيء في قلوب الجبابرة؟ هل لاحظ أحد أي تراجع في مؤشر الظلم والطغيان العالمي؟

---

(1) الأخ الأكبر (Big Brother) هي شخصية ظهرت في رواية جورج أورويل "1984" الصادرة عام 1949، وهو حاكم خفي لدولة دكتاتورية شمولية تدعى أوشنيا، ويمكنه السيطرة على كل مواطنيه ومراقبة تحركاتهم.
(2) www.worldometers.info

قد يجادل البعض بارتفاع طفيف في نسبة التدين، إلا أنه للأسف أقل من أن تلاحظه العين المجردة، ففي دراسة استقصائية نشرها «**مركز بيو للأبحاث**» نهاية يناير 2021، والتي أجريت في 14 دولة متقدمة اقتصاديا، تبين أن 28٪ من الأمريكيين شعروا بأن الوباء تسبّب في تقوية إيمانهم الشخصي، في حين قال 10٪ فقط من البريطانيين إن إيمانهم زاد بسبب الوباء، وأقل منهم في اليابان وألمانيا حيث قال 5٪ من مواطني البلدين إن الدين أصبح يؤدي دورا أقوى في حياتهم، بينما لم تزد هذه النسبة في الدنمارك عن 2٪[1].

لطالما تذكّرت خلال هذه المحنة ما رواه ابن عباس عن رسول اللّه ﷺ عندما قال: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[2].

أما الآن، وبينما أختتم كتابة هذا الفصل، أستحضر بوضوح الآيات القرآنية التي صوّرت لنا قصة خوف الإنسان، ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

* * * *

(1) More Americans Than People in Other Advanced Economies Say COVID-19 Has Strengthened Religious Faith, www.pewforum.org, 27 Jan 2021.

(2) أخرجه الحاكم (7846)، والبيهقي (10248)، وصححه الألباني.

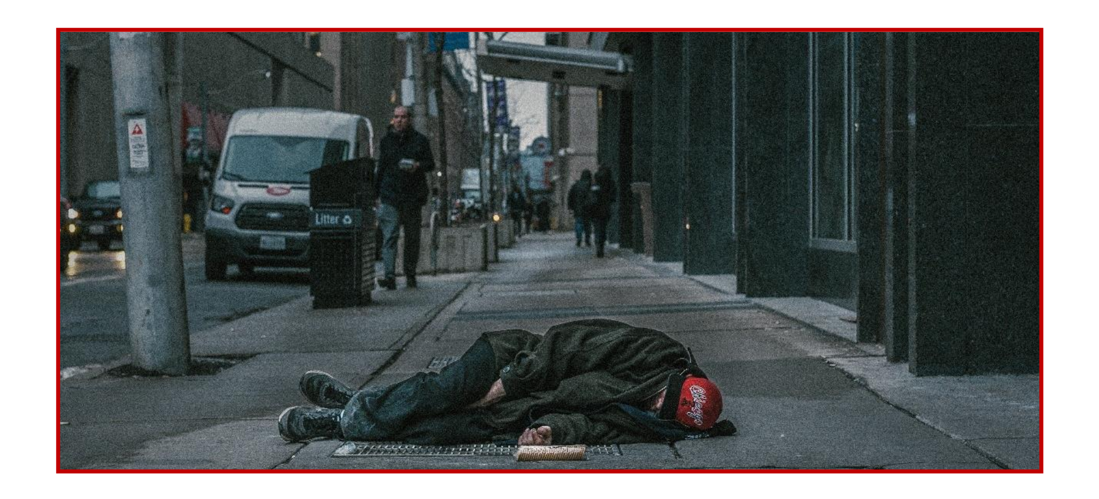


الفصل الثاني
المدينة الفاضلة.. بين الخوف والحلم

أكتب الآن هذه الكلمات في يوم مشمس من صيف عام 2020، وهو اليوم التالي لوصولي إلى مونتريال، إحدى أغنى مدن أمريكا الشمالية، وهي بالطبع أيقونة من أيقونات الرأسمالية الحديثة، ولها تاريخ تعتز به، بدأ قبل خمسة قرون مع «اكتشاف» الأوروبيين للمنطقة وبناء أولى المستعمرات فيها، كبقية مدن هذه القارة القائمة على الغزو في مطلع عصر الحداثة.

استيقظتُ صباحًا على صراخ أحد سكان المبنى المقابل في وجه مشرَّد مسنّ، لم أفهم شيئًا مما قاله الشاب الغاضب ولا من دفاع العجوز عن نفسه لأن الحوار كان باللغة الفرنسية، واكتفيت بمشاهدته من شرفة غرفتي، لكن هذا المشهد الاستهلالي لزيارتي الأولى إلى قارة العالم الجديد كان كفيلًا بإثارة مخاوفي التي صارحتُ بها صاحبة الفندق، فسارعَتْ لطَمْأَنَتي بأن المشردين لا يتعرضون لأحد بالأذى، وأن جارها الذي يقطن في المبنى الآخر يحق له طرد أي مشرد قد يعتدي على حدود ملكيته الخاصة، إلا أنها لا تستطيع بدورها منع أي مشرد من افتراش المناطق المحيطة.

اختلطت مشاعري بين الشفقة على المشردين الذين يفترشون زوايا مختلفة تطل عليها شرفتي، وبين خوفي الفطري منهم، فسارعت لاستخراج كتاب «**الخوف السائل**» من حقيبتي، وراجعت أحد أعمق أطروحات النقد الغربي للخوف في عالم ما بعد الحداثة.



يستهل **زيغمونت باومان** الفصل الخامس «**إطلاق عنان الخوف**» بمفارقة ذكرها عالم الاجتماع الفرنسي الراحل **روبرت كاستل**، وهي أن سكان الدول المتقدمة يعيشون في أحد أعظم المجتمعات الآمنة التي شهدها التاريخ البشري، لكنهم يشعرون في الوقت نفسه بأنهم أكثر عرضة للخطر والخوف وفقدان الأمان من كل المجتمعات السابقة. وهذا الشعور لا يصدر عن ندرة الحماية -بحسب **كاستل**- بل عن عدم وضوح نطاقها في مجتمع بات يتمركز حول بحث مسعور عن الأمن[1].

يعقّب **باومان** بأن الهوس المتزايد بالأمن هو أثر جانبي للوعد الحديث بإمكانية تحقيق «أمن تام»، وكأن هذه الحياة الدنيا قد صيغت في عقول «**أنبياء الحداثة**» على غرار الجنة التي فقدت العلمانية الأمل بها، فالإنسان الحداثي سيظل يعاني -في رأي باومان- طالما ظلّ تحقُّق هذا الوعد بعيدَ المنال، وسيؤدي الإحباط والشعور بإهانة العجز إلى تحويل القلق المتزايد إلى رغبة عارمة في تحديد المتهمين ومعاقبتهم، ثم طلب التعويض عن الآمال المفقودة.

يضيف الفيلسوف البولندي أن الأزمنة قبل الحديثة كانت تصارع ثلاث مخاوف

(1) زيغمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، ط2، 2019، ص 175.

كبرى: قوى الطبيعة الجامحة، وهشاشة الجسد البشري، والعدوان البشري. وبعدما حققت الحداثة نجاحات كبرى في مواجهة تحديات المجالين الأول والثاني، ما زالت تحقق فشلًا وتراجعًا مُعاكِسًا في المجال الثالث، بل تحول الكثير من الذعر الذي كان يتولد عن ضعف الإنسان أمام الكوارث الطبيعية والأمراض نحو الخوف من الإنسان الآخر، وأصبح من الضروري إيجاد نوايا خفية لدى «شرير بشري» تُعزى إليه المخاوف الظاهرة[1].

وبالعودة إلى **كاستل**، فالنزعة الفردية (الفردانية) التي زرعتها الحداثة العلمانية هي المسؤولة الأولى عن هذا التدهور، حيث استبدل المجتمع الحداثي بالجماعات التقليدية التي كانت تحمي الفرد الواجبَ الفردي المتمثل بالمصلحة الذاتية، حتى صار الفرد مضطرًّا لتحقيق مصلحته والتفكير بمنطق أناني دون اكتراث لمصالح الآخرين، بل وعلى حسابهم. وفي مجتمع يتكون من أفراد مشغولين بهذه الهواجس، لا يصبح الخوف بنفسه هو الخطر، بل ما يتولد عنه من تغيير في قواعد ونمط الحياة كلها، إذ تصبح حياة الناس قائمة على العيش خلف الأسوار والحرس والسيارات المصفحة وكاميرات المراقبة، ويصبح من الضروري شراء الأسلحة الفردية وتعلم مهارات القتال والدفاع عن النفس، ويسقط الناس في «دورة الخوف» التي تتوالد فيها الأفعال الناشئة عن الخوف إلى ما لا نهاية[2].

يقول **باومان** إن الأمور كانت تتطور في ظل الحداثة بالاتجاه العكسي تمامًا، فبدلًا من نشر السلوك المهتدي بهدي العقل ليصبح هو السائد مثل قوانين الطبيعة، انحطّ سلوك الإنسان إلى دركات الطبيعة «**غير العقلانية**»، ولا ننسى في هذا السياق أنه يتحدث من منطلق إلحادي، أي أن الكوارث الناجمة عن أفعال الإنسان -وهو مخلوق واعٍ- أصبحت تماثل الكوارث الطبيعية «**العشوائية**»[3]، وهذا الاعتراف القاسي يُدين في رأيي الإلحاد

(1) المرجع السابق، ص 176- 177.

(2) المرجع نفسه، ص 179.

(3) المرجع نفسه، ص 122.

نفسه عندما أخرج الوحي من المعادلة وجعل الأمر رهينة شهوة الإنسان، حتى لو كان واعيًا.

في الماضي، كان الإنسان يشعر بضعفه أولًا إزاء الطبيعة القاهرة، وفي عقيدتنا الإسلامية هو خوف مرتبط أساسا بالغضب الإلهي، وبالحكمة الإلهية الكامنة في أي مصيبة يقتضيها القدَر، ثم يأتي الخوف من الإنسان الآخر ثانيًا. لكن الحداثة المندفعة بقوة العلم لم تعجز فقط عن القضاء على كل المخاوف الناجمة عن الكوارث الطبيعية -التي يتزايد بعضها أيضًا بفعل الحداثة الجشعة كالاحتباس الحراري والفيروسات المهجنة في المختبرات- بل تراجعت كذلك عن منح دولة الرفاه الاجتماعية سلطة مواجهة المصائب عبر سياسات الضمان الاجتماعي لتضعها في يد القطاع الخاص، وتكمن المصيبة هنا في أن الشركات الكبرى مملوكة أصلًا لأكثر الناس شرًّا، وهم أصحاب المليارات الذين قد لا يترددون في القضاء على مليارات البشر لتحقيق مصالحهم الذاتية.

الرأسماليّة اكتسبت شرعيتها الأولى من ثورتها على ظلم الإقطاعيين الجشِعين، وبالأحرى ظلم تحالف رجال المال مع رجال السلطة، ومنحت الإنسانَ الحديث الأمل بامتلاك وسائل الإنتاج وحرية العمل والتنقل، ثم انتهت إلى إعادة تمركز المال والسلطة في يد النخبة، وإلى قصر خيارات الإنسان العادي على العمل بين شركات محدودة، بينما تكاد فرصه في النجاح الفردي بالاستقلال عن المنظومة تتقلص إلى درجة العدم، كما ترتبط تقريبًا كل مجالات حياته المادية والنفسية والاجتماعية والتربوية والثقافية بشبكة معقدة من القوانين التي تصب أخيرًا في مصلحة أباطرة المال، فأين هي المدينة الفاضلة التي تعلقت بها أحلام الحداثة، وأين هو «**الحلم الأمريكي**» الذي وعد به المؤرخ **جيمس تراسلو أدامز** عندما كتب في أول الثلاثينيات عن قدرة الأمريكيين على تحقيق «**حياة أفضل وأكثر ثراء وسعادة**»؟[1]

(1) Jim Cullen, The American Dream: A Short History of an Idea that Shaped a Nation, Oxford University Press, 2004, p 4.

الرأسمالية المتوحّشة

بعدما خرجت الدول الرأسمالية الصناعية من الحرب العالمية الثانية وهي على حافّة الانهيار، كان لا بد للحكومات أن تلعب دور الريادة في كل المجالات حتى يتعافى الاقتصاد والمجتمع، وفي سبعينات القرن العشرين كانت معظم مشاريع إعادة الإعمار في الدول الغربية قد نجحت وحققت أهدافها، لتظهر على السطح دعوات إعادة القطاع الخاص إلى الريادة وكف يد الحكومات.

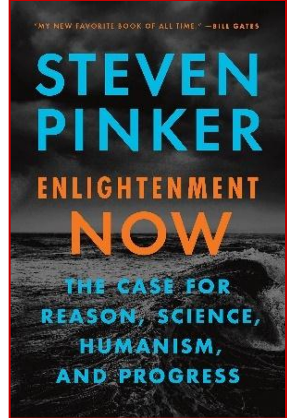
تم وضع هذه النظرية المسماة بالنيوليبرالية موضع التطبيق مع وصول مارغريت تاتشر ورونالد ريغان إلى السلطة في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، فخُفِّضت الضرائب على الأثرياء، وتقلص الإنفاق الحكوميّ العام، وخسرت النقابات العُمّالية الكثير من صلاحياتها، وفي الوقت نفسه أُطلقت يد الشركات العابرة للحدود لتشكّل النظام العولمي الذي بتنا نعرفه لاحقًا.

لم تقتصر هذه السياسة الاقتصادية -التي باتت تسمى في الأدبيات الناقدة لها بالرأسمالية المتوحّشة- على اقتصادات الدول العظمى، بل باتت منهجا معتمدًا لدى المؤسسات الدولية الكبرى، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، حيث فرضت بدورها هذه السياسة على الدول النامية التي لم تتمكن بعدُ من بناء اقتصادات وطنية تقوى على دخول السوق ومنافسة العمالقة.

ووفقا لكتاب عقيدة الصدمة، للمؤلفة **نعومي كلاين**، تمكنت تلك المؤسسات المدعومة بقوة الإعلام والضغوط الدبلوماسية والسياسية من الهيمنة عالميًّا عن طريق مبدأ الصدمة، فالدول المنكوبة بالكوارث الاجتماعية والسياسية والطبيعية قد تضطر للرضوخ لتلك السياسات القاتلة كي تحصل على بعض المعونات والقروض، ما دفع كلاين لتسمية هذا النظام المتوحش باسم «**رأسمالية الكوارث**».

إذن فالكوارث الطبيعية أصبحت في النهاية مدخلًا لاستعباد الإنسان أينما كان، فهو في الدول المتقدمة رهينة لأصحاب المليارات الذين يملكون شركات التأمين والمستشفيات

ومصانع الأدوية ووسائل الإعلام، ويضغطون أيضًا عبر جماعات الضغط (اللوبيات) على دوائر صنع القرار، وهو في الدول المستضعفة رهينة للمؤسسات الدولية الخاضعة بدورها لنفس الأثرياء السابق ذكرهم.



ومع ذلك، يحاول مثقفو النيوليبرالية إقناع العالم بأنه يسير على ما يرام ويتجه نحو الأفضل، ففي 2018 نشر عالم النفس الكندي الأميركي **ستيفن بنكر** كتابًا بعنوان «**التنوير الآن: قضية العقل والعلم والإنسانوية والتقدم**»، ودافع فيه بشراسة عن أسطورة تقدم العالم، كما قدم محاضرات يدافع فيها عن نظريته مهاجما خصومه «الرجعيين».

والطريف أن من يراهم **بنكر** رجعيين يسمون أنفسهم «تقدّميّين»، ومن بين العديد من الردود القوية التي نشرها هذا التيار أعجبني مقال طويل نشره **جيرمي لينت** مفنّدًا فيه كل ما قدمه بنكر من أدلة، إذ يقول لينت إنه يتّفق مبدئيًّا مع الكثير مما أورده بنكر في كتابه المحشو بخمسة وسبعين رسمًا بيانيًّا للتأكيد على أن العالم يشهد تراجعًا في العنف وزيادات مذهلة في الصحة وطول العمر والتعليم وحقوق الإنسان، لكن بنكر يغفل جوانب أخرى كارثية، فالصورة الكاملة للعالم -من دون سقوط في مغالطة التحيز التوكيدي- تكاد تُسقط أسطورة التقدّم كلها.

أثبت **لينت** برسوم بيانية كثيرة أن العالم يتراجع نحو الوراء في جوانب كثيرة، أهمها ارتفاع انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، والانخفاض في كمية المياه العذبة، وزيادة عدد المناطق غير الصالحة للحياة، والانقراض المرعب لأنواع كثيرة جدًّا من الكائنات. وعلى سبيل المثال، إذا كان الناتج المحلي الإجمالي العالمي قد زاد 22 ضعفًا منذ عام 1970، فإن هذا «**التقدّم البشري**» في الاستهلاك قد جاء على حساب انخفاض بنسبة 58٪ في أنواع الفقاريات، وبنسبة 81٪ من الكائنات في المياه العذبة!

المصيبة لا تقتصر أيضًا على ما يفعله جشع الرأسمالية بالبيئة وبقية الكائنات، فحياة معظم البشر تتجه نحو المزيد من البؤس. عقلية بنكر المادية الانتقائية تركز مثلا على زيادة توافر الملابس والمواد الغذائية ووسائل النقل وانخفاض تكلفة الكهرباء، إلا أنه يُغفِل تمامًا -كما يقول **لينت**- أن هناك نقطة ينفصل عندها النشاط الاقتصادي عن الرفاهية، فالناتج المحلي الإجمالي يكتفي بقياس معدل تحويل الطبيعة والأنشطة البشرية إلى الاقتصاد النقدي، ولكنه لا يهتم بجودة الحياة الناجمة عنه، وبالأحرى لا يقيس مدى سعادة الإنسان ورضاه عن حياته.

ويضرب **لينت** مثالًا ببعض السكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في غابات الأمازون بالبرازيل، والذين أجبرتهم مشاريع الرأسمالية على ترك أراضيهم لبناء **مجمّع كهرمائي**، والانتقال إلى العيش في المدن المكتظة، إذ يقول أحدهم إنه لم يكن بحاجة إلى المال لكي يعيش سعيدًا، فقد كان يزرع أرضه بما يحتاج، ويصيد أسماكه من النهر، وهو فخور بتربية أبنائه، أما الآن فهو يعيش على راتب تقاعدي حكومي لا يكاد يغطي تكاليف العيش في شقة مؤجرة داخل أحد أكثر الأحياء عنفًا![1]

الماركسية ونهاية التاريخ

في بداية سبعينيات القرن العشرين، وبينما كانت النيوليبرالية تشقّ طريقها للسيطرة على الغرب وما يدور في فلكه كما أسلفنا، كانت الشيوعية في المقابل ما تزال في أوجها، ليس فقط في الاتحاد السوفييتي والصين، ولا حتى في الدول النامية المتطفلة عليهما، بل تسلّلت أيضًا إلى بعض دول أوروبا الغربية التي لم يخلُ مشهدها السياسي من أحزاب اشتراكية وشيوعية صريحة.

وفي تلك الأجواء من الحرب الباردة، كتب المفكر الفرنسي الماركسي **هنري لوفيفر**

(1) Jeremy Lent, Steven Pinker's Ideas About Progress Are Fatally Flawed. These Eight Graphs Show Why, resilience.org, 18 May 2018.

كتابه «**نهاية التاريخ**»، وهو كتاب فلسفيّ معقّد، يعيد قراءة سيرورة التاريخ من خلال نظرية الجدليّة (**الديالكتيك**) لدى هيغل[1]، وصراع الطبقات لدى ماركس، وتراتبية الحضارات لدى نيتشه.

وفي ختام دراسته، يستشهد **لوفيفر** برؤية نيتشه لمأساة الإنسان بعدما أعلن «**موت الإله**»، فعندما تبلغ المأساة أوجها يترك «**موت الإله**» المجال حرًّا للقسوة والجنون. ثم يتساءل عما سيحدث إذا اندلعت حرب عالميّة جديدة، ليس بين معسكري الشرق والغرب كما كان متوقَّعًا بل بين الاتحاد السوفييّتي والصين الشيوعيّتين، معتبرًا هذه الخطوة بمثابة تدمير ذاتي للتاريخ[2]، فمتوالية صراع الطبقات التي تقوم عليها الماركسيّة كلها لا بد أن تصل إلى نهايتها يومًا ما، والسؤال الملحّ على العقل الشيوعي الملحد آنذاك هو: وماذا بعد؟ وكيف سيكون شكل «**الخروج من التاريخ**»؟

كانت المدينة الفاضلة التي تنبأ بها ماركس تفضي إلى نهاية حتمية للتاريخ، تسود فيها المساواة عندما يملك العمال وسائل الإنتاج، ولكن التجربة التطبيقية للفكرة، والتي بدأت بالكثير من الحماس الثوري قبل أن تتحول إلى إحدى أبشع كوارث الدكتاتورية العمياء، أعادت كما يبدو إلى عقول الفلاسفة السؤال عن المصير، لذا لم يستبعد **لوفيفر** في آخر كتابه خيار الكارثة[3]، ثم أعاد الاعتبار -في الصفحة الأخيرة- للمدينة الفاضلة قائلًا «**لا معرفة للمكان ولا للأنماط بدون يوتوبيا، بدون خيال**»[4]!

ما حدث لاحقًا للنموذج الماركسي، سواء كان اشتراكيًّا أو شيوعيًّا، لا يخفى على

---

(1) نظرية الجدلية طورها الفيلسوف الألماني جورج فريدريش هيغل في القرن التاسع عشر، وهي تفترض وجود قانون حتمي لتطور الأشياء وصيرورتها عبر ثلاث مراحل: الطرح والنفي ونفي النفي، ومن خلال هذا التطور الحلزوني تتقدم البشرية في مجالات التاريخ والطبيعة والفكر، ثم قام ماركس وصديقه إنجلز بتطبيق هذه النظرية على التاريخ وافترضا أن «المادية الجدلية» هي سر تفسير كل ظواهره، بل زعما أنها قانون حتمي لا بد منه، وأن الشيوعية ستكون التطور الأخير الذي تكتمل به حلقات الصراع.

(2) هنري لوفيفر، نهاية التاريخ، ترجمة فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة السورية، ط1، 2002، ص 214.

(3) المرجع السابق، ص 216.

(4) المرجع نفسه، ص 220.

القارئ الكريم، فلم تنجح أي دعاية في إقناع أحد خارج هذه المنظومة بأن هناك مدينة فاضلة في هذا المعسكر بالفعل. ولم نسمع عن محاولة واحدة للهروب من الجانب الرأسمالي في برلين إلى الجانب الشيوعي، بل العكس دائمًا، والسوفييت هم الذين بنوا سور برلين خوفًا على الشعب المقموع من تنفّس هواء الحرية الذي يمكن أن يتسرّب من الطرف الآخر.

ومع أن النموذج انهار تقريبًا بانهيار سور برلين وانحلال الاتحاد السوفييتي، ما زالت كوريا الشمالية تتشبّث به وتصر على عزل شعبها للأسباب نفسها، وما زالت محاولات الهروب التي قد تنتهي بالقتل تأتي من الطرف الشيوعي حصرًا، فلن يفكّر أحد طبعًا من سكان كوريا الجنوبية (الرأسمالية) بزيارة الجارة الشمالية لأي هدف، فضلًا عن أن يخطر على باله العيش في ذلك البلد الذي يصر طواغيته على أنه المدينة الفاضلة الوحيدة على هذه الأرض!

ويبدو أن تجربة تفكيك الشيوعية من الداخل في ألمانيا الشرقية تتكرر اليوم بالضبط في كوريا الشمالية، ففي فيلم وثائقي استغرق تصويره بكاميرات خفية سبع سنوات، نرى كيف يخاطر الكثير من مواطني هذه الدولة المعزولة بحياتهم في التقاط موجة إذاعة مخصصة لهم من كوريا الجنوبية، وهي تخاطبهم بنفس الخطاب الذي كان الإعلام الغربي يوجهه لسكان ألمانيا الشرقية، كما يتداول الكوريون الشماليون بالخفاء أقراصًا مدمجة للأفلام والمسلسلات الأمريكية التي تُعتبر مشاهدتها جريمة، وهم متعطشون لاكتشاف ثقافة ونمط عيش الغربيين[1]، ولا أستبعد أن ينفجر غضبهم قريبًا كما يحدث لكل الشعوب المقهورة.

أحلام الشعراء والفلاسفة

لم يكن **ماركس** سوى جزء من سلسلة الحالمين على مر التاريخ، فأسطورة «**المدينة**

(1) فيلم وثائقي بعنوان «الحياة اليومية في كوريا الشمالية- نظرة من الداخل»، بثته قناة دويتشه فيله DW بتاريخ 26 يناير 2021.

الفاضلة» داعبت خيال كبار العقول، منذ أن وصفها أفلاطون الذي انتقد الديمقراطية في أثينا، وحتى عصرنا الحالي.

في القرن الرابع قبل الميلاد، وضع **أفلاطون** خلاصة نظريّته الاجتماعية في كتاب سماه «**الجمهورية**»، ووصف فيه حلمه بإقامة الجنة الأرضية التي صار يطلَق عليها تاريخيًّا مسمى مدينة أفلاطون الفاضلة، والتي باتت أيضا مضرب المثل في أحلام الفلاسفة المفارِقة للواقع.

تخيّل **أفلاطون** إقامة نظام مشاعي في مدينته الخيالية، حيث تنعدم الملكية ويصبح كل شيء مشتركًا بين السكان، ولا يقتصر الأمر على الأشياء المادية، فحتى النساء يصبحن ملكيّة عامة، ومن ثم يصبح الأطفال الناتجون عن العلاقات العابرة في عهدة الحكومة التي يديرها الفلاسفة، ويسود فيها القانون، وتختفي منها الجريمة.

كما تحدث أفلاطون في محاورتيه مع **طيمايوس وكريتياس** عن قارة «**أطلانطس**» التي بلغت ذروة التقدم العلمي والرفاه الاجتماعي قبل أن تختفي، فأشعل بكلماته هذه حُمّى البحث عن القارة الغارقة طمعًا في الوصول إلى أسرار الحكمة المفقودة، بينما يستمر الجدل حتى اليوم عما إذا كان أفلاطون قد تحدّث عن جزيرة فاضلة حقيقية أم عن أسطورة.

وعلى أي حال، كان حلم المدينة الفاضلة مسبوقًا بأساطير شعريّة قبل أن يعيد أفلاطون صياغتها فلسفيًّا، فملحمة **الأوديسّا** المنسوبة **لـ** «**هوميروس**» تحدّثت عن **حدائق الكينوس** التي تشبه الجنة، حيث لا شيخوخة ولا أحزان ولا تنافس على المال والثروة، والأمر نفسه نجد أيضًا في ملحمة **هزيودوس** الذي تخيل مكانًا جميلًا لا يخوض أهله المعارك ولا يعانون من شقاء العمل.

وحتى بعد نظريّة أفلاطون، واصل الشعراء وصف المدن الفاضلة في ملاحمهم، مثل **سيدرينوس** الذي وصف أماكن خياليّة وصل إليها الإسكندر المقدوني في فتوحاته بمصر

والهند، وتكرّر هذا لدى **أوفيد** الشاعر الرومانيّ عندما تخيّل مجتمعًا تجري فيه أنهار من اللبن والعسل.

وفي عالمنا الإسلامي، لم يتخلّف بعض الفلاسفة عن اقتباس الفكرة ومحاولة أسلمتها، وكان أبرزهم الفيلسوف **أبو نصر الفارابي**، الذي وضع في القرن العاشر الميلادي كتابه «**آراء أهل المدينة الفاضلة ومضادّاتها**» على نفس الأسس الأفلاطونيّة، ولكن بنكهة إسلاميّة.

وفي بداية عصر النهضة الأوروبية، انتشرت الكثير من الأفكار الجديدة والحالمة، ومنها محاولة إحياء فكرة «المدينة الفاضلة»، فنشر القس الكاثوليكي ووزير العدل الإنجليزي **توماس مور** كتابه «**اليوتوبيا**» عام 1516 مستلهمًا -كما يبدو- أفكارَ أفلاطون والفارابيّ، ومُضْفِيًا على الأسطورة صبغته المسيحيّة، فتخيّل وجود جزيرة لها نظام أقرب إلى الشيوعية، تسود فيها المساواة والعدالة الاجتماعيّة، وتخلو من العبوديّة والإقطاع والتمييز والطبقيّة.

انتشرت هذه الفكرة مع انفتاح الأوروبيين على العالم في عصر «**الاكتشافات**» الجغرافية، وكأنّ الفلاسفة الطوباويّين كانوا يحلمون بإيجاد جزر بعيدة تتمتع بالوفرة والبركة لإقامة مدن فاضلة عليها، بعيدًا عن تراكم الظلم في بلادهم، وربما يأسًا من إصلاحها.

ومن هؤلاء أيضًا الإنجليزي **فرانسيس بيكون** الذي كتب كتابًا عن «**أطلانطس الجديدة**» عام 1627، واليهودي **صموئيل هارتليب** الذي كتب عام 1641عن مملكة «**ماكاريا**» التي أنشأها الفينيقيّون في ليبيا، لتكون تلك المدينة الفاضلة موطنًا لليهود بعدما ضاقت بهم أوروبا.

من المزارع والغابات إلى الروبوتات

لم يقتصر الأمر على التنظير والشعر، إذ حاول بعض الحكّام في العصور القديمة تنزيل

الحلم على الواقع بسنّ تشريعات جديدة وإنشاء بنى تحتيّة متميزة، أَمَلًا في بناء المجتمعات النموذجيّة، ومنها بعض المحاولات في إسبرطة وجزيرة كريت ومدينة قرطاج وجزر ليباري الإيولية قرب إيطاليا، كما شهدت جزيرة صقلية محاولة لتطبيق حلم أفلاطون، ولكن لم يذكر لنا التاريخ أنّ أيًّا من هذه «**المدن الفاضلة**» قد نجح واستمر.

وفي العصر الحديث، ربما تكون التعاونيّات الزراعية من أفضل المحاولات وأكثرها قربًا من أحلام الفلاسفة، وهي مجتمعات صغيرة تقوم على الأفكار الاشتراكية ونفي الاستغلال، بدأ انتشارها في القرن التاسع عشر في الأرياف الأمريكية والأوروبية، كما طبّقها المستوطنون الصهاينة الأوائل على أرض فلسطين المحتلة تحت مسمى «**كيبوتسات**».

لكن معظم هذه المحاولات ظلت مرهونة بمشاريع سياسيّة، وتأثّرت طبعًا بتقلّبات الحكومات، ولم تخرج عن نطاق المشاريع التجريبيّة التي تطبّق على بُقع جغرافيّة ضيّقة، على أمل أن يؤدّي النجاح الجزئيّ إلى توسيع الدائرة لاحقًا لتشمل أممًا وشعوبًا واسعة، وربما يتمنّى الحالمون أن تدخل البشريّة كلها تحت جناح مشاريعهم.

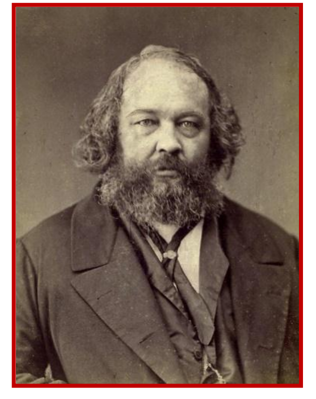


وتحضرني في هذا السياق المحاولات الشبابية العفوية التي لم تنتظر الحكومات لتُحقق أحلامها، فبعد انتشار حالة اليأس من الحضارة كلها عقب الحرب العالمية الثانية وتفجير القنبلتين النوويتين على رؤوس العباد في اليابان، بدأت حشود من الشباب الغربيّين باعتزال المدن والقرى وتأسيس مجتمعات «**الهيبيز**» في الأرياف على طريقتها الخاصة، وهي خليط من المشاعية (الشيوعية) والإباحيّة الجنسيّة والتحرّر من كل الحمولات الفكريّة والأخلاقيّة والسياسيّة، وشعارها هو «Make Love, Not War»، وهو لا يعني كما يبدو للوهلة الأولى «اصنع الحب وأوقف الحرب» بل «**مارس الجنس لا الحرب**»!

ارتبطت هذه الشعارات بما يسمى بالثورة الجنسيّة في الستّينات، ولاسيّما خلال مظاهرات رفض حرب فيتنام في أمريكا، إلا أن الطابع الشهواني جعلها ظاهرة غربية عامة، وأقيمت على أساسها قرى للعراة في الغابات، يعيش فيها الشباب والفتيات كالحيوانات تمامًا، وهم غارقون في نشوة الجنس والمخدرات والخمور، فكان من الطبيعي أن تنتهي هذه التجربة بالفشل الذريع أكثر من أي محاولة أخرى على هامش التاريخ الحديث، إذ لم تنجح سوى في تحويل الإنسان الغاضب إلى حيوان شهوانيٍّ، ولم تجرّده من غرائز «**الحرب**» بإحلال غريزة الجنس مكانها، فالحيوانات التي حاول «**الإنسان الحديث**» العودة إلى «**فطرته**» بتقليدها هي أيضًا تعيش في حالة صراع وتنافس دائم، ليس فقط لندرة الموارد وتحصيل الحد الأدنى من مقومات العيش والتكاثر، بل لشهوة السلطة التي لا تخلو منها الحيوانات كما بات معروفًا ومُثْبَتًا بالدراسات البيولوجية والأفلام الوثائقية، وقد ترتكب تلك الحيوانات فعل القتل ضد أبناء جنسها في هذا الصراع الطبيعي، وهي غرائز لا تُكبَح إلا بالعقل والفكر والوعي، وقد لا يُتّفق على تقبيحها بالفلسفة من دون الاستناد إلى حكم الوحي.

ظلّت ظاهرة **الهيبيز** تلهب خيال الشباب في الغرب نحو ثلاثة عقود، واضطرّت الحكومات في بعض الأحيان للتضييق عليها قانونيًّا وإعلاميًّا، لاسيّما أنّها كانت تجاهر باستعمال المخدّرات التي تجرّمها القوانين، كما أنها بدت انتكاسة للحضارة نحو الحياة البدائيّة، وكان مصيرها في النهاية التلاشي، أو على الأقلّ تراجع الشعبية نحو أشكال أخرى من التمرّد.

ربما سمعت عزيزي القارئ عما يسمّى بالفوضويّة في وسائل الإعلام، وهي ترجمة غير موفقة لمصطلح «**الأناركية**»، وهو تيّار ثوريّ راديكاليّ، يدّعي منظّروه عدم حاجة المجتمع البشري للسلطة لأنه قادر على تدبر أموره بإدارة جماعيّة، وهذه الفكرة موجودة منذ القدم، وقد تبنّاها فريق من الخوارج في العالم الإسلامي وحاربوا من أجلها، إلا أنها تأخذ اليوم طابعًا حداثيًّا، وتسعى لإنشاء مدينتها الفاضلة على طريقتها «**الفوضوية**».



ومن أبرز منظري هذا التيار الفيلسوف الروسي الملحد **ميخائيل باكونين** (توفي عام 1876)، الذي كان عضوًا في محفل **بروغريسو سوسيال** الماسوني التابع للشرق الأعظم الإيطالي، وقد شرح نظريّاته في كتابه «**الإله والدولة**»، مطالبًا فيه البشرية بالتمرّد على كل سلطة، بدءًا بسلطة الإله، ثم سلطة الدولة والأب والزوج. واعتبر أن حرية الإنسان لا تتحقّق إلا بالامتثال «**للقوانين الطبيعية**»[1]، وهي القوانين المتخيَّلة التي لم يستطع باكونين ولا غيره تقديم خلفية مقنعة لمنشئها المجرد عن الهوى والأيديولوجيا، وسأعود إلى هذه النقطة بعد قليل.

في عام 1996 نُشرت رواية «**الشاطئ**» The Beach للكاتب الإنجليزي **أليكس غارلاند**، وهي قصة مُتخيّلة لمجموعة من الشباب والفتيات الغربيّين الذين يفرّون من حضارتهم إلى جزيرة استوائية معزولة لم تمسّها السياحة في تايلاند، حيث يؤسسون هناك «**مدينتهم الفاضلة**» معتمدين على أنفسهم بأساليب حياة بدائيّة، ويستمتعون طبعًا بالإباحية والعبث والتحلّل من كل المسؤوليّات، لكن هذه الصورة الشاعريّة سرعان ما تتبدّل عندما تبدأ غرائز التوحّش بالظهور، فتسود مشاعر التنافس والغيرة في بيئة لا يحكمها قانون، ثم يكتشف هؤلاء المغامرون أن مشاعرهم نفسها بدأت بالتلاشي بدلًا من التوهّج، أي أنّ انغماسهم في الحياة الشهوانيّة وسط الطبيعة البكر حوّلهم إلى حيوانات وليس إلى ملائكة، وعندما تصبح قائدة الجماعة على وشك الوقوع في جريمة ينحلّ العقد ويسقط الحلم، ويعود كل منهم إلى حياته السابقة في العالم الواقعيّ.

مع تطوّر التكنولوجيا الحديثة، وتوالي التحذيرات من الكوارث المحدِقة جرّاء التلوّث والاستهلاك المفرط ووحشية الرأسمالية، تنتشر في العقود الأخيرة دعوات لإنشاء

(1) Peter H. Marshall, Demanding the Impossible: A History of Anarchism, Fontana, 1993, p 287.

«**مدن فاضلة**» نموذجيّة على أسس التنمية المستدامة واستخدام الطاقة المتجدّدة، وغالبًا ما تهتمّ هذه الدعوات بالجانب التقنيّ من دون خوض في السياسة والدين والاقتصاد، أو هذا ما يزعمه أصحابها غالبًا، مع أن التدقيق يكشف عن أمر آخر.

ومن أهم هذه المشاريع «**مشروع فينوس**» The Venus Project الذي أطلقه المهندس والمصمّم اليهودي الأمريكي **جاك فريسكو** في التسعينات، بعدما فشلت محاولات سابقة له في استقطاب التمويل والتأييد لمشاريع أصغر، ومع أن مشروعه هذا لم يحقّق النجاح العملي المأمول إلا أن مؤيديه ما زالوا في ازدياد، حتى بعد وفاته عام 2017 عن عمر يناهز المئة.

تقوم الفكرة على إنشاء مدن ذكية مكتفية ذاتيًا وموفّرة للطاقة، تعتمد أساسًا على أنظمة متقدمة في إدارة الموارد الطبيعية والتكنولوجيا والأتمتة، وهي مصمّمة على شكل دوائر مترابطة، ومعظم مبانيها على هيئة قباب، وتتناغم فيها العمارة مع الطبيعة لأداء الوظيفة المطلوبة على أكمل وجه.

في الصين أيضًا يجري العمل على إنشاء مُدن ذكية، ومنها مدينة يديرها الذكاء الاصطناعي باسم **وادي السحاب** (Cloud Valley)، تتولى فيها أجهزة الاستشعار جمع بيانات عن كل شيء، بدءًا بعادات الناس في الأكل ومشاهدة الأفلام، ووصولًا لحالة الطقس ونِسَب التلوّث. ومن خلال تنظيم كل المعلومات في عقل حاسوبي واحد سيكون بإمكان الروبوتات خدمة السكّان والزوار وتلبية احتياجاتهم على أفضل وجه، كما ستكون كل أسرار الناس أيضًا مكشوفة، وسيختفي مفهوم الخصوصيّة بذريعة توفير متطلّبات الحياة المرفّهة[1].

هناك محاولات ومشاريع أخرى لا بدّ أن القارئ الكريم قد سمع عنها أو عن بعضها، فالمنطقة العربية لا تخلو أيضًا من إعلانات طموحة لمدن ذكيّة تقفز بنا إلى مستقبلٍ يشبه

(1) بالتعاون مع شركة دانماركية.. «تيرمينس» مدينة ذكاء اصطناعي صينية تديرها الروبوتات، موقع الجزيرة نت، 13 ديسمبر 2020.

الخيال العلمي، وليس هذا مقام استعراضها ومناقشة خلفياتها، فمعظم هذه الأفكار تدور في الفلك المادّي البحت، ولا تتعرّض من قريب أو بعيد للجانب الروحي الذي يميز الإنسان عن بقية الكائنات، وليت شعري أين الفضيلة في «**مدن فاضلة**» تقرّ من الأساس بحيْوَنة الإنسان وتشييئه؟!

قارن عزيزي القارئ هذه الأحلام بما طبّقه رسول الله ﷺ عمليًّا في المدينة المنوّرة، وما واصل الخلفاء الراشدون العمل به من بعده. الإسلام لم يهتم ببناء القصور ومقرّات المؤسّسات الحكومية، ولعل حكمة الله اقتضت أصلًا أن يُبعَث رسولُه إلى العالم في بيئة مدنيّة بسيطة، فلا هي بدوّية يغلب عليها جفاء الصحراء وقِيَم المغالَبة والقتال وقطع الطرق وغياب هيكليّة الحكم والقانون، ولا هي عاصمة إمبراطورية ترسّخت فيها ثقافة العبوديّة للحكم الهرميّ وكرّست **الأوليغارشيّة** فيها سلطتها بوسائل السيطرة الماليّة والعسكريّة.

مكّة كانت مدينة يحجّ إليها العرب، إلا أنها لم تكن عاصمة كبرى تزهو بقصورها وجيوشها، أما يثرب فكانت مجمعًا لأحياء متفرقة تستوطنها القبائل، وتفرق بينها البساتين. وعندما أقام النبي المهاجر عاصمة دولته في يثرب أصبحت هذه «**المدينة المنورة**» موطنًا لقيادة سياسية تُبنى من الصفر، ولمجتمع مكوّن من أخلاط قبليّة تجمعها العقيدة الجديدة.

لم يكن مؤسّس هذه الدولة بحاجة إلى إقامة مشاريع البنى التحتية وتشييد القصور، ولا حتى المعابد. اكتفى ببناء مسجده المركزي من اللبِن (الطين المخلوط بالقش) وسعف النخيل، ثم أقام سوقًا للمسلمين (سوق المناخة) ليتخلّصوا من احتكار اليهود للتجارة، وحثّ أتباعه على ممارسة أعمالهم المعتادة من تجارة وزراعة لتسهيل شؤون الحياة، ثم كرّس معظم جهده لبناء الإنسان نفسه، أفرادًا ومجتمعًا، وجعل أساس حكمه العدل والاحتكام إلى الشرع الإلهيّ، كما جعل أساس بنية المجتمع إيمان أفراده بأن الإنسان ما خُلق ولا عاش ولن يُبعث إلا للامتحان، فكل عمل وبناء وسعي وجدّ واجتهاد ينبغي أن

يكون في سبيل الفلاح في ذاك الامتحان، وكل ما عدا ذلك فهو إمّا باطل، أو في أحسن الأحوال زائل.

حلم «العولمة الفاضلة»

دعنا نُعدْ ترتيب بعض مراحل الفشل عزيزي القارئ، فبينما كان البعض يصوغ أحلامه عن المدينة الفاضلة على المستوى الصغير كما رأينا سابقًا، كان هناك آخرون يحاولون التنظير لعالم فاضل، بل تجرّأ البعض على محاولة فرض رؤيته هذه بالقوة.

ربما كان الإسكندر المقدوني من أشهر الملوك الذين أَبْرَزَهم الغرب في العصر الحديث ممّن حاولوا إقامة نظام معولَم تحت سلطتهم، مع أن هذا الحلم قد راوَد ملوكًا آخرين سبقوه، ثم بذل الرومان جهدهم أيضًا وتوسّعوا في أوروبا ومنطقة الشرق الأوسط، أمّا أبرز المحاولات المجنونة في عصرنا الحديث فهي مشروع «**الرايخ الألماني**» أي الإمبراطورية الألمانية التي أرادت النازية أن تستعيد فيها مجد «**الإمبراطورية الرومانية المقدسة**»، وتخيّلت أنها ستقيم بعد سلسلة الحروب والفتوحات دولة هائلة تمتد على مساحة أوروبا كلها تقريبا، وستكون تطبيقًا واقعيًّا لحلم «**المدينة الفاضلة**»، لكن القضاء على هذا الحلم المجنون كلّف الغرب عشرات الملايين من البشر وتدمير أوروبا مع انقضاء الحرب العالمية الثانية.



تفرّغ بعدها العالَم لمشروعَين كبيرَين، حاول المنظّرون في كلٍّ منهما التأسيس لحلم مشابه، فمؤسّس الشيوعية **كارل ماركس** سبق أن صاغ نظريته على فكرة اكتمال التطور البشري بالشيوعية، وفي السبعينات كتب **هنري لوفيفر** كما ذكرنا كتابه «**نهاية التاريخ**». وعندما انهار الاتحاد السوفياتي وتفكّك المعسكر الشيوعي واندثر حلف وارسو في مطلع التسعينات، أصدر **فرانسيس فوكوياما** كتابه «**نهاية التاريخ والإنسان الأخير**» متأثّرًا بنشوة الانتصار.

افترض **فوكوياما** أن المدينة الفاضلة ستكون رأسماليّة لا شيوعيّة، وأن تطوّر التاريخ سينتهي عند هذه النقطة كما فعل أسلافه من المنظّرين الحالمين. وفي عام 2004 تراجع عن حلمه معترفًا بفشله، وتنصّل من المحافظين الجدد (إدارة بوش الابن تحديدًا) الذين وظّفوا نظريّته لغزو العراق وأفغانستان وشنّ «**الحرب على الإرهاب**» بذريعة فرض الديمقراطية على الكوكب بالقوة.

والآن، هل تراجع الحالمون عن مشاريعهم الكبرى؟ أعتقد أن مشاريع المدن الفاضلة على المستوى المحلّي الصغير لم تعد تتجاوز حدود الدعاية السياسية، وحتى التنظيرُ لليوتوبيا ربّما أصبح مدعاةً للسخرية وضربًا من الرومنسية الأسطوريّة. أما عندما يتعلّق الأمر بمشاريع عولميّة فربما سنسمع عن نظريات جديدة إذا تجاوزت الصين الولايات المتحدة اقتصاديًّا في العقود المقبلة، وسبق أن ذكرتُ في الفصل الأول من هذا الكتاب خفوت بريق مشاريع العولمة وتزايد شعبيّة الحركات الشعبويّة التي تفضّل الانكفاء بدلًا من التبشير بعالم فاضل تتسيّده.

مع ذلك، يواصل بعض المنظّرين توسيع الأفكار الجزئية أملًا في عولمتها خارج نطاق الصراعات السياسيّة، وبما أني حدّثتك عزيزي القارئ عن مشروع **فينوس** فسأشير إلى الحركة العالميّة التي أقيمت على أساسه.

ففي عام 2008 أطلق ناشط ومخرج أمريكي شاب يدعى **بيتر جوزيف** حركة أسماها **زايتغايست** Zeitgeist (**روح العصر**)، وهي الآن منظمة عالمية تقول إن هدفها هو زيادة

وعي المجتمعات بضرورة إقامة حضارة عالمية سلمية ومستدامة بالاستناد إلى مبادئ مشروع فينوس.

ويبدو من خلال منشورات وأفلام هذه الحركة أنها ليست سوى رؤية شيوعية مُطوَّرة تدمج بين أحلام ماركس وإنجازات التكنولوجيا، فهي ضد التملّك وتراكم السلع، وضد كل السياسات المصرفية الربوية والإقراض، وتعتمد رؤية علموية متطرفة في تقديسها للعلم بصفته قادرًا على تقديم الأجوبة والحلول لكل الأسئلة، وبطبيعة الحال فهي ترى في الذكاء الاصطناعي والأتمتة وخطوط الإنتاج القائمة على الروبوتات العلاج الناجع لمشكلاتنا ومشكلات الكوكب والطبيعة.

والحركة جريئة في ادّعاء عالميّتها وفي حلمها بأن تتّسع لتشمل المجتمعات كلها، مع أنّها لم تُطبَّق جزئيًّا في أي مجتمع حتى الآن، لكن تزايُد عدد أتباعها بفعل انتشارها على مواقع التواصل يوسّع نطاق هذا الأمل.

أما الجانب الأكثر جرأة فهو هجوم **حركة زايتغايست** على الأديان والفلسفات لتقدّم نفسها بديلًا عن كل شيء، فمنذ ظهور أول فيلم للحركة حاولت إقناع المشاهدين بأنهم ضحّية لمؤامرات دينيّة وماليّة وسياسيّة مظلمة للسيطرة على العالم، وأنها جاءت الآن لتحرّرهم. ومع أني قرأت في صفحاتهم على مواقع التواصل محاولات نفي الصدام مع الأديان، إلا أنّ هذه المراوغة تزيد الأمر سوءًا، فهم لا يكفّون عن نقد الأديان في كل فرصة، ولا يملكون -كغيرهم- القدرة على إيجاد مساحة محايدة بين الأديان، بل لا يعدو أمرهم محاولة انتزاع مساحة خاصة لابتكار دين جديد!

التعمّق في فلسفة هذا المشروع الحالم يكشف عن قدر كبير من السذاجة -إن أحسنّا النية- فالمدينة الفاضلة التي يحلم بها «أنبياء» زايتغايست هي مجتمع سلميّ ينظم شؤونه حاسوب خارق (ربما لم يُخترع مثيله بعد)، لديه ما يكفي من القدرة والمعرفة، وحتى الوعي، لإدارة العمليّات المعقّدة الكفيلة بتوزيع الموارد على الناس توزيعًا عادلًا، وفي وسط خال من الأموال والممتَلَكات الخاصة، وأيضًا من دون سجون ولا حروب ولا

صراعاتٍ سياسيّةٍ ولا تنافُسٍ بين الأحزاب، وحتمًا من دون مساجد ولا معابد ولا التفاتٍ لحاجات البشر الروحية.

لا يتّسع هذه المقام لمناقشة كل بندٍ ممّا سبق وإثبات استحالة تطبيق هذا الحلم، فما تقدّمه الحركة هو معضلات معقّدة أكثر من كونها حلولًا، وهي في النهاية لم تأت بأي جديد سوى حسن الظنّ بالآلات والتكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، إلا أنّ المشكلة الأساسيّة التي لم تلتفت إليها هي إمكانيّة تنظيم غرائز البشر القائمة على التنافس والصراع وحبّ الشهوات، فإقامة مجتمع «**المدينة الفاضلة**» على أساس علماني جديد لن يغيّر شيئًا من واقعنا الحالي.

عولمة الهويّة

مشاريع العولمة الحالمة لا يمكن تطبيق جانبها التقني والتكنولوجي مع إغفال الجوانب الأخرى التي تميّز الإنسان عن الآلات. فحتى لو كان منظّرو **حركة زايتغايست** أذكى مما هم عليه ولم يتطرّقوا للأديان بالنقد، فلا بدّ أن يقعوا في فخّ الصدام عندما يحين موعد التطبيق وتُطرَح عليهم الأسئلة الوجوديّة.

وإلى جانب هذه المعضلة، ينبغي على مشاريع الاندماج العولميّة إقناع الجماهير بالوحدة الإنسانيّة والهويّة العالميّة، فلا يمكنك تحويل الناس إلى مواطنين كوكبّيين من دون إعادة برمجة عقولهم على مفهوم جديد للهويّة يتخطّى الأديان والقوميّات والأوطان.

هنا تبرز أيديولوجية «**الكوزموبوليتية**» الليبراليّة، التي يقول دعاتها: إن البشر ينتمون إلى مجتمع عالميّ واحد، وإننا جميعًا مواطنون عالميّون لوطن واحد هو كوكب الأرض، وقد يصل الحلم بهؤلاء إلى افتراض أننا سنصل يومًا ما إلى إنشاء «**حكومة عالمية**»، وليس بالضرورة امتدادًا لمشاريع العولمة الحاليّة، بل بأي طريقة رومنسيّة أخرى.

يقال إن الفيلسوف اليوناني **ديوجين**، الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، كان يسمّي نفسه مواطنا عالميا، كما تحدّث الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط** في القرن التاسع عشر عن قانون عالميّ يمكن وضعه من قِبل الفلاسفة، ليكون بمثابة مبادئ إرشادية تسهم في تحقيق السلام الدائم في المجتمع العالمي.

وكما هو حال كل البدع التي انبهر بها البعض عندنا فانشغل بأسلمتها، تتبنى «**الليبرالية المتأسلمة**» نفس الأفكار محاولة إيجاد أصل قرآني لها. فعلى سبيل المثال، بعدما حاول المفّكر الجزائريّ **مالك بن نبي** رحمه الله (توفي عام 1973م) التنظير لنهضة إسلامية تقوم على أنقاض ما هدمه الاستعمار من تخلّف، تلقّف عنه هذه الفكرة كل من **جودت سعيد وخالص جلبي**، المفكّران السوريّان المتصاهران، ودمجا فيها فلسفة **المهاتما غاندي** الهندوسية في المقاومة السلمية، على اعتبار أنّها ستكون مقدّمة حتميّة لعلاج معضلة الشر في تاريخنا الدموي، قبل الوصول إلى إقامة الجنة الأرضية.

كرر **خالص جلبي** وصف حلمه في مقالات وحوارات عدة، ونجده مختصرًا في كتابه «**جدلية القوة والفكر والتاريخ**» عندما يقول: «لن يطول قدوم ذلك اليوم، حين يقف الناس في المتحف مشدوهين يتأمّلون فوهات المدافع أو أصناف الأسلحة التي لا تنتهي، والتي صُمّمت بعناية من أجل الفتك بالإنسان؟! سوف يتعّجبون من نوعية ذلك الإنسان البدائي (القاتل)، وينظرون إليه كما ننظر نحن اليوم إلى الديناصورات التي اختفَت من وجه اليابسة»[1].

وتنبني هذه الرومنسية الطوباوية لدى الدكتور **جلبي** على مفهومه المستورد والهجين لتطوّر البشرية، بدءًا بالتطوّر الدارويني للجنس البشري من أشباه القرود، ثم تطوّر العقل نفسه مع تطوّر الحضارة، وصولًا إلى نضج البشرّية وبلوغها سنّ الرشد بالبعثة المحمّديّة الخاتمة للأنبياء، وما جاء بعدها من تطور علمي مذهل على يد الغرب، فهو مضطر بعد تقرير هذه المقدمة إلى تقرير اكتمال ذاك النضج وإقامة الجنة الأرضية، حتى لو تضارب

(1) خالص جلبي، جدلية القوة والفكر والتاريخ، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1999، ص 17.

ذلك مع النصوص الإسلامية القطعيّة الواضحة بأن انهيار الأخلاق سيتزايد في آخر الزمان، حتى يعود الإسلام غريبًا كما بدأ، وستكثر الفتن والقلاقل والهرج والمرج، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق![1]

ولطالما وصف **خالص جلبي** نفسه بأنه «**مفكر عالمي**»، وعندما ذكّره الإعلامي تركي الدخيل في حوار ببرنامج «إضاءات»[2] بأنه يستشهد بآيات القرآن الكريم في كتاباته، أجاب جلبي بأن الإسلام دين عالميّ! مع أن عالميّة الإسلام لا تمت بصلة إلى «**الهويّة العالمية**» التي تحلم بعولمة فاضلة لا تقيم للدين وزنًا.

وفي منطقتنا أيضًا، ولكن من خارج الدائرة الإسلامية، يكرر بعض المثقّفين الحداثيين فكرة «**التقدّم**» Progress، وقد يعتنقونها كاعتناق الأديان. ومنهم أستاذ الفلسفة بجامعة الكويت سابقًا **ميشيل متياس**، الذي كتب مقالا عن «**التقدم في التاريخ**»، فهو يرى أن النظرة الفاحصة لتاريخ الحضارات تكشف عن عمليّة تقدّميّة، معتبرًا أننا ننمو في إنسانيّتنا بقدر ما نحقّق الإمكانات الكامنة في طبيعتنا الإنسانية. وعندما يخصّ واقعنا المعاصر بالحديث، يرى أنّ سُبُل البقاء على قيد الحياة أصبحت أفضل، ومن ثم فنحن نسير إلى الأمام ولا نتراجع[3].

الروائيّ اللبنانيّ أصلًا، والفرنسي لاحقًا، **أمين معلوف** وضع في أواخر الألفيّة الماضية كتابًا بالفرنسية عن «**الهويّات القاتلة**»، ليتساءل فيه عن سبب تحزّب وتعصّب الأعراق والشعوب والطوائف لهوياتها، متفائلًا في نهاية المطاف بأن تحقّق الحداثة -التي يعيش في كنفها بباريس- السلامَ الذي لم يجده عندما عاصر الحرب الأهلية في بيروت، ودون أن يهتم بالمجازر التي ارتكبتها «الهوية» الفرنسية في الجزائر ودول أفريقيّة عدة، ولا بمحاولاتها لطمس الهويّات الإسلامية والأفريقيّة على الجانب الآخر من البحر المتوسّط،

(1) روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية...».

(2) الحلقة تم بثها على قناة العربية في سبتمبر 2009.

(3) ميشيل متياس، التقدم في التاريخ، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، مايو 2014، ص 154.

ودون أن يلتفت أيضًا إلى الاستعباد الاقتصادي والمالي الذي ما زالت تطبّقه فرنسا تجاه مستعمراتها السابقة حتى اللحظة.

وكبقيّة المثقفين الذين تشكّلت عقولهم في ظلّ الحداثة، يحلم معلوف بأن تسلك المنطقة التي وُلد فيها الدربَ نفسه الذي سارت عليه أوروبا، ثم يختتم كتابه بتمنّي ذوبان كل تلك الهويات القاتلة في المستقبل، وأن يصبح الانتماء للبشرية هو الهويّة المتبقّية الوحيدة، وأن يكتشف حفيدُه يومًا ما كتابه مصادفة في مكتبة العائلة فيتصفّحه، «ثم يعيده فورا إلى الرف المغطّى بالغبار حيث تناوله، مستخفًّا ومندهشًا للحاجة إلى قول هذه الأمور في الزمن الذي عاش فيه جده»[1].

قد يبدو لك عزيزي القارئ أن أثر هذه النظريات الحالمة لا يتعدى حدود الساحة الثقافية النخبوية في الشرق والغرب، لا سيما مع تصاعد نفوذ التيار اليمينيّ في الغرب، لكن هذا الفكر العولميّ هو الذي أقيمت على أساسه المنظمات الدولية، وتسعى لنشره حكومات عظمى بشتى الوسائل.

أما نحن فنعلم أن معظم النبوءات الدينية المختلفة تشير في النهاية إلى انحدار البشريّة بدلًا من نضجها. وإن كان لدى المسلمين أمل في عودة الخلافة والعدل، ثم إقامة النبي عيسى عليه الصلاة والسلام دولة يعم فيها السلام والعدل والبركة والتوحيد، وفقًا للنبوءات النبويَّة الصحيحة، فلا ننسى ما يسبق تلك الفترة من فتن لا يطيقُها إلا أولو العزم، وسيخلفها أيضًا ما هو أشدّ[2].

العلمنة غطاء للشيطنة

تعدّ الفلسفة الإنسانويّة اليوم وعاءً فكريًّا للمشاريع العولميّة السابقة، ومحافلُ الجمعيّات السريّة –الماسونيّة وأخواتها– هي العقل المدبّر لها، والأمم المتّحدة وفروعها هي الحامل والراعي الرسمي لتنفيذها.

(1) أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت، ط 3، 2015.

(2) سنفصل الحديث عن هذه النبوءات وعما سيحدث في آخر الزمان في فصل «الخوف من الدجال».

يقول **كورليس لامونت**، الذي كان رئيسًا للجمعيّة الإنسانويّة الأمريكيّة عام 1977، إنّ الأديان كانت تعاني من نقاط ضعفٍ على مرّ التاريخ، بينما تتمتّع الإنسانويّة اللادينيّة بإمكانات مدهشة في توحيد الأمم وتحقيق ما عجزت عنه الأديان[1]. لكن هذه الدعاية لم تغيّر شيئًا من واقع الإنسانويّة عند التطبيق، فهي ليست سوى طرح أيديولوجي يصطفّ بجانب الأديان الأخرى ولا يشكّل بديلًا عنها، وهذا ما يؤيده الفيلسوف الفرنسي **لوي ألتوسير** بقوله «إن مفهوم النزعة الإنسانوية ليس سوى مفهوم أيديولوجي»، كما يقول الفيلسوف الألماني **مارتن هايدغر** إن النزعة الإنسانوية «تفكير من وجهة نظر ميتافيزيقية»[2].

عندما قرّرت الأمم المتحدة تخصيص وكالة فرعية للجانب الثقافي في مشروعها الأُمَميّ، أسّست في منتصف الأربعينيات منظمة التربية والعلوم والثقافة (يونيسكو)، وأوكلت مهمة إدارتها إلى البريطاني **جوليان هكسلي**، وهو عالم بيولوجيا مهووس بنظرية التطوّر الداروينيّ، وكان جده **توماس هكسلي** صديقًا شخصيًّا لـ **تشارلز داروين** مبتكر نظرية التطوّر، ومن شدة حماسه لنظرية صديقه أطلقت عليه الصحافة لقب كلب داروين «Darwin's Bulldog»، أما شقيق **جوليان** فهو الكاتب **ألدوس هكسلي** الذي يعد من أقطاب حركة العصر الجديد المهتمة بالروحانيات الشيطانية الباطنية (الغنوصية).

كان جوليان أيضًا رئيسًا لجمعيّة تحسين النسل البريطانية، ومن مؤيّدي تخفيض النمو السكّاني من خلال طرق تحديد النسل، ممّا تسبّب له بانتقادات من قبل الفاتيكان، وعلاوة على كل ما سبق كان جوليان أوّل رئيس للجمعية الإنسانويّة البريطانية!

يقول موقع اليونيسكو بكل وضوح: «في اعتبار جوليان هكسلي، لن يتحقّق تجاوز انقسامات العالم المتعدّدة إلا إذا تم وضع «**فلسفة عالميّة**» تستند إلى معرفة الثقافات، والتعليم والتعاون العلمي. بالنسبة للمدير العام، يجب أن تكون اليونسكو المؤسّسة

---

(1) إبراهيم الرماح، الإنسانوية المستحيلة، مركز دلائل، الرياض، ط 1، 1439هـ، ص 66.

(2) المرجع السابق، ص 67.

الدولية الوحيدة المُكلّفة بالإشراف على بروز ما يصفه بـ«**ثقافة دولية واحدة، تحمل في ذاتها فلسفة وخلفية فكرية خاصة**»»[1].

تخيل عزيزي القارئ أن شخصًا مُؤَدْلجًا مثل **هكسلي** هو الذي أوكلت إليه مهمة توحيد ثقافات العالم، وهو يؤمن صراحة بفلسفة تأليه الإنسان وازدراء الأديان!

في عام 1947، أراد **هكسلي** الحصول على تفويض من مفكري العالم لوضع إطار فلسفي لحقوق الإنسان، أي على الطريقة التي تناسب أيديولوجيته، وكان يسابق الزمن - بحسب اعتراف موقع اليونسكو نفسه- للحصول على هذا التفويض قبل أن تسبقه إلى ذلك اللجنة الدولية لحقوق الإنسان التي كانت قيد التشكيل تحت مظلّة الأمم المتحدة، فأرسل **هكسلي** رسالة إلى حوالي 150 جهة، ما بين مؤسّسات اجتماعية وهيئات عمومية وشخصيّات، يطلب منهم إفادته بالأسس الفلسفية العالمية لحقوق الإنسان، لكن لم يرد على استبيانه سوى حوالي 60 جهة.

وعندما علم أعضاء اللجنة الدوليّة لحقوق الإنسان بتحقيق اليونسكو هذا أعربوا عن غضبهم، ولم يقبلوا بنتيجته لفشله الذريع في تقريب وجهات النظر، الأمر الذي دفع اللجنة إلى العزوف عن نشر الاستبيان، لأن ما يراه رجال الأديان والكثير من الفلاسفة من حقوق للإنسان مختلف تمامًا عما تتبنّاه الأمم المتحدة وأشخاص مؤدلجون مثل **هكسلي**.



إليانور روزفلت تحمل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

ما حدث بعد ذلك كان أكثر سوءًا، إذ أوكلت الأمم المتحدة هذه المهمة إلى **إليانور روزفلت** أرملة الرئيس الأمريكي الأسبق **فرانكلين روزفلت** -الذي يقول عنه **وليام غاي كار** إنه كان يعدّ نفسه لزعامة العالم وفقًا لخطة المتنوّرين

(1) مقال بعنوان «نظرة معاصرة تعود لسبعين سنة»، موقع اليونسكو، ar.unesco.org، أبريل 2018.

الماسون بعد انتصاره على هتلر لكن الموت عاجله قبل نهاية الحرب العالمية الثانية[1]- فتولت **إليانور** رئاسة اللجنة الدولية المكونة من 18 عضوًا «**يمثّلون شتى الخلفيّات السياسيّة والثقافيّة والدينيّة**» كما تقول مصادر الأمم المتحدة، لكن الفريق الذي صاغ الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان كان مكوّنًا من تسعة أشخاص فقط، ليس بينهم مسلم واحد، لكن بينهم عربيّ مسيحيّ من لبنان هو الدكتور **شارل مالك**.

ولو عدنا إلى مذكرات **إليانور** سنجد تأكيدها على أنهم كانوا مهتمّين بالتعدّدية واستيعاب وجود أكثر من نوع واحد من الحقيقة المطلقة، وأنهم كانوا حريصين على ألا يعكس الإعلان الأفكار الغربية وحدها، وهذا جيد كما ترى عزيزي القارئ، لكن الأمر لم يتجاوز فلسفتهم الإنسانوية في نهاية المطاف، فإليانور تقول إن **شارل مالك** كان يلجأ إلى فلسفة **توماس أكيناس**، وإن العضو الصيني بونغ شونغ شانغ كان يطالبهم بالتمهّل بضعة أشهر لدراسة أسس الكونفوشيوسية[2]، ولكن ماذا عن الإسلام؟ وماذا عن المسيحية؟!

في أواخر عام 1948، وبغيابٍ تام لأي ممثّل عن الأديان الكبرى، تم اعتمادُ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في أجواء احتفاليّة وكأنه قرآن أو إنجيل نزل من السماء، وعلى الفور دعت الأمم المتّحدة جميع الدول الأعضاء إلى نشر نص الوثيقة في وسائل الإعلام حول العالم، وطالبتهم بتدريسه للأطفال في المدارس، وكأنه نصٌّ مقدّس يوحّد البشرية تحت راية **الإنسانويّة**.



والحقيقة أن أغلب بنود الإعلان العالمي مقتبسة من «**إعلان حقوق الإنسان والمواطن**» الذي تبنته سلطات الثورة الفرنسيّة عام 1789، وهو نص ماسونيّ بامتياز، ورموز الماسونية بادية فيه بوضوح، بل تتباهى الماسونية اليوم في كل مناسبة علنيّة بأنه من أعظم إنجازاتها.

(1) وليام غاي كار، الشيطان أمير العالم، ترجمة عماد إبراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2014، ص 243.
(2) مقال بعنوان «نبذة تاريخية»، موقع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، www.un.org

الإعلان الإنسانوي لم يكن إلا محاولة لعلمنة المفاهيم الدينيّة التي نشأ عليها العقل الغربيّ عندما كان مسيحيًّا، فهو يتخذ طابعًا تبشيريًّا عالميًّا على اعتبار أنّ الإنسانية متساوية من حيث الجوهر أمام خالقها، وهذا ما نراه أيضًا في وثيقة الاستقلال الأمريكي التي صدرت عام 1776، أي قبل الثورة الفرنسية نفسها بقليل، إذ يقول «**كل البشر قد خلقوا متساوين، موهوبين من خالقهم بحقوق لا تجوز مصادرتها**».

أما الخلفية الأيديولوجية الأشد خطورة وخفاءً فهي فلسفة **القبّالاه** اليهودية، أي الباطنيّة (الغنوصية) التي تستبطن التعاليم السحريةّ، فالقبّالاه تبني أساس فلسفتها على تأليه الإنسان باعتبار أنه فاضَ عن الإله ويمكنه الاتّحاد به، وأنه يمتلك أصلًا قدراتٍ وصفاتٍ كامنة قد ترفعه عند اكتشافها وتفعيلها إلى مصافّ الآلهة.

إذن كل ما حدث هو أن الغرب تخلّى عن كنيسته التي كان يتخذ من التبشير بتعاليمها العالميّة مبررًا للاحتلال والاستعمار والنهب والاستعباد، وتبنّى مبادئ علمانيّة وسحريّة تحمل نفس الطموح. لكن الفارق هو أن الدوافع الدينيّة تستند إلى نص مقدس يدافع رجال الدين عن مصدره الإلهي، أما الدوافع العلمانيّة والقبّالية الغنوصيّة فتحاول تبرير تعميمها على الآخرين عبر الزعم بأنها نابعة عن شيء مشترك، وعندما تتعمّق في التفاصيل ستجد عزيزي القارئ أنها مجرّد دوغمائيّات يتبناها أصحابها لتحقيق مصالحهم.

يقول الفيلسوف الفرنسي اليساري **جون بيير فِرنان** إن الفضاء الإبستمولوجيّ (أي المعرفي) المزعوم للقرن العشرين أصبح -باسم مطلب الدقة والصرامة العلمية- يقضي بضرورة التحرر من شكلين متلازمين من الأوهام، هما النزعة التاريخية -أي الطابع التاريخي للتجربة البشرية- والنزعة الإنسانوية[1].

دعنا نعُد إلى الوراء قليلًا، ففي القرن السادس عشر -أي عصر النهضة الأوروبية- سيطرت جماعة تعليميّة كاثوليكيّة تسمّى اليسوعيّة (الجزويت) على دفّة القيادة الثقافيّة والفكريّة في الفاتيكان، وكان من أهمّ معاقلها مدرسة **سالامانكا** في إسبانيا، ومن داخل هذه

(1) الإنسانوية المستحيلة، مرجع سابق، ص 67.

المدرسة تشكّل مفهوم «**القانون الطبيعي**»، الذي يفترض أن جميع البشر متساوين في طبيعتهم، وكذلك في حقهم بالحياة والحرية.

وعندما تسلّمت الماسونية الدفة نقلت هذا القانون من إطاره الديني إلى العلمانيّ، وتحديدًا إلى عبودية الإنسان للشيطان في الخفاء[1]، وبثّت رجالها من أهل الفكر والثقافة في مفاصل القوى الثورية، ثم في البرلمانات والحكومات الجديدة، ولاحقًا في المنظمات الدولية التي تتخذ من الأمم المتحدة غطاءً لها.

يقول الفيلسوف الإنجليزي جيريمي بنتام المتوفى في القرن التاسع عشر إن «الحقوق الطبيعيّة محض سخافات بلاغيّة، فالحق الجوهريّ والدائم هو ابن القانون، ومن القوانين الحقيقيّة تأتي الحقوق الحقيقيّة»[2]، أي أن من يملك سلطة سنّ القوانين هو الذي يقرر ما هو الطبيعيّ وما هو المزيّف!

ما يحدث الآن هو انتزاع سلطة سن القوانين والتشريعات من الوحي ووضعها في يد إبليس عبر وكلائه في الجمعيات السريّة، ولو كنت عزيزي القارئ لا تستسيغ هذ التفسير «المؤامراتي» والذي سأحاجج عنه في فصل لاحق، فيمكنك أن ترى بوضوح أن هذه السلطة المقدّسة باتت في يد من يملك القوة، سواء كانت عسكريّة أو إعلاميّة، ومن يستطيع تحريك جماعات الضغط (اللوبيات) ويدفع الحشود إلى الشوارع للمطالبة بما يسمّيه «حقوقًا»، فكل مطلب يمكنك الدفاع عنه وحشد التأييد له سيصبح من «**الحقوق الطبيعية**»، وسيُمنَح نفس قوّة قوانين الكنيسة في العصور السابقة، وسيُصان بسلاح الشرطة ويهدَّد كل من يجرؤ على التشكيك فيه بالعقوبات المفزعة.

لاحظ مثلًا كيف يتم إكراهك على «تقبّل» الميوعة المطلقة في الهويّات الجنسية، بحيث لم تعد قادرًا على مخاطبة الرجل المتحول جنسيًّا بضمير مذكّر، وإن فعلتَ فقد يقودك إلى السجن لانتهاكك «**الحقوق الطبيعية**».

---

(1) ستتعرض لهذا الجانب في فصل لاحق.

(2) الإنسانوية المستحيلة، ص 68.

«المثليّة» كانت محرّمة دينيًّا وثقافيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا في الغرب، وتحت الضغط انتقلت من خانة الجريمة إلى الشرف والتباهي، وأصبحت مسيراتها الحاشدة ترفع شعار «**الفخر**» Pride، وبالطريقة نفسها يتحوّل إجهاض الجنين من خانة جرائم القتل إلى الحقّ الطبيعيّ، وهلمّ جرًّا.

الأمر يخضع في نطاق دولة واحدة، كالولايات المتحدة على سبيل المثال، إلى توزيع نسبة القضاة بين المحافظين والليبراليين في المحكمة العليا، وعندما كانت الكفّة لصالح الليبراليين في السنوات الأخيرة تم تعديل كل شيء لصالح الأجندة الشيطانيّة. فإذا كان هذا الخلاف يحدث في دولة واحدة فكيف يكون إقرار أي قانون جزءًا من «قانون طبيعيّ»؟ وكيف يتم تعميمه على بقيّة البشر؟!

تتبنّى الماسونية وجميع الجمعيّات السرّيّة العقائد الباطنيّة التي تفضي في جوهرها إلى تأليه إبليس نفسه[1]، لكن تغلغل هذه العقائد في الفضاء العام لا يقتصر على تلك الجمعيّات، فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي اتسع نطاق المفكرين المعتنقين للفلسفات الباطنيّة في الغرب، كأحد أوجه التمرّد على المسيحية بالتوازي مع حركات الإلحاد واللادينية، ولعب الفيلسوف الأمريكي **رالف إمرسون** (المتوفى عام 1803م) دورًا في نشر هذه الثقافة مع تأسيسه حركة «**الفلسفة المتعالية**» Transcendentalism، فهي أول حركة فكرية في أمريكا الشمالية تتأثّر بالهندوسيّة وعقيدة اتحاد الإله بالإنسان والكون (وحدة الوجود).

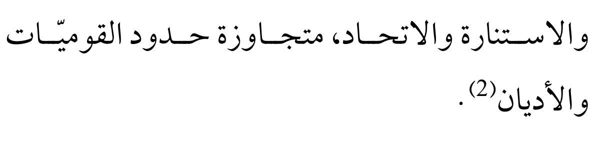
في السياق نفسه، أسست **هيلينا بلافاتسكي** (توفيت عام 1891م) جمعيّة الحكمة الإلهيّة «**الثيوصوفيا**» Theosophy في نيويورك بعد هجرتها من روسيا، وأعلنت أنها ستكشف أسرار المذاهب الباطنية التي كانت ممنوعة على العوام، وأنه حان الوقت ليعرف

(1) للمزيد عن هذا الموضوع، أنصح بالعودة إلى مقال «الجمعيات السرية» لمؤلف هذا الكتاب في موسوعة السبيل al-sabeel.net.

الإنسان القوى الكامنة فيه والقوانين التي تحكم الكون، ورفعت راية الدعوة إلى «الأخوّة الكونيّة» التي تتخطّى كل الأديان.

في الوقت نفسه كان **فينياس كويمبي** (المتوفى عام 1866م) ينشر حركة «**الفكر الجديد**» New Thought بالمبادئ نفسها، وعالم الجيولوجيا السويدي **إيمانويل سويدنبرغ** يؤسّس حركة **الأرواحيّة** Spiritualism التي تدعو علنًا للتواصل مع الأرواح، والتي نؤمن بأنها الشياطين، إلى جانب العديد من الحركات والجمعيّات والمدارس الغنوصيّة التي بدأت تنقل علوم السحر والطلسمات من المخطوطات السريّة إلى الثقافة الشعبيّة العامة، لتنضوي كلّها في النهاية تحت مسمّى «**حركة العصر الجديد**» New Age Movement[1].

تتبنّى هذه الحركة التي يتّبعها اليوم ملايين الناس -ومنهم مؤّثرون ونافذون وصنّاع رأي وقرار- عقيدة القبّالاه السابق ذكرها، وتعلن أن البشريّة ولجت إلى عصر جديد هو «**عصر الدلو**» منذ عام 2012، وهو عصر ترتقي فيه الإنسانية نحو المزيد من المعرفة



والاستنارة والاتحاد، متجاوزة حدود القوميّات والأديان[2].



في عام 1922 أسست **أليس بيلي**، وهي أمريكية يهودية ومن تلميذات **بلافاتسكي**، منظمة عالمية تدعى «**لوسيفر ترست**»، ثم عدّلت اسمها بعد ثلاث سنوات إلى «**لوسيس ترست**»، علمًا بأن مصطلح لوسيفر يعني إبليس. وتعلن هذه المنظمة عبر موقعها الرسمي أنها تدعم أنشطة منظمة الأمم المتحدة منذ تأسيسها في منتصف الأربعينيات، وتقول إن دعمها يأتي «من خلال

---

(1) فوز كردي، مقال «حركة العصر الجديد»، موسوعة السبيل al-sabeel.net، أغسطس 2017.

(2) جوزيف مجدلاني، رسول عصر الدلو، منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء، بيروت.

التأمّل والمواد التعليمية والندوات، وعبر تسليط الضوء على أهمية أهداف وأنشطة الأمم المتحدة لأنّها تمثّل صوت شعوب وأُمَمِ العالم»[1].

تديرُ المنظّمة أيضًا موقعًا «**للنوايا الحسنة العالميّة**»، وتعلن فيه تعاونها مع الأمم المتحدة لنشر سفراء النوايا الحسنة حول العالم. وبينما تحرص الأمم المتحدة على تجنّب أي خطاب مؤدلَج، فإن حليفتها «**لوسيس ترست**» لا تخفي شيئًا، بدءًا من إعلان ولائها لإبليس في تسميتها عند نشأتها، ووصولًا إلى كل نشاط تعلن عنه مما يصبّ بوضوح في صلب المشروع الشيطاني، وكل هذا تحت شعارات الاندماج الإنساني تحت مظلّة السلام والتأمّل الروحانيّ والاستنارة.

المدينة غير الفاضلة

إذا كانت أحلام المدينة الفاضلة قد باءت بالفشل، فهناك من تطارده كوابيس انقراض البشريّة كلها، بينما يحلم آخرون بالتخلّص من معظمها لإنشاء المدينة الفاضلة بالأقلّيّة المتبقّية منها!

كوابيس الانقراض نجدها واضحة في كتاب «**اجتياز القرن الحادي والعشرين**» للكاتب العلمي الأسترالي **جوليان كريب**، ففي الفصل الأول يعتبر أن الإنسان الحديث (الحداثي بالأحرى) كائن نرجسي مختال بنفسه، بل يقترح إعادة تسمية هذا الإنسان، الذي تفترض الداروينية أنه تطور عن أصل حيواني وأصبح «نوعًا» بيولوجيًا يدعى «الإنسان العاقل»، لأن كريب لا يرى في تصرفات الحداثة ما يدل على العقلانية، بل الحماقة، ويجزم بأننا إذا لم نتخذ الآن قرار النجاح والبقاء، وليس بعد جيل من الآن، فسنواجه خطر الانقراض[2].

---

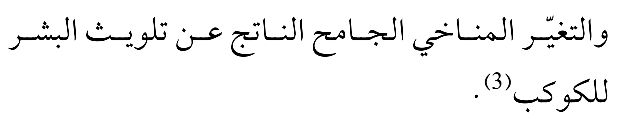
(1) Support of the United Nations, www.lucistrust.org

(2) جوليان كريب، اجتياز القرن الحادي والعشرين: أخطر عشرة تحديات تواجه البشرية وكيف يمكن التغلّب عليها، ترجمة سارة طه علام، مؤسسة هنداوي، بريطانيا، 2020، ص 28- 31.

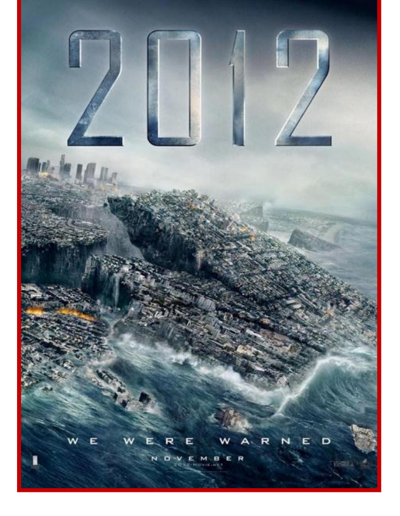
وينقل المؤلف عن كتاب «**قرننا الأخير**»، الذي نشره في عام 2004 البروفيسور **مارتن ريس**، أن «الإنسانية أمامها فرصة بنسبة 50٪ فقط لتشهد الخروج من هذا القرن، استنادًا إلى مخاطر التكنولوجيا التي تعيث في الأرض فسادًا»[1].

يستشهد كريب أيضًا بأبحاث صدرت نتائجها عام 2014، وأكد أصحابها أن الانقراض الجماعي السادس للكرة الأرضية قد بدأ بالفعل، وأن متوسّط معدل فقدان الأنواع الفقاريّة خلال القرن العشرين كان أعلى بمئة مرة من المعدل الطبيعيّ للانقراض، بل تؤكّد تلك الأبحاث أن معدّلات الانقراض الحديثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأرض[2].

وعندما يدقّ هؤلاء المفكّرون والعلماء ناقوس الانقراض، فإنهم يفكّرون غالبًا بين احتمالات تتفاوت بين الكوارث الطبيعية والمخاطر التي قد تنجم عن فعل البشر، ومن بين تلك المخاطر الحروب النوويّة، والأوبئة الناجمة عن فيروسات مطوّرة في المختبرات،



والتغيّر المناخي الجامح الناتج عن تلويث البشر للكوكب[3].



هوليود، معقل اليسار الليبراليّ العولميّ، أو منبر الشيطان كما أراها، لم تقصّر في تناول سيناريوهات نهاية العالم بكافة الأشكال التي تحقّق أهدافها، ويحضرني هنا فيلم «2012» المنتج عام 2010، والذي استغلّ أسطورة قديمة نسبت لشعب **المايا** عن تنبّؤ العرافين والمنجّمين بنهاية العالم في العام الميلادي 2012، ولعلها خدعة ذكيّة للفت الأنظار إلى تهافت هذه الأسطورة التي لم تتحقّق،

(1) المرجع السابق، ص 56.
(2) المرجع نفسه، 35.
(3) المرجع نفسه، ص 58.

ولتمرير رسائل أخرى عبرها تحت ذريعة الخيال الجامح. وليس هذا مقام تحليل الفيلم ورسالته، لكن اللافت أنه لخّص الخلاص في سفينة عملاقة على شاكلة سفينة نوح، كانت الصين تبنيها في مشروع سرّي يموّله أصحاب المليارات حول العالم، وعندما دقّت ساعة الصفر وغرق الكوكب بالطوفان المرتقَب لم ينج سوى من حالفهم الحظ بدفع تكاليف بناء تلك السفينة، مع بعض «الرعاع» الذين حظوا عرَضًا بفرصة الركوب في اللحظة الأخيرة.

قد تبدو قصّة الفيلم مقبولة أخلاقيًّا إلى حدّ ما، فمع أن الأثرياء علموا بالكارثة مسبَقًا واستعدوا لها تاركين بقية البشر ليلقوا مصيرهم، إلا أن الكارثة لم تكن من صنع أيديهم، ولم يكن أمامهم خيار لإنقاذ الآخرين، لكن هناك وجهٌ آخر للرواية، حيث يسعى الأثرياء لصنع الكارثة بأيديهم وقتل الآخرين.

إذا قلنا إن الحداثة فشلت في وعودها بتحقيق أحلام المدينة الفاضلة «**اليوتوبيا**»، فمن المفهوم أن تتصاعد تحذيرات ما بعد الحداثة من قيام المدينة الفاسدة «**الديستوبيا**» بدلًا منها، بل ربما عولمة هذا الكابوس أيضًا.

أدباء الخيال العلمي ومنتجو هوليود لم يقصّروا في تخيُّل واقع مرعب للبشرية في المستقبل، ورواية «**ألعاب الجوع**» التي تحوّلت إلى سلسلة أفلام ناجحة خير مثال، حيث تسيطر الحكومة على شعبها من خلال الحفاظ على حالة مستمرة من الخوف، وتدير مسابقات رياضية على هيئة معارك يتقاتل فيها الشباب والفتيات المدرّبون حتى الموت، وفي صورة أكثر بشاعة من مباريات القتل في المسارح الرومانية القديمة.

في عالم ما بعد الحداثة تسقط الركائز الكبرى للإنسانوية، فلم يعد الإنسان صاحب الأفضلية على بقية الكائنات، ولم تعد هناك ثقة بأن طبيعته يغلب عليها الخير، ولم يبق أي مبرر للاعتقاد بوجود «**قانون طبيعي**»، ولا جدوى من التفكير بإمكانيّة إصلاح الإنسان بالدين أو العلم أو السياسة.

الإنسان -حسب هذه الفلسفة- لم يعُد في أعلى الهرم ولا مركز الدائرة، بل هو مجرّد كائن حالفه الحظ بتطوّر دماغه أكثر من إخوته السابقين في شجرة التطوّر الداروينيّ، وقد أثبت فشله عندما لم يحافظ على حياة بقيّة الكائنات وحاول تدمير الأرض لإشباع نزواته للسيطرة[1].

وفي ظل هذه العقيدة الإلحاديّة الشيطانيّة، يمكنك عزيزي القارئ أن تفهم مبرّرات النازية التي ظهرت قبل قرن، وربما تصدّق باحتمال وجود نظرية «**المليار الذهبي**» التي سبق أن حدّثتك عنها، فمع أنّنا لا نملك دليلًا موثوقًا على صحّتها إلا أني لا أستبعد احتمال أن يخطّط البعض خارج استوديوهات هوليود لتعجيل قيام «القيامة» علينا نحن، وأن ينجو هو وأمثاله.

النظرية تفترض سعي النخب المتنفّذة للتخلّص من معظم البشريّة التي باتت عبئًا عليها وعلى الكوكب، والإبقاء على حياة مليار واحد فقط للتحكّم فيه والتلذذ باستعباده. ومع أنها كما تبدو من مبالغات نظريات المؤامرة، إلا أنها تستند إلى وقائع مؤكدة، حتى لو لم تبلغ في فظاعتها حد إبادة الغالبية الساحقة.

أهم تلك الحقائق الموثقة فضيحة انكشف أمرها في منتصف التسعينات، وهي وثيقة سرية تسمى اختصارا «إن إس إس إم 200» (NSSM 200)، واسمها الكامل «**مذكرة دراسة الأمن القومي رقم 200: انعكاسات النمو السكاني العالمي على الأمن الأمريكي والمصالح الخارجية**»، كان مجلس الأمن القومي الأمريكي قد رفعها في عام 1974 إلى مجموعة من المسؤولين في واشنطن، وتحت إشراف وتوصيات وزير الخارجية الأمريكي هنري كسينجر، وهي تهدف إلى تقليص عدد سكان الدول النامية عبر برامج لتعقيم النساء، وتمّ تطبيقها بالفعل في بعض الدول مثل البرازيل والهند، ونجحت في تقليص عدد السكان إلى حد ما[2].

---

(1) منصف المرزوقي، مقال «المراجعات الموجعة (7): الإنسانوية»، موقع الجزيرة نت 20 أغسطس 2020.

(2) Stephen D. Mumford, The Life and Death of NSSM 200: How the Destruction of Political Will Doomed a U.S. Population Policy, population-security.org, 1996.

قد تبدو القصة أقرب للخيال من كونها وثيقة حقيقيّة وخطّة نُفّذت جزئيًّا على أرض الواقع، لكن الأكثر غرابة عندي أن قناة دويتشه فيله DW الألمانية أنتجت عن القصة فيلمًا وثائقيًّا بعنوان «**تراجع أعداد النساء في آسيا.. عواقب السياسات السكانية**»، وتحدّثت فيه عن الوثيقة تحديدًا، كما وثّقت بالصوت والصورة تجارب عشرات النساء اللاتي كنّ ضحايا لهذه الخطّة الشيطانية، ثم حذفت القناة هذا الفيلم الذي أنتجته بنفسها من حسابها على موقع يوتيوب، بل قرر الموقع أن يحذف كل نسخة ترفع عليه من هذا الفيلم الذي شاهدته بنفسي، وبإمكانك عزيزي القارئ أن تجرب البحث عنه أيضًا بنفسك، وقد تجد أحد الناشطين رَفَعه يوما مّا ثم ما يلبث أن يُحذف!

وقبل أن يتسلّل الشك إلى قلبك، سأخبرك بالأغرب من هذا كلّه، فمع أن روسيا دولة متمرّدة على المنظومة، ولا سيّما على إدارتها الأمريكية، إلا أن القناة الحكومية «**روسيا اليوم**» RT حذفت بدورها تقريرًا بثّته ضمن برنامج بانوراما تحت عنوان «**ما هو مصير المليار الذهبي؟**»، والتقرير محذوف أيضًا من موقع يوتيوب! علمًا بأن مصطلح «المليار الذهبي» انتشر أصلًا في روسيا خلال العهد الشيوعي للإشارة إلى الدول الصناعية الغنية التي تستأثر لنفسها بموارد بقية البشر، قبل أن تظهر نظريّة إبادة بقية مليارات البشر.

وحتى تتضح بقية جوانب الصورة، لنعد إلى الوراء قليلا، ونتوقف في القرن الثامن عشر، عندما حدثتْ أولى الأزمات الرأسمالية في عصرنا الحديث، وتحديدًا في إنجلترا رأس العالم الصناعي والإمبراطوريّة التي تملك أسواقًا هائلة حول العالم، إذ شعر الاقتصاديّون بأن عرض اليد العاملة أكبر من الطلب عليها، وأن عدد السكان المتضخّم هو سبب الأزمة وليس جشع الرأسماليّين الكبار، فظهرت هنا نظرية **توماس مالتوس** عن «**الانفجار السكاني**»، والتي تقول إن البشر يتكاثرون بوتيرة أسرع بكثير من تكاثر الموارد الغذائية، فينبغي تقليص نسبة التكاثر حتى لا نسقط في هوّة المجاعة.

اللافت أن **مالتوس** لم يكن مجرد باحث سكاني واقتصادي إنجليزي، بل كان أيضًا رجلًا متديّنًا ويؤمن بأن الحروب والأوبئة والكوارث نعمة من الرب لتقليص عدد البشر،

وسرعان ما تحوّلت نظريّته إلى أداة في يد الطغاة والجبابرة، على غير قصد منه كما يبدو، فاستُخدمت تارة لتبرير مشاريع تقليص أعداد الفقراء داخل الدول الغنية نفسها، وتارة أخرى لإبادة شعوب كاملة على يد الرجل الأوروبي الأبيض، كما في أمريكا الشمالية وأستراليا.

ومن الأمثلة المعروفة، استُخدمت المالتوسية لدعم وجهة نظر كانت قائمة أصلًا، وهي تدعو إلى مراجعة القوانين الإنجليزية المتعلّقة بحقوق الفقراء والعاطلين عن العمل، حيث تعالَت الأصوات داخل البرلمان «**مجلس العموم**» الناقدة لنقابات العمّال، وزعمت أن زيادة أجور العمال الفقراء لم تؤدِّ سوى إلى زيادة تكاثرهم، ومن ثم زيادة عدد الفقراء وليس تحسين معيشتهم.

ويقول المؤرخ **آلان تشيس** في كتابه «**إرث مالتوس: التكلفة الاجتماعيّة للعنصريّة العلميّة الجديدة**» The Legacy of Malthus -الصادر عام 1980 عن جامعة إلينوي- إن أكثر من 63 ألف شخص في الولايات المتحدة تم تعقيمهم قسريًّا (أي تحويلهم إلى عُقماء) بين عامي 1907 و1964، ثم تم تعقيم نحو 150 ألفٍ آخرين سنويًّا في السبعينات، بينما يتداول ناشطون على الإنترنت معلومات عن مئات الآلاف من العمليّات الأُخرى التي سُجّلت على أنها كانت طوعيّة مع أنها لم تكن كذلك.

وحتى الشيوعية السوفييتية، التي يفترَض أنها كانت على النقيض من الرأسماليّة الإمبرياليّة، استغلت النظرية المالتوسية لإبادة ما بين 12 مليونًا و15 مليونًا من سكّان الدول التي احتلّها الروس، بحجة اختصار التراكم المطلوب للتنمية والتقدّم الصناعي، مع أن الماركسية كانت تعتبر المالتوسية فكرة رجعيّة!

والعجيب أن تُربَط هذه الإبادة التي يفوق توحّشها الخيال بنوايا طيبة، وفي هذا دليل آخر على براعة العقل البشريّ في ابتكار الحجج، أو ربما براعة إبليس نفسه. ففي رواية **الجحيم** (Inferno) للكاتب الأمريكي **دان براون** -الصادرة سنة 2013- يحاول عالِم متطرّف إنقاذ الكوكب من جرائم البشريّة بالقضاء على أكبر عدد منها عبر نشر فيروس

متطوّر، منطلقًا من عقيدة راسخة مفادها أن إنقاذ الجميع من الانقراض يقتضي التضحية بالغالبيّة كي تستمرّ السلالة على يد الأقلّيّة. ومن شدّة إيمانه بنظريّته، ضحّى هو ومساعدته بحياتهما لتحقيق هذه «**الغاية النبيلة**».

هذه الأعاجيب الصادرة عن عقول لم يمسسها نور الوحي قد تبدو وكأنها خارجة من وعاء إبليس، ولا شك عندي في أن إقامة مجتمع بشري جديد على أنقاض إبادة جماعيّة بهذا الحجم ليست سوى «**مدينة غير فاضلة**»، فالروايات والأفلام أسرفت في تخيل تفاصيل الكارثة، ثم لخّصت الخلاص بنجاة تلك الأقلّيّة المحظوظة التي سترسو على بر الأمان، ولكن من الذي قال إنّ الفئة الناجية ستكون أكثر رشدًا وسعادة وحكمة؟

الذين ركبوا في سفينة نوح كانوا من الصفوة الذين نجّاهم الله بصحبة نبيه، فمن يضمن اليوم أن ركاب سفينة المستقبل ليسوا أسوأ من كل الغرقى؟!

عود على بدء

بعد هذه الجولة بين النظريّات والأحلام والمشاريع الجريئة والفاشلة، سأعود لأتأمّل في فراش جاري المشرّد على هامش شارع خلفي بمدينة مونتريال، وهو الذي دفعني للبحث في إحصاءات التشرّد بهذه البلاد الغنية، لأزداد عجبًا عندما علمتُ بمليارات الدولارات التي تنفقها الحكومة الكندية لحل تلك المعضلة المتواصلة منذ عقود، من دون أن تنجح في القضاء عليها.

وهناك ما هو أشد عجبًا، فأينما تجوّلتُ في المدن الكنديّة الكبرى، وجدتُ الناس يتأقلمون مع المشاهد اليوميّة لمشردين أنصاف عراة، أو بملابس في غاية القذارة، وهم يتجوّلون في حالة سُكْر شديد وغياب عن الوعي بين ناطحات السحاب التي تحتلّها كبرى البنوك وحصون الرأسمالية.

لا أنكر أن المارّة يتبرعون لهم، ربما ليأمنوا شرهم، أو يريحوا ضمائرهم، ولا أنكر أيضًا أن بعض المشردين اختاروا بأنفسهم هذا النمط القذر من الحياة كسلًا وعَبَثًا، وربما ضربًا من العدميّة والتمرّد. لكن هذه الدوافع لا ترقى إلى تسويغ الظاهرة، فالاعتياد عليها هو بحدّ ذاته مشكلة.

يتسابق اليوم ملايين العرب على تحقيق حلم الهجرة إلى كندا، لا سيّما اللاجئون السوريّون الذين باتوا في حكم المشرّدين، بعدما خسروا وطنهم كله وليس منازلهم فحسب. وقبل خمسة عشر عامًا تقريبًا، كنت أتجوّل في شوارع دمشق لإنجاز تقرير صحفي، كجزء من تحقيق موسّع عن أطفال الشوارع في العالم العربي، وبعد أيّام من السؤال والبحث والتقصّي، أكّد لي المختصّون أنّي لن أجد عائلة مشرّدة واحدة في سورية، ولا طفلًا ينام وحيدًا على قارعة الطريق، مع كل ما كان في البلد من فساد ونهب على يد الحكومة نفسها، كما أكّد لي صديق بعد إنجازه دراسة اقتصاديّة في جامعة دمشق أن الجمعيّات الخيريّة الإسلاميّة تحُول دون مبيت شخص واحد في العراء.

الحكومة هناك تنهب من المال بقدر ما تهبه الحكومة هنا للشعب، ومع ذلك لم يتشرّد الشعب هناك إلا عندما بدأت الحكومة قصفه بالطائرات والصواريخ الباليستيّة، بينما يتشرّد جزء كبير من الشعب هنا لأن القطاع الخاص لم يتبرّع له كما كان يتبرّع القطاع الخاص هناك، بل ما زال يسرّح الموظفين كلما وجد فرصة لذلك بدافع تعظيم الأرباح الذي تبيحه قواعد الرأسمالية.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (*) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6، 7]، ومن شدّة طغيانه وحماقته أنه يفني عمره في تعمير هذه الأرض وكأنه مُخلَّد فيها، وهو يعلم يقينًا أنه مهما امتد به العمر فلن يتجاوز القرن إلا نادرًا، وأن بضع سنوات منها ستمضي في الطفولة التي لا يذكرها، ونحو ثلث المتبقي يقضيه نائمًا لا يشعر به، وثمّة جزء آخر يُهدر في تفاصيل روتينيّة مملّة، فما قيمة هذه الدنيا التي نعلم جميعًا أنها مؤقّتة زائلة، وأن زوالها سيأتي بغتة، وأن الخارج منها لن يعود أبدًا؟!

أي جدوى تبقى بعد هذا كله لإنشاء مدن فاضلة تحاكي الجنّة؟ وأي حماقة تلك التي ما زالت تداعب خيال الرومنسيّين لعولمة أحلامهم كي تشمل البشريّة كلّها؟

كتابة هذه السطور قد تشعرني نسبيًّا بالارتياح، وتبدّد عني مشاعر الخوف الطفوليّة التي انتابتني تجاه جاري المشرّد. لم أعد أكترث لكاميرات المراقبة، ولا لوعد الشرطة بحمايتي، السؤال الأهم الآن: ماذا عن خوفه هو؟ ماذا عن مستقبله؟ ماذا عن أمله في تحقّق وعود الحداثة وما بعدها؟

* * * *



الفصل الثالث
صناعة الخوف

«**لا شيء يجمع الناس على قلب رجل واحد مثل الخوف**»، حقيقة تاريخيّة في غاية البساطة، أدركها كل الطغاة والمستبدين والطامحين إلى استعباد الناس على مَرّ العصور، وما زالوا ينجحون في استغلالها جيّدًا.

ولكن تخيّل أن هذه الاستراتيجية تطبقها الحكومات الديمقراطية أيضًا، بل رائدة العالم الحر كما يقال، أي الولايات المتحدة، ففي الفيلم الوثائقي المشهور «**بولينغ لأجل كولومباين**» Bowling for columbine، المنتَج عام 2002، يتوقف السرد فجأة ليعرض لنا المخرج المثير للجدل مايكل مور ما أسماه موجزًا لتاريخ الولايات المتحدة.

وخلال مشهد كوميدي من الرسوم المتحركة، يتهم المخرج الأمريكي المتمرد الحكومات الأمريكية المتعاقبة بأنها اكتشفت في القاعدة السابقة أفضل حلٍّ لتوحيد شعبها المكوّن من أعراق وأديان متنوّعة، إذ لا بد من وجود عدوٍّ داخلي أو خارجي يهدّد الناس كي يتّحدوا وراء من يحكمهم، وباختصار: لا بدّ من صناعة الخوف.

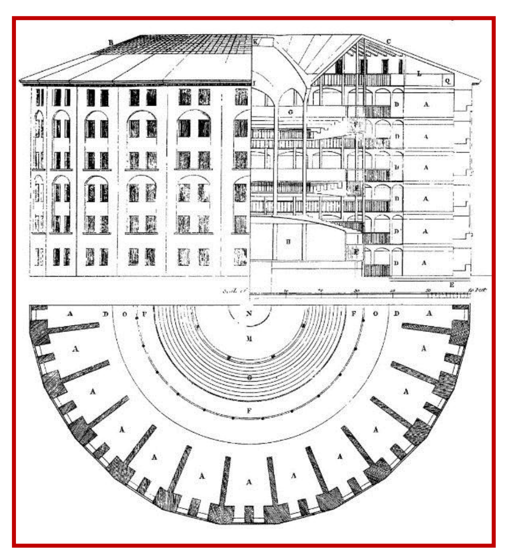
تحطيم الإنسان وترويضه

في عام 1975، نشر الفيلسوف الفرنسيّ **ميشيل فوكو** كتابه المهم «**المراقبة والمعاقبة.. ولادة السجن**»، وابتدأه بالحديث عن عمليات الإعدام التي كانت تشهدها فرنسا في أواخر عصرها الملكيّ، ثم بعد الثورة فيما سمّي بعهد الإرهاب، مستشهدًا بحالة إعدام وحشية لشخص يدعى داميان في عام 1757، والتي أسهب المؤلف في وصف تفاصيلها الفظيعة، متضمنة سلخ جسده وحرق يده بالكبريت ثم صب الرصاص المسال على مواضع

الجروح، مع الزيت المغلي والشمع والقار، وصولًا إلى تمزيق جسده بحبال تشدها ستة أحصنة وإلقاء ما تبقى منه في النار كي يتحوّل إلى رماد[1]، وبعدها يصف فوكو طبيعة الحياة اليومية للسجناء داخل سجن أنشئ في فرنسا بعد 80 عامًا من حادثة الإعدام تلك.

ومن خلال هذه المقارنة، يحلّل فوكو الانتقال من عقوبة التعذيب الوحشي والإعدام في العهد الملكيّ إلى عقوبة تبدو ألطف وخالية من الدماء، وتعتمد على آراء المختصين وأساليبهم في التأديب والتطويع.

العقاب اليوم -بحسب فوكو- أصبح مخفيًّا خلال العملية الجزائيّة للمدانين، كما أصبح الردع مرتبطًا بحتميّة العقوبة وليس بظهورها على المسرح كما حدث مع داميان. لم تعد السلطة الآن مضطرة لاستعراض قوتها ووحشيّتها كي تنال الهيبة، بل هي تُظهِر التسامح علنا، وتعلن إجراءات المحاكمة التي قد يحضرها عامة الناس وتذاع على شاشة التلفزيون[2].



التطوّر في آلية العقاب كان موازيًا لتطوّر علم النفس والاجتماع، إذ يدرس **فوكو** في كتابه تصميمًا لسجن صمّمه الفيلسوف الإنجليزي المعروف **جيرمي بينتام** في أواخر القرن الثامن عشر تحت مسمى «**المُشتمَل**» Panopticon، وهو يتيح لأقلّ عدد من الحرس مراقبة كل الزنازين، حيث يجلس الحارس في برج بمركز المبنى الدائري، وتتوزع حوله السراديب والزنازين في عدة طوابق على محيط دائرة، ولكلّ زنزانة شبّاك يطلُّ على البرج

(1) ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، ترجمة علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص 47- 49.
(2) المرجع السابق، ص 52.

وشبّاك في الجدار المقابل، بحيث يخترق الضوء الزنزانة ويجعل كل حركة يقوم بها السجين مرئيّة للمراقب، بينما لا يتمكّن السجين في الوقت نفسه من رؤية من يراقبه.

ويقول **فوكو** إنّ الضوء القوي ونظرة المراقبة تأسر السجين أكثر مما يأسر الظل الذي ينبغي أن يحميه. وفي هذا المنظومة لن يجرؤ أحد على التآمر والتفكير بالهرب، ولا على خرق النظام وقواعد السلوك. الجمهور هنا يصبح كتلة متراصّة تنصهر فيها الهويّات الفردية، ويفقد كل سجين مع مرور الأيّام شعوره بذاته وهويته[1].

وبنظرة فاحصة، يمكنك عزيزي القارئ أن تلاحظ كيف نجحت الحداثة في تحقيق غايتها مشفوعة بامتنان الجماهير، فالعقوبة لم تعد دمويّة ووحشيّة كما كانت في السابق، إلا أنها أصبحت أكثر فعالية في انتزاع كرامة الإنسان من دون أن يشعر، بل وهو ممتنّ لرحمة السلطة ورأفتها به!

يوسع **فوكو** نظرته ليقارن بين المجتمع الحديث وسجن المشتمَل، والطريف أن تصميم **بنتام** لم يُنفَّذ على أرض الواقع بالرغم من سعيه لذلك عدة سنوات مما أثار غضبه، لكن المنظومة السياسيّة والإعلامية أصبحت لاحقًا تنفذ المفهوم نفسه في المجتمع بصورة أكثر شمولية، ولو عاش فوكو -الذي توفي بالإيدز في منتصف الثمانينيات بسبب إفراطه في اللواط- فربّما كان سيُفاجَأ بما وصلت إليه السلطات اليوم من قدرات المراقبة بوسائل التكنولوجيا الحديثة.

وفي الساحة الثقافيّة العربيّة، اشتهر الطبيب النفسي **مصطفى حجازي** بسلسلة جيّدة في تحليل قهر الإنسان الحديث واستنزافه، وفي أحد كتبه التي خصّصها لدراسة «**سيكولوجية الإنسان المقهور**»، وهو كتاب ماتع ومؤلم في آنٍ واحدٍ، يحلّل **حجازي** ببراعةٍ آلية قهر المجتمعات عبر إذلال كلِّ فردٍ فيها، حتى يتحوّل المجتمع إلى كتلة مقهورة خانعة عاجزة عن التمرد.

(1) المرجع نفسه، ص 208- 210.

وفي تحليله للتعذيب الجسدي، يقول: «يكمن جوهر السادية في البحث اليائس عن الأنا، في الحاجة إلى توكيد الذات: هذا أنا، أنا هنا، يجب أن تلاحظ وجودي. إذا لم تلاحظه بمحبّتي فعليك أن تدركه من خلال ألمك، إنّي أنا من يجعلك تتألّم، بألمك تعترف بوجودي الذي يصبح أكثر واقعيّةً بمقدار ما تكبر معاناتك»[1].

إذن، سواء كنتَ تعيش أخي القارئ في دولة قمعية أو ديمقراطية، فالأمر سيّان، وهناك دائمًا نُخَبٌ حاكمة تتقن استغلال مبادئ علم النفس لاستعباد الخلق، ولكن الوسائل هي التي تختلف.

وبدوره، حلّل الأسير الفلسطيني المحرَّر **وليد نمر دقة** هذه الآليّات المستخدمة في سجون الاحتلال، فيقول: إن «القمع الحداثوي مقنّع مخفيّ، ويُقدَّم على أنه استجابة لحقوق الإنسان، إنه قمع لا صورة له، ولا يمكن تحديده بمشهد. إنه مجموعة من مئات الإجراءات الصغيرة والمنفردة، وآلاف التفاصيل التي لا يمكن أن تدل منفردة على أنها أدوات للتعذيب»[2].

وبحسب تجربته ودراسته وخبرته، يؤكد دقة أن جسد الأسير لم يعد هو المستهدَف مباشرة في عصر ما بعد الحداثة، بل روحه وعقله، مستشهدًا بتصريح قائد الأركان الإسرائيلي السابق **بوجي يعلون** أثناء خدمته في الانتفاضة: «**لا بد من إعادة صَهر الوعي الفلسطينيّ**»[3].

ولإنجاز هذه المهمة، تنفّذ إسرائيل منذ عام 2004 نظامًا علميًّا شاملًا يعتمُد أحدث نظريات الهندسة البشريّة وعلم نفس الجماعات، مستهدفًا تفكيك قيم المجتمع الفلسطينيّ[4]. ويرى **دقة** أن عمليّة «صهر الوعي» هذه تستند إلى استراتيجية الصدمة التي

---

(1) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ط 9، ص 200.

(2) وليد نمر دقة، صَهر الوعي، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص 20.

(3) المرجع السابق، ص 26.

(4) المرجع نفسه، ص 29.

شـرحتها نعـومي كلايـن في كتابهـا «**عقيـدة الصـدمة**»[1]، فالأسـرى في سـجون الاحـتلال يتعرّضون لعمليّات غسيل دماغ ممنهجة، وتمارَس نفس الآليّات تقريبًا على سكّان قطاع غزة الذي تحول بدوره إلى سجنٍ كبير.

بالطريقة نفسـها شرح العديـد مـن الأسـرى السـابقين في معتقـل غوانتانـامو مـا يمارسـه عملاء المخابرات الأمريكية من آليات الهندسة الاجتماعية لتحطيم السجناء، فبـالرغم مـن بعض الانتهاكات الموثقة إلا أن السلوك السـائد في هـذا المعتقـل لا يشـبه شـيئًا مـن وسـائل التعذيب الوحشية التي نعرفها في سجون المخابرات العربيـة، ويقتصـر فيهـا التعـذيب غالبًـا على التكرار المكثّف لأمرين اثنين، هما التجريد من الثياب والمضايقة أثناء ممارسة العبادة الدينيّة[2].

ولعل أبرز الوثائق التي تسجّل هذه الممارسات كتاب «**البلاء الشديد والميلاد الجديد**» للأسير السابق في غوانتانامو **فايز الكندري**، إذ شرح فيه المؤلـف كيـف توظـف المخـابرات الأمريكية كل خبرتها ونتائج أبحـاث علـم الـنفس في محاولـة السيطرة على قلـوب وعقـول المعتقلين دون أي تعذيب جسدي يذكر. فكل مـا يحـدث في هـذا السـجن يهـدف في النهايـة إلى ترويض أولئك المصنَّفين في خانة أعداء أمريكا دون أن يشعروا بأن كرامتهم نفسها هـي المستهدَفة.

الغاية في هذا السجن ليست كسر النفـوس الأبيّة بالضـرورة، بـل إعـادة برمجة العقـول لتراجع مبادئها وقناعاتها عن الولاء والبراء وتصنيف الأصدقاء والأعداء، وقد نجحت تلك السياسات بالفعل في تجريد بعض السجناء من عقيـدتهم نفسـها حتـى ارتـدّوا عـن الإسـلام، كما اقتنع بعضهم بالتحوّل إلى عملاء وجواسيس لأمريكا التي كانت عدوهم الأول.

وبالرغم من التقدّم العلمي وبراعة التنفيذ، لم تنجح تلك المحاولات دائمًا، بل صـمد الكثير من المعتقلين أمامها إلى درجة انقلاب السحر على الساحر في بعض الحالات، حتى

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب وفلسفته في الفصلين الأول والثاني.

(2) صَهر الوعي، ص 54.

أسلم بعض الجنود الأمريكيين أثناء أو بعد خدمتهم في غوانتانامو، نتيجة لما رأوه من صلابة بعض الأسرى واعتزازهم بعقيدتهم، لا سيما أن الكثير من المعتقلين لم يكونوا من المحاربين ولا «الإرهابيّين» أصلًا، بل كانوا يعملون في الإغاثة وحفر الآبار، وتصادف وجودهم في ميادين الحرب أو بالقرب منها في أفغانستان عندما حدثت عمليّات الأسر الجماعي، كما تبيّن لاحقًا أن العديد من المعتقلين تعرّضوا للأسر بسبب وشايات كاذبة، مع أنهم لم يحملوا السلاح ولم يتعاطفوا أيضًا مع طالبان ولا القاعدة.

في عام 2007 كنت أعمل على فيلم وثائقي حاولتُ فيه تسليط الضوء على تجربة المغرب الفريدة في المصالحة، أملًا في التخلّص -ولو جزئيا أو مرحليًّا- من عبء ذكريات ما كان يسمى بسنوات الرصاص، وهي الفترة الدموية التي شهدتها المملكة في عهد الملك الحسن الثاني، والتي حاول نجله الملك محمد السادس أن يطويها بسياسة التصالح المقتبسة من تجربة جنوب أفريقيا.

زرتُ آنذاك ما بقي من سجن **تازمامارت** ذائع الصيت، والذي كان قد أقيم في الصحراء خصّيصًا لكبار الضباط الذين اعتقلوا على خلفية محاولتي اغتيال الملك السابق في مطلع السبعينات، إضافة لمعتقلين آخرين من الناشطين والمثقفين. وكان من اللافت أن السلطات أزالت العنابر والزنازين فلم تبق منها سوى أساسات البناء وقبور من لقي حتفه من السجناء، إلى جانب مباني الإدارة التي باتت خاوية على عروشها.

في اليوم نفسه زرتُ الجنرال السابق **صالح حشاد** في منزله بمدينة القنيطرة، واستمعت إلى قصة إخفائه في ذاك السجن السري ثمانية عشر عامًا. كانت السنوات الخمس الأولى منها في زنزانة انفراديّة لا يرى فيها أحد ضوء الشمس، ولا يرى وجه زملائه الذين بجواره، **بل يكتفي بمحادثتهم في الظلام**.

التفاصيل كثيرة ولا يتّسع لها هذا المقام، وأهمّ ما فيها أنّ قرار سجنهم وإخفائهم عن الوجود حتى يموتوا ببطء لم يغير شيئًا في نفوسهم. لقد صمدوا جميعا، حتى أولئك الذين

عاجَلَهم الموت. كلهم تمسّكوا بالحياة حتى آخر لحظة، وآمنوا بأنهم أقوى من سجانهم الذي دفعه الخوف إلى إخفائهم في تلك البقعة المنسيّة.

وبما أن العدل شبه غائب، فالمؤسف بعد هذا كلّه أن وسائل التعذيب في منطقتنا لم تتغيّر تقريبًا، ولن أجازف بالحديث عن واقعها الحالي خشية أن يمنعوا كتابي هذا من الوصول إليك عزيزي القارئ، وأكتفي بالحديث فيما يلي عن النظام القابع في دمشق، فما زال حتى وقت كتابة هذه السطور معزولًا -ظاهريًّا- عن معظم محيطه.

الخنوع أولى من الحب!

خلال طفولتي ومراهقتي في الثمانينات والتسعينات، كنت أزور سورية مع عائلتي في زيارات متقطعة، وكنت كلما زرت هذا البلد صُدمت لكثافة حضور الشعارات الأيديولوجيّة الاشتراكيّة عند أول نقطة أضع فيها قدميّ على تلك الأرض، مشفوعة بعبارات الولاء الأبدي والتقديس الإلهي لشخص الزعيم **حافظ الأسد**. وكان الشعار الأكثر تكرارا على الإطلاق: «**قائدنا إلى الأبد.. الأمين حافظ الأسد**»!

وأمام هذا الحضور الطاغي، والمشفوع بمسحة إرهاب داخليّ تلمسه عند الجميع، كان لا بدّ لعقل طفل سَؤول أن يتوقّف مليًّا ليتساءل: ما بال الكبار الذين يُفترض أنهم تجاوزوا سنّ الطيش الذي أقبع فيه يمارسون لعبة بهذا الانكشاف؟ كيف يعقل أن يصل تقديس الناس لزعيم فانٍ درجة التصريح بأنه باق للأبد؟ وكيف يتواطأ الجميع على هذه المهزلة؟!

في عام 1999، انطلق ما يسمى الاقتراع الرئاسي، وكنت موجودًا آنذاك في دمشق، فوجدت نفسي أعيش تفاصيل تلك المسرحيّة العملاقة التي تشبه الكابوس، حيث تدرك أنك عالق في وضع مؤلم ولا تستطيع الخلاص منه، والأسوأ أني كنت واعيًا لكونه حقيقة لا حُلما يُنتَظَر انقضاؤه.

كان كل شيء من حولي منخرطًا في اللعبة، فلم يكن لدي آنذاك أي جهاز تلفزيوني يستقبل قنوات فضائيّة، ولم يكن الاتصال بالإنترنت متاحًا. كان على الجميع أن يسلّموا أنفسهم لسيل من الدعاية المؤدلجة، وأن يحافظوا في الوقت نفسه على صحتهم النفسية والعقلية، ومن دون إبداء أي اعتراض أو استياء أو استنكار خشية التعرّض لخطر الموت.

كان أكثر ما يثير دهشتي إجراء «**عرس انتخابي**» عملاق بمراسم كرنفالية تكلّف بلدًا متعَبًا ملايين الدولارات، يتضمن حملات انتخابية حافلة بالرقص والغناء والمسيرات واللافتات، ثم دفع الناس بالترغيب والترهيب إلى صناديق الاقتراع للإقرار بموافقتهم على تجديد البيعة للزعيم، فلم يكن هناك مرشّح آخر ولو صوريّ، بل كانت الورقة التي استلمها صديقي –وأنا برفقته– من الموظّفة تتضمن صورة الزعيم وتحتها خياران: **موافق**، **وغير موافق**. وبعدما وضع صاحبي إشارة على خانة الموافقة أمام عينيها، استلَمَتْ الورقة منه وفحصتها مرّة أخرى للتأكّد من صحّة الاختيار، ثم وضَعَتْها بنفسها في الصندوق مع ابتسامة لطيفة.

فاز حافظ بالطبع، وبنسبة تقترب من 100٪، وأعتقد أن ابتسامة ساخرة قد ارتسمت على وجهك عزيزي القارئ وأنت تسأل نفسك: وهل يُعقل أن يصوّت أحد بعدم الموافقة. لكن الأكثر طرافة أن الزعيم الفائز بولاية تمتد سبع سنوات لم يستطع تأجيل أجله المحتوم إلى ما بعد العام التالي، ولو حدثتك عن مسرحية الحزن التي لعب الجميع أدوارها مجدَّدًا عند تلك اللحظة فلن يتسع الكتاب لسرد المواقف والعجائب، وسأكتفي بالقول إن مبنى نادي الضباط الذي يحتل منطقة بارزة في وسط العاصمة كان قد جُدد قبل ذلك بقليل، وجُعل شعار «**قائدنا إلى الأبد**» جزءا من الواجهة الحجرية الضخمة للبناء، ثم لم يجرؤ أحد على تغييره طوال سنوات مع أن «**القائد المؤبّد**» كان قد أصبح عظامًا نخِرة.



والسؤال الجوهري الذي يلوح أمام هذه الأمثلة هو: لماذا يدفع هذا النظام الشمولي شعبًا كاملًا لممارسة أدوار افتراضية في مسرحية ضخمة، مع علم الجميع بأنها مجرّد كذبة؟ وهذا يشبه سؤالًا آخر سمعته بعد سنوات على لسان صديق أكبر مني عمرًا، وهو: طالما كان الطاغية قد تمكّن من الحكم فعلًا، فلماذا لا يكسب قلوب شعبه بدلًا من استعبادهم بالخوف إلى درجة التواطؤ على التظاهر بالعكس؟ لا سيما أن كل عنصر في هذا النظام يعلم تمامًا أن كل أفراد الشعب يكذبون.

هذا لا يعني بالطبع أن كل فرد من الشعب يكره هذا النظام، فهناك مستفيدون منه، وهناك مؤمنون أيضا بشيء من قواعد لعبة التقديس، سواء من الطائفة التي ينتمي إليها أو من غيرها، لكن الجميع يمارسون الكذب، حتى لو كان على هيئة التظاهر بمزيد من المحبة والتقديس.

زد على ذلك أن معظم أفراد الشعب، أو نصفه في أكثر التقديرات تشاؤمًا، ليس لديهم أي مبرر لمحبة طاغية يجبرهم على الكذب، ويهددهم بأفظع العقوبات إن خرجوا قليلًا عن الخط المرسوم لهم. فالخوف وحده هو الذي يساق فيه الجميع عنوة إلى الطاعة، سواء بالخوف من العقوبة الحاضرة في كل لحظة، أو بالخوف المتوهَّم من الفوضى التي ستحل بالبلاد والعباد في حال سقوط النظام، أو بالخوف من العدو الخارجي المتمثّل في إسرائيل

والإمبريالية الأمريكية، علمًا بأن الإمبرياليّة السوفييتيّة ثم الروسيّة كانت وما زالت محل ترحيب.

كان تحليلي الوحيد لإصرار هذا النوع من الطغاة على اكتساب الطاعة بالخوف والكذب هو رغبتهم في تحطيم إنسانيّة كل فرد من هذا الشعب، فإلى جانب إشغال الناس باللهاث وراء لقمة العيش ودفع الفواتير، والركض حرفيًّا وراء حافلات النقل العام كل يوم، كان الطاغية يريد ممّن لم ينشغل بكل ما سبق وبقيت لديه طاقة للتفكير في القضايا العامّة أن يشعر بأن كل من حوله مجانين، وليسوا فقط مغفّلين كما هو حال الدهماء في العالم كله بما فيه الدول الديمقراطية، بل المطلوب أن يظهر الجميع كمهرجين في مسرحية هائلة، وهذا وحده يكفي ليصاب العقلاء والأذكياء وأصحاب الهمم بالإحباط الشديد والشعور بالعجز، وربما بالاكتئاب الذي يفضي إلى الانسحاب.

والوعي باللعبة عنصر أساسي في خطة الاستعباد هذه، وكما يقول **إيلين سكاري** في كتابه «**الجسد في الألم**: **صنع العالم وتخريبه**» فإن هدف التعذيب لا يقتصر غالبًا على إكراه السجين على النطق وإعطاء المعلومات، بل المطلوب أيضًا تدمير إحساس الضحيّة بذاته وإنسانيّته، مع وعيه بكل ما يحدث لكيانه من تحطيم جسدي ونفسي، فوظيفة زبانية الطواغيت -سواء في السجون أو عبر الإعلام أو بأيّ وسيلة ممكنة- تمزيق عقل الإنسان وتفتيته إلى شظايا واعية، ثم إعادة تركيبها بأشكال جديدة، ودون أن تفقد وعيها أيضًا.

دعني أعود مجدّدًا إلى عام 1999، ففيه صدر كتاب باللغة الإنجليزية عن جامعة شيكاغو المرموقة، وبتوقيع **ليزا وادين** التي كنت تحضّر للدكتوراه، وهي حاليا أستاذة للعلوم السياسية في الجامعة نفسها. حمل بحثها -الذي استند أساسا إلى زياراتها المتكررة طوال التسعينات إلى سورية- عنوان «**السيطرة الغامضة**»، إذ كان هاجسها الأساسي هو سبب الإسفاف في إضفاء هالة من القداسة على حافظ الأسد إلى درجة تبدو غير فعالة، وهي تقول إن كل الدراسات السابقة لم تنجح في فهم سبب استمرار هذا النظام في إنفاق

الموارد على طقوس التقديس وإجبار المواطنين على المشاركة فيها[1]، مع العلم بأن الدافع الوحيد للطاعة هو الخوف وليس المحبة.

لم يترجم هذا الكتاب، الذي نُشر قبل وفاة حافظ بسنة، إلا قبل الثورة التي اندلعت ضد وريثه بسنة أيضا، أي عام 2010، وعندما عثرتُ عليه التهمتُ صفحاته بِنَهَمٍ، إذ كان يغوص بجدارة في تلك الأسئلة المحيرة مستحضرًا أهم التحليلات الاجتماعيّة والسياسيّة المعاصرة.

تقول المؤلّفة إنّ سماح النظام بانتخابات يكون الزعيم هو المرشّح الوحيد فيها يحمل اعترافًا ضمنيًّا بأن النظام يشكّ في شعبيته، ومع أنها تجد في بعض التحليلات الكلاسيكية لظاهرتي الفاشية والنازية ما يفسر الممارسات القمعية ونشر الدعاية، إلا أنّها لم تجد تفسيرًا لممارسات فرض الشعائر التي لا يمكن تصديقها، بل تبدو لها ظاهرة تقديس الأسد مدعاة للسخرية، لتتساءل مرارًا: لماذا يصرّ النظام إذن على فرض هذه السخرية وهو يعلم ذلك؟[2]

توافق الباحثة **وادين** على ما قاله باحثون آخرون عن اقتباس حافظ الأسد بعض مظاهر التقديس من النموذج السوفييتي والكوري الشمالي، فمن المؤكّد أنه استعان بخبراء من هناك ليصنعوا له صورة الزعيم المقدس، ثم تقارن في بحثها بين حافظ الأسد وصدّام حسين عبر عدة نقاط، وتستنتج أن إرهاب نظام صدام لشعبه كان أقلّ شيوعًا ورعبًا، وأن صدام كان أكثر كاريزميّة ونشاطًا وحضورًا، بينما لم يتمتّع حافظ بالصفات التي تؤهله لمرتبة القداسة المزعومة. وعلى أي حال، فقد سعى حافظ لاكتساب صورة المعبود واختزال الوطن والأمة في ذاته دون اكتراث لمحبة الشعب له، وربما استلهم بذلك فلسفة إمبراطور ألمانيا فردريك العظيم، إذ يُنقَل عنه القول إنه لم يكن مهتمًّا برأي شعبه فيه طالما

---

(1) ليزا وادين، السيطرة الغامضة.. السياسة، الخطاب، والرموز في سورية المعاصرة، ترجمة نجيب الغضبان، دار رياض الريس، ط 1، 2010، ص 41.

(2) المرجع السابق، ص 51.

كانوا ينفّذون أوامره[1]. وبالطريقة نفسها، «ليس مطلوبًا الإحساس بالتماثل مع الأسد أو محبّته، إنما المطلوب هو التظاهر بذلك فقط»[2].

وفي قصة طريفة تنقلها المؤلفة عن مصدر ما، دون الجزم بصحّتِها، يزور ضابط كبير في آخر الثمانينيات معسكرًا للحرس الجمهوريّ، ويطلب من كل الضبّاط الصغار أن يقصّوا عليه ما رأوه من أحلام في الليلة السابقة، فيتسابق كل منهم ليروي قصة حلمه الذي رأى فيه **حافظ الأسد** بصورة لا تليق سوى بالأبطال الأسطوريين أو الملائكة أو الآلهة، وبدلًا من أن يثور الضابط غضبًا من هذا التملّق والكذب الذي لا شك فيه، فإن الجميع يعلمون أن هذا هو المطلوب تمامًا، وعندما يعترض أحد الضباط الصغار ساخرًا من هذه المسرحية المثيرة للاشمئزاز، ينهال عليه الجميع تلقائيًّا بالضرب، ثم يُسرّح من عمله[3].

تذكّرني هذه القصة بأمثلة كثيرة جدًّا يلعب فيها المواطن العادي أحيانًا دور عنصر المخابرات لا شعوريًّا في بعض المواقف، وكأنه مبرمَج على أن يترك موقعه في الرعيّة ويرتقي إلى مراتب المسؤولين ليمارس الاضطهاد على أمثاله عندما تدعو الحاجة لذلك، ومنها مثلًا التحول المفاجئ في ملامح موظفة كانت تقف في جناح بأحد المعارض في دمشق، فبعد أن كانت تبشّ في وجهي رأيتها تتلبّس هيئة الشرطي الفظ وتطلب مني التراجع للخلف، لأكتشف بعد ثوان من الدهشة أن بشار الأسد -الذي كان نجل الزعيم آنذاك- قد ظهر في المكان محاطًا بحُرّاسه.

وفي مثال أشدّ غرابة التقطته عدسات الكاميرا عام 2011، أي بعد شهور قليلة من اندلاع الاحتجاجات ضدّ النظام، وبينما كان عشرات الناشطين والمعارضين يجتمعون في قاعة بدمشق تلبية لدعوة أطلقها النظام للحوار -وكان مجرد مناورة- كان بعض المراسلين يجرون مقابلات عابرة مع المدعوّين في بهو القاعة، فتجرّأ أحدهم ونطق بمطالب ذات

(1) المرجع نفسه، ص 76.
(2) المرجع نفسه، ص 152.
(3) المرجع نفسه، ص 171.

سقف مرتفع، وبصوت مرتفع أيضًا، وعلى الفور تحرّك عدة أشخاص تلقائيًّا نحو هذا المسكين ليضربوه أمام الكاميرا، لكن المشهد المثير للسخرية أن أحد المبادرين كان شخصًا يجري مقابلة بدوره في اللحظة نفسها، فما إن سمع كلمات تتخطّى الحدّ المسموح به عُرفًا نسي أمر المقابلة والكاميرا وسارع مع البقية لينال شرف ضرب ذاك العنصر المتمرّد على المنظومة، ثم عاد هذا الرجل، الذي كان للتو يمثل دور معارض سياسي بلباس رسمي محترم، ليأخذ موقعه أمام الكاميرا مجدَّدًا ويكمل المقابلة!

يقول المؤرخ الأمريكي **ستيفن غرينبلات** إنّ السلطة تعبّر عن نفسها في قدرتها على فرض خيال الزعيم على المجتمع، فالهدف ليس إقناع الآخرين بهذه المسرحية، بل المطلوب أن يشارك الجميع فيها بصمت، سواء بالتمثيل أو المشاهدة[1].

أما الكاتب **فاتسلاف هافل**، الذي كان مهندس إسقاط الشيوعية في **تشيكوسلوفاكيا** ثم أصبح رئيسها عام 1989، فيضرب مثالًا ببائع الخضروات الذي يضع على عربته لوحة كتب عليها الشعار الماركسي «**يا عمّال العالم اتّحدوا**»، وهو يعلم أنّ العمال لن يقرؤوها ليعملوا بها، لكنه يعلن بذلك الولاء للنظام، ويمارس دوره في المسرحيّة. والأمر نفسه كان يتكرر في سورية عندما يلصق سائقو الأجرة صور الرئيس على سياراتهم دون أن يُطلَب منهم ذلك، أو يعلّق أصحاب المحلات التجارية تلك الصور في صدور متاجرهم، كنوع من التعويذة التي تبعد عنهم ضرر الشرطة والمخابرات والمتطفّلين، أو بعبارة أخرى ليمارسوا دورهم أيضًا في المهزلة. وهذا التواطؤ الطوعي هو الذي يديم النظام الوحشي عبر الحطّ من شأن الناس بحسب رأي **هافل**[2]، وفي اللحظة التي يتوقّف فيها الناس عن المبالغة في لعب الدور، تبدأ الصحوة من الخوف الجاثم على صدورهم.

في كتابه «**جمهوريّة الخوف**»، روى أيضا المعارض العراقي الهارب إلى المنفى **كنعان مكّيّة** كيف نجح **صدّام حسين** في دفع الناس للعب أدوارهم دون أن يطلب ذلك، فعندما

(1) المرجع نفسه، ص 180.

(2) المرجع نفسه، ص 183.

استولى صدام على السلطة عام 1979 أمر خصومه بالاعتراف علانية أمام مجلس قيادة الثورة بالخيانة، ودفع الآخرين للهتاف له في مسرحية قل نظيرها في التاريخ، وانتهى الأمر بالإقصاء والإعدام ليجثم الطاغية على صدور الشعب عدة عقود. ويرى **مكّيّة** أن التواطؤ هنا لعب دورًا فظيعًا في هذه المسرحية التي كرّست وحشيّة صدام، وكان طلب صدام من قادة الحزب بالتخلص من الخونة قد تحوّل تلقائيًّا إلى أمر عسكري بقتلهم، والأوامر العسكريّة لا تُناقَش[1].

ويبدو أن الطغاة يتعمّدون في مثل هذه المواقف إشاعة الشعور بأقصى درجات الخوف ليتحوّل الناس تلقائيًّا إلى ممثلين متواطئين بهدف النجاة، فتحت مظلة الخوف من المجهول وغموض العقوبة وغياب القانون، وعندما يكون الزعيم مهووسًا بالقهر والتشفّي، يجتهد الناس لتخيّل القوانين وفرضها على أنفسهم، ثم يمتثلون لها، بل يعاقبون الآخرين إذا لم يحقّقوا تلك المعايير المفترضة.

ويبدو أن هذه الاستراتيجية قد آتت أكلها في توطيد دعائم الحكم في دول يندر أن تستقر في التاريخ، مثل العراق وسورية تحديدًا، فالوحشيّة لا تكفي لترهيب هذه الشعوب، بل لا بدّ من سحق إنسانيتها وتحويل أفرادها إلى شراذم من المتملّقين والمحبَطين.

يقول الإعلامي **أحمد منصور** في كتابه «**قصة سقوط بغداد**» إن تماثيل وصور صدام كانت أكثر ما لفت نظره في توزعها على كل الشوارع والميادين بالعاصمة العراقية، وكأن الزعيم كان يريد إقناع شعبه بأنه حاضر في كل مكان لمراقبتهم. وعندما سقط حكمه خلال أيام من بدء الغزو الأمريكي عام 2003، لم يجرؤ أحد من الشعب على التحدث إليه كمراسل صحفي، فلم يكن أحدهم قادرًا على تصديق أن الزعيم المتألّه سيسقط، وكانوا على يقين بأنّ اختفاءه مجرد مناورة، ولا بد أن يعود ليحكم، وربما ليحاسبهم على أي كلمة نطقوا بها ضده.

---

(1) المرجع نفسه، ص 187.

وبعد نحو عشر سنوات من هذه القصة، لمست الأثر نفسه في حلب عندما زرتها مراسلًا، حيث كنت أتنقّل بصحبة عناصر من «الجيش الحر»، أي كتائب الثوار الذين طردوا نظام الأسد من نصف مساحة المدينة، فكنت أسمع دائمًا عبارات الترحيب من عامة الناس «الله محيّي الجيش الحر»، وهي العبارة نفسها التي كنت سأسمعها لو كنتُ بصحبة جيش النظام مع تغيير الكلمة الأخيرة فقط، ولستَ بحاجة عزيزي القارئ لتذكيرك بأن هذا التملّق لم يكن مطلوبًا من أحد، خصوصًا أنه كان يصدر غالبًا عن أطفال ويافعين، فالثقافة العامة تقتضي أن تحيي الرعية كل من يحمل السلاح وتكون له الغلبة. لكن المفارقة ظهرت عندما استضافنا مواطن طيّب في حي شعبي فقير، وجلسنا على مصطبة منزله لأكل البطيخ وشرب الشاي، وكانت الحرب دائرة على أشدها في أحياء أخرى على مرمى حجر، وما إن دارت الكاميرا لتسجيل شهادته حتى خرجت زوجته من المنزل لتتوسّل إلينا أن نطفئ الكاميرا، وهي تقول على استحياء إنهم يريدون فقط العيش بأمان، فمع أن كل المؤشرات الاستراتيجية كانت تؤكد أن النظام سيسقط عاجلا أم آجلا إلا أن الشعب الذي عاش عقودًا في ظل هذا النظام لم يكن مستعدًّا للتصديق، واللافت أن النظام لم يبق في السلطة فعلًا إلا بتدخُّلٍ مباشر وغير متوقَّع من روسيا، كما سيأتي لاحقًا.

ولو وسّعتَ دائرة النظر عزيزي القارئ ستجد أن ظاهرة التواطؤ والكذب لم تكن قاصرة على سورية والعراق، بالرغم من أن وطأة الطغيان في الدول الأخرى بالمنطقة كانت أخف بكثير. أذكر مثلًا قصة طريفة لصديق كان يسير في أحد شوارع العاصمة ببلاده أثناء إقامة مراسم الحداد على وفاة الزعيم، فوجد نفسه دون مقدمات أمام فريق تصوير تابع للقناة الحكومية، وسارعت المراسلة لسؤاله عن رأيه ومشاعره في تلك اللحظة. قال لي إنه تقمص الدور المطلوب منه تلقائيًّا بدافع الخوف، وهذا أمر مفهوم ومبرّر، لكن الطريف أن عقله الباطن انطلق لإبداع المزيد من مظاهر التزلّف والنفاق، دون أن يكون مطلوبًا منه،

فنظر إلى السماء التي كانت تمطر حينها، وصاح أمام الكاميرا: حتى السماء بكت اليوم على قائدنا العظيم!

لا تعجب عزيزي القارئ، فربما لو كان أحدنا مكانه سيفعل الشيء نفسه، أو يبدع عقله الباطن مشهدًا أكثر تملّقًا!

الدولة - السجن

بما أني وعدتك عزيزي القارئ بألا أحرجك بالخوض في ظروف الحكومات القائمة في منطقتنا، فسأولّي وجهي شطر المشرق الأقصى وأحدّثك عن كوريا الشمالية، تلك الدولة التي تعيش في زمنها الخاص، وتكاد تكون نموذجًا واقعيًّا وحيًّا للتفرّج على أفظع ما يمكن تخيّله من طغيان وحماقة.

منذ سنوات طويلة لا أدع فيلمًا وثائقيًّا أصادفه عن تلك **الدولة-السجن** دون أن أحرص على مشاهدته، وفي كل مرة أكتشف ما يثير دهشتي. وسأبدأ حديثي بمشهد رأيته في فيلم خارج هذا السياق، إذ لم يكن -كما أذكر- مخصَّصًا للحديث عن عجائب الطغيان في هذا البلد الشيوعي، بل كان يستعرض تجربة طبيب عيون غربي يتطوع لإجراء عمليات إزالة المياه البيضاء من عيون الفقراء، وهي عمليّة بسيطة يعجز عن إنجازها نحو 20 مليون إنسان فقير حول العالم للأسف الشديد.

الطبيب تمكّن بعد جهد من الحصول على تصريح لإجراء هذه العمليات للمحتاجين في كوريا الشمالية، فحشدت له السلطات المئات، وربما الآلاف منهم، في قاعة كبيرة، وكلما أتم هذه العملية -التي تستغرق دقائق في العادة- لأحد المواطنين، قام المسكين على الفور وفتح عينيه على صورة الزعيم المعلّقة على الحائط، وتلا أمام عدسات المصوّرين كلمات الشكر والثناء لذلك الزعيم الذي كانت صورته هي أول شيء رأته عيناه بعد سنوات من العمى!

مشهدٌ تختلط فيه الكوميديا بالتراجيديا، وقد لا يصدّقه العقل لو لم نعلم ابتداءً أنّه يحدث في هذا البلد الأسطوري.

الخوف لا يوحِّد الناس فقط، بل قد يسلبهم إنسانيّتهم أيضًا إذا اقترن بالتهديد والقهر، فالطاغية لا يكتفي بتحويلهم إلى قطيع يسير وراءه ليحتمي به من العدو، بل ليحتمي به منه هو بالدرجة الأولى.

في فيلم وثائقي آخر، صوره صحفيّون فرنسيّون على مدى سبع سنوات وبُثّت نسخته العربية على قناة دويتشه فيله DW الحكومية الألمانيّة، نرى كيف تجبِر القوانين كل السيّارات على التمهُّل عندما تمرّ أمام صورة أو تمثال لسلالة «**القادة العظماء**»، كما يُجبَر راكبو الدراجات على التمهّل والترجّل والمشي على أقدامهم حتى يتخطّوا تلك المنطقة التي تغمرها قداسة الأصنام، أمّا المارّة فعليهم أن ينظروا إلى الصور أثناء مشيهم[1].



جميع الأفلام الوثائقيّة التي شاهدتها عن كوريا الشمالية، وهي ليست قليلة، تبدأ بتوضيح أول شرط يواجهه صانع الفيلم القادم من الخارج، فتصريح الحصول على تأشيرة الدخول والتصوير يتطلّب -بعد سلسلة من الإجراءات المعقّدة- الموافقة على مرافقة

(1) فيلم وثائقي بعنوان «الحياة اليومية في كوريا الشمالية- نظرة من الداخل»، بثته قناة دويتشه فيله بتاريخ 26 يناير 2021.

اثنين أو ثلاثة من المراقبين له طوال فترة مكوثه في البلاد، ليس أثناء التصوير فقط بل في كل خطوة يخطوها خارج الفندق المخصّص له من قبل الحكومة المركزيّة. وخلال الجولة التي يتم إعدادها مسبقًا بإشراف الحكومة لا يحق لأي أجنبيٍّ التحدّث مع أي مواطن، وإذا حدث أي احتكاك -ولو بإلقاء التحيّة- يتولّى المرافقون مهمّة القمع الفوريّ.

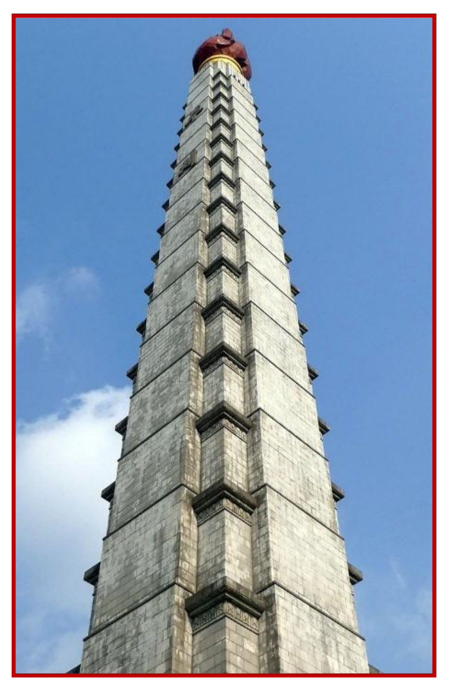
والعجيب أن الحكومة ما زالت توافق على منح التراخيص لصُنّاع هذه الأفلام مع أنهم جميعًا تقريبًا يقدّمون رؤية سوداوية عن تلك البلاد، فما إن يخرج أحدهم بسلام من حدود هذا السجن الرهيب حتى يصنع فيلمه من تلك الأشرطة التي صورها وهو يعلّق مندهشًا مما رآه من قمع واستبداد وتحكُّم بكل مرافق الحياة.

من المدهش أيضًا، أو المؤلم بالأحرى، رؤية ردود أفعال مواطني وموظفي هذه الدولة عندما يواجههم الصحفيون الغربيّون ببعض الأسئلة المحرجة، فلا شيء أفظع من أن يتحول شعب كامل إلى قطيع من الممثلين. كلهم مجبورون على تمثيل دور المطيع والراضي بقدره، بل والفخور بوطنه العظيم الذي جثت أمامه أمريكا على ركبتيها. خليط من المشاعر قد ينتابك وأنت تتأمل وجوههم وهي تصطنع الصدق من أعماق الخوف، وربما تجرفك موجة من الشفقة في النهاية عندما يعجز أحدهم عن أداء الدور بنجاح أمام الكاميرا، فيجفّ حلقه ويصفرّ وجهه وهو يحاول حفظ ماء وجهه دون أن يقذف بنفسه في غيابة السجن.

التمثيل لا يقتصر على من تُجرى معهم المقابلات، بل كان بعض صنّاع الأفلام يجزمون بأن كل ما رأوه من تفاصيل الحياة اليومية مجرّد مسرحيّات. قد يبدو هذا خياليًّا لمن يشاهد تلك الأفلام لكنّها الحقيقة الصادمة.

وكعادة كل الطغاة، حاول مؤسّس هذه الدولة المهووس بنفسه **كيم إيل سونغ** إقامة مملكته، وبالأحرى مزرعته الخاصة، على فلسفة مصطنعة سماها زوتشيه -أو جوتشيه- وجعلها العقيدة الرسمية لكوريا الشمالية الشيوعية الملحدة. وهي ليست سوى محاولة

تافهة لإيجاد طريق خاص بهذه المزرعة كي لا تذوب في حضن العملاقين الشيوعيين المجاورين والمتنافسين: الاتحاد السوفييتي والصين.



في فيلم أنتجته القناة الألمانية أيضًا، يزور صحفيان ألمانيان نُصُبًا تذكاريًّا مخصّصا لزوتشيه، وهو برج عملاق ارتفاعه 180 مترًا. وفيه متحف لهذه الفلسفة العجيبة. تسأل موظفة المتحف الصحفيان عن دينهما، ثم تخبرهما بأن الكثير من الزوار الذين يأتون إلى هذا المكان يتبعون دينا ما، وتضيف «نحن هنا ليس لدينا دين، بل زوتشيه. هو ليس دينا بالضبط، فنحن نؤمن بالرجال». وهذا تصريح مفيد كي لا يُقال إن اتهامنا للطاغية بالتألّه مبالغ فيه، فثمة تمثالان عملاقان لمؤسّس الدولة وابنه، وكلاهما الآن في عداد الأموات، وما زال الصنمان مَزارين يُجبر كل من يقترب منهما على الانحناء (الركوع) ووضع باقة زهور، كما تُمنع الإشارة إليهما بالسبّابة[1].

لن أضيّع وقتك عزيزي القارئ في الحديث عن نظرية **زوتشيه**، وسأترك تقدير تفاهتها لخيالك، لا سيما أنك -بصفتك مواطنًا عربيًّا- قد سمعت أو عايشت نظريات جنونية مشابهة، وسأذكرك ببعضها سريعا: **الوحدة العربية** لدى جمال عبد الناصر، **الحركة التصحيحية** التي ابتدعها حافظ الأسد، **والكتاب الأخضر** الذي تفتقت عنه «عبقرية» معمر القذافي.

ومع أن معظم النظريات الشمولية الكلاسيكية حول العالم قد تحوّلت إلى المتاحف ليتفرج عليها طلاب المدارس، حتى في الصين التي تخففت من حرج ثورة ماو تسي تونغ

(1) فيلم وثائقي بعنوان «رحلة عبر كوريا الشمالية»، بثته قناة دويتشه فيله بتاريخ 10 يوليو 2020.

الثقافية ونظرياته الجنونية[1]، وأخذت تميل نحو اقتصاد السوق الاجتماعي، ما زالت كوريا الشمالية تجبر مواطنيها الذين يتجاوز تعدادهم 25 مليون نسمة على البقاء أسرى لهذه النظرية السخيفة، بل وتلقينهم أهم مبادئها في المدارس ومواقع العمل ووسائل الإعلام، وحتى في مكبرات الصوت التي تصدح في الشوارع، ما يعني أنه لن يفلت أي مواطن من فهم وحفظ العقيدة المقدسة التي ابتكرها كائن بشري مثلهم، لكن قدره ساقه ليصبح زعيمًا عليهم.

ولست أنسى محاولة بعض المساكين للتهرّب من أسئلة صناع الأفلام الوثائقيّة الأجانب بإسناد سبب عزلتهم واقتناعهم بتفرّدهم عن بقية الخلق إلى هذه الفلسفة «العظيمة»، وعندما يحاول الصحفي القادم من العالم الخارجي استقصاء سر هذه الفلسفة يأتيه الجواب الذي لا أنساه: وهل ستفهمها إذا شرحتها لك؟ إنها معقّدة جدا ويصعب عليك استيعابها.

هذا الجواب تكرر في أحد الوثائقيات على لسان بعض قادة الحزب الشيوعي وأساتذة الجامعات، وكأنه حيلة متفق عليها لإنقاذ الكرامة المهدورة باصطناع التميّز والعمق. القائل يعلم تمامًا أنه يكذب، كما يعلم أن السامع يعلم أنّه يكذب، لكنه طوق النجاة الوحيد في عالم تحكمه قيمة واحدة: **الخوف**.

الغرب المتحضّر

بعد هذه النظرة -التي قد تفضي للأسف إلى اليأس- في الاستبداد الآسيوي، دعني أعود إلى الغرب الذي أقام الكثير من مفاهيمه على مبدأ المركزية الأوروبية، أي اعتبار

(1) ماو هو مؤسس جمهورية الصين الشعبية وزعيمها الشيوعي الأول، بقي في السلطة ما بين عامي 1949 و1976. في عام 1958 أطلق مشروعًا اقتصاديًا جنونيًّا تحت مسمى «القفزة الكبرى» بهدف اللحاق بالدول الصناعية، فكانت النتيجة تدمير القطاع الزراعي وحدوث مجاعة هائلة. قتل فيها ما بين 20 و46 مليون صيني، ثم أطلق في عام 1966 «الثورة الثقافية» مشجعًا أنصار الحزب الشيوعي على ملاحقة كل شخص مشكوك في ولائه، وكانت النتيجة تمزيق المجتمع.

أوروبا مركزًا للتاريخ والجغرافيا، فقد درجت العادة على ترديد مقولات تنسب الديمقراطية إلى أثينا الأوروبية، في مقابل الاستبداد الفارسي المشرقي، وكأن الدولة الرومانية -أعظم حضارات أوروبا في العصر القديم- كانت أقل استبدادًا واستعبادًا ووحشيّة!

واللافت أن الاستعمار الأوروبي أقام استبداده الخارجي الوحشيّ أصلًا على إقناع الذات بأن الديمقراطية والتنوير حكر عليه، وأن نقل هذا الإنجاز الأوروبي لا يتم إلا بعد احتلال البلاد الأخرى واستعباد أهلها.

وحتى الشيوعيّة الأمميّة، التي يُفترَض أنّها تقوم أصلًا على المساواة وإزالة الحواجز بين الشعوب، خرجت من عقل الألماني **كارل ماركس** الذي اقتنع بمفهوم مُواطنه **كارل ويتفوغل** عن «**الاستبداد الشرقي**»، فكان ماركس يبرر لفرنسا احتلال الجزائر بزعم أنه ضروري لتحقيق الحركة التاريخية للجزائريين[1].

وربما برر بعض الأوروبيين انتقال الشيوعية إلى روسيا وتأسيس منظومتها الشمولية هناك بإخراج روسيا من حظيرتهم، وهذا ما فعله المؤرخ البريطاني الراحل **أرنولد توينبي** عند تحليله لخلفيات الاستبداد السوفييتي في كتابه «**العالم والغرب**»، إذ نفى عن الروس ابتداءً صفة الانتماء للغرب، وقال إن روسيا تشكل جزءًا مهما من العالم غير الغربي، فمع أن الروس مسيحيون (أرثوذكس) إلا أنهم لم يتبعوا الكنيسة الرومانية في الفاتيكان (كاثوليك)، بل ظلت العداوة قائمة بين الأمّتين طوال قرون، ولم ينجح التزاوج بين العائلات الحاكمة في روسيا وأوروبا في إذابة الجليد[2]، واندلعت حروب طويلة بين الطرفين.

ومع أن كبرى الحواضر الروسية، مثل موسكو وسانت بطرسبرغ (لينغراد)، تقع جغرافيًّا وتاريخيًّا في أوروبا، إلا أن الحاجز الثقافي-الدينيّ كان حائلًا دون تقبُّل الأوروبيين

---

(1) عبد الله عبد الرحمن يتيم، دفاتر أنثروبولوجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2004، ص 339.

(2) أرنولد توينبي، العالم والغرب، ترجمة هاجر وسعيد الغز، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2006، ص 17.

للنظر إلى جيرانهم الشرقيين على أنهم أمة واحدة، وهذا ما حدا بالمفكر الأمريكي **سامويل هنتنغتون** لاعتبار روسيا حضارة مستقلّة بذاتها في كتابه المعروف «**صراع الحضارات**».

ويقول توينبي إن الغزوات الأوروبية على روسيا منذ القرن الثالث عشر دفعت المواطن الروسي إلى تقبّل سيطرة موسكو على كامل الأراضي الروسية الممتدّة إلى أقصى شرق آسيا، بحيث فرضت السلطة المركزيّة قبضتها الحديديّة لصدّ هجمات العدو. ويعتبر المؤرخ البريطاني أن «استسلام الشعب الروسي للنظام الفردي الذي أصبح تقليديًّا في روسيا يشكّل الحاجز الرئيسي أمام إقامة علاقات طيّبة بين روسيا والغرب اليوم»[1].

وهذا الاستعداد النفسي مهّد الطريق لاحقًا، بحسب المعالج النفسي الأسكتلندي **جيمس أي. براون**[2]، لبثّ المزيد من المفاهيم الاستبدادية في نفوس الشعب الرازح تحت الحكم الشيوعي الشمولي، إذ نجحت الدعاية الشيوعية في تمييع ملَكة التمييز بين الحق والباطل لدى الناس، حتى أصبحوا يتقبّلون انقلاب تقييمهم للأشياء من حب إلى كراهية أو العكس تبعًا لموقف الحزب الحاكم، فالسلطة هي التي تضفي المعايير على الأشياء[3]، وعلى المواطن أن يوافقها في حكمها لأنها تمثّل الشعب الذي يحلّ محل الإله.

حسنًا، إذا قبلنا إطلاق هذه المعايير الشمولية على روسيا «غير الغربية» فماذا نقولُ عن ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية وإسبانيا في ظل حكم فرانكو؟ سأترك الجواب مرة أخرى لجيمس براون، إذ كان بارعًا في نسبة مشاعر الكراهية التي دفعت الألمان لإعلان الحرب على جيرانِهم الأوروبيّين إلى الطبيعة التحكُّميّة التي تنتشر في كل البناء الاجتماعيّ الألمانيّ، بدءًا بالعائلة ووصولًا إلى دوائر الحكم، إلى درجة أن دستور **فايمار** الذي طبق الديمقراطيّة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى كان مزعجًا للشعب الذي اعتاد على

---

(1) المرجع السابق، ص 20.

(2) كان براون معاصرًا للحربين العالميتين، ولصعود الشيوعية ونشوء الحرب الباردة، وقبل وفاته في منتصف الستينات بعامين نشر كتابه المهم «**تقنيات الإقناع: من البروباغاندا إلى غسيل الدماغ**»، ويؤسفني أنه لم يحظ بما يستحقه من شهرة، فما زال كتابه قادرًا على الإلهام بالرغم من التطور الهائل في أساليب الدعاية.

(3) أساليب الإقناع وغسيل الدماغ، ص 66

طاعة الأوامر، بل رأى براون أن طبع الفرد الألماني كان أقرب إلى الهَوَس (بلغة الطب النفسي) من حيث اهتمامه بفضائل الطاعة والنظافة ودقة المواعيد والفعالية والانضباط[1]، لذا كان هذا الشعب مستعدًّا تمامًا لصعود دكتاتور مهووس مثل **أدولف هتلر** كي يقوده إلى الحرب.

أما عالم النفس اليهودي الألماني **إريك فروم** فقدّم تحليلًا مميّزًا ونادرًا لقصة صعود الدكتاتورية وتقبّل الشعب لها في أوروبا، وتحديدًا الفاشية والنازية. فبعد استيلاء النازيين على السلطة هرب فروم إلى الولايات المتّحدة كما فعل الكثير من اليهود، ثم وضع خلاصة تحليله النفسي-الاجتماعي في كتابه المهم والصادم «**الخوف من الحرية**» عام 1941.

ينسف **فروم** في بداية كتابه الفكرة القائلة إن انتصار النظام الشمولي يرجع إلى جنون أفراد قلائل، وإن جنونهم سيؤدي إلى سقوطهم مع مرور الزمن، كما يسخَر ممن يقول إن الشعبين الإيطالي والألماني سينضجان مع الزمن ويتدرّبان على الديمقراطية كبقيّة الشعوب المجاورة، ويقول إن مشكلة «الهرب من الحرية» يعاني منها الملايين في كل مكان، مؤكّدًا بكل صراحة أنها «مشكلة تواجه كل دولة حديثة»[2].

وبحسب **فروم**، فإن إنجازات الديمقراطية -وربما الرأسمالية أيضًا- أطاحت بكل المخاطر التي كان يعاني منها آباء جيله، فالمدن الأوروبية كانت تتمتّع بكل مظاهر الحضارة والأمن حتى أصبح الناس يعتقدون أنّ الحروب والأزمات الاقتصادية قد أصبحت من التاريخ، لكن فلاسفة مستبصرين مثل **نيتشه وماركس** كانوا قد مهّدوا لزعزعة هذه الثقة الرومنسية الحالمة، ثم جاء **فرويد** للكشف عن مخاطر كبت الإنسان الحديث لنزعات الشر المغروزة فيه إلى درجة الانفجار[3].

(1) جيمس براون، **أساليب الإقناع وغسيل الدماغ**، ترجمة عبد اللطيف الخياط، دار الهدى، الرياض، ط 4، 2002، ص 52.

(2) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1972، ص 13.

(3) المرجع السابق، ص 15- 17.

يعود **فروم** إلى جذور التاريخ، حيث كان الفرد يدرك اندماجه مع العالم الطبيعي الذي حوله، حتى بعد بزوغ وعيه بذاته المنفصلة والمستقلة، فالإنسان يستغرق وقتًا طويلًا من التجربة والتعلّم وخوض المخاطر حتى تنمو لديه غريزة التحرّر من والديه والاستقلال بنفسه، ويتطلّب منه ذلك وقتًا أطول مما يحتاجه أي حيوان، لا سيّما أن الخيارات الغرائزية أمام الحيوان محدودة للغاية، أما الإنسان فيتعامل مع الخيارات المتاحة بوعيه الذي يتطوّر بتقدّم العمر، حتى يدرك أنّه قادر على تجاوز الظاهر منها لابتكار حلول أخرى معقّدة[1].

وكما تنمو حرّية الفرد بتقدّمه في العمر وخوضه التجارب، تنمو أيضًا حرّية الشعوب والمجتمعات بالطريقة نفسها، فالإنسان -فردًا كان أو جماعة- يكتسب المزيد من حرّيته مع اكتساب القوة والسيادة على الطبيعة والتضامن مع الآخرين، وهذا النمو لا يكون طبيعيًّا وصحّيًا إلا إذا تحقّق فيه التوازن بين جانبي التطوّر، وهما اكتساب القوة والاستقلال الذاتيّ، فإذا اختلّ أحدهما أثناء نمو الآخر وقعت الكارثة، وهذا بالضبط ما حدث في الغرب منذ بداية العصر الحديث حتى اندلاع الحرب العالميّة الثانية، فالنمو المطرد كان لصالح «**البزوغ الكامل للفرد**»، حتى اتسعت الهوة بين الحرية السلبيّة (**التحرر من الغرائز**) والحرية الإيجابية (**التحرّر لأجل غاية ما**)، ووصل الأمر في النهاية إلى «هروب شديد من الحرية إلى قيود جديدة، أو على الأقل إلى عدم اكتراث كامل»، أي ارتماء تلك الشعوب المتحضّرة في أحضان النازيّة والفاشيّة[2].

كان الفرد الأوروبي ينعم في العصور الوسطى بالحياة في نظام اقتصاديٍّ مستقر، سواء داخل مجموعته الحرفية (النقابة)، أو داخل طبقته، وكان يكفيه أن ينتج ما هو مطلوب منه بالحد الأدنى من الجودة كي يضمن لنفسه حياة كريمة، ولم يكن النشاط الاقتصادي بذاته يحظى بمكانة جوهريّة في حياة الناس، إذ كانت مناحي الحياة الاجتماعية والسعادة الروحيّة أكثر أهمّيّة، وهذا ما يوضّحه القدّيس أنطونيو بقوله «إن الثروات توجد للإنسان وليس

(1) المرجع نفسه، ص 27- 34.

(2) المرجع نفسه، ص 35- 37.

الإنسان يوجد لأجل الثروات»[1]. وكان من الشائع أن يقبل الفرد بالاكتفاء بما يكفيه، بل كان بحثه عن المزيد يعد جشَعًا وسلوكًا منفّرًا.

لكن هذا الاستقرار بدأ بالتزعزع في بداية عصر النهضة بالقرن الرابع عشر حتى انهار تمامًا في القرن السادس عشر، فاحتلت فكرة الفاعلية ذروة الفضائل الأخلاقية بدلًا من القناعة، وأصبحت الرغبة في الثروة تستغرق اهتمام الإنسان بعد أن كانت رذيلة.

ولا شك في أن حركة الإصلاح الديني التي قادها كل من **مارتن لوثر** في ألمانيا **وجان كالفن** في سويسرا بالقرن السادس عشر قد لعبت دورا كبيرا في زرع بذور الأزمة، فمع أن هذه الحركة، التي أسست مذهبًا مسيحيًّا جديدًا اسمه البروتستنتية، قامت على فكرة التحرر من سلطة الكنيسة الكاثوليكية وبابا الفاتيكان إلا أن الكالفينية تحديدًا أخضعت الفرد إلى عقيدة جبرية خانقة تسلب منه حرية الإرادة، وتكرس فيه فكرة أصالة الشرّ في النفس البشرية، ثم منحته نافذة من الأمل والشعور بالرضا من خلال العمل ليصبح الإنجاز المادي وسيلة لمواجهة القلق الديني.

البروتستنتية زرعت أيضا لدى أتباعها أفكارًا جديدة كانت مقدِّمة غير مقصودة لظهور الرأسمالية، مثل احترام الادخار والاستثمار، والتشجيع على احترام العمل ونبذ الخمول والتواكل، واعتبار الكسب المادي الشخصي سبيلًا لتحقيق الخلاص الفردي[2].

وبتفاعل العوامل المتعدّدة، أي الإصلاح الدينيّ البروتستنتيّ من جهة، والعلمنة المدعومة من المحافل الماسونيّة والنُخَب الأرستقراطيّة الصاعدة من جهة أخرى، كانت النتيجة التي شكّلت أبرز ملامح الحداثة هي تحرير الإنسان من الروابط القديمة التي كانت تمنحه الأمان والشعور بالانتماء، فمع أنه بات أكثر حريّة في العمل والكسب والتنقّل وتجربة حظّه في سوق العمل والابتكار والمنافسة، إلا أنّه بات مهدّدًا أكثر من أي وقت

(1) المرجع نفسه، ص 51.

(2) ماكس فيبر، الأخلاق البروتستنتية والروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلد، دار الإنماء القومي، بيروت، بدون تاريخ، ص 67.

مضى بطيف واسع من المخاوف التي تعصف بكيانه ووجوده ومصيره، و«الحرية الجديدة مقضي عليها بأن تخلق شعورًا عميقًا بالزعزعة والعجز والشك والوحدة والقلق، وعلى الفرد أن يرفع هذه المشاعر إذا أراد أن يؤدّي عمله بنجاح»[1]، كما يقول فروم.

وهكذا أصبح الخوف مهيمنًا على حياة الإنسان الحديث كما رأى فروم إبّان الحرب العالميّة الثانية، إذ بات الفرد يشعر بأنه مجرّد هباءة لا قيمة لها وسط الأبراج الشاهقة التي تحيط به في كل مكان من المدن العصريّة، كما أدّت الرتابة في طبيعة العمل والإعلام وحتى الموسيقى إلى تنميط حياته لتصبح أشبه بالنظام العسكري، وكل ما يستطيعُ فعلَه في مجتمع كهذا هو أن يضرب بقدميه على الأرض كما يفعل الجندي في الصفّ العسكريّ.

لقد صاغ كبار المثقّفين مخاوفهم وعدميّتهم قبل ظهور النازيّة بعقود، فالفيلسوف الألماني العدمي **فريدريك نيتشه** رسم صورة «**إنسان فائق**» لا يعترف إلا بالقوّة، وجعله بديلًا عن الإنسان الضائع في نظام كهذا، والأديب **فرانز كافكا** جسّد شعور الفرد الألماني وعزلته في رواية **القلعة**، والكاتب الأمريكي الفرنسي **جوليان غرين** عبّر عن قلق تلك المرحلة بقوله «نحن لا شيء بالمقارنة مع هذا العالم، أعلم أننا لا شيء... كل ما عدا الحب عَدَم، خواء فارغ، سنظلّ في هاوية مظلمة عميقة القرار، ونحن خائفون»[2].

وفي الفصل الخامس من كتابه، بدأ فروم بشرح أساليب الهروب من هذا الخوف القاتل، والتي سمّاها بالأحرى أساليب الهروب من الحرية، مستخدمًا أدواته التحليلية كعالم نفس متمرّس، فتحدث عن آلية «**ميكانيزم**» التخلّي عن الاستقلال الذاتي والرغبة في الخضوع لمن هو أقوى، إذ يصل الأمر في الحالات المتطرّفة إلى نزعة المازوشيّة التي تستمتع بتلقّي الإيذاء وتعذيب الذات، فالفرد المذعور يبحث عن شخص أو شيء ما يربط نفسه به كي يشعر بالأمان، وليتخلّص من «**عبء الحرية**» الذي سبّب له القلق.

(1) الخوف من الحرية، ص 58.

(2) المرجع السابق، ص 111.

ولتوضيح هذه الآلية، يفكّر المازوشيّ بالطريقة التالية: طالما أنّي أصارع بين رغبتي في الاستقلال والقوّة، وبين شعوري باللامعنى والعجز، فإذا نجحت على الأقلّ في تحقير ذاتي حتى تتلاشى فسأستطيع بذلك أن أحقّق الاستقلال الذاتيّ المنشود، لأنّ الخيار هنا يكون بين الشعور بالضآلة وبين السقوط في هوة الغضب والقهر الذي قد يفضي إلى الانتحار، فلا ضير إذن في تحطيم الذات عبر الخضوع لزعيم طاغية (دكتاتور) مثل **موسوليني وهتلر**، إذ يمنحني الانسياق في قطيع الخاضعين له الشعور بالأمان وسط ملايين الجماهير التي تشاركني هذه المشاعر.

ولا ينسى **فروم** توضيح أن هذا السلوك يمارسه في العادة الشخص العصابيّ المصاب بالمازوشيّة انطلاقًا من دوافع قسريّة، أما الفرد العقلانيّ فيختار هذا الإجراء الهُروبي عن وعي، فهو ليس مريضًا لكنه يسعى إلى الخلاص من موقف لا يُطاق، وهو الحرّية[1].

ومن اللافت أيضًا أن الشخصيّة التسلّطيّة تتداخل فيها المازوشيّة بالساديّة، فالفردُ هنا يتلذّذ بالخضوع تجاه الأقوى (الطاغية مثلا) ثم يمارس الدور نفسه على من هو أضعف منه، ليتحوّل المجتمع كله إلى شبكة من العلاقات التسلّطية القائمة على القهر والإذلال.

الوسيلة الثانية من وسائل «**الهروب من الحرية**» هي **التدميرية**، إذ يصبح تدمير العالم الذي يشعر الفرد أمامه بالعجز هو آخر المحاولات وأشدّها بؤسًا للخروج منه[2].

أما الوسيلة الثالثة فهي **انسلاخ الفرد عن ذاته** والتحوّل إلى «**كائن آلي**» متطابق مع ملايين الأشخاص (الآلات) الآخرين في مجتمعه، والمفارقة العجيبة أنّ هذا يتناقض تمامًا مع وعد الحداثة بتحرّر الإنسان وفردانيّته، إذ جعل منه النظام الرأسمالي مجرد ترس في آلة عملاقة، ونسخة مكرّرة عن التروس التي تلعب الدور نفسه في كل مكان. ويستشهد فروم بدراسات نفسية تثبت أن الإنسان يميل إلى الاعتقاد بأنه يعتنق الكثير من الأفكار والمشاعر عن قناعة شخصية وكأنها خاصة به، ولا يدرك أنها في الحقيقة قد تسرّبت إلى عقلِه الباطن

---

(1) المرجع نفسه، ص 125- 127.

(2) المرجع نفسه، ص 145.

من محيطِه[1]، وإذا كانت هذه الحقيقة معروفة لدى علماء النفس في أربعينات القرن العشرين، فهي اليوم من أكثر وسائل **البروباغندا** (الدعاية) السياسيّة والتجاريّة والأيديولوجيّة شيوعًا في وسائل الإعلام، وما زالت تُطبّق علينا كل يوم.



لقد نجح هتلر في استغلال الظروف الاقتصاديّة والسياسيّة بعد الكساد الكبير الذي دمّر اقتصادات العالم الرأسمالي عام 1929، حيث كانت الطبقة العاملة والوسطى في ذروة السخط من تبعات معاهدة **فرساي** التي رضخت لها ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالميّة الأولى. وعندما استحوذ الاشتراكيّون والشيوعيّون على 40٪ من مقاعد البرلمان الألمانيّ في جمهوريّة **فايمار** كانت لديهم الجرأة في تلك الظروف الصعبة للإعلان عن رفضهم للديمقراطيّة نفسها التي أوصلتهم إلى البرلمان، وكان الحزب النازيّ الذي سطا عليه هتلر قادرًا وحده على إلهاب الجماهير بشعارات الانتقام، ليس من العدو الذي أفقرهم وهزمهم فقط، بل من كل الضعفاء الذين لا يستحقّون البقاء.

الأيديولوجيا النازيّة قامت على ثنائيّة المازوشيّة-الساديّة، فكل من ينضمّ للحزب النازيّ الصاعد يخضع ضمن التسلسل الهرميّ لمن هو أقوى منه، ويمارس في الوقت نفسه السلطة على من هو دونه، وحتى الذين لم يندرجوا في هذا الهرم فهم يستمتعون بإرضاء ساديّتهم عبر قهر الأقلّيات العرقيّة (**اليهود والغجر**)، ثم ينخرط الجميع في كتلة واحدة هي

(1) المرجع نفسه، ص 150- 154.

الأمّة الألمانيّة العظيمة، التي منحتها الطبيعة (القدَر) صفاتها المميزة، وسيتولّى القانون الطبيعيّ الداروينيّ مهمّة تصفية الشعوب الأخرى وبسط نفوذ العرق الآريّ على الكوكب كلّه[1].

صرّح هتلر مرارًا بأن الفردَ لا يساوي شيئًا، وأنه يستمدّ قيمته من انصهاره في الكتلة الجماهيريّة الواحدة، بل لم يَعِد هتلر الجماهير بأنّه سيقيم لها نظامًا اجتماعيا جديدًا يحقّق السعادة للفرد، وإنما على الجماهير أن تتنازل عن مصالحها الفرديّة من أجل تحقيق رغبتها في القوّة، وهي القيمة العليا في فلسفة **نيتشه**. كما صرّح وزير دعايته **جوزيف غوبلز** بأن الاشتراكيّة هي تضحية الفرد للكلّ[2]. وعندما استولى الحزب النازي على السلطة وجد **هتلر** الطريق ممهّدًا وسط هتاف الجماهير لإلغاء كل الأحزاب الأخرى وتوحيد ألمانيا بذاته وبحزبه، ما يعني أن أي معارضة له كانت تُحسب تلقائيًّا معارضة للأمة كلّها.

المنظّرة السياسية **حَنّة أرندت** كانت أيضًا من المثقّفين الألمان اليهود الذين حلّلوا النازية وأسباب صعودها ببراعة، فضلًا عن نقدها العميق للشيوعيّة والحركات الثوريّة المتطرّفة، ففي كتابها «**في العنف**» تقول إن احتكار الدولة الحديثة للمسؤوليات الأخلاقية سمح لها بإعادة تعريف المعايير وتجريد الفرد من حسه الأخلاقي، حتى فقد في النهاية الشعور بالمسؤوليّة تجاه أفعاله طالما كانت لا تتنافى مع قرارات الدولة وقوانينها.

وهذا التجرّد الأخلاقيّ نراه بجلاء في المجتمعات الحديثة، سواء في الغرب أو حتى في الصين الشيوعيّة، حيث انتُزِع فيها مفهوم الرقابة الإلهيّة لتحلّ محلّه رقابة الدولة، فمهما انتشرت كاميرات المراقبة وعناصر الشرطة وأدوات الرصد الإلكتروني فإنّ الدولة لن تبلغ درجة تذكر بالمقارنة مع إحاطة العلم الإلهيّ بمخلوقاته، وسيظلّ الفرد قادرًا على التلاعب وإيجاد الثغرات والهوامش، وعندما تسقط هيبة الدولة خلال المظاهرات الغاضبة أو عند وقوع الكوارث يبدأ النهب وتدمير الممتلكات والقتل على الفور.

---

(1) المرجع نفسه، ص 176- 186.

(2) المرجع نفسه، ص 187- 189.

كانت **أرندت** ترى أن صعود العنف قد نشأ أصلًا عن الخوف والغضب، وحسب تحليلها فالعنف يعبّر في كثير من الأحيان عن مشاعر إنسانية لا علاقة لها بالسياسة، كالخوف من الموت والبحث عن الخلود. وبرعت **أرندت** في معارضة معظم التعريفات التي وضعها كبار المفكرين الأوروبّيّين للسلطة، من حيث ربطهم للسلطة بالقهر والعنف، بينما شدّدت هي على التمييز بينهما، معتبرة أن السلطة تستمدّ شرعيتها من التوافق، أما العنف فحتى لو تمّ تبريره بأي مبرر فهو لا يحتاج إلى الشرعية، وغايته تبررها الوسيلة[1].

لنعد إذن إلى **براون** الذي كان أيضا من معاصري الحرب العالميّة الثانية، إذ يقول إن بعض الحروب الحديثة التي سبقت القرن العشرين كانت تدور رحاها بين جنود محترفين لا يهتمّون كثيرًا بمبرّرات القتال، لكن الدعاية أصبحت مهمّة جدًّا في القرن العشرين الذي سماه **ريموند هارون** بـ «**قرن الحرب الشاملة**»، وهو اسم كتابه الذي ينقل عنه **براون**، فمع اتساع نطاق الحضارة صار الإنسان الغربي يعتقد أن الحياة الطبيعيّة هي القائمة على السلام، ما يعني أنّه ينتظر من قائده مبرِّرًا مقنعًا كي ينتقل من الحياة المدنيّة إلى العسكريّة[2]، لذا كان من الضروري بث الكراهية والخوف في قلوب الشعب كله كي يتوحّش، وقد أتقن **هتلر** اللعبة جيّدًا، وعرف أن سلاح الخوف سيمهد الطريق أمام جيوشه لاكتساح أوروبا، متفائلًا بمقولة فيلسوف العدمية نيتشه: «**ذلك الخوف العميق الواسع الذي جعل أوروبا تخشى منذ قرون كثيرة غضبة الوحش الأشقر التيوتوني**»[3].

حروب أكثر حداثة

هل تعلم عزيزي القارئ أن دمويّة القرن العشرين لم تتوقّف بوضع الحرب العالميّة الثانية أوزارها عام 1946؟ فما بين هذا التاريخ وعام 1990 كان العالم قد شهد نحو 150

(1) حنة أرندت، في العنف، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، بيروت، ط 2، 2015، ص 32- 40.

(2) أساليب الإقناع وغسيل الدماغ، ص 52.

(3) المرجع السابق، ص 55.

حربًا أخرى، وودّع خلالها أكثر من سبعة ملايين جنديٍّ إلى مثواهم الأخير، فضلًا عن ملايين أخرى من الجرحى والأسرى ومن الضحايا المدنيين. وإن شئت النظر إلى النصف الآخر من الكأس فلن تجد خلال هذه العقود سوى ثلاثة أسابيع فقط استطاع العالم فيها أن يحظى بالسلام[1].

لذا اسمح لي قبل أن نغادر مراجعتنا للقرن العشرين أن أتوقّف قليلًا عند محطّة حرب الخليج الثانية، فبعدما احتل نظام **صدّام حسين** الكويت في أغسطس 1990 تشكّل تحالف دولي بقيادة أقوى جيش في العالم، أي الأمريكي بالطبع، تحت مسمى «**عاصفة الصحراء**»، بهدف إنهاء هذا الاحتلال، وبدعم من الأمم المتحدة.

كانت الحرب الباردة بين العملاقين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة تتجه نحو نهايتها بشكل درامي وصادم، فمنذ أواخر الثمانينيات بدأت حالة التمرد في المعسكر الشرقي بالظهور، ولم ينته عام 1991 إلا مع الإعلان الرسمي عن سقوط الاتحاد السوفييتي وانفراط عقده إلى دول مستقلّة. لكن القطب الشيوعيّ لم يسقط هذا السقوط المدوي إلا بعدما رأى بعينه اتساع الهوة التكنولوجية التي تفصله عن القطب الرأسمالي، فخلال نحو ستة أسابيع فقط من مطلع عام 1991 كانت حملة **عاصفة الصحراء** قد أجهزت على الجيش العراقيّ في حرب استعراضيّة تشبه أفلام هوليود.

سيكون من المؤلم جدًّا التوقّف عند الفارق الهائل بين ضحايا الطرفين، فبينما خسر العراق ما بين سبعين ألفًا إلى مئة ألف قتيل في صفوف الجنود -فضلًا عن عشرات آلاف الأسرى والجرحى والضحايا المدنيين- لم يسقط بنيران الجيش العراقي من الجانب الآخر أكثر من مئتي قتيل.

وكي نفهم أكثر، أعود إلى كتاب الأمريكي **ألفن توفلر** «**الحرب وضد الحرب**» الذي نشره بعد قرابة سنتين، وقال فيه إن هذه الحرب لم تكن حربًا واحدة بل اثنتين، ففي الوقت نفسه كانت هناك طائرات قديمة عمرها ثلاثون عامًا تقصف العراق، بالتوازي مع أسلحة

(1) ألفين وهايدي توفلر، الحرب وضد الحرب، ترجمة محمد عبد الحليم أبو غزالة، دار المعارف، القاهرة، ص 41- 42.

ذكية تستخدم للمرة الأولى، وهي تشمل الأقمار الصناعية (حرب الفضاء) والصواريخ الذكية وطائرات الشبح[1].

ويعتبر **توفلر** أن هذه هي النقطة الفاصلة لانتقال المجال العسكري من الموجة الثانية (الثورة الصناعية) للموجة الثالثة (ثورة المعلومات والتكنولوجيا)[2]، فقبل بدء المعركة كان صدام حسين يتوعد الأمريكيين وحلفاءهم بدفنهم في مقبرة «أم المعارك»، إذ كان مزهوًّا بخروجه منتصرًا (أو غير مهزوم على الأقل) من حرب طاحنة مع إيران بزعامة الخميني، وكان لديه جيش جرار يضم أكثر من مليون جندي، مما دفع بعض المحلّلين الأمريكيين لتصديقه والتنبؤ بأن أمريكا وحلفها سيخسرون نحو 30 ألف قتيل[3]، وأنا أذكر أيضًا مما كنت أسمعه من الأقارب ومن أصدقاء والدي -إذ كان عمري حينئذ حوالي 12 سنة- ما يدعم اعتقادي الآن بأن جزءًا كبيرا من الرأي العام العربي كان مقتنعًا بأن صدّام سينتصر، وتأيّدت هذه النبوءات بشائعات وخرافات تناقلها العوام آنذاك همسا، قبل ظهور مواقع التواصل الاجتماعي، عن مبشّرات غيبيّة بانتصار صدام، نقلًا عن كتاب «الفتن» المليء بالأساطير لنعيم بن حمّاد[4]، لا سيّما أن صدام نقل مسار سياسته -ظاهريًّا على الأقل- نحو التدين المفاجئ، كما أطلق بضعة صواريخ باليستية باتجاه إسرائيل ليخفف الضغط عن جيشه ويشتت الجبهات، فانتفضت الشوارع العربية رافعة صوره.

الموجة الثالثة ظهرت أماراتها أيضًا في النقل المباشر لوقائع الحرب، وكانت هذه نقلة نوعية للإعلام والحروب معًا، وحقّقت خلالها قناة «سي إن إن» CNN تحديدًا مجدها التاريخيّ بجانب كبرى القنوات التقليديّة العريقة، إذ كان مراسلوها يرافقون الجنود في طلعاتهم الجوية ودوريّاتهم البرّيّة، وينقلون للمشاهد الأمريكي والعالميّ تفاصيل الحرب لحظة بلحظة.

---

(1) المرجع السابق، ص 106.

(2) توفلر له كتاب آخر يشرح فيه هذه النظرية بعنوان «الموجة الثالثة» نشره عام 1980.

(3) الحرب وضد الحرب، ص 105.

(4) سنتحدث عن هذا الكتاب في فصل لاحق.



أكثر من 1400 آلية تابعة للجيش العراق دُمرت خلال ساعات على «طريق الموت» أثناء انسحابها من الكويت

وفي ضوء هذه التغطية الهوليوديّة اللحظيّة، شاهد العالم عرضًا مجانيًّا للتطور التكنولوجيّ الرهيب الذي حقّقته الإمبراطوريّة المتفرّدة في ريادة العالم، وأرى أن هذه الحرب كانت عرضًا عسكريًّا نادرًا استغلّته أمريكا بكل جدارة، ووجّهت من خلاله كل الرسائل التي تريدها للعالم أجمع، تمامًا كما فعلت عندما فجرت أول قنبلتين نوويّتين على رؤوس العباد في **هيروشيما وناغازاكي** بنهاية الحرب العالميّة الثانية، مع أن اليابان كانت على وشك الاستسلام.

تحضرني هنا مشاهد البطولة الأسطوريّة التي صوّرتها هوليود بأكثر الوسائل إبهارًا في فيلم «**الساموراي الأخير**» (2003)، وهي تؤرّخ لمرحلة فاصلة من التاريخ في أواخر القرن التاسع عشر، عندما اصطدم جيش الاستعمار الإنجليزي، المجرّد عن كل القيم والمتسلّح فقط بالتكنولوجيا، وجهًا لوجه مع قوات الساموراي التقليديّة اليابانيّة التي تتمثّل كل قيم البطولة والشجاعة والتضحية للدفاع عن الأرض والعرض، فمع أن الأخيرة كانت الأكثر

تدريبًا ومهارة في استعمال الأسلحة التقليدية من سيوف وسهام وحراب، إلا أن المهارة والبطولة والقيم العليا لم تجدِ نفعًا عندما كان بضعة جنود إنجليز يفتحون نيران رشاشاتهم، فيحصدون عن بُعدٍ كل الأبطال الأسطوريّين دون اشتباك. والقصّة نفسها تكررت في كل التجارب الاستعمارية، حيث انتصر بضعة آلاف من الجنود الأوروبيين على جيوش أضخم بكثير في بقية قارات الكوكب.

الرسالة واضحة في هذا المعادلة، فالمهارة والبطولة لا تكفيان عندما يتعلّق الأمر بإزهاق الأرواح، فدقّة السلاح وقوة تدميره هي نقطة الارتكاز في الحروب.

ولن تختلّ هذه المعادلة إلا بإيجاد حلول أخرى لتعطيل هذه القوة التي تمنح العدو الأفضلية، ولعل تجربة حركة طالبان مع الولايات المتحدة هي خير مثال، إذ أجبرت هذه الحركة -في مطلع عام 2020- أقوى جيش في العالم على التواضع والجلوس إلى مائدة المفاوضات بعد 18 عامًا من الصمود[1]، وذلك بعدما فشلت الحكومة الأفغانيّة المدعومة من واشنطن والغرب في اكتساب الشعبيّة المطلوبة لحكم البلاد، كما فشل الجيش الأمريكي وحلفاؤه في تحقيق مكاسب استراتيجية على المدى البعيد لاتساع رقعة أفغانستان ووعورة جغرافيّتها واستحالة ملاحقة جنود طالبان المتداخلين مع الحاضنة المدنيّة في مناطق شاسعة، لا سيما أن طالبان تسيطر فعليا على نحو 59 وحدة من أصل 407 وحدات إدارية تتشكل منها أفغانستان، وتتمتع بنفوذ في 119 وحدة أخرى[2]، فضلًا عن الإرهاق المادي الذي تكبّدته الخزينة الأمريكية لتمويل أطول حروبها على الإطلاق، إذ تشير الأرقام التي نشرتها وزارة الدفاع الأمريكية إلى إنفاق أكثر من 760 مليار دولار

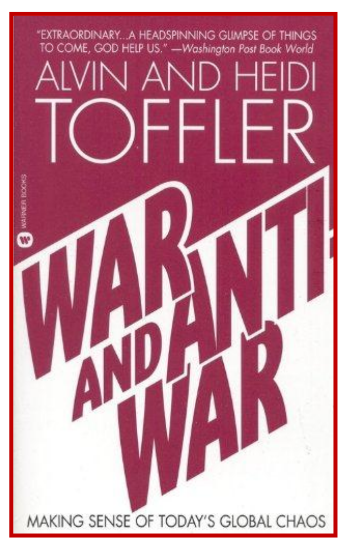
(1) من المفارقات العجيبة أن الكاتب الصهيوني الأمريكي **توماس فريدمان**، والذي سأحدثك عنه بعد قليل، كتب في أواخر القرن العشرين أنه «لا توجد حرب يمكن أن تخسرها أمريكا لفترة طويلة في الخارج»، انظر: توماس فريدمان، سيارة ليكساس وشجرة الزيتون.. محاولة لفهم العولمة، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، 2001، ص 578.

(2) وفقًا لتقرير مكتب الولايات المتحدة لإعادة إعمار أفغانستان.

خلال تلك السنوات، لكن دراسة لجامعة **براون** الأمريكية رفعت تقديراتها لكلفة الحرب إلى **تريليون دولار**[1].

«الحرب على الإرهاب»

لنتوقّف مجدّدًا عند جامعة براون، إذ أصدرت تقريرًا سنويا في نهاية 2019 قالت فيه إنّ تكلفة ما يسمى بحرب الولايات المتحدة على الإرهاب، في دول مثل العراق وسوريّا وأفغانستان وباكستان، ستصل إلى 6.4 تريليون دولار في عام 2020[2].



وبالعودة إلى **آلفن توفلر**، الذي توفي عام 2016، سنجد أنه لم يترك في كتابه **«الحرب وضد الحرب»** فرصة لتبجيل قدرات بلاده العسكرية إلا واستغلها، إذ لم يكتف برصد ملامح التطور التكنولوجي بل كان ينظّر لصالح المزيد من النفوذ الأمريكي على العالم، ويحذّر بطريقة غير مباشرة من احتمال اختلال ميزان القوى لصالح الآخرين.

وفي سياق تحذيره من إمكانية تمرّد القوى الصغيرة وقدرتها على تحقيق انتصارات ضدّ جيش بلاده الاستثنائيّ من خلال الحرب الإلكترونية، كان **توفلر** يتساءل ما الذي يمكن أن يحدث لو تمكّن علماء الطاقة النوويّة لدى نظام صدّام حسين، بالرغم من هزيمته في الحرب، من صناعة قنبلة كهرومغناطيسية نبضيّة، ثم نجح أحد «إرهابيّي المعلومات» بزرعها في أبراج مركز التجارة العالمية في نيويورك؟ ويجيب توفلر بأن هذا سيؤدّي إلى سلسلة من الفوضى المالية التي تمتد آثارها إلى قطاعات عدة، وقد تؤدي إلى صدمة في

---

(1) تقرير بعنوان «هل كلفت الحرب في أفغانستان الولايات المتحدة أكثر من نصف تريليون دولار؟»، أعدّه فريق تدقيق الحقائق في شبكة «بي بي سي» بتاريخ 29 أغسطس 2019.

(2) نقلًا عن وكالة يورونيوز بتاريخ 9 ديسمبر 2019.

سوق المال بكل أنحاء العالم[1]، ولا ينبغي أن ننسى هنا أنّ **توفلر** لم يكن مجرد مفكر مستقبليّ Futurist يسترزق من الكتب والمحاضرات بل باحثًا استراتيجيًّا أيضًا يعمل بالتعاون مع البنتاغون ومؤسّسات الحكم في واشنطن.

اللافت أن أمريكا تركت صدام حسين على رأس الحكم عشر سنوات بعد هزيمته، وفرضت على العراق حصارًا خانقًا لم يتضرّر منه سوى الشعب، وكان الإعلام الأمريكي وهوليود يمارسان كل أشكال التنميط للربط بين هذا «الدكتاتور الخارج عن السرب» وبين كل أشكال الشر، حتى في الأفلام الكوميدية، وعندما استوفى التنميط دوره قام 19 مسلّحًا عربيًّا مرتبطون بتنظيم القاعدة بتنفيذ هجمات 11 سبتمبر، ليس بزرع قنبلة في أحد برجي التجارة العالمية بل بإسقاط البرجين العملاقين أمام كاميرات العالم، وهاجموا أيضا مبنى البنتاغون رغم تحصينه، ثم سقط برج ثالث مجاور للبرجين دون أن تمسّه الطائرات.

كانت هذه هي الرواية الرسمية، وأنا واحد من ملايين الناس حول العالم الذين لم يصدقوا كل تفاصيلها لأسباب وجيهة ليس هذا مكان سردها، وما يهمّني هنا هو أن أذكّرك عزيزي القارئ بأن هذه العمليّة الصادمة كانت المبرّر العلنيّ لإدارة **جورج بوش** الابن التي كانت في بداية حكمها مع بداية القرن الحادي والعشرين، لإعلان حرب جديدة اسمها «**الحرب على الإرهاب**».

خلال فترة قصيرة حشدت أمريكا جيشها مع جيوش متحالفة لغزو أفغانستان والقضاء على كل من تنظيم القاعدة وحركة طالبان، وبعد احتلال البلد وتنصيب حكومة عميلة فيه بدأ غزو العراق في 2003 بذريعة امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وبعدما اكتمل احتلال العراق واعتقال صدام اعترف وزير خارجية الولايات المتحدة السابق **كولن باول** في مقابلة مع قناة «أي بي سي» ABC بأن المعلومات التي بنى عليها التقرير الذي رفعه عن أسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة أمام الأمم المتحدة كانت مكذوبة، بل كانت لديه الجرأة

---

(1) الحرب وضد الحرب، ص 198.

الكافية ليقول إن هذا التقرير الذي غيّر وجه العالم ليس سوى «وصمة عار في مسيرته السياسيّة»[1].

ليس موضوع هذا الكتاب رصد أو توثيق مآسي الحرب، فالأهمّ في هذا المقام البحث في أسباب الحرب ونتائجها، وعما إذا كانت قد قلّصت «الخوف» النابع من «الإرهاب» أم أدت إلى العكس.

كان وزير الدفاع الأمريكي الأسبق **دونالد رامسفيلد** يقول قبل إرسال قواته لغزو العراق إن بلاده ستكسب الحرب عندما يشعر مواطنوها بالأمان مرة أخرى[2]، وعلى مدى عشرات الصفحات يؤكد **زيغمونت باومان** في كتابه «**الخوف السائل**» أن الإرهاب ازداد قوة بالفعل من حيث الشدة والاتساع.

يقول **باومان** في كتابه الصادر عام 2006 إن القاعدة تحوّلت من تنظيم إلى حركة عالمية، وهو ما يعرّفه الخبراء الاستراتيجيون بظاهرة الذئاب المنفردة، إذ لم تعد التنظيمات التي عرفتها الحداثة الصلبة ضرورية اليوم[3]، بل يكفي أن يؤمن بعض الشباب بأفكار القاعدة حول العالم لينفّذوا عملياتهم دون تلقي أي أوامر من القيادة، ثم ينسبونها إلى تنظيم القاعدة، وقد يتبنّى التنظيم تلك العمليات بالفعل لاكتساب صيت القوة والانتشار بالمجان.

علاوة على ذلك، يكتسب «الإرهابيّون» المزيد من البراعة والمهارة كل يوم، حتى تغلغلوا في كل طبقات المجتمع الغربي كردة فعل على الغزو والاحتلال، ممّا يجبر خصومهم من الجيوش النظامية ووكالات المخابرات المدرّبة على رفعِ سقف «**المستوى المقبول**» كل يوم، ومن ذلك اعتراف رئيس مكافحة الإرهاب لدى الشرطة البريطانية **بيرت كلارك** عندما قال في منتصف 2004: «إذا قضينا على قائد أو اثنين، سرعان ما يظهر قادة

(1) تقرير بعنوان «باول يعترف: تبرير الحرب على العراق نقطة سوداء في حياتي»، موقع قناة دويتشه فيله DW، 9 سبتمبر 2005.

(2) الخوف السائل، ص 141.

(3) المرجع السابق، ص 143.

جدد وتتشكّل شبكة جديدة»، كما اعترفت صحيفة نيويورك تايمز بعد هجوم لندن الدامي الذي أسقط 52 قتيلًا و700 جريح في منتصف 2005 بأن الغرب بات يواجه وجهًا جديدًا من الإرهاب، وأن المهاجمين لم يعودوا خاضعين لتنظيم القاعدة الذي أعلنت الحكومات الحرب عليه[1].

وما قاله **باومان** ووثقه بالأرقام أصبح واضحًا للعيان بعد بضع سنوات على صدور كتابه، وتحديدًا مع انشقاق تنظيم الدولة الإسلامية عن القاعدة وتشكيله «دويلة» على أرض الواقع، وبتسهيلات مثيرة للريبة من حكومة العراق والنظام السوري، ثم إعلان الولايات المتحدة مع عشرات الدول الغربية والعربية تشكيل «**التحالف الدولي لمكافحة تنظيم الدولة**» في سبتمبر 2014. فمع أن التنظيم خسر لاحقًا كل الأراضي التي سيطر عليها، ومع أن الثورة السورية قضي عليها بذريعة القضاء على تنظيم الدولة، ومع أن احتجاجات العراق ضد النظام الطائفي تم وأدها في مهدها بنفس الذريعة أيضا قبل أن تتحول إلى ثورة ضمن موجة ثورات «الربيع العربي»، إلا أن الهدف المعلن للقضاء على الإرهاب، وبالأحرى الفكر الجهادي، لم يتحقّق بعد.

يقول **باومان** إن الحرب الحقيقيّة على الإرهاب، والتي لا يمكن أن تحقّق النصر، لا تُشَنّ بتدمير مدن العراق وأفغانستان، بل بإلغاء ديون الدول الفقيرة، وفتح أسواق الدول الغنيّة لمنتجات تلك الدول، وضمان التعليم لمئة وخمسة عشر مليون طفل محروم منه، وتحويل ترليونات الدولارات عن الإنفاق على التسليح إلى المساعدة الاقتصاديّة للدول الفقيرة والقضاء على الفساد في حكوماتها العميلة[2].

ما يقوله باومان ليس سوى تكرار لكل نداءات المثقّفين والفلاسفة على مر العصور، لكن غرور الطغاة في الشرق والغرب لا يتغيّر. إنها نزعة الطغيان في النفس البشريّة عندما تقترن بالقوة، فكلما امتلك أحدهم من وسائل القوة ما امتلكه أسلافه الغابرون ظنّ أنه

(1) المرجع نفسه، ص 147- 150.

(2) المرجع نفسه، ص 151.

سيعيد اختراع العجلة، وأنه سيخرق الأرض ويبلغ الجبال طولًا، وربما سيقهر سنن التاريخ ويثبت للعالم أجمع أنّ قوته الغاشمة ستحقّق الأمن الذي عجز عنه السابقون.

وبالرغم من إلحاد **باومان**، وإبدائِهِ القلق من صعودِ «الأصوليّات» الدينيّة المدفوعة بنزعات الكراهية، إلّا أنه يلقي باللوم على الحداثة نفسها التي أتت بإنسان زعم أنّه سيكتفي بنفسه ليحلّ محلّ الإله، «فالوعد الحداثي المغرور الذي كان يرجى منه تحت إدارة البشر أن يقضي حاجات البشر على نحو أفضل، تحلّ محلّه رغبة توّاقة في إله يصلح ما أفسده البشر»[1].

المشكلة إذن ليست كامنة فقط في سوء إدارة الأزمة، بل في المنهج والعقيدة، وزد عليها سوء النوايا في كثير من الأحيان، فالخوف ليس دائمًا نتيجة عدوان خارجي بحت، بل قد يتم تضخيمه أحيانًا، وربما صناعته في أحيان أخرى.

يستشهد **باومان** بارتفاع حالة الخوف لدى المواطنين الألمان في أواخر سبعينات القرن العشرين من «**جماعة الجيش الأحمر**» بفعل الدعاية الإعلاميّة المكثفة، ففي عام 1976 كانت نسبة الذين يعتبرون السلامة الشخصية أولوية كبرى -قياسًا للمشاكل الاقتصادية- لا تتجاوز 7٪، ثم ارتفعت هذه النسبة إلى أغلبيّة معتبرة من الشعب خلال سنتين فقط، لأن شاشات التلفزيون كانت مهووسة بالتحذير من هذه الجماعة ونقل بطولات قوات الأمن في القضاء عليها[2]. ولا شكّ في أنك عزيزي القارئ ستستحضر من خبرتك بالإعلام الرسميّ العربيّ أمثلة لا تحصى، ففي كل دولة من منطقتنا تجد جهازًا إعلاميًّا لا يتوانى عن التحذير من «الإرهابيّين» وتبجيل السلطات الحريصة على سلامتك.

«تتغذّى الديمقراطيّة على رأس مال الثقة في المستقبل... وأما دولة السلامة الشخصية فتتغذّى على الخوف واللايقين... وصعودُ دولة السلامة الشخصية قد ينذر بغروب الديمقراطيّة»، هذا ما يحذّر منه **باومان**، ثم يصرخ منددا بأنّ «**ذعر المقهورين**» أصبح هو

(1) المرجع نفسه، ص 157.
(2) المرجع نفسه، ص 202.

اللحظة التكوينيّة للسلطة في النظام الديمقراطي الحديث، كما كان الحال في الدول الشموليّة، ويذكّر بأن وعود الرئيس الأمريكي الراحل **فرانكلين روزفلت** عام 1933 بمجيء عالم، سيكون الخوف هو الكارثة المتبقّية الوحيدة التي يخشاها ساكنوه، قد تبدّدت. فمنذ السبعينات تلاشى «**الحلم الأمريكي**» نفسه، وأصبح من شبه المستحيل امتلاك الشباب منزلًا ووظيفة ثابتة، ولم يبدأ القرن الحالي إلا مع إعلان الرئيس جورج بوش الابن أن «**الحرب الطويلة على الإرهاب**» هي عنوان المرحلة المقبلة، بدلًا من وعود **روزفلت** بالحرب على الخوف[1].

إذن أصبح الخوف هو الوسيلة التي يُحارَب بها العدو، ولم يعد الخوف هو العدو نفسه. زد على ذلك أن الخوف لم يعد مقتصرًا على تأمين لقمة العيش فقط، بل أضف إليه كل أنواع المخاوف الأمنية والوجودية. الخوف بات ضرورة لاستمرار اللعبة أيًّا كانت، سواء كان اللاعبون الكبار يطبّلون للعولمة، أو يرفعون شعارات الشعبويّة. الخوفُ هو مفتاحُ السيطرة، وصناعته هي حرفة السياسة.

تخيّل الآن بعد كل هذا أن 90٪ من عمليات القتل ذات الصلة بالتطرّف التي حدثت في أمريكا عام 2019 ترتبط باليمينيّين المتطرّفين، أي العنصريّين المهووسين بنظريّات تفوق العرق الأبيض، وذلك وفقًا لدراسة أجرتها رابطة مكافحة التشهير Anti-Defamation League، ممّا دفع وزارة الأمن الداخلي -التي أنشئت أصلًا للتصدّي للإرهاب «الإسلاميّ» بعد 11 سبتمبر 2001- لإعلان عزمها على الرد على الإرهاب المحلّي والتهديد الذي يشكّله القوميّون البيض، لكن هذا النوع من التطرّف الدمويّ ظلّ محصّنًا لوجود شخص مثل دونالد ترمب في البيت الأبيض، ولأن الثقافة الأمريكيّة عمومًا -سواء كانت يساريّة أو يمينيّة- لا تستسيغ تسمية التطرّف الأبيض بالإرهاب حتى لو ارتكب 90٪ من الجرائم، فكلمة الإرهاب يجب أن تبقى لصيقة بالمسلمين فقط!

(1) المرجع نفسه، ص 203- 208.



لم يستيقظ الأمريكيّون من هذا الوهم، بالرغم من خروج المليشيات اليمينية العنصرية طوال حكم ترمب إلى الشوارع في مختلف الولايات لاستعراض سلاحها وشعاراتها المتطرفة، لكن الشعرة التي قصمت ظهر البعير جاءت في نهاية هذا الحكم، وتحديدًا في السادس من يناير 2021، وهو اليوم الذي اجتمع فيه أعضاء الكونغرس للتصديق على نتائج الانتخابات التي رفضها ترمب، عندما وقف رئيس أقوى دولة في العالم أمام حشود من أنصاره الذين تجمعوا قبالة البيت الأبيض وطالبهم بمنع خصومه من سرقة الانتخابات منه، فما كان من تلك الحشود -التي ظلّت تتظاهر نحو شهرين للتنديد بسرقة الانتخابات المزعومة- إلا أن هاجمت مبنى الكونغرس، وهو ما لم يخطر على بال أحد، فاقتحمت الغوغاء مكاتب النوّاب وسرقت منها ما تشاء، وكادت أن تصل إلى قاعة التصويت وهي تصرخ بقتل وشنق واختطاف النوّاب، لولا مسارعة الحرس لتهريبهم إلى ملاجئ آمنة، بينما التقط المهاجمون الصور لوجوههم المشكوفة بكل فخر وهم يعتلون منصّة ومقاعد الكونغرس وينهبون محتوياته.

هذا المشهد الذي أيقظ كل كوابيس الغرب الكامنة منذ عهد **هتلر وموسوليني وفرانكو**، دفع أقطاب اليمين المتطرّف في أوروبا أنفسهم للتبرّؤ من **ترمب**، مثل السياسيّ البريطانيّ **نايجل فاراج**، وقائد حزب اليمين المتطرف الإيطالي **«رابطة الشمال» ماتيو سالفيني**، واليمينيّ المتطرّف الهولنديّ **خيرت فيلدرز**. وحتى الذين أيّدوا ترمب في مزاعمه بسرقة الانتخابات منه أصابهم الفزع من مشهد اقتحام الكونغرس، مثل زعيمة اليمين

المتطرّف الفرنسي **ماري لوبان**، ورئيس وزراء سلوفينيا **يانيز يانشا**، إذ صرّحوا جميعًا بأن الديمقراطيّة باتت في خطر[1].

عندها فقط بدأ مصطلح «**الإرهاب المحلي**» يتردّد على ألسنة المسؤولين والمحلّلين والإعلاميّين الأمريكيّين والأوروبيّين، أي في اللحظة التي باتت فيها أمريكا على حافة الحرب الأهلية، وسرعان ما أعلن وزير الجيش الأمريكي **رايان مكارثي** فتح عشرات القضايا تحت بند «**الإرهاب المحلّي**»، كما وجّه الرئيس الجديد **جو بايدن** -في خطاب التنصيب- نداء من أجل الوحدة، لمواجهة «**التطرّف السياسي ونزعة استعلاء العرق الأبيض والإرهاب المحلّي**».

وفي أواخر الشهر الذي شهد الحادثة، نقلت صحيفة **واشنطن بوست** عن بعض عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI وصفهم لملفّ اقتحام الكونغرس بأنه يمثّل أخطر قضيّة لهم منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، فالأمر لم يكن مجرّد مظاهرة خرجت عن السيطرة، بل تكشّفت الأدلة عن تخطيط مسبق وتنظيم مُحكَم، وعن نوايا مبيّتة للتفجير والاغتيال.

أليست مفارقة عجيبة أن يشهد الشهر الأول من العقد الجديد هذه النقلة النوعية لمفهوم الإرهاب؟ وكأنّ مرحلة جديدة من الصراع تسفر عن وجهها!

الشموليّة الليبراليّة

عندما نتحدّث عن الشموليّة الحديثة، ستنقدح في الذهن تلقائيًّا الشموليّة السوفييتيّة البائدة، ثم ربيبتها المتشبّثة بالحياة في كوريا الشماليّة، وأختها غير الشقيقة الصاعدة في الصين، وحتمًا أمثلة أخرى صغيرة في منطقتنا البائسة. وإذا وسّعنا الدائرة فقد يستحضر الذهن الإمبرياليّة الأمريكيّة الجديدة وحربها على الإرهاب كما أسلفنا، فالشموليّة الغربية

(1) Yasmeen Serhan, The Populists Finally Breaking With Trump, The Atlantic, 9 Jan 2021.

لا تُذكَر إلا في سياق العولمة، أما داخل حدود الدول الديمقراطيّة فلا شيء سوى حقوق الإنسان وحرّيّة التعبير وسيادة القانون!

من الشائع القول إن المحافظين واليمينيين في الغرب هم أكثر الناس شعورًا بالقلق والخوف والتهديد، والبعض يستشهد بدراسات تدعم هذا الرأي، إذ كشفت دراسة لتفاعل الدماغ أنّ أنصار التيّار اليمينيّ المحافظ لديهم لوزة دماغية أكبر حجمًا، وهي جزء صغير من الدماغ ينشط عند الخوف والقلق، لذا استطاع بعض الباحثين عبر التصوير بالرنين المغناطيسيّ الوظيفيّ في دراسة أجريت عام 2014 التنبّؤ بميول الأشخاص الخاضعين للدراسة، فالذين كانوا أكثر استجابة للمشاهد المخيفة أقرّوا بأنهم محافظين سياسيًّا[1].

لذا يتفنّن السياسيّون المحافظون في إثارة مخاوف الجماهير كي ينجحوا في الانتخابات، ولا شيء أسهل من تخويفهم من الأقلّيّات والمهاجرين، أو من العدوّ الخارجي، وهذه الخطّة ما زالت تنجح منذ آلاف السنين، وكلما ازداد تغوّل هذا الخوف وجد الزعماء مبرّرات إضافية للطغيان والتحكّم في حياة «**الخائفين**».

في كتابه «**المثقّفون المغالِطون**» المنشور عام 2011، رصد الباحث الفرنسي الرصين **باسكال بونيفاس** مهازل الوسط الثقافي الفرنسي الذي فُتحت له كل منابر الإعلام للتنديد بما سمي «الفاشيّة الإسلامية» منذ أحداث 11 سبتمبر 2001، ولم يخشَ الكاتب فضح أسماء أولئك المثقّفين المهووسين بصناعة الخوف من الإسلام.

يقول **بونيفاس** إن الترويج لمصطلح «الفاشيّة الإسلاميّة» أصبح ضروريًّا بسبب حمولته العاطفية، فهو يسمح بصناعة الخوف انطلاقًا من أسطورة مفادها أن الغرب يحارب فاشيّةً جديدة وهتلرًا جديدًا، ويهيّئ الشعب لقبول فكرة أنّ الحرب يمكن ويجب أن تبقى وقائيّة[2].

(1) Bobby Azarian, A Complete Psychological Analysis of Trump's Support, Psychology Today, 27 Dec 2018.

(2) باسكال بونيفاس، المثقفون المغالطون، ترجمة عبد الرحمن مزيان، دار الروافد، الجزائر، ط1، 2015، ص 50.

مع ذلك، لن أقول عزيزي القارئ إنّ صعود اليمين المتطرّف هو مقصدي الوحيد بعودة الشمولية إلى العالم الديمقراطي، فربّما تُربط العنصرية البيضاء ضدّ المواطنين السود في أمريكا مثلًا بالفاشية والنازيّة، لكن وجهًا آخر للشموليّة أميطَ عنه النقاب مؤخَّرًا في فرنسا، وداخل حدود البلد نفسه، وأيضًا من قبل التقدّميّين والليبراليّين الذين يخاصمون اليمين المتطرّف، وسأكتفي بفرنسا لتكون مثالًا صارخًا على حالة يمكن أن تجدها في دول غربيّة، ولو بدرجات متفاوتة.

في 2016، استقال وزير الاقتصاد والصناعة الفرنسي **إيمانويل ماكرون** من منصبه ليؤسّس حزبًا جديدًا باسم «**إلى الأمام**» En Marche، وسرعان ما تلقّى قوة الدفع الكافية من النخبة الماليّة العولمية ليصعد إلى الانتخابات الرئاسيّة، فمع أنه لم يحقّق نجاحا كافيًا في استطلاعات الرأي المبكّرة إلا أنّه تغلّب على مرشحي الأحزاب العريقة، ووجد نفسه وجهًا لوجه مع مرشّحة اليمين المتطرّف **ماري لوبان** التي لم تصدّق نفسها وهي تخوض الجولة الأخيرة من انتخابات الرئاسة، وهكذا أصبح فوز ماكرون مضمونًا، إذ لا يمكن أن يفشل مرشح النُخَب المالية الذي كان يعمل قبل عشر سنوات في بنك **روتشيلد**، لا سّيما عندما تكون منافسته من اليمين المتطرّف وقد قالت يومًا ما إنه ينبغي لليهود المفاضلة بين جنسيّتهم الفرنسيّة والإسرائيليّة.

كان ماكرون يحظى بشعبيّة إعلاميّة تناسب الهَوَس الجماهيريّ بالمظاهر البرّاقة، فهو شابٌّ في آخر الثلاثينات من العمر، ويعتلي سلّم السلطة قادمًا من حزب جديد محفوف بالآمال العريضة، وقد تمّ تعديل اسمه ليصبح «**الجمهورية إلى الأمام**»، وهو مصنّف في خانة الليبراليّة الاجتماعيّة، ومؤيّد عتيد للعولمة، إذ يعتبر مشروع الوحدة والاتحاد الأوروبي أحد قيمه الأساسية.

قد يبدو هذا الإطار العام مبشّرًا، لكن ماكرون الذي كان خصمًا للمتطرّفة **لوبان** أثبت للعالم أن أكثر وجوه السلطة انفتاحًا في هذا البلد لا يقلّ عنصريّة وعداءً للإسلام عن اليمين المتطرّف نفسه.

في أواخر عام 2019، أي بعد سنتين ونصف تقريبا من الوصول لقصر الإليزيه، بدأ ماكرون -الصاعد على أكتاف روتشيلد- باستخدام مصطلح «**الانفصال الشعوري**» لدى بعض الجاليات عن قيم الجمهوريّة والعلمانيّة، مطلِقًا موجة من النقاش الحادّ في الفضاء العام بشأن حدود المقبول والمسموح لهذا الانفصال، مع إصرار الخطاب الرسميّ على أنّ المقصود هو حرص بعض الجماعات على تنظيم نفسها على هامش الجمهورية «**بطريقة عدائيّة**»، ما يعني أنّ التدخّل لمنع هذا «**الانفصال**» مبرَّر بذريعة منع اندلاع العنف، وبعبارة أخرى فإنّ السلطة هنا تعتبر أنّ لديها الحقّ في التدخل لتغيير ثقافة جزء من الشعب وقناعاته بشكل استباقي درءًا لوقوع أعمال عنف وإرهاب.

وبعد نحو عام من الجدل، وفي مطلع أكتوبر 2020، أطلق ماكرون مشروع قانون لمحاربة «**الرغبة في الانفصال الشعوري**»، وبينما كنا نتهيأ لاستقبال دفعة من النفاق الدبلوماسي المعتاد، فوجئنا بأن الرئيس المتشبّث حتى الهوس بقيم العلمانية ينصّ في خطابه -بمناسبة ذكرى مرور قرن ونصف قرن على إعلان الجمهورية- على أن المقصود بهذه الحرب الثقافية هو الجالية المسلمة تحديدًا. ولم يكتف بهذا، بل استفز مشاعر المسلمين خارج حدود جمهوريته قائلا إن «الإسلام ديانة تمر اليوم بأزمة في كل مكان في العالم».

لم يكن ماكرون مضطرًّا -في الظاهر- لاستفزاز الأقلّيّة المسلمة في بلاده أصلًا، ولا الإعلان عن أنّ قانونه هذا يستهدفهم من دون بقية الجاليات، إلا أنّه فضّل استفزاز المسلمين حول العالم. وما هي إلا أيام حتى تصدّر نبأ عاجل مضادٌّ وسائلَ الإعلام العالمية، فبدلا من أن تؤدي هذه الحملة الاستفزازية لاضطهاد المسلمين، أعلنَت فرنسا مقتل مدرّس فرنسي أبيض ذبحًا على يد مراهق شيشانيّ في باريس، وأنّ السبب هو الانتقام من المدرّس الذي عرض على تلاميذه -وبدون مقدّمات ولا مبررات- الرسوم الكاريكاتيريّة المسيئة للنبي ﷺ، التي سبق أن رسمها 12 رسّامًا دنماركيًّا مغمورًا ونشرت

في صحيفة **يولاند بوستن** عام 2005، وتسبّبت آنذاك بموجة غضب عارمة وأزمة اقتصاديّة ودبلوماسيّة غير مسبوقة للدنمارك.

وكما هو متوقع، استغلّ **ماكرون** حادثة «**الذبح**»، مع أنه لم يشهد عليها أحد سوى الشرطة التي قتلت الشاب الشيشانيّ، دون أن نفهم كيف تمكّن مراهق لوحده من السيطرة على رجل في سنّ الأربعين وقطع رأسه في الشارع، قبل أن ترديه رصاصات الشرطة قتيلًا على الفور، ثم يتحوّل المدرّس الضحيّة إلى بطل قومي.

كرّم ماكرون المدرّس ومنح جثّته وسام الجمهوريّة، أي أعلى درجات التكريم، وتعمّد استفزاز المسلمين مرة أخرى بالقول إن ما فعله المدرس يمثّل قيم الجمهورية، وإنه لن يتنازل عن نشر تلك الرسوم -التي أصبحت الرمز المقدّس لحرّية التعبير- أي أن التكريم لم يكن لشخص تعرّض للقتل ظلمًا بل لأن فعلته التي قُتل بسببها هي الممثّلة للقيم المقدسة!

وقبل أن يجد المسلمون والمثقّفون والناشطون الوقت الكافي للإعراب عن دهشتهم من هذه الصفاقة، كانت حكومة ماكرون تضيّق الخناق على المسلمين تمهيدًا لفرض القانون الجديد، فلم تجد الشعوب المسلمة سوى إشهار سلاح مقاطعة المنتجات والشركات الفرنسية أينما وُجدت، تكرارًا لما حدث مع الدنمارك، بينما اكتفت معظم حكومات العالم الإسلامي بالصمت، مع تبجّح بعضها بتأييد ماكرون (!)، فيما اقتصرت ردود الفعل الغاضبة على دول قليلة مثل تركيا وباكستان.

أعتقد أن القارئ الكريم لا يحتاج للتذكير بانتقائيّة الإعلام والسلطة، ففي الوقت الذي قُتل فيه المدرس ذبحًا -إن كانت الرواية صحيحة أصلًا- تعرّضت سيّدتان مسلمتان لمحاولة قتل قرب برج إيفل وسط باريس، مع أنهما كانتا بصحبة أطفالهما، ولم يذكر الإعلام شيئًا عن الحادثة طبعًا، كما لم يتساءل الإعلام عن تزامن عرض مدرس لا يعرفه أحد لتلك الرسوم ثمّ مقتله مع حملة **ماكرون** للتغلغل في «شعور» المسلمين بحثًا عن مشاعر الانفصال في أعماقهم، فأي صدفة تلك؟! ولماذا تأتي تلك الهجمات الدموية في

اللحظات الفارقة دائمًا؟! وماذا عن التحريض الذي يتسبب به السياسيّون والإعلاميّون في فرنسا والذي يؤدّي فعلًا إلى أعمال عنف وإرهابٍ ضدّ المسلمين[1]؟! وما هي قيم الجمهوريّة التي تمسّك بها ماكرون عندما صرخ بأن علمانيّته المهدّدة بالزوال ستتمسّك حتى الرمق الأخير بحقّها في عرض تلك الرسوم المسيئة للنبيّ ﷺ؟ وهو ما حدث فعلًا عندما وصلت الصفاقة بهذه الحكومة المذعورة من «**انفصالية المسلمين**» إلى عرض تلك الرسوم البذيئة على واجهات مبان حكومية وبأحجام هائلة ليراها كل المارّة، وتحت حراسة عسكرية مشددة!

قد يبدو الأمر عند هذا الحد أقرب إلى الخيال من الواقع، لكن **ماكرون** -الذي انتخبه الفرنسيّون بديلًا عن اليمين المتطرّف- أصر على تجسيد خيال **جورج أورويل** في رواياته التنبّؤية بمستقبل الشموليّة، وبعد نحو شهر ونصف من خطابه الاستفزازي أعطى مهلة للمجلس الفرنسي للدين الإسلامي -الذي يضم تسع رابطات إسلامية- مدّتها أسبوعان فقط، للموافقة على «**ميثاق قيم الجمهورية**»، والانضمام إلى مجلس وطنيّ للأئمة يتولى مهمّة تلقين الأئمة والخطباء «**قيم الجمهورية**».

كان الرئيس اليميني الأسبق **نيكولا ساركوزي** يبدو متطرّفًا عندما قال لقادة الجالية المسلمة في بلاده إن المطلوب هو «إسلام فرنسي» وليس إسلام في فرنسا، لكن التطبيق لم يظهر بهذه الصفاقة إلا على يد رئيس محسوب على الوسط، ليجبر المسلمين بكل وقاحة على الاعتراف بأنهم لن يكونوا مواطنين صالحين ما لم يعتقدوا بأن قوانين الجمهورية أسمى من القيم الإسلامية، فلم يعد يكفي أن يحترم المسلمون قوانين العلمانية ويتأقلموا معها بأكبر قدر من التورية والمداراة، بل عليهم أن يغيّروا معتقداتهم ومشاعرهم ليعتنقوها أيضًا.

المثير للسخرية والقرف أن هذه الشموليّة لم تطبق إلّا على المسلمين، فلم يطلب

(1) سجل «التجمع ضد الإسلاموفوبيا» في فرنسا ارتفاعًا بنسبة 77٪ من الاعتداءات «على خلفية كراهية دينية» ضد مسلمين بين عامي 2017 و2019.

ماكرون من المسيحيين الكاثوليك مثلًا أن يحبّوه هو أكثر من البابا، ولا أن يقدّسوا جمهوريّته المهترئة أكثر من المسيح عليه السلام.

الذريعة الوحيدة هي حقن دماء الفرنسيّين بعد مقتل ذاك المدرس، مع أن مشروع القانون قُدّم للبرلمان قبل تلك الحادثة الغامضة، لكن «**صناعة الخوف**» تتطلّب سفك بعض الدم لتمرير المهازل التي تشبه خيال الروائيّين في العادة. والواقع هو أن كل الأحزاب الفرنسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ترتعد خوفًا من الإسلام نفسه، ولا تستطيع تحمّل فكرة انتشار المتحجّبات في الشوارع، بعدما كانت فرنسا رأس الحربة في الحروب الصليبيّة، والسدَّ المنيع لتقدّم الزحف الإسلاميّ القادم من الأندلس في معركة بواتييه (**بلاط الشهداء**) عام 732م.

وبما أن التاريخ حاضر بشدّة في أعماق الهويّة العلمانية الفرنسية، فلنستحضر إذن النشأة الدمويّة لهذه الهويّة على أشلاء المسيحيّة، فالثورة الفرنسيّة التي خرجت من محافل الماسون عام 1789 قطعت رؤوس آلاف القساوسة الذين رفضوا أداء القسَم للدولة الجديدة، وما زالت تلك الفترة الدمويّة تسمّى حتى الآن بـ «**عهد الإرهاب**»، وما كانت فرنسا لتخرج من تلك الفوضى -التي شارفت على الحرب الأهلية- لو لا مسارعة **نابليون بونابرت** لإيجاد حل وسط بين الكاثوليك واليعاقبة العلمانيين المتطرّفين عبر اتفاقية **الكونكوردات**، التي وقعها **نابليون** مع **البابا بيوس السابع** عام 1801، بحيث تتمتع الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة بمكانة خاصة بصفتها كنيسة الأغلبية في فرنسا من دون أن تكون ممثّلة للدين الرسميّ، وتستعيد معظم وضعها المدنيّ، كما تتنازل عما سُلِب من أملاكها، مقابل تحمّل الدولة العلمانية نفقات رعاية الكنائس ورواتب القساوسة الذين يؤدّون قسَم الولاء للدولة.

أما الأقلّيّة اليهوديّة فقد تمكّنت منذ البداية من الالتفاف على الشموليّة الليبراليّة، ففي عام 1806 جمع **نابليون** حاخامات اليهود الفرنسيّين وطلب منهم توضيح موقفهم من

المواطنـة، ومـا الـذي سـيفعلونه عنـدما تتعـارض تعـاليمهم الدينيّـة مـع القـوانين المدنيّـة العلمانيّة، وكيف ينظرون إلى غير اليهود (الأغيار)، وكانت النتيجة إقرار الحاخامات بكـل ما يريده منهم الإمبراطور الدكتاتور، وتشكيل «**المجلس المركزي للإسرائيليين**» -علمًا بأن كلمة إسرائيل يقصد بها شعب بني إسرائيل وليس الدولة المحتلّة الحديثة- لتسيير شؤون الطائفة الدينيّة بما يناسب «القيم العلمانية».

هذا الوضع التوفيقي لم يستمر سوى مئة عام تقريبًا، ففي عام 1905 كانت النفوس قد تشرّبت العلمانية بما يكفي لإعلان قانون الفصل التامّ للكنيسة عـن الدولـة، فالمسيحيّة تـمّ ترويضها وأجبرت على التخلّي عن قانون 1801، أما اليهوديّة فهي التي روّضت الحكومة ولـم تعُد بحاجة للمجلس المركزيّ الذي تم حلّه، وتمكنت من خلال التورية -وهو البـاب الذي تغلغل منه بعض الحاخامات في مفاصـل القـوى حـول العـالم- مـن تسـيير السـلطة في فرنسا على هواها.

واليوم يطلب **ماكرون** مـن المسـلمين تأسـيس مجلـس مركـزي علـى شـاكلة المجلس الذي شكّله نابليون لليهود قبل أكثر من قرنين، ليجـدوا أنفسـهم في أزمـة غيـر مسبوقة، فلـم تعـد لهـم قـوة كـبرى تحـميهم ولـو رمزيًّا بعـد انهيـار بقايـا الخلافـة، ولا يسـمح لهـم دينهم بالتورية إلى الحدّ الذي يحترفه الحاخامات وأتباعهم.

ولمعرفة خلفيّة هذا «**الإرهـاب**» الشـمولي، يكفـي أن تنظـر عزيـزي القـارئ إلـى نتائج استطلاع للـرأي أجـراه معهـد إيفـوب تزامنًا مـع حملـة مـاكرون، إذ قـال 57٪ مـن الشـباب المسـلمين الفرنسـيين (أقـل مـن 25 عامًـا) الـذين استُطلِعت آراؤهـم إن الشـريعة أهـم مـن قوانين الدولة، ما يعني أن هذه النسبة زادت 10٪ عما كانت عليه في 2016، بينما لم يوافق الكاثوليك على أن قواعد الدين أهم من قوانين الدولة سوى بنسبة 15٪ فقط.

أيضًـا رفـض ثلثـا المسـلمين الفرنسـيين عـرض المدرّسـين رسـومًا كاريكاتوريّـة لشخصيّات دينية على التلاميذ، مقابل رفض 20٪ فقط من الكاثوليك للأمر.

كما أيّد 75٪ من المسلمين ارتداء مستلزمات دينيّة، مقابل 19٪ من الكاثوليك. ودعمت 81٪ من المسلمات تخصيص ساعات للنساء في المسابح، مقابل 16٪ لكل من الكاثوليكيّات، والملحدات.

وينبغي ألا ننسى أن كل هذه الأرقام تتعّلق بشباب وشابات تحت سن الخامسة والعشرين، وهي أرقام تكفي لبثّ الذعر في نفوس **ماكرون** وكل السياسيّين. لذا قال مدير قسم السياسة في معهد إيفوب **فرانسوا كراوس**: «يميل البعض اليوم إلى الإشارة إلى الإرهابيّين الإسلاميين على أنهم ذئابٌ منفردة[1] وأصوليّون لا تعكس رؤيتهم المتطرّفة للقرآن ما يعتقده بقيّة المسلمين على الإطلاق. ومع ذلك، فإن الاستطلاع يُظهر أن نسبة كبيرة من الشباب المسلمين يشاركون الإسلاميين فكرة أن تعاليم دينهم يجب أن تكون لها الأسبقيّة على التشريع الفرنسي»[2].

هذا الذعر الذي يقضّ مضاجع العلمانيّة كان كافيا لتخلّيها عن كلّ مبادئها وشعاراتها، فمع كل الانتقادات التي طالت **ماكرون** -والمشهد السياسي الفرنسي كله- من قبل الصحافة الليبراليّة في أمريكا ودول أوروبية أخرى، لم تتردّد الحكومة الفرنسية في طرح قانونين جديدين على البرلمان، يحظر أحدهما -تحت مسمى قانون «**الأمن الشامل**»- نشر صور رجال الأمن أثناء أدائهم واجبهم، مع معاقبة المخالفين بالسجن لمدّة سنة ودفع غرامة مالية قدرها 45 ألف يورو، وهو ما دفع بالآلاف إلى الشوارع للتظاهر ضد هذه الوقاحة التي اعتبروها تكريسًا واضحًا للقمع، وكأنّ الجمهورية المقدّسة تريد منح حصانة لُحرّاسها من أيّ توثيق لعنفهم ضد المواطنين!

أما القانون الثاني فكان أشد غرابة، إذ يحظر تعليم الأطفال في المنازل، ويضع علامة في قاعدة بيانات أولئك الذين يبررون الأعمال «الإرهابية»، ويُخضع المنظّمات التي تتلقى

---

(1) سبقت الإشارة إلى أن هذا المصطلح يطلق على أفراد يمارسون العنف بمفردهم دون تلقي أوامر من تنظيمات محددة.

(2) فرنسا: أكثر من نصف المسلمين تحت سن 25 يعتقدون أن الشريعة أهم من قانون الدولة، وكالة سبوتنيك، 7 نوفمبر 2020.

دعمًا حكوميًّا لاختبار «الولاء للقيم الجمهورية»، ويفرض مزيدًا من التضييق على مسألة تعدّد الزوجات التي يحرمها القانون أصلًا.

وإذا لم تكن هذه التفاصيل كافية لإدهاشك عزيزي القارئ، فاقرأ معي هذا الخبر الذي يستحق التسجيل في ذاكرة الشعوب، ففي الخامس من نوفمبر 2020 داهمت الشرطة الفرنسيّة منازل أربعة تلاميذ بعمر عشر سنوات في مدينة **ألبيرفيل** خلال الساعات الأولى من الصباح، ثلاثة منهم من أصل تركي وواحد جزائري، وتعاملت معهم على أنهم إرهابيون، حيث استجوبتهم لمدة 11 ساعة في قسم الشرطة. والتهمة هي إعرابهم لمعلمين في المدرسة عن رفضهم الرسوم المسيئة للنبيّ محمّد ﷺ، وهي «**جريمة**» دفعت إدارة المدرسة لإبلاغ الشرطة على الفور[1]!

الإرهاب في «بلد الأنوار» لم يعد مقتصرًا على من يرتكب العنف والقتل، بل يشمل كلّ من يرفض مصافحة الجنس الآخر، أو العلاج عند طبيب من جنس آخر، أو يتحرّج من التعرّي الجماعيّ الكامل بين الجنسين في غرف تبديل الملابس والاغتسال الملحقة المسابح. الرفض هنا أصبح دليلًا على «الانفصال الشعوري»، أي أن الامتناع السلبيّ بذاته صار جريمة، ولم يعد الارتكاب الإيجابي للفعل المخالف للمألوف هو المحظور فقط. ولا يمكن تخيّل شيء أكثر استبدادًا وشموليّة من تدخل الحكومة في حياة الناس بهذه الحماقة، وما كانت هذه القوانين لتمر لولا احتراف الحكومة «**صناعة الإرهاب**» والضرب على مشاعر العنصريّة لدى الجماهير.

قبل نحو خمسة قرون، مارست الكاثوليكية في إسبانيا حملة وحشيّة لإجبار المسلمين وغيرهم على تغيير دينهم، وكانت محاكم التفتيش تلاحق الناس حتى في بيوتهم بحثًا عن أي مؤشّر يثبت اعتناقهم دينًا آخر غير دين السلطة، فوجود الحمّام في منزل أحد

(1) Norimitsu Onishi and Constant Méheut, France's Dragnet for Extremists Sweeps Up Some Schoolchildren, Too, The New York Times, 23 November 2020.

الموركسيين (من بقي في الأندلس من المسلمين) كان يكفي لاعتقاله بتهمة إخفاء اعتناقه للإسلام.

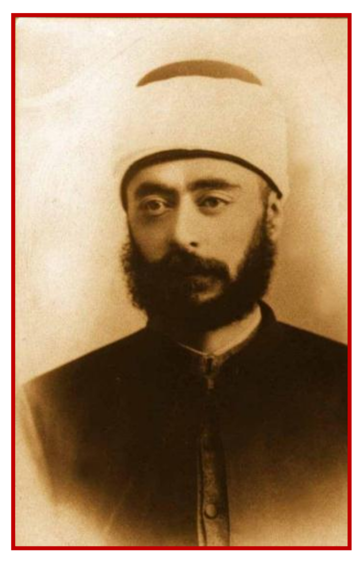
ثم أعلنت العلمانية الفرنسية -التي وصلت للسلطة بالدم والإرهاب- أن عصر التنوير وحرية الإنسان قد أقبل، وأن زمن تسلط الكنيسة على الناس ولّى إلى غير رجعة، فلكلّ إنسان حقُّ اعتناق الدين الذي يناسبه، ولا يحق للسلطة أن تتدخّل في عقائد الناس وأفكارهم.

واليوم لم يعد هناك شكٌّ في تحوُّل العلمانيَّة إلى دينٍ استبداديٍّ، مع فارق انتزاع القداسة، فإذا كانت الكنيسة تبرّر طغيانها بتنفيذ أوامر الربّ ذي القدرة اللامتناهية، فإنّ الجمهوريّة لا تجد مبرّرًا لطغيانها المماثل سوى في البراغماتيّة المُطلَقة، فهي نابعة -كما يُفترَض- من مصدر بشريّ زمانيّ وتسعى لتحقيق مصالح بشريّة زائلة ومتبدّلة، مع أنّي لا أراها نابعة إلا من مصدرٍ غيبيٍّ آخر متألّه، هو إبليس نفسه.

عندما يخاف الطاغية

بعد هذه الجولة في عالم الاستبداد والطغيان والجشع، ومع إقراري بأنّ المؤشّرات تتّجه نحو مستقبل غامض مخيفٍ، يجدر بي أن ألفت نظرك عزيزي القارئ إلى الخوف المقابل الذي يندر أن نشعر به، فالمتحكّمون ليسوا أكثر شعورًا بالأمن منّا، مع كلّ ما يستمتعون به من ثراء وتقدّم طبي ورَفاهٍ تكنولوجيّ وحصون منيعة.

سبق أن ذكرتُ لك أن وعد الحداثة بمدينة فاضلة قد فشل، فازداد الحالمون بجنّة أرضيّة بؤسًا وخوفًا. لكن الخوف المقارِن للاستبداد أكثر عمقًا، فهو يضيف إلى القلق السابق خوفًا من المضطهَدين أنفسهم.



ولأوضح لك ذلك، لن أجد أفضل من **عبد الرحمن الكواكبي** الذي كتب أبلغ الأوصاف في خوف المستبدِّين قبيل بداية القرن العشرين، وما زال كتابه «**طبائع الاستبداد**» يدهشنا.

ستجد في هذا الكتاب فصلًا موجزًا بعنوان «**الاستبداد والعلم**»، ولو كان كتابي هذا يتسع للفصل كله لنسختُه كما هو، فكل جملة فيه تكشف عورة المستبدّين وتفضح ضعفهم المتدثّر بجبروت القهر والطغيان.

يقول **الكواكبيّ** إنه «لا يخفى على المستبدّ مهما كان غبيًّا، أنْ لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرعيّة حمقاء تخبط في ظلامة جهلٍ وتِيهِ عَماءٍ.. والمتأمّل في حالة كل رئيس ومرؤوس، يرى كل سلطة الرئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته».

ثم يوضّح بذكاء أن المستبدّ لا يخشى علوم اللغة، ولا العلوم الدينيّة المتعلّقة بالمعاد والمختصّة بما بين الإنسان وربّه، ولا العلوم الصناعيّة، بل «ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظريّة، والفلسفة العقليّة، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنيّة، والتاريخ المفصّل، والخطابة الأدبيّة، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبر النفوس، وتوسّع العقول، وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه، وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النّوال، وكيف الحفظ».

يقول أيضًا إن «العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوَّر العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعًا لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بد للمستبدّ من الاعتزال أو الاعتدال»، ويضيف «لا يستفيد المستبدّ قطُّ من رأي غيره، بل يعيشُ في ضلالٍ وتردُّدٍ وعذاب وخوفٍ، وكفى بذلك انتقامًا منه على استعباده الناس وقد خلقهم ربهم أحرارًا».

ثم يضع الكواكبيّ يده على مفصل الخوف المتبادَل كما يضع الطبيب يده على الجرح فيقول: «إنّ خوف المستبدّ من نقمة رعيّته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأنّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز حقيقيّ فيه، وخوفهم عن توهّم التخاذل فقط؛ وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام؛ وخوفه على كلّ شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط».

فإن لم يقشعرّ جلدك عزيزي القارئ من هذه الكلمات، فاقرأ معي الفقرة التالية: «كلّما زاد المستبدّ ظلمًا واعتسافًا زاد خوفه من رعيّته وحتّى من حاشيته، وحتّى من هواجسه وخيالاته. وأكثر ما تُختم حياة المستبدّ بالجنون التّام. قلت: التامّ لأنّ المستبدّ لا يخلو من الحمق قطّ، لنفوره من البحث عن الحقائق، وإذا صادف وجود مستبدّ غير أحمق فيسارعه الموت قهرًا إذا لم يسارعه الجنون أو العته؛ وقلتُ: إنّه يخاف من حاشيته؛ لأنّ أكثر ما يبطش بالمستبدّين حواشيهم؛ لأنّ هؤلاء أشقى خلق الله حياة».

وكي لا أطيل في النقل، أختتم بما اختتم به فصله الرائع قائلًا إنّ «قصر المستبدّ في كل زمان هو هيكل الخوف عينه. فالملك الجبّار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة، ومكتبته هي المذبح المقدَّس، والأقلام هي السكاكين، وعبارات التعظيم هي الصلوات، والناس هم الأسرى الذين يُقدَّمون قرابين الخوف، وهو أهمّ النواميس الطبيعيّة في الإنسان، والإنسان يقرّب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف، ولا وسيلة لتخفيف الخوف أو نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه، وهكذا إذا زاد علم أفراد الرعيّة بأنّ المستبّد امرؤٌ عاجز مثلهم، زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم»[1].

بصيرة ثاقبة، ووصف بليغ يغني عن الشرح والتعليق. إلا أنّي سأعقّب عليه بوصف الحال الذي آل إليه الطغيان في بلاد الكواكبيّ، ابن مدينة حلب، فإذا كان الكاتب الراحل

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2011، ص 35- 38.

يصف بهذه الكلمات استبداد بعض الولاة العثمانيين المتأخّرين في عصر أفول تلك الدولة (رجل أوروبا المريض) التي أثخنتها الجراح، فكيف يقول إذا امتدّ به العمر ليرى الطغيان الذي دمّر مدينته على رؤوس ساكنيها أمام عيون العالم؟

كان النظام السوريّ قد درج طوال ثلاثة عقود على تأليه زعيمه **حافظ الأسد** بصورة لم يعهدها أي شعب مسلم آخر، ولو لم يكن هذا الضابط الانقلابيّ القادم من طائفة أخرى مضطرًّا لمداهنة الشعب لاقتبس منهجه من الملاحدة الشيوعيين، ستالين وماو وكيم إيل سونغ، ونصّب نفسه إلهًا صريحًا دون مواربة.

لن أطيل في سرد فصول المقاومة المسلّحة التي لقيها **حافظ** في الثمانينات، لكن الذعر الذي كان يملأ قلبه وقلوب عائلته وطائفته يصدم الكثير من السوريّين عندما يتكشّف. فبعد محاولة اغتيال فاشلة لحافظ في صيف عام 1980، انطلق شقيقه ونائبه **رفعت الأسد** مع عناصر من «**سرايا الدفاع**» إلى سجن تدمر المعزول في الصحراء، والذي كان منفى للمعتقلين الإسلاميّين بدون محاكمة، وفتحوا النار على الزنازين ليقتلوا نحو ألف سجين أعزل، فالخائف إذا استبد به الذعر ينتقم كالمسعور من أي عدو يتمكّن منه دون أن يفكّر، وهذا يفسّر أيضا إصدار حافظ قانونًا رسميًّا بمعاقبة كل منتسبٍ لجماعة الإخوان المسلمين بالإعدام، مع أن الجماعة كانت ممثّلة في البرلمان قبل أن يستولي هو بانقلاب عسكري على الحكم.

كنتُ في دمشق عندما أعلن النظام وفاة **حافظ** صيف عام 2000، وكان الخوف قد ملأ قلوب جيل كامل من السوريين بما يكفي للصمت واصطناع الحزن، وإنْ كان الكثير منهم قد حزن فعلًا لطول الإلف والترويض، لكن خوف المستبدّ كان أكثر وضوحًا ولا تخطِئُه العين، فبينما التزم الناس العزّل والعاجزون منازلهم، هرع كبار المسؤولين من طائفة الزعيم أيضًا إلى مزارعهم وحصونهم في منطقة جبال العلويين بعيدًا عن دمشق، ولم يبقَ في شوارع العاصمة إلا صغار عناصر المخابرات والجيش الذين يستعرضون قوّتهم منعًا لأي بادرة تمرّد.

اضطررتُ حينها للنزول إلى وسط العاصمة في أمر عاجل، فلم أرَ من أهل المدينة أحدًا. كان العناصر المتّشحون بالسواد في كل مكان، وكنت أتفرّس في وجوههم الخوف أكثر من التخويف. ولم أعرف إلا بعد سنوات من أحد المسؤولين أنّ النظام المدجّج بالسلاح كان قد أصيب بالذعر في ذلك الوقت، وأنه كان يخشى اندلاع ثورة تقضي عليه، وهو أمر لم يخطر على بال أحد من الشعب.

بعد عشر سنوات، وبعد سقوط حسني مبارك في القاهرة، خرجتُ في جولة بشوارع دمشق وريفها، ورأيت المشهد نفسه. كان عناصر المخابرات المسلّحون في كل مكان، وكان الخوف من الشعب في أقصى درجاته هذه المرة. وحتى عندما اندلعت أولى المظاهرات بالفعل بعدها بفترة وجيزة، لم أكن متفائلا بتحولها إلى ثورة. كنت أظن أن الخوف سيحُول دون ذلك، لكن الشباب -الذين لم يعاصروا أهوال الثمانينات ولم يجرؤ آباؤهم على إخبارهم بما حدث- لم يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم، أما النظام الذي يقتات على الخوف فسارع إلى إطلاق الرصاص على صدورهم منذ خروج المظاهرة الأولى، وعندما صرخوا في وجهه غضبًا لم يتردّد في إنزال الدبابات إلى الشوارع، وعندما رأوا أنّ المقاومة هي الحلّ عاجَلَهم بالقصف الجويّ والسلاح الكيميائيّ، وهم ما زالوا عاجزين عن فهم ما يحدث.

بعد بضعة أشهر نقلت الكاميرات حدثًا يستحقّ التأريخ، فعندما أرسلت الجامعة العربيّة وفدًا هزيلًا للمراقبة، من باب ذر الرماد في العيون، خرج حشد من السكان برفقة سيّارات الوفد يحتمون بها، وعندما وصلوا إلى ثكنات الجيش المتحصّن على أطراف أحيائهم السكنية، والتقوا بالجنود وجهًا لوجه، سألوهم أمام الكاميرات: لماذا كنتم تقصفوننا؟ والجنود واجمون بلا حراك، خائفون من صدمة الموقف الذي لم يتدربوا عليه، فالأوامر بالقتل قد توقّفت قبل لحظات، وليس ثمّة أمر بأي ردة فعل تجاه هذا السؤال.



في صيف 2012، طلبتُ إيفادي كمراسلٍ حربيٍّ إلى حلب، حيث كانت تتعرّض لحملة إبادة قل نظيرها في التاريخ الحديث. لم أكن قد سمعت صوت أي انفجار أو غارة جوية من قبل، وكان عليَّ أن أتلقّى تدريبًا على إجراءات الأمن والسلامة. اضطررت للمبيت في مدينة أنطاكية بجنوب تركيّا بضعة ليال ريثما يصلني إشعار بأن الطريق بات آمنا، وحالفني الحظّ بالمبيت في منتجع سياحيٍّ رائع. كان الخوف الذي يتسلّل إلى قلبي كلّما اقترب الموعد كفيلًا بتجاهل كل مباهج الحياة في تلك الجنّة المصغرة، وفي الليلة السابقة على دخولي إلى ميدان القتال استشعرت برد الطمأنينة في قلبي للمرّة الأولى، ونمت قرير العين بعد التضرّع إلى الله بسلامة القلب قبل نجاة البدن.

كانت حلب شبه خالية من سكّانها، إلا الذين لم يجدوا ملجأ يفرون إليه فاضطروا لانتظار مصيرهم تحت سقوف منازلهم المتهالكة. رأيت الموت يحيط بي من كل جانب، فلم يكن معي سوى شاب ضئيل الحجم من الثوّار بسلاحه الخفيف، بينما تلاحقنا طائرات النظام في كل مكان.

كنت أبيت في أكثر الأماكن أمنا بالمدينة، في قبو محصن لأحد المصارف بمنطقة سقطت في يد الثوار، وكنت ألصق فراشي بالجدار المتين وأنام على أمل أن يجدني المسعفون حيًا تحت الأنقاض في حال سقوط المبنى بأدواره الأربعة. وفي الصباح أرتدي خوذة ودرعًا، وأطوف شوارع إحدى أقدم مدن العالم المأهولة بالسكان، لألتقط صورًا وقصصًا مما أصبحت مدينة أشباح.

لا بدّ أن يخطر ببالك سؤالي: هل كنت خائفًا؟ وسأعجز عن شرح التناقض بين شعوري بالأمن في تلك الأيام المفعمة بالأمل في الحرية، وبين حالة الخوف التي انتابتني بعد خروجي إلى بر الأمان. ففي حلب كنت أهرع حاملًا الكاميرا كلّما سمعت صوت طائرة حربيّة كي أوثق الجريمة وأسعف الجرحى، وعندما غادرتها ظللت أعاني من حالة «فوبيا» كلما سمعت صوت طائرة مدنية عدة أسابيع.

كان كل الثوّار الذين قابلتهم أكثر تحرَّرا من الخوف، وأكثر سعادة بطعم الحرية. كانوا يعيشون في واحدة من المناطق النادرة على هذا الكوكب التي لا تخضع لأي سلطة، وكانوا يعلمون جيِّدًا أنّ ضريبة هذه الحرّيّة هي ترقب الموت في كل لحظة.

كاد النظام يسقط بعد سلسلة معارك ومجازر وأحداث سجّلها التاريخ، وليس هذا مقام سردها وتقييمها والحكم عليها. لكن المؤكّد أن الرئيس الروسي **فلاديمير بوتين** لم يأمر بالتدخّل العسكريّ في سبتمبر 2015 إلا بعدما تبدّى للجميع إلى أي درجة وصل الذعر لدى النظام المدجّج بالسلاح. وكان من المدهش أن يعترف رئيس الأركان الروسي **فاليري غيراسيموف** بعد أربع سنوات، بأن بلاده لبّت طلب النظام بالتدخل المباشر عندما كان الأخير يسيطر على 10٪ فقط من أراضي سورية، وأنه كان «**مهدّدًا بالزوال في غضون شهر ونصف أو شهرين**»[1].

انتهز الجيش الروسي الفرصة لتجريب أسلحته الجديدة، وقدم للغرب عرضًا عسكريًّا حيًّا على أنقاض بلد كان موجودًا على الخارطة طوال سبعة آلاف عام.

انتصرت القوة الغاشمة مجدّدًا على أشلاء مليون إنسان على الأقل، ولكن بعدما أدرك الجميع أن الطاغوت كان أكثر خوفًا ممّا كانوا يظنّون، وأقصى ما أتمنّاه الآن هو ألا ينسى الجيل القادم هذه الحقيقة.

---

(1) هذا التصريح نشره موقع قناة «روسيا اليوم» التابعة للحكومة الروسية تحت عنوان «رئيس هيئة الأركان الروسية: لولا دعمنا لانهارت الدولة السورية تحت ضربات الإرهابيين»، arabic.rt.com، 24 أبريل 2019.



أحد المنازل التي طالها القصف الجوي في حلب (بعدستي)



الفصل الرابع
تجارة الخوف

أثناء تأليف هذا الكتاب، بثّت شبكة «سي نت» Cnet تقريرًا عن مشروع عملاق في ولاية كنساس الأمريكية، تم الانتهاء بالفعل من بنائه بالكامل، وهو يضمّ طوابق عديدة تحت الأرض، ويضم شققًا سكنية فاخرة، وبكافة المرافق المألوفة في المجمعات السكنيّة من مسابح ونواد رياضية وقاعات للسينما ومساحات للعب الأطفال، بالإضافة إلى قاعات مخصصة لتعليم الأطفال ومزاولة كافة فعاليات الحياة العادية[1].



هذا البرج الطابقي -المبني بشكل عكسي تحت الأرض- هو واحد من ملاجئ عديدة شيدت في السنوات الأخيرة حول العالم، وجهزت بكل ما يحتاجه سكانها للحياة في تلك القواقع المعزولة عدة سنوات، ريثما ينجلي غبار التفجيرات النووية التي يخشى أصحاب تلك المشاريع أن تحدث في المستقبل القريب، وهم يؤمنون باحتمال وقوع هذا الكابوس فعلًا إلى درجة الانهماك بتشييد تلك المشاريع باهظة الثمن، إذ يبلغ سعر الشقة في المجمع المذكور آنفًا مليون دولار على الأقل، وهناك أثرياء مهتمون بشرائها ومستعدون للانتقال إلى عالمهم الخاص تحت الأرض عندما تدق ساعة الصفر.

(1) التقرير تم بثه على موقع يوتيوب في 6 يوليو 2020، بعنوان Inside the doomsday bunker for the super rich.

أول ما يخطر في بالي عند مشاهدة مشاريع كهذه هو مدى تعلّق أولئك البشر بالحياة الدنيا إلى درجة الاستعداد لركوب قطار النجاة الوحيد الذي سينقذ البقية الباقية من البشرية كما يتخيلون، فما جدوى الاستمرار في العيش بضع سنين أخرى في عالم سيؤول إلى هذا الدمار الرهيب؟ وإن لم يكونوا قادرين على التفكير في طرق لمنع وقوع تلك الكارثة، فما هي صورة العالم الذي يتصوّرون أنهم سيصنعونه بعدما يخلو المشهد لهم ويفنى الآخرون؟ لا أظن أن أحدًا يفكر بالبعث بعد الموت قد يشغل نفسه بالبقاء في هذه الدنيا الفانية وبهذا السيناريو المرعب.

حركة البقائيّة

من زاوية أخرى، قد تبدو هذه المشاريع ضربة حظ من عقليّة رأسمالية نجحت في استثمار «**الخوف**» لدى الأثرياء، ومن أجل بيعهم شققًا غالية الثمن لا أكثر، وهناك من يتاجر بما هو أقل قيمة في هذا القطاع، ففي الغرب تزداد منذ ثلاثينات القرن العشرين شعبية حركة «المحضِّرين» أو «البقائيّين» Survivalists، وهي حركة مجتمعيّة يرى أتباعها أنه ينبغي عليهم التمتّع بالجهوزية الدائمة لكارثة وشيكة، سواء كانت طبيعية أم مصطنعة، بحيث يمكنهم الالتحاق على الفور بملاجئ مجهزة للعيش والانقطاع التام عن العالم الخارجي لفترات تتفاوت بين بضعة شهور وعدة سنوات.

وفي كل عقد تقريبًا تظهر موجة جديدة لحركة البقائيّين، فبعد الحربين العالميّتين والكساد الكبير، ثم أزمة النفط في السبعينات، بدأ التنظير الفكري لهذه الحركة في الثمانينات، وحاجج مؤلفون مثل **هوارد رف**، **وبروس دي كلايتون** بأن الحرب النووية قد تكون على الأبواب، ثم حذر آخرون من انهيار عالمي صبيحة اليوم الأول من عام 2000 لعدم جاهزية شبكات الكمبيوتر والإنترنت للتاريخ الجديد، وما لبثت الحركة أن انتعشت بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 وانهيار برجي التجارة في نيويورك، ثم تجدّدت أيضا أثناء كتابة هذا الكتاب مع حبس شعوب العالم بذريعة إجراءات محاصرة وباء كورونا.

وثمة تقارير إخباريّة كثيرة على وسائل إعلام أمريكية وأوروبية وأسترالية، وعلى مواقع التواصل، عن جهود شخصيّة يبذلها هؤلاء لتجهيز ملاجئ خاصة في منازلهم، غير آبهين بما يتعرّضون له من سخرية، بل ربما اتّخذوا من النبي نوح عليه السلام قدوة، إذ كلما مر به قومه ووجدوه يبني السفينة (بأمر إلهي) سخروا منه، كما أخبرنا القرآن الكريم و«الكتاب المقدس» لدى اليهود والمسيحيين.

لكن هناك آخرين استثمروا في شعبيّة هذه حركة البقائيّين خلال أزمة كورونا لتحقيق تجارة مربحة، ففي أحد الأمثلة سلّطت قناة «**سي إن إن**» الضوء على شباب يديرون متاجر إلكترونية لبيع مستلزمات الملاجئ، ومنهم شاب يعيش في هولندا يقول إنه باع من الأقنعة ومعدات الإعاشة وأجهزة الراديو وفلاتر المياه في شهر فبراير 2020 وحده بأكثر مما باع في ستة أشهر من العام الذي سبقه، بينما قال شاب آخر في بريطانيا إن انتشار فيروس كورونا ولّد حالة من «الجنون»، وإن مبيعاته على الإنترنت تضاعفت أكثر من 20 مرة[1].

الخوف غريزة، والشعور بالأمن بضاعة لا تكسد، وما عليك عزيزي القارئ -إن كنت مستثمرًا- إلا أن تضرب على أوتار الخوف لدى زبائنك، فإن سكنتْ مخاوفهم في جانب ما فالتفت إلى جانب آخر، وإن سكنت كلها فاعمل أنت على تخويفهم!

هناك نظرية في علم النفس الاجتماعي تُعرف بنظرية «**إدارة الذعر**»، وهي تقول إن حتمية موت الإنسان تخلق لديه قلقًا وجوديًّا مستمرًّا، وقد يساهم الإيمان الديني في ضبط هذا الذعر، لكن الملحدين واللادينيّين يحتاجون إلى التمسّك بهوياتهم القوميّة، وربما العنصريّة المتطرّفة، كي يشعروا بأن لحياتهم معنى[2].

وفي ضوء هذا النظرية، يتاجر بعض المتنفّذين بالخوف من الموت، كما يتاجرون بالخوف من العدو، وكذلك من الأقلّيات والمهاجرين وكل شيء غريب، فهذا التوجّه

(1) 'Preppers' have endured years of mockery. Coronavirus fears have given them a booming self-survival business, edition.cnn.com, 8 March 2020.
(2) Bobby Azarian, A Complete Psychological Analysis of Trump's Support, Psychology Today, 27 Dec 2018.

يدعم التوجهات السياسية المحافظة، ويساهم أيضًا في بيع بعض المنتجات، بما فيها الأسلحة، لا سيّما في الولايات المتحدة التي يغرق شعبها في بحر من الأسلحة الفرديّة التي يجيز القانون امتلاكها.

يقول **زيغمونت باومان** إن الاقتصاد الاستهلاكيّ يعتمد على إنتاج المستهلكين، وأما المستهلكون الذين يراد إنتاجهم من أجل شراء المنتجات المحارِبة للخوف فهم مستهلكون خائفون، ولديهم أمل بأن الأخطار التي يخشونها قد تختفي عند دفع المزيد من المال[1].

لذا يُوظف الرأسماليّون أذكى العقول لجعل الصراع ضد المخاوف وظيفة مستمرة مدى الحياة، ونحن هنا لا نتحدّث عن مخاوف من أخطار قاتلة، بل قد تكون تافهة أو قليلة الأهمّيّة، مثل مشاكل قشرة الرأس وتجاعيد الوجه، فهي مخاطر تعِدنا الإعلانات دائمًا بإمكانيّة مكافحتها مقابل المال.

يقول أيضًا إن الأسواق معروفة بأن منطق عملها يتناقض مع نيّات الدولة الاجتماعية، فهي تزدهر في ظل فقدان الأمن، وتستغلّ مخاوف الناس وإحساسهم بالعجز وقلة الحيلة[2]. وربما لم تتجلّ هذه الظاهرة في مثل أيامنا هذه كما حدث في ظل الذعر من انتشار وباء كورونا، فمع أن قطاعات كاملة قاربت على الإفلاس حول العالم، إلا أنّ شركات أخرى تستفيد من الذعر ومن إجراءات الإغلاق والحظر والشلل، لا سيّما شركات التكنولوجيا، حيث انتقل الكثير من العمل إلى العالم الافتراضي وازداد تغوّل الرأسماليين في وادي السليكون[3].

وعلى نطاق أضيق، استثمر الرأسماليون في تجارة الخوف عندما انتفخ شبح «**الإرهاب**» في العالم الغربي بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. يقول الكاتب **ستيفن غراهام**

(1) الخوف السائل، ص 30.

(2) المرجع السابق، ص 182.

(3) وادي السيليكون هو منطقة واسعة تقع جنوب خليج سان فرانسيسكو في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، أصبحت منذ الثمانينات مقرا لشركات التكنولوجيا العالمية.

إن شركات الإعلان استغلّت تلك المخاوف من أجل زيادة مبيعاتها من السيارات المصفحة رباعيّة الدفع، فمع أنها تستهلك الوقود بكثافة وتزيد من تضرر البيئة، إلا أن مبيعاتها في أمريكا ارتفعت بنسبة 45٪ عندما نجحت الدعاية في تقديمها للمستهلك الخائف على أنها حصن منيع. والأمر نفسه تكرّر مع سيارة «همر» Hummer الأمريكية التي نُقلت من القطاع العسكري إلى المدنيّ لتشبع نهم السائقين إلى استعراض القوة، فانتشار أمثال هذه السيارات يوحي بأن المدن تحولت إلى ميادين قتال وغابات متوحشة، وهو أمر قد يزيد من نسبة العنف بدلًا من احتوائه[1].

زد على ما سبق التزايد المطّرد في مبيعات الأسلحة النارية في أمريكا ودول أخرى، وهو قطاع مرخَّص ويحميه القانون ضمن شروط، فكلما ازداد الخوف تضاعفت مبيعات هذا السوق حتى باتت البنادق الآلية هي الأسلحة الحقيقيّة للدمار الشامل، فهي تقتل نصف مليون شخص كل عام[2].

في 2005، قدّمت هوليود قصة تاجر سلاح سوفييتي يدعى **فيكتور بوت**، بعد تحويلها إلى شخصيّة متخيّلة لطفل أوكراني يهودي يهاجر مع عائلته إلى نيويورك، ثم يتحوّل بعد سلسلة أحداث عنيفة إلى تاجر سلاح دولي محترف يدعى **يوري أورلوف**، ويبدأ فيلم «**سيد الحرب**» Lord of War بمشهد مركب تلاحق فيه الكاميرا مسار رصاصة، أو لنقل قصة حياة رصاصة، بدءًا من مراحل تصنيعها في أحد المصانع التي لا تأبه لشيء سوى جودة الإنتاج، ومرورًا بمراحل الشحن والبيع والتهريب، وصولًا إلى رصّها في مخزن بندقية مقاتل في إحدى الحروب الأهلية، لينتهي بها المطاف في جسد طفل زُجّ به في المعركة دون أن يعلم من يقاتل، وفي سبيل ماذا سيُقتل.

في مشهد آخر، تتجلّى الروح الرأسماليّة البراغماتيّة المجرّدة عندما تفاجأ الزوجة الجميلة، التي كانت عارضة أزياء رقيقة، فتكتشف أن زوجها الثري لا يتاجر سوى بالموت،

---

(1) الخوف السائل، ص 191.

(2) المرجع السابق، ص 199.

لتسأله على حين غرّة لماذا لا يترك هذا العمل القذر ويكتفي بما جناه من ملايين ستكفيه مدى الحياة؟ فيقول ببساطة إنه يتقن هذا العمل، وما دام «ناجحًا» فيه فسيواصل العمل والمخاطرة بحياته حتى النهاية.

هنا يمكن أن نفهم كيف أصبحت قيمة «**النجاح**» التي جعلته الرأسماليّة -بخلفيّتها البروتستنتيّة والبراغماتيّة- وسيلة للتوحّش، ومبررًا لكل أشكال الجريمة. ولا شيء يدعو للخوف، بل يغذي وحش الخوف، أكثر من هذا.

حركة التخفّف

إلى جانب البقائيّين، تنشط في الغرب حركة أخرى منذ ستّينات القرن العشرين تحت مسمى «**المينيماليزم**» Minimalism، أي التخفّف أو تقليل الممتلكات إلى الحد الأدنى، وهو ما يقابل الزهد والتقشّف والاكتفاء بالكفاف في ثقافتنا الإسلامية.

تبدو هذه الحركة بمثابة رد فعل راديكالي على تغوّل الرأسمالية الاستهلاكية، فبينما تحثّنا آلة الإعلان الضخمة على الشراء حدّ الإدمان، يصرخ أتباع هذه الحركة في المجتمع محذّرين من ربط مشاعر السعادة بالشراء والاستهلاك، وهم ينبّهون دائمًا إلى أنهم يحقّقون من السعادة أضعاف ما كانوا يشعرون به عندما كانوا أسرى لعادات الاستهلاك.

أصبحت لهذه الحركة أصداء في فنون العمارة والتصميم الداخلي وهندسة الديكور، وربما يجد أنصارها تقاطعا مهمًا مع مدرسة الباوهاوس، وهي أكاديمية فنية في ألمانيا ابتكرت نمطها الخاص بعد الحرب العالمية الأولى، من خلال



مبنى مصمم وفقا لفلسفة الباوهاوس وتظهر فيه ملامح البساطة

الدمج بين الحرف والفنون، وتعتبر أن البساطة تستلزم التجريد والتخلي عن التكلف والزخرفة.

وفي اليابان، إحدى أكثر دول العالم استهلاكًا، تجد حركة التقشّف آذانًا مصغية بين الشباب، حيث الغلاء فاحش، والخلفية البوذية تشجع على الزهد. لذا صنفت مجلة «تايم» الكاتبة اليابانية **ماري كوندو** ضمن أكثر 100 شخصية مؤثرة في العالم لعام 2015، فهي مؤلّفة عدة كتب حول نمط «**المينيماليزم**» كأسلوب حياة، ويعد كتابها «**سحر الترتيب**» من أكثر الكتب مبيعًا وانتشارًا بلغات عدة.

نمط الحياة البسيط هذا اكتسب شعبية كبيرة أيضًا على مواقع التواصل الاجتماعي، وخصّص له المهتمون مدونات ومجموعات، وقنوات على موقع يوتيوب، لتبادل الخبرات والنصائح. وقد ركز فيلم وثائقي بعنوان «**مينيماليزم: وثائقي عن الأشياء المهمة**» (2018) الضوء على تجربة أشخاص أغنياء تخلّوا عن الحياة المادية وباتوا أكثر سعادة في نمط حياتهم الجديد.

ومن بين الأمثلة التي حظيت باهتمام الصحافة العالمية عائلة مكونة من والدين وثلاث بنات، أطلقت على نفسها اسم «**عائلة البيتكوين**» لأن الزوجين **ديدي وورومين** قرّرا بيع كل ممتلكاتهما وشراء عملة **بيتكوين** الرقمية بثمنها، ثم الانطلاق في جولة حول العالم ما زالت مستمرة منذ سنتين ونصف.

قد تكون بعض هذه القصص مجرد مغامرة للعيش على الطريقة البوهيميّة، أو حتى تجربة تسويقيّة يحظى أصحابها بالشهرة والمال بعدما كانوا يعيشون على هامش المجتمع. لكن التوجّه العام نحو التخفّف من التملّك يزعج حتمًا المنظومة الرأسمالية القائمة أساسًا على إثارة غريزة الاستهلاك، فالتخفّف من الكماليات -ومن بعض الضروريات- خطوة ثورية نحو التحرّر من سطوة المتنفّذين، ومن شياطين الإنس والجن معًا.

يقول الله تعالى في رسالة بالغة الدلالة: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: 26-27].

سوق التمرّد

إذا كان المتقشّفون قد نجحوا في التخلّص جزئيًّا أو كليًّا من عبوديتهم للاستهلاك وتبعيّتهم للسوق، فهناك فئات أخرى من المتمردين لم تحقّق النجاح نفسه، وقد تبدو هذه المفارقة مثيرة للشفقة.

ربما سمعت أو قرأت عزيزي القارئ عن حركة **الهيبيز** Hippies[1]، وهي ظاهرة اجتماعية نشأت في الولايات المتحدة خلال ستينات القرن العشرين، وسرعان ما انتشرت في بقيّة الدول الغربية. وكان أصلها التمرّد على السلطة بكافة أشكالها، سياسيًّا ودينيًّا واجتماعيًّا وأخلاقيًّا، وتحميلها مسؤوليّة الكوارث التي كادت أن تقضي على الحضارة كلّها في الحربين العالميّتين.



ما يهمنا في هذا المثال أن محاولة انسلاخ هذه الشريحة الاجتماعية الواسعة لم تحقّق دائمًا هدف التقشّف، فمع أن بعض جماعات الهيبيز بلغ بها الحال اعتزال المدن نهائيًّا والعيش في مجمعات بدائيّة بالغابات والأرياف، لكن الغالبيّة من أتباع هذه الحركة فضّلوا مواصلة حياتهم في المنظومة المدنيّة الرأسماليّة، والاستمتاع بما تقدمه لهم من تسهيلات ورفاه، مع تطعيم نمط حياتهم ببعض مظاهر وسلوكيّات نجوم **الهيبيز** كوسيلة للتعبير عن ذواتهم.

لذا نشأ اقتصاد خاص بهذه الفئات الشبابيّة المتمرّدة، ونشطت مبيعات المخدّرات وأسطوانات الموسيقى والخمور وسجائر الحشيش والملابس الملوّنة والزهور، وأنماط

(1) سبق الحديث عنها في فصل «أحلام المدينة الفاضلة».

معيّنة من السيارات والأثاث والإكسسوارات والمنتجات الغذائيّة والثقافيّة. أي أنّ السوق الرأسماليّ وجد لدى هذه الفئة الساخطة عليه أصنافًا جديدة من السلع، فلم يتوانَ عن توفيرها لها وفقًا لشروطها، وحقق بذلك مزيدًا من الأرباح.

ومع أني لا أريد أن أكون متشائمًا، لا سيّما أنّ الكثير من أتباع الحركات المتمردة يحقّقون نجاحًا طيّبًا في الاستقلال والاعتماد على الذات، لكن كثيرًا من المعجَبين بهذا الخطاب -كما يبدو لي- يخفقون في ذلك، فتغيير نمط الحياة الاستهلاكيّ ليس بالأمر السهل، كما أنّ السلطات السياسيّة والاقتصادية تعمل على شيطنة التمرد والسخرية منه، لا سيما حركات «**الأناركية**» اللاسلطوية التي توصم بالراديكالية حتى لو لم تتخذ مسارًا عنيفًا.



وعلى أي حال، يمكن اعتبار الكثير من أتباع حركة العصر الجديد (الروحانيات الباطنية الجديدة) من أنصار التقشُّف ونبذ الاستهلاك، وهؤلاء عرضة أكثر من غيرهم من التقشّفيّين لإغراءاتِ السوق الذي يتفنّن في إغوائهم، فلا تكاد تخلو مدينة غربية اليوم من محلات مخصصة لبيع المنتجَات الخاصة بهم، مثل الملابس والإكسسوارات والملصقات وسجائر الماريغوانا، وحتى المفروشات والأجهزة الإلكترونية والسيارات، كما تتّسع يومًا بعد يوم قطاعات التدريب على التأمّل واليوغا وممارسات العلاج بالطاقة وغيرها، فضلًا عن مبيعات الكتب والموسيقى والبرامج الموجهة لملايين البشر الباحثين عن الخلاص و«**الاستنارة**» في هذه الشعائر، والهاربين من الخوف، والباذلين أموالهم في سبيل هذا الوَهْم.



الفصل الخامس
عولمة الخوف

عندما كنت أتخصّص في العلاقات الاقتصاديّة الدوليّة في السنوات الأولى من هذه الألفية، كنا نتعامل مع العولمة على أنها ضربة لازب، وقدر محتوم، ودَرَجْنا -نحن الطلاب وكذلك الأساتذة- على كتابة أبحاثنا من منطلق اضطرار كل دول العالم على الرضوخ لسياسات القطب الأمريكي الأوحد ومعسكره الليبراليّ، والانضمام لمنظّمة التجارة العالميّة، والإذعان لشروط البنك وصندوق النقد الدوليين.

أذكر أن أول مقال نشرته في مجلة مطبوعة كان بعنوان «**من يقف في وجه العولمة؟**»، ومع أني سردت فيه قائمة بأسماء المنظمات الغربية التي تناضل ضد هذا الوحش، فقد كنت متشائمًا، أو على الأقل لم أكن متفائلًا بما يكفي للاعتقاد بأنّ أمرًا ما قد يحدث في المستقبل المنظور ويغيّر مسار التاريخ.

كان كل شيء يسير ظاهريًّا في مصلحة أمريكا، فروسيا -وريثة الاتحاد السوفييتي المنهار- أصبحت دولة فقيرة تباع تركتها في سوق البضائع المستعملة، والرئيس الديمقراطي الأسبق بيل كلينتون كان -في أواخر القرن العشرين- يتصرّف منفردًا وكأنه ملك العالم، فتارة يقصف معملًا للدواء في السودان بذريعة تصنيع أسلحة إرهابية فيه، وتارة يحشد أساطيله في الخليج مهدّدًا بإزالة صدام حسين.

ثم جاء من بعده في بداية الألفية الجمهوري **جورج بوش الابن**، وهو مشحون بأحلام معركة هرمجّدون[1] مثل الرئيس الجمهوري الأسبق **رونالد ريغان**، إذ صرّح هذا الأخير في وضوح عجيب بأنه لا يستبعد أن يكون هو القائد الربّاني الذي يستخدم السلاح النووي في

(1) وفقًا لإحدى التفسيرات المسيحية واليهودية للكتاب المقدس، سوف يعود يسوع إلى أرض فلسطين في آخر الزمان لمواجهة الدجال المتحالف مع إبليس، وستحدث المعركة الكبرى في وادي مجدّو القريب من بحيرة طبرية، وسنتحدث عن بعض هذه النبوءات في فصل لاحق.

الملحمة الأخيرة ضد يأجوج ومأجوج لإقامة مملكة المسيح في أورشليم (**القدس**)[1]، وبالصراحة نفسها اعتبر بوش الابن أنّ معركته ضد «**الإرهاب**» هي حملة صليبية تلقّى أوامرها من الرب شخصيًّا، وكان من ورائه نائبه ديك تشيني وبقية العصابة التي تبنّت قبل وصولها للحكم مشروع القرن الأمريكي الجديد (PNAC)، وشرعت فعلًا في تنفيذه عسكريًّا في أفغانستان والعراق قبل أن تنهار أحلامها بالتوسّع والتدمير.

ومع أن الوقائع كانت تنبئ باستمرار وتوسُّعِ الهيمنة الأمريكية، وإعادة صياغة العالم وفقًا لهوى واشنطن تحت غطاء العولمة. لكن بعض المفكّرين ومراكز صناعة الرأي وبؤر التفكير Think Tanks كانت تتنبّأ باحتمالات أخرى، فالبعض كان يرى أن المستقبل للاتحاد الأوروبي، والبعض كان يرجح أن يكون المستقبل صينيًّا بالدرجة الأولى.

وكما هو واضح، احتفظ الرأي الأول بسيادة الليبراليّة على العالم، ولم يخرج عن إطار العولمة، مكتفيًا بالاعتقاد بانتقال مركز القوة العالمية من القارة الأمريكية وعودتها إلى أوروبا، كما كان قبل الحرب العالمية الثانية.

ومن أشهر الدراسات التي روّجت لهذه الفكرة كتاب «**المتناطحون**» للمؤلف **لستر ثورو** عميد كلية الإدارة التابعة بمعهد **ماساشوستس** للتكنولوجيا العريق، الذي كان يقارن بين ثلاث قوى كبرى هي اليابان وأوروبا وأمريكا، مستبعدًا كلا من روسيا والصين والهند.

وعندما كتبتُ آنذاك بحثًا أكاديميا عن الاتحاد الأوروبي في حوالي خمسين صفحة، كنت متأثّرًا بهذه النظريّة، وحاولت أيضا أن أثبت واقعيتها، وكان الأستاذ المشرف على بحثي موافقًا على ذلك.

في المقابل، قرأت حينها بحثًا بعنوان «**الصين.. العملاق القادم من الشرق**»، وفوجئت بالمعلومات الواردة فيه، لكن ظلّت نظرية صعود الاتحاد الأوروبي أكثر إغراء في رأيي. والطريف أن فشل توقعاتي لم يتطلب وقتًا طويلا، فالاتحاد الأوروبي يكاد يحتضر الآن لأسباب عدة، منها التفاوت الاقتصادي بين شرق وغرب القارة العجوز، وصعود اليمين المتطرّف الذي قلب كل التوقّعات.

---

(1) هذا التصريح يُنقَل عن ريغان أثناء حملة الانتخابات الرئاسية عام 1980.

وبوصول **دونالد ترمب** إلى البيت الأبيض بدأ الباحثون الاستراتيجيّون يعيدون النظر في المسلّمات القديمة عن العولمة والتكتّلات الكبرى، وقبل ذلك تراجع **فرانسيس فوكوياما** عن نظريته لنهاية التاريخ وسيادة الرأسمالية الأمريكيّة إلى الأبد.

سيارة لكزس أم شجرة الزيتون؟

في أواخر ثمانينات القرن الماضي، أذكر جيّدًا الدعاية التي رافقت ظهور سيارة لكزس باعتبارها مفخرة للصناعة اليابانيّة، فقد كانت إيذانًا بخروج قطاع السيارات الآسيويّ من الفئة الاقتصاديّة إلى منافسة أوروبا وأمريكا على سوق الفخامة والتكنولوجيا المتقدمة.

وقبل شروعي في كتابة هذا الكتاب بعدة أشهر، وبعد أسابيع من البحث عن سيارة تحقق مواصفات دقيقة، حظيت بفرصة شراء سيارة لكزس مستعملة بسعر يماثل سيارات يابانية جديدة يفترض أنها مناسبة للطبقة الوسطى مثل سيارات هوندا ومازدا، إلا أني أدركت لاحقًا أن المستوى التكنولوجي متقارب مع مثيلاتها من تلك السيارات من الفئة نفسها، بل يقترب أيضًا من مستوى السيارات الصينية التي بدأت تغزو الأسواق بجرأة. وما إن بدأت بالتجوّل في «**اللكزس**» -ذات الهوية المعولمة- حتى تذكّرت كتابًا مرّ على صدوره عقدان من الزمن، وكان عنوانه «**سيارة اللكزس وشجرة الزيتون**».



أثناء رحلة إلى اليابان في أواخر التسعينات، كان الصحفي الأمريكي الصهيوني **توماس فريدمان** قد خرج للتوّ من مصنع سيارات لكزس جنوب طوكيو، وما زال عقله مأخوذًا بما رآه من تقنية مبهرة، إذ كان المصنع الذي ينتج 300 سيارة يوميًّا لا يحتاج إلى أكثر من 66 عاملًا فقط، فمعظم العمل يُسنَد إلى حوالي 300 روبوت.

وأثناء تأمُّله فيما رآه من تقدم تكنولوجي هائل وهو على مقعده في قطار «**الطلقة**» الذي يسير بسرعة 180 ميلًا في الساعة، لفت نظره عنوان خبر في صحيفة «**هيرالد تريبيون**» عن

الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وتحديدًا عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيّين الذين نُهبت ديارهم على مرأى العالم، بل بتواطؤ مع القوى الكبرى، وهنا بدأ الصحفيّ اليهوديّ بالمقارنة تلقائيًّا بين الشعب اليابانيّ الذي تجاوز جراح هزيمته في الحرب العالميّة الثانية وتمكّن من تحقيق هذا التقدّم الماديّ المبهر، وبين أولئك الذين ما يزالون يتقاتلون على الأرض المقدسة ممثّلة بشجرة زيتون[1].

وبأسلوب مغرق في السذاجة واصطناع البراءة، يتابع فريدمان في كتابه الممتد على أكثر من خمسمئة صفحة الدفاع عن العولمة التي يرى في **اللكزس** رمزًا لها، معتبرًا أنها تمثّل مسعى أساسيًّا للإنسان منذ بدء الخليقة، وهو السعي نحو الرزق والتقدّم والازدهار والتحديث[2]. ولا أدري حقًّا لماذا لا يطالب **فريدمان** أصدقاءه الصهاينة بالتخلّي عن أشجار الزيتون التي بذلوا من أجلها آلاف الأرواح ومليارات الدولارات، وما زالوا يتحصّنون داخل أكثر الدول عسكرة في العالم، من أجل «حمايتها»؟

إن كان فريدمان، وأمثاله من منظّري العولمة والهوية المنفتحة، يرون أن «**التطرف**» في التمسك بالجذور ضربًا من التخلّف، فلماذا اصطنع الصهاينة كل تلك المشاكل من أجل حشد ملايين اليهود إلى هذه البقعة من الأرض وتشكيل دولتهم فيها؟ ألم يكن من الأسهل بكثير إنشاء دولتهم هذه في أوغندا أو الأرجنتين أو روسيا؟ ألم تكن تلك الدولة البديلة ستوفّر الكثير من الطاقات والأموال والأرواح؟ ألم تكن ستصبح الآن أكثر تقدّمًا من الشعب الياباني بدلًا من انهماكها في نهب «أشجار الزيتون» والدفاع عنها؟

يزعم **فريدمان** في كتابه أنه يدافع عن «**التوازن الصحي بين الحفاظ على الإحساس بالهوية والوطن والمجتمع، وبين القيام بكل ما من شأنه تحقيق البقاء داخل نظام العولمة**»[3]، إلا أنه يبذل قصارى جهده لتقديم العولمة المصمّمة على المقاس الأمريكي في صورة الجنة الموعودة، واعتبار كل تمسّك بالهوية سلوكًا رجعيًا عفا عليه الزمن،

---

(1) سيارة ليكساس وشجرة الزيتون، ص 58- 60.

(2) المرجع السابق، ص 61.

(3) المرجع نفسه، ص 73.

ويضرب لذلك مئات الأمثلة من رحلاته حول العالم بصفته مراسلًا وكاتب عمود الافتتاحية لصحيفة نيويورك تايمز.

تذكّرت هنا فيلم «**مملكة السماء**» الذي ناقشتُه في كتابي «**ضريبة هوليود**»، وتذكرت احتفاء الإعلام العربي بالفيلم الهوليودي عند صدوره عام 2005، لمجرّد ظهور شخصية صلاح الدين الأيوبي في صورة «**جنرال**» مسلم شهم ونبيل، بل منفتح تجاه دين أعدائه إلى درجة تقديسه للصليب!

أما الأيديولوجيا العولميّة اللادينيّة فلم تستوقف المنبهرين بالفيلم، فالبطل الصليبي «**باليان**» الذي يجبرنا المخرج على التعاطف معه يتحول تدريجيًّا من متشكّك إلى زعيم سياسي براغماتي لا دين له، ويصبح دفاعه عن القدس مجرّد موقف بطولي مصلحي للدفاع عن قومه فحسب، إذ يخسر في النهاية إيمانه بدينه وبمقدساته ويرى الخلاص من هذا الصراع كله بتدمير مقدسات اليهود والمسيحيين والمسلمين معًا كي لا يبقى لأحد مطمع في بيت المقدس.

ولا يقتصر الأمر على باليان، فحتى صلاح الدين الذي ينتصر في هذا الحصار -جزئيًّا كما يريد صانع الفيلم- يكشف في النهاية عن براغماتيّته قائلًا إن القدس لا تعني له شيئا، ثم يستدرك: بل هي كل شيء. وهذه هي رسالة الوجه الليبرالي لهوليود: **دعوا أديانكم ومقدساتكم جانبا، ولتكن الأرض لمن هو أقدر على إعمارها واستغلال خيراتها، ثم انتسبوا لهويّة الإنسانية وحدها**[1].

بالسذاجة نفسها كان **آلفن توفلر** قد نظّر للعولمة أيضًا، فقال في كتابه إنه من الصعب لمعظم الأمريكيين المنشغلين بملاحقة تطوّرات الموجة الثالثة المتسارعة (التكنولوجيا) أن يتعاطفوا مع مشاعر القلق لدى الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء، لأن الطرفين يدافعان عن مواقفهما السياسية القائمة على ادّعاءات تاريخية ضاربة في القدم[2].

---

(1) للاستزادة أنصح بالعودة إلى كتابي ضريبة هوليود، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2011، ص 147 وما بعدها.
(2) الحرب وضد الحرب، ص 311.

وبعدما أسهب **توفلر** في الثناء على التقدّم التكنولوجي بصناعة الأسلحة، أخذ يبحث في الفصول الأخيرة عن فرص السلام، واضعًا أمله في جهود الأمم المتحدة، وفي تكاثر الاتفاقيات المتبادلة بين الدول الكبرى، وأخيرًا في وعي الإنسان نفسه بمصلحته، عملًا كما يبدو بنبوءة الفيلسوف الفرنسي **مونتسكيو** من القرن السادس عشر، عندما قال: **إنه من حسن حظ البشرية أن مصلحتها تملي عليها أن تكون رحيمة وفاضلة حتى لو كانت عاطفتها تدفعها للشر**.

لكن توفلر كان مدركًا أيضا لاستحالة التنبؤ بأفعال الإنسان في النهاية، فلم ينس التذكير بأن التعاون الاقتصادي وتعقّد العلاقات التجارية بين الدول -إلى درجة صعوبة اكتفاء أي منها بنفسها- ليست شروطًا كافية للتفاؤل بالسلام، فعندما قامت المعركة بين بريطانيا وألمانيا في الحرب العالمية الثانية كانت كل منهما أكبر شريك تجاري للأخرى، ولعل توفلر كان بذلك يرد على نظرية البريطاني **نورمان آنغل** في كتابه «**الوهم الكبير**» الصادر عام 1910، عندما كانت بشارات العولمة في بداياتها قبل اندلاع الحربين الطاحنتين، إذ اعتقد حينئذ أن القوى الصناعية الكبرى فقدت شهيتها للحرب، وتساءل كيف يمكن للحياة الحديثة أن تحافظ على غرائز الحرب في مواجهة غرائز أخرى تكونت بفعل السلام؟ لقد عاش **توفلر** حتى رأى بنفسه اندلاع الحرب ونزعات الشر والطغيان بين القوى الصناعية الغنية، مع أن ذلك أدى في النهاية إلى القضاء على المنتصر والمهزوم معًا، تمامًا كما كان يستبعد **آنغل**.



لكن **فريدمان** الذي نقل مقولات **مونتسكيو وآنغل**[1] ظل متفائلًا بأن العولمة ستكون حمامة السلام للكوكب كله، وصاغ نظرية أثارت سخرية الكثير من المثقفين العرب وسماها «**نظرية الأقواس الذهبية لمنع نشوب الصراعات**»، وهي تنص على أنه إذا وصلت دولة ما إلى مستوى من التنمية الاقتصادية الذي يؤدي إلى

(1) سيارة **ليكساس وشجرة الزيتون**، ص 315- 316.

وجود طبقة وسطى تكفي لنجاح شبكة من مطاعم ماكدونالدز فيها فستصبح إحدى «**دول ماكدونالدز**»، والشعوب -حسب نظريته- لم تعد تحب خوض الحروب بل الانتظار في طوابير البرغر[1].

ويقول **فريدمان** إنه صاغ هذه النظرية بعد ملاحظته أنه لم يحدث أن خاضت دولتان فيهما مطاعم ماكدونالدز حربًا بينهما منذ افتتاح هذه المطاعم في كل منهما، وعندما رصد هذه المعطيات بالتعاون مع إدارة شركة ماكدونالدز العابرة للحدود وجد ذلك صحيحًا[2].

لن أتسرّع في السخرية من نظريته التي أسهب في شرحها، فهو لم يستبعد أن تبسُط هذه المطاعم الأمريكية للوجبات السريعة نفوذها على كل دول العالم يومًا ما وأن تندلع الحروب فيما بينها، لكنه يقول إن دخول الشعوب في منظومة العولمة سيؤدي إلى تقليل فرص الحروب التقليدية والانشغال بدلًا من ذلك بالتنافس الاقتصادي على الأسواق المفتوحة، ويستشهد على مدى عشرات الصفحات بالتنافس الذي كان قائمًا بين القطبين العالميين أثناء الحرب الباردة على شراء ولاء الدول النامية، لكن هذا لم يعد ممكنًا بعد سقوط الشيوعية، معتبرًا أن القطب الوحيد الذي يحكم العالم اليوم هو سوق المال.

وهنا بالضبط تظهر أدلجة **فريدمان**، الذي كان يواظب على الحضور للمدرسة العبرية خمسة أيام في الأسبوع حتى حفل تعميده في سن الثالثة عشرة، كما يفعل المتديّنون اليهود في أمريكا.

لقد ندد **فريدمان** أكثر من مرة في كتابه بجرأة رئيس الوزراء الماليزي **مهاتير محمد** عندما انتقد علنًا اليهود والمضاربين، وتحديدًا الملياردير **جورج سوروس**، بعدما تسبّبوا بانهيار عملة ماليزيا **الرينغت** في بداية الأزمة المالية التي عصفت باقتصادات النمور الآسيوية عام 1997[3]، وأطال فريدمان النفَس في الرد الساخر على هذا الطرح معتبرًا أن

(1) المرجع السابق، ص 315.
(2) المرجع نفسه، ص 313.
(3) المرجع نفسه، ص 308.

مهاتير بالَغ في الانفتاح على العولمة، وأن الحل كان يقتضي انتفاحًا يليق بسوق بلاده فقط، وليس الانكفاء على النفس ولا التوسّع في الاقتراض وبناء ناطحات السحاب.

يمكنني أن أوافق فريدمان في نقده للانفتاح الماليزي النَّهِم على الليبراليّة المتوحّشة، وأذكر أيضًا أن مؤلفَي كتاب «**الكذبات العشر للعولمة**»[1] قد انتقدا مهاتير للسبب نفسه، إلا أن الكاتبين الألمانيين **جيرالد بوكسبرغر وهارالد كليمنتا** لم يمارسا التضليل على طريقة الأمريكي فريدمان، بل شرحا في كتابهما الصادر عام 1996 الضرر الهائل الذي تسببه العولمة للاقتصادات القوية في أوروبا نفسها، فضلًا عن النامية. لكن فريدمان يريد إقناع قرائه حول العالم بأن العولمة لا علاقة لها بنخبة المصرفيّين اليهود، ولا يضرّها تمركزها في دولة واحدة هي بلاده، فهي حسب زعمه سوق مفتوح وحر ولا يعرف المحاباة، تحكمه المنافسة الشفّافة، وتقيّده اشتراطات الديمقراطية وحقوق الإنسان، ولا مكان فيه للفساد والبيروقراطيّة[2].

لن أذكّرك عزيزي القارئ بالدعم الذي ما زالت أمريكا تقدّمه للفاسدين والطغاة حول العالم، سواء رسميًّا أو عبر أدوات السوق والتكنولوجيا في **وول ستريت ووادي السليكون**، وذلك حتى بعد انهيار الشيوعيّة واختفاء الحرب الباردة وانفراد أمريكا بقيادة العالم، وسأكتفي بالإشارة إلى أن شروط العولمة كلها تغيّرت مع صعود أقطاب جديدة، وأهمّها الصين وروسيا، فإذا كانت أمريكا ودول الاتحاد الأوروبي تشترط فعلًا اعتماد نهج الديمقراطية والشفافية على كل من يسعى للانخراط في العولمة، فإن الصين لا تلتفت إلى ذلك، بل ربما تشجّع عكسه، وهي تبسُط نفوذها السريع في أفريقيا وآسيا واضعة نمطًا جديدًا للعولمة.

في 2005، قدم فريدمان كتابًا جديدًا يدعم نظريّته تحت مسمى «**العالم مسطّح.. تاريخ موجز للقرن الحادي والعشرين**»، ومع أنه كان ما يزال في بداية القرن الجديد إلا أن جرأته في

(1) جيرالد بوكسبرغر وهارالد كليمنتا، الكذبات العشر للعولمة.. بدائل دكتاتورية السوق، ترجمة عدنان سليمان، دار الرضا، دمشق، 1999.

(2) سيارة ليكساس وشجرة الزيتون، ص 231.

التبشير بسيادة العولمة الأمريكية لم تمنعه من اعتبار كتابه التبشيري موجزًا للتاريخ الذي لم يحصل بعد، حيث زعم فيه أن العولمة أزالت الحدود بين الدول إلى درجة التسطيح، ورأى أن الصين والهند والدول الصاعدة لن تبلغ الشأن الذي تسعى إليه إلا مع انتهاجها مسبقًا المسار الذي رسمته أمريكا للمستقبل.

كنت أتوقع أثناء قيادتي للكزس أن فريدمان -الذي لم يعد ضيفًا دائما على الشاشات العربية كما كان إبان «**الحرب على الإرهاب**»- قد تراجع عن أحلامه الطفولية، وأن هذه السيارة -التي كان يقودها- لم تعد رمزًا للعولمة التي يبشر بها، ثم فوجئت في أواخر يونيو 2020 بظهوره في مؤتمر بالفيديو (عن بعد) مع أعضاء غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة، وهو حبيس البيت بسبب وباء كورونا، قال فيه: إن أحب كتبه إلى قلبه هو كتاب «**سيارة اللكزس وشجرة الزيتون**»، معتبراً أن الكثير من تنبّؤاته قد حدثت بالفعل، مع أنه يرى بعينه انهيار حلم العولمة الذي بشّر به**!**[1]

لا أدري كم هي نسبة المفكّرين العولميّين الذين ما زالوا متشبّثين بمواقفهم مثل فريدمان، إلا أني أشرت في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى الصراحة التي صار يتحلّى بها الكثير منهم بعد أزمة وباء كورونا، وكأن هذا الفيروس الصغير قد أحرق المراحل وسرّع التيار المضاد للعولمة، ومنح الصين فرصة ذهبيّة للعمل على إبراز نمط الحياة الجديد والموازي للعولمة المتأمركة، إذ يبدو أننا دخلنا مرحلة من الصراع المكشوف -أو ربما حربًا باردة جديدة- بين أيديولوجيّتين سياسيّتين: النظام الديمقراطيّ الرأسماليّ، مع إدخال بعض التحسينات في زيادة صلاحيّات الحكومة، والنظام المركزي الجديد الذي تمثّله الصين وروسيا، والذي يتحمّل مسؤوليّة تحقيق مصالح المواطنين وأمنهم مقابل تنازلهم عن جزء كبير من حرياتهم[2].

(1) نقلا عن صحيفة الوفد الإلكترونية، ماذا قال توماس فريدمان للغرفة الأمريكية بالقاهرة عن عالم ما بعد كوفيد 19، 29 يونيو 2020.

(2) عمار بكار، حرب الكورونا الجديدة، موقع قناة الحرة الأمريكية، 25 مارس 2020.

فريدمان لم يكن غبيًّا وهو ينظّر للعولمة الأمريكية، إذ خصّص الجزء الثالث من كتابه لما أسماه «**الردة على النظام**» وتحدث عن محاولات التمرّد «الرجعيّة»، لكنه اعتبر أي وقوف ضد التيّار سيكون مجرد محاولة عابثة، ثم استشهد بعشرات القصص التي ينقلها عن مسؤولين ومستثمرين ومثقفين وأشخاص عاديين في الدول النامية، بما فيها عالمنا العربي والإسلامي، ليؤكّد لنا أن البسطاء بحاجة للعولمة، وأنه بالرغم من الأضرار الجانبية التي ستحدث أثناء مرحلة الانتقال من **نظام شجرة الزيتون** إلى **نظام اللكزس** -أو الانتقال من الموجة الثانية إلى الثالثة بحسب تصنيف **توفلر**- فستكون النهاية سعيدة لكل الأطراف، وهذا ليس موقفًا شخصيًّا منه كما يلمّح، بل لأن «**التعساء في الأرض**» يريدون الذهاب إلى عالم ديزني وليس إلى المعسكرات، وإلى المملكة السحرية وليس البؤساء[1]. بعبارة أخرى: عامة الناس تريد الاستمتاع بملذات الدنيا التي يأتيهم بها الحلف الشيطاني، وسيصفّقون للأعور الدجال عندما يكشف عن وجهه!**[2]**

ربما يحقّ لـ**فريدمان** و**توفلر** و**فوكوياما** و**سوروس**، وكل الأمريكيّين المنظّرين للعولمة، أن يتّخذوا تلك المواقف المتفائلة والمتعالية في أواخر التسعينات، ثم ينتشوا بلذة القوة عندما حشد بوش الابن جيوشه للاستعراض في حروبه الكبرى رغم أنف الأمم المتحدة والحلفاء الأوروبيّين، بل يتباهوا بعدها بمرونة الولايات المتحدة وقدرتها على امتصاص أخطائها عندما عاد الديمقراطيون الليبراليّون للحكم في ولايتين من عهد الرئيس ذي البشرة السمراء باراك أوباما بدءًا من عام 2009، لكن أمريكا لم تعد كما كانت، فهي التي تغيّرت من داخل البيت الأبيض مع وصول دونالد ترمب للحكم في 2017، وليس العالم فقط هو الذي يتغيّر.

---

(1) سيارة ليكساس وشجرة الزيتون، ص 460.

(2) من الجدير بالذكر أن فريدمان لم ينس في ختام كتابه أن يشكر «أستاذه» الحاخام **تزفي ماركس**، وقال إنه كان نعم المساعد له في تصنيف بعض الجوانب الثقافية والدينية للعولمة، كما شكر صديقه الأستاذ في الجامعة العبرية بالقدس **يارون إيزراحي** الذي شجعه على تأليف كتابه من البداية وكان يشاركه في أفكاره، وكذلك «**توأم روحه**» **ستيفن كوهين** الباحث في مركز السلام للشرق الأوسط في نيويورك. انظر: المرجع السابق، ص 586- 587.

كانت الولايات المتّحدة عند تأسيسها تفضّل العزلة وراء المحيط، فهي تمثّل العالم الجديد المنشغل ببناء نفسه بينما يتصارع الآخرون فيما بينهم، وبعد انتصارها في حرب ضد إسبانيا بأواخر القرن التاسع عشر أصبحت دولة استعمارية باحتلالها للفلبّين ودولٍ أخرى، وفي بداية القرن العشرين بدأ الرئيس **ثيودور روزفلت** يتطلّع للتدخّل في الدول الضعيفة بأمريكا الجنوبية، ومع انخراط الولايات المتحدة المفاجئ في الحرب العالميّة الثانية تغيّر كل شيء، فمع خروج جميع الأطراف من الحرب في حالة انهيار تام، كان ثلثا ذهب العالم قد تحوّل إلى أمريكا بسبب تحوّلها إلى مصنع عالمي للأسلحة، وانتقل مركز الثقل المالي والصناعي والعسكري من بريطانيا إلى الطرف الغربي من المحيط الأطلسي، أي الولايات المتحدة.

ومع أن الحرب الباردة كانت مستمرّة إلا أن الولايات المتحدة قدّمت نفسها بصفتها «**رجل الشرطة العالمي**»، وتشكّل منذ ذلك الحين مفهوم السلام الأمريكي Pax Americana، أي حلول السلام العالمي تحت قيادة أمريكية، وهذا ما برر للولايات المتحدة التدخل عسكريًّا في كوريا وفيتنام وبنما والفلبين ولبنان والخليج والصومال والبوسنة وأفغانستان، ومناطق أخرى، لكن غزو العراق تحديدًا كان القشّة التي قصمت ظهر البعير، إذ انخفضت إثره شعبيّة هذه الإمبراطورية المتغطرسة عالميًّا إلى أدنى مستوياتها، حتى استقال **دان بارتليت** كبير مستشاري بوش الابن، **وكارل روف** مهندس سياسات الرئيس الخارجية، وكذلك **كارن هيوز** مساعدة وزيرة الخارجية، وبررت الأخيرة انسحابها في أواخر 2007 بأن تحسين صورة بلادها في العالم صار يحتاج إلى جيل كامل[1].

لاحقًا أصبح التخطيط الاستراتيجيّ يركز على «**التحوّل العسكري**» بما يسمح ببقاء هامش مقبول من التفوّق العسكري الأمريكي والاتجاه نحو «**القوة الناعمة**»، وهي بحسب

(1) بشير عبد الفتاح، تجديد الهيمنة الأمريكية، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط 1، 2010، ص 14.

المفكّر الأمريكي **جوزيف ناي** الحصول على ما تريده الدولة من خلال الأشياء الجذّابة بدلًا من القوة القاهرة، أي المواد الثقافيّة والقيم الأخلاقيّة والدبلوماسيّة والعلاقات الاقتصاديّة[1].

وعندما وصل باراك أوباما إلى البيت الأبيض عام 2009 كانت هذه القناعة قد رسخت في عقول كثير من المسؤولين والمنظرين في واشنطن، بما فيهم وزير الدفاع **روبرت غيتس**، الذي كان رئيسًا لوكالة الاستخبارات المركزية في عهد بوش الابن[2]، كما رفع الرئيس الديمقراطي شعار «**التغيير**» منذ انطلاق حملته الانتخابية، اعترافًا منه بضرورة إصلاح ما خرّبه سلفه المولع بالحروب، وبعد ساعات من دخوله البيت الأبيض أمر بإغلاق معتقل غوانتانامو[3]، ثم فوجئ هو نفسه بحصوله على جائزة نوبل للسلام قبل أن يكمل في منصبه تسعة أشهر، إذ كان العالم متعطّشًا للسلام بعد حقبة بوش.

وبالتزامن مع بدء حكم أوباما، كان الكاتب الاستراتيجي الأمريكي من أصل هندي ورئيس تحرير مجلة نيوزويك **فريد زكريا** قد نشر كتابه «**عالم ما بعد أمريكا**» -The Post American World، وهو الكتاب الذي التقطت عدسات المصورين صورته بين يدي أوباما في إحدى رحلاته. فمع تمسّك **زكريا** الشديد بقيم الليبرالية وإيمانه بدور أمريكا في نشر «**الديمقراطية اللاليبرالية**» لتحقيق مصالحها حول العالم، أكّد أن العالم بات مستعدًّا لصعود المنافسين الجدد، وأن صعود القوى الجديدة مثل الصين وروسيا، وفي آسيا، وحتى في أمريكا اللاتينية وأفريقيا، جاء بفضل استيعابها مبادئ الحريّة والثقافة الفرديّة والرأسماليّة، وهي ليست سوى المبادئ التي تنشرها أمريكا بنفسها طوال أكثر من 60 عامًا من عمر القرن العشرين.

فريد زكريا لم يكن متشائمًا، بل أصر على أن الولايات المتحدة ستحافظ على تميزها

(1) المرجع السابق، ص 24- 29.
(2) المرجع نفسه، ص 37.
(3) المرجع نفسه، ص 71.

العسكري، إلا أن القوى الصاعدة الأخرى ستتحرّك في المجالات الصناعيّة والماليّة والتعليميّة والثقافيّة بعيدًا عن الهيمنة الأمريكيّة. وهو يكرّر أكثر من مرة في كتابه التذكير بأن قوة أمريكا لن تواجه خطر الزوال، وإنما تنتظر فقط من يزاحمها.

وتبدو تحذيرات **زكريا** أكثر لطفًا ونعومة بكثير من أطروحة المؤرخ البريطاني **بول كينيدي**، الذي نشر في عام 1987 كتابه الضخم «**صعود وسقوط القوى العظمى**»، الذي بيعت منه أكثر من مليوني نسخة وترجم لأكثر من عشرين لغة، حيث درس الكاتب -وهو ليس من عائلة الرئيس الأمريكي جون كينيدي- صعود وانهيار الدول خلال القرون الخمسة الماضية، واستنتج أن بقاءها مرتبط بمدى قدرتها على تمويل جيوشها وتمدّدها العسكريّ، وعندما تفرط في هذا التمدّد وتتجه نحو الاقتراض يبدأ الانحسار، وهذا ما حدث لبريطانيا سابقًا، وهو يحدث للولايات المتحدة منذ الثمانينات، إذ تحولّت من أكبر دائن في العالم إلى أكبر مدين، واليوم -بعد أكثر من ثلاثة عقود على صدور كتاب كينيدي- باتت الصين تحديدًا أكبر دائن لهذه الإمبراطورية.



ومع إصدار مجلس الاستخبارات القومي الأمريكي تقريره عام 2012، والذي أوصى أوباما صراحة بالاستعداد لعالم متعدّد الأقطاب مع حلول عام 2030، صار واضحًا أن الأمريكيّين أدركوا حقيقة انحسار قوتهم، وكان اليمينيّون تحديدًا منزعجين للغاية من «نعومة» أوباما، لذا لعب ترمب على هذا الوتر بنجاح أثناء حملته الانتخابية في 2016، ورفع شعاره الرنان «**لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى**»، والمفارقة هي أن هذا الرئيس الجمهوري، بل اليمينيّ المتطرف، لم يأخذ بلاده إلى حيث أخذها بوش الابن، بل كان أكثر تشديدًا على الانكفاء على النفس ونبذ التدخل العسكري في العالم من سلفه الديمقراطي.

لم يعد أحد يتحدَّث الآن عن تفرّد الولايات المتحدة بصفتها دولة استثنائية، كما كان يصفها الكاتب الفرنسي **أليكسيس دي توكفيل** في كتابه «الديمقراطية في أميركا» بمنتصف القرن التاسع عشر، بل أصبح الحديث كله منصبًّا على التساؤل عما سيحدث عندما تتراجع أمريكا عن قيادة العالم وحدها، مع ما يرافق هذا الغموض من مخاوف.

بعد ستة أشهر من بدء حكم ترمب، كتب العضو في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي **ديفيد روثكوف** مقالا في صحيفة واشنطن بوست بعنوان «**كيف أنهى بوش وأوباما وترمب السلام الأمريكي**»، واعتبر أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة مصمّم على إلغاء ما يعتبرها سياسات سلفه الخاطئة، فيتسبّب بأخطاء أكبر، وأن التاريخ سيذكرهم على أنهم الزعماء الذين تعاونوا عن غير قصد في كتابة الفصل الأخير من «**السلام الأمريكي**».

واستشهد الكاتب اليهودي -الذي عمل في إدارة بيل كلينتون- بتصريح المستشارة الألمانية **أنجيلا ميركل**: «**إن الزمن الذي كنا نستطيع الاعتماد فيه كلّيًّا على آخرين قد ولّى إلى حد ما**»، كما استشهد باعتبار وزيرة الخارجية الكندية **كريستيا فريلاند** أن الولايات المتحدة نفسها أصبحت تشكّ في قيمة زعامتها العالمية، وكذلك بإعلان الزعيم الصيني **شي جين بينغ** أنّ بلاده مستعدّة لتزعّم العالم عندما تتراجع الولايات المتحدّة. وخلُص الكاتب الذي يعَدّ من كبار المنظرين للعولمة إلى الاعتقاد بأن الفوضى ستكون عنوان المرحلة المقبلة[1].

في السنوات الأربع الأخيرة، زرت ثلاث دول أفريقية للسياحة، هي على الترتيب **تنزانيا وإثيوبيا وسيشل**، وكان الحضور الصيني في كل منها ظاهرًا للعيان، إلا أنه كان طاغيًا في إثيوبيا تحديدًا، فكل مشاريع البنية التحتيّة تقريبًا تبنى من قبل شركات صينيّة، وفي كل فندق كبير كنت أنزل فيه أصادف مجموعات من المهندسين والخبراء الصينيّين، دون أن أرى خبيرًا غربيًّا واحدًا، بل كانت بعض المطاعم والفنادق في أديس أبابا تبرز لافتات باللغة

(1) David Rothkopf, How Bush, Obama and Trump ended Pax Americana, washingtonpost.com, 27 June 2017.

الصينية للترحيب بالزوار، والأهم من ذلك أن انطباع السكّان الذين التقيت بهم تجاه الصين كان إيجابيًّا.

قبل عقدين، كان **فريدمان** يطوف العالم ويَعِد الدول النامية بدخول جنّة العولمة الأمريكية إذا سارعت قبل غيرها وأتقنت أسرار لعبة الاندماج، وارتدَت ما يسميه «**قميص القيد الذهبي**»، وانضمت لعضوية نادي اللكزس. كان يؤكّد في كتابه أن أمجاد التاريخ كلها لم تعد مهمّة اليوم[1]، وأن معايير الحقّ والعدل نفسها أصبحت بلا قيمة في **محاكم العولمة السائلة**، إذ لم يعد أحدٌ يهتمّ بقمع إسرائيل للفلسطينيين طالما كانت تصنع رقائق الكمبيوتر المتقدمة وبرامج «**السوفت وير**» أفضل من غيرها[2]، مطالبًا العرب بالاقتداء بهذه الدولة الصغيرة التي تخطّت حدودها لأنها دخلت اقتصاد المعرفة بكل موضوعيّة وتخلّت عن أشجار الزيتون[3]، بينما ما تزال هناك فجوة هائلة بين نخبة العولمة «المتأمركة» في الشرق الأوسط وبين بقّية الشعب العربي الذي ما زال متمسِّكا بتقاليده[4].

لم يتوقّع فريدمان آنذاك أن الشعوب الغربيّة نفسها ستكون أول من يشكّك في العولمة، بل ندّد فقط «**بالردة عن النظام**» لدى الدول النامية، لكن الدولة الأوروبيّة الوحيدة التي تجرّأت على التصويت للانسحاب من الاتحاد الأوروبي -وهي بريطانيا- أكّدت أن شعبها لا يريد الاندماج بالآخرين ويريد الاعتزاز بهويته وقوميته، بل كنّا نعرف ذلك منذ بداية هذا القرن لكن الحكومات الأوروبية لم تكن تلجأ للتصويت على خطوات الانضمام للاتحاد مكتفية بوعودها بالازدهار، ومع اندلاع أزمة وباء كورونا صار الحديث عن انهيار الاتحاد الأوروبي -الذي كان قدوة للعولمة- علنيًّا ورسميًّا، أما الشعب الأمريكي فأثبت نصفه تقريبًا رغبته بالانكفاء عندما منح صوته لشخص مثل ترمب، ولم يكن أحدٌ يتخيَّل أن يندّد رئيس قطب العولمة الأوحد بالمهاجرين، وأن يكون أول قرار تنفيذي يوقع عليه في رئاسته

(1) سيارة ليكساس وشجرة الزيتون، ص 310.
(2) المرجع السابق، ص 329.
(3) المرجع نفسه، ص 331.
(4) المرجع نفسه، ص 435.

هو إغلاق بلاده في وجه المسلمين، وأن يسعى طوال فترة رئاسته لتنفيذ وعده ببناء جدارٍ عازل على حدود المكسيك، ثم يدخل في حرب مفتوحة مع شركات **وادي السليكون** ومواقع التواصل الاجتماعي وكبرى وسائل الإعلام الليبراليّة الأمريكية التي كانت طوال عقود معابد العولمة التي تتباهى بها إمبراطوريته.

لذا لم يتردّد ثلاثة من المفكرين الاستراتيجيين الأمريكيين في كتابة مقال نشرته مجلة «**فورين أفيرز**»، تزامنا مع انتهاء عهد ترمب، تحت عنوان «**نهاية الاستراتيجية الكبرى**»، وقالوا فيه إنهم بالرغم من اختلافهم في قضايا كثيرة فإنهم متفقون الآن على أن الوضع الجديد لأمريكا جعل من اللجوء إلى أدوات صناعة الاستراتيجية الكبرى أو حتى السعي إليها ممارسة عقيمة، فالسياسة الخارجية الأميركية من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانت معتادة على تطبيق «**الليبرالية الدولية**»، انطلاقًا من مبدأ تولّي دور القيادة للحفاظ على النظام الدولي العولمي، ثم جاء ترمب من خارج كل الأوساط السياسية المعتادة لينقض أساس الليبرالية الدولية، بدءًا بالتشكيك في قيمة حلف الناتو، والسخرية من الأمم المتحدة، والاستهانة بالاتحاد الأوروبي، وشتم رئيس وزراء الجارة الشمالية كندا، والأهم من ذلك نبذ سياسة الحروب والتوسّع والتشجيع على الانكفاء وإصلاح المشاكل الداخلية.

جاءَ في المقال أيضًا أن الدول الكبرى لم تعد مهتمّة بالتوسع، بل أصبحت تركز على اكتساب الثراء وتفادي المساجلات العسكرية، وهذا يعني أن القوة باتت متعلقة بالقدرة على العرقلة والردع واستخدام حق النقض (**الفيتو**) أكثر من البناء والتمكين.

زد على ذلك أن العلاقات الدولية في العالم متعدّد الأقطاب قلّلت من أهمّية تركّز القوة الاقتصادية والعسكرية في أيدي الكبار، فالضعيف والقوي يواجهان العراقيل ذاتها ويتمتّعان بقدر متماثل تقريبًا من حرية التحرك، أي أن المليشيات المحّلية وأمراء الحروب والمنظّمات الإجرامية العابرة للحدود، كلها تعمل على إعادة تعريف القوة في هذا العالم المتّصف بالعشوائيّة والسيولة والغموض[1].

---

(1) Daniel W. Drezner, Ronald R. Krebs, and Randall Schweller, The End of Grand Strategy: America Must Think Small, Foreign Affairs, May/June 2020.

من ينتصر.. النسر أم التنين؟

في السنوات الأخيرة لفت نظري اهتمام شبكة ناشيونال جيوغرافيك البالغ بالصين، فضلًا عن وسائل إعلام أخرى، إذ سلّطت أفلام وثائقيّة كثيرة الأَضواء فجأة على واقع جديد تشكّل خلال سنوات قليلة. ويمكن لفيلم وثائقي واحد عن البنية التحتية في الصين أن يغيّر تمامًا رؤية الجمهور السابقة للصين المقلّدة، أي ذاك البلد الشيوعيّ الفقير الذي كان يصنع أردأَ الأشياء، فقد كنّا نضرب به المثل في الصناعة المقلدة والفاشلة وسريعة العطب، لنكتشف خلال عقدين من الزمن أن العالم كله أصبح بحاجة إلى صناعاته المتقدمة.

هل تعلم عزيزي القارئ أن الاقتصاد الصينيّ كان في بداية القرن التاسع عشر الأكبر في العالم، لكن افتعال بريطانيا لحرب الأفيون في منتصف القرن، ونشر الإدمان على المخدّرات قسرًا بين الشعب الصينيّ، بالتزامن مع الثورة الصناعيّة التي انطلقت فجأة في أوروبا، كل هذا أدّى إلى رجحان كفّة الاقتصاد الغربي مقابل تراجع حادٍّ للاقتصاد الصيني طوال قرن من الزمن.



إدمان الصينيين على الأفيون كانت له نتائج كارثية على الصحة والاقتصاد

وفي عام 2013 تحقّقت نبوءة إمبراطور فرنسا **نابليون بونابرت** باستيقاظ «**العملاق الأصفر**»، وأطلقت الصين مبادرتها «**حزام واحد طريق واحد**»، والتي تقدَّر بأنها أكبر مشاريع البنية التحتية في التاريخ، إذ انضمت إليها خلال بضع سنوات نحو مئة دولة.

تهدف الخطة الطموحة إلى إنشاء شبكة من الطرق والموانئ والسكك الحديدية الممتدة على طول طريق الحرير القديم الذي ظل قائمًا حتى القرن التاسع عشر، وبجانب طرق أخرى جديدة، مع فتح أسواق تصدير وتحالفات تجاريّة، وتقليل الاعتماد على الدولار الأمريكي داخل تلك الشبكة الواسعة.

أمام هذا الواقع الجديد، أصبحنا نسمع الكثير من التنبّؤات عن نظام عولمة أكثر جرأة وطموحا ممّا كان يقدّمه القطب الشيوعي للدول الدائرة في فلكه، وهذا يبرر بوضوح تركيز ترمب منذ حملته الانتخابية في 2016 على كبح جماح الصين، أو على الأقل تأخير موعد إزاحتها للولايات المتحدة عن زعامة العالم.

كثيرةٌ هي الدراسات الاستشرافيّة التي تؤكد أن الصين ستتخطّى الولايات المتحدة اقتصاديًّا، وسأكتفي بإحداها، ففي تقرير سنوي نُشر في الأسبوع الأخير من عام 2020 من قبل مركز أبحاث الاقتصاد والأعمال «سي إي بي آر» (CEBR)، قال الخبراء إن جائحة كورونا وتداعياتها الاقتصادية جعلت التنافس بين العملاقين «**يميل بالتأكيد لصالح الصين**».



وبحسب التقرير، تتوقع الصين نموًّا اقتصاديًّا متوسّطه 5.7٪ سنويا بين 2021 و2025، قبل أن يتباطأ إلى 4.5٪ سنويا من 2026 إلى 2030. أمّا الولايات المتحدة فسيتباطأ نموّها –حسب التوقعات– إلى 1.9٪ سنويّا بين 2022 و2024، ثم إلى 1.6٪

بعد ذلك، وهذا يعني أن الصين ستتجاوز الولايات المتحدة لتصبح أكبر اقتصاد في العالم عام 2028، وذلك قبل خمس سنوات ممّا كان متوقعا[1].

في المقابل، ومع كل ما يتداوله الخبراء من توقعات لصالح صعود الصين، ما زال هناك من يشكّك بقدرتها على الاقتراب من أمريكا، فضلًا عن إزاحتها عن القمة.

ففي أواخر عام 2018، نشر أستاذ العلاقات الدولية في جامعة **تافتس** الأمريكية **مايكل بيكلي** كتابًا مثيرًا للجدل بعنوان «**بلا منازع.. لماذا ستبقى أمريكا القوى العظمى الوحيدة في العالم**»، وحاول فيه أن يقنع القراء -باستخدام عشرات الرسوم البيانية والإحصاءات- أن بلاد العم سام ستواصل تفوقها العالمي حتى نهاية القرن الحادي والعشرين على الأقل.

يذكّر **بيكلي** بأن الولايات المتحدة، التي لا تزيد نسبة سكانها عن 5٪ فقط من سكان العالم، تستحوذ على 25٪ من ثروة العالم، و35٪ من عمليّات التطوير عالميّا، كما أنها تُعد موطنا لستمئة شركة من بين أعلى ألفي شركة ربحًا في العالم، فضلًا عن احتلالها نصف قائمة أفضل 100 جامعة في العالم.

ومن أهم النقاط التي جاءت في الكتاب أن الفكرة السائدة عن تقدم الصين المتوقّع قريبًا في السباق الاقتصادي تحتوي على مغالطتين:

الأولى: أن المؤشرات الاقتصادية المعتَمدة تقيس إجمالي الناتج المحلي دون خصم النفقات التي تتحمّلها الدول لحماية شعوبها وتوفير الخدمات لهم، ممّا يؤدي إلى المبالغة في تقدير القدرات الاقتصادية لدول فقيرة نسبيّا وكثيفة السكان مثل الهند والصين، ويقترح المؤلف اعتماد معيار «**صافي الموارد**»، أي مخزون الموارد المتبقّية بعد طرح التكاليف، ممّا يجعل الولايات المتحدة متقدمة بكثير عن الصين واليابان وبقية الدول الكبرى، بل يثبت **بيكلي** أن الفجوة بين بلاده والصين تتزايد كل عام بتريليونات الدولارات لصالح أمريكا.

(1) مركز أبحاث: الصين تتجاوز أميركا كأكبر اقتصاد بالعالم في 2028.. فماذا عن الهند؟، موقع الجزيرة نت، 26 ديسمبر 2020.

والمغالطة **الثانية**: -بحسب بيكلي- هي شيوع الاعتقاد بحتمية انهيار القوى العظمى، وهي فكرة تنسب إلى العديد من الفلاسفة والمؤرخين مثل **ابن خلدون** والألماني **أوزوالد شبينغلر**، كما سبق أن أشرنا إلى استشهاد المؤرخ البريطاني **كينيدي** بانهيار الإمبراطورية البريطانية، وهو ما يرفضه بيكلي بشدة، معتبرا أن قوانين التاريخ لا تنطبق على الواقع اليوم، فالولايات المتحدة ليست الأولى عالميّا من حيث حجم الموارد والمصادر الطبيعية، بل هي متأخرة عن دول الرفاه -مثل الدول الإسكندنافية وسنغافورة ونيوزيلندا- في مؤشّرات السعادة والتعليم والصحة، إلا أنها تسبق جميع الدول بفارق هائل في مؤشرات الاقتصاد والقوّة العسكرية.

ويلفت المؤلف إلى أن الولايات المتحدة تنفق وحدها 40٪ من إجمالي النفقات العسكرية العالمية، وهي البلد الوحيد الذي يمكنه الدخول في حروب ضخمة وبعيدة عن حدودها، كما أنها القوة الوحيدة التي يمكنها توجيه ضربات عسكريّة في أي مكان من العالم خلال ساعة واحدة بفضل انتشار 587 قاعدة عسكرية تابعة لها في أرجاء الأرض.

ويكفي أن القوّات الأمريكية تُعدّ لوحدها أقوى من قوات الدول العشر التالية لها مجتمعة، مما يجعلها إمبراطورية فريدة في التاريخ.

في المقابل، تملك الصين أكبر جيش في العالم من حيث عدد الجنود، إذ يبلغ تعداده نحو مليون ومئتي ألف جندي، لكن تكاليف الرعاية لهذا الجيش الضخم تصل إلى 34٪ من إجمالي النفقات، مقابل 27٪ في الجيش الأمريكي، كما أن القوات الصينية ليست مستعدّة للقتال بنفس جاهزيّة الأمريكيين، وهي أقل تدريبًا ومنشغلة إلى حد بعيد بقضايا الحدود والأمن الداخليّ.

وتشارك الصين حدودها مع 14 دولة برّيًّا وسبع دول بحريًّا، ولديها مشاكل مقلقة مع اليابان، ومناوشات عسكرية مع جارتها النووية الهند، كما يسعى إقليم هونغ كونغ للانفصال منذ سنوات، وما زالت تايوان تسبب لها أرقًا مزعجًا، وقد يؤدي قمعها المتزايد

للمسلمين الأويغور في تركستان الشرقية إلى انفجار أمنيٍّ لا تحمد عقباه، وهذه القلاقل الجغرافية لا تجد لها مثيلًا في أمريكا.

زد على ذلك ما تعانيه الصين بتعدادها السكاني الهائل من مشكلات بنيويّة، فنصف شعبها وثلثا مزارعيها يعيشون في الشمال، حيث لا يوجد هناك سوى 20٪ من مصادر المياه، لا سيّما بعد تدمير أكثر من نصف الأنهار في البلاد بسبب التلوّث والإفراط في الاستهلاك.

وتستعد الصين لكارثة اجتماعية بسبب اعتمادها سياسة الطفل الواحد في السبعينات، فمع أنها تخلّت عنها عام 2013 إلا أنّ ظاهرة الشيخوخة والخلل بين توازن الجنسين ومشاكل عزوبة الشباب بدأت تظهر منذ سنوات، ومن المتوقّع أن تتحول إلى أزمة ديمغرافية في السنوات القليلة المقبلة، وهذا سينعكس على تكاليف الإنتاج على الأرجح، كما سيضاعف الأعباء الملقاة على عاتق الدولة التي تنفق حاليًّا على أمنها الغذائيّ أكثر مما تنفقه الولايات المتحدة بنحو 30٪.

ويتوقع صندوق النقد الدولي أن تصل الصين ما بين عامي 2020 و2025 إلى ما يسمى «بنقطة تحول لويس»، وهي النقطة التي تحدث فيها الأزمة عندما تنقص أعداد العمالة وترتفع الأجور، والسبب هو تباطؤ النمو السكاني الصيني، حيث يتوقع بعض المحللين أن الصين ستلجأ في 2030 إلى العمالة الأجنبية لتغطية هذا النقص، أي أنها ستخسر أهم عوامل ازدهارها الاقتصادي الذي رفعها إلى القمة، وهو العمالة الرخيصة.

وتعاني الصين أيضًا من خلل في مصادر الطاقة، فاعتمادها على الفحم بنسبة 65٪ من إجمالي استهلاك الطاقة يسبّب كوارث بيئية، كما أنها أكبر مستورد للنفط الخام في العالم، بينما تملك الولايات المتحدة ثلاثة أضعاف ما تملكه الصين من النفط والغاز الطبيعي، وضعف ما تملكه من الفحم(1).

(1) Energy Demand and Supply in China, www.rand.org.

أما «**مشروع القرن**» الذي أعلنه الزعيم الصيني **شي جين بينغ** في مايو 2017، عندما وقف في بكّين أمام ما يقرب من 30 رئيس دولة وأكثر من 130 مندوبًا لدولة، متحدّثًا بكل فخر عن مشروع يتضمن إنشاء شبكة «**طريق الحرير الحديد**» ومبادرة الحزام والطريق، فهناك من بدأ بالتشكيك في جدواه الاقتصادية قبل أن يكتمل ويحقّق وعود الصين بعصر ذهبي للعولمة، مستدلًّا على ذلك بتقرير نشرته صحيفة **فايننشال تايمز البريطانية** في أواخر 2020، ذكرت فيه أنّ أكبر برنامج تنمية في العالم قد يصبح أوّل أزمة ديون خارجيّة للصين، فالإقراض من قبل المؤسّسات الماليّة الصينيّة التي تقود المشروع والدعم الثنائيّ للحكومات سقطا من حافة الهاوية، وسرعان ما وجدت بكين نفسها غارقة في إعادة التفاوض بشأن الديون مع مجموعة من البلدان[1].

أضف إلى كل ما سبق أنّ الصين بلد يحكمُه حزب شمولي متوحّش، ومع أن مركزيّة الحكم لعبت دورًا دعائيًّا لصالح الصين إبّان أزمة وباء كورونا، كما ذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب، لكن من السذاجة امتداح الشمولية عندما تنجح الأنظمة المستبدة في حل أزماتها وتخطّي الظروف الصعبة، فالاستبداد يؤدّي في النهاية إلى الهلاك على المدى البعيد، وهو أخطر وباء داخليٍّ يهدد كيان أي دولة مهما بلغت قوتها.

لا أنكر أن الصين استفادت من تجربة انهيار الاتحاد السوفييتيّ، ففي كتابه «**عندما تسقط الأشجار وتتشتت القرود: إعادة التفكير في الديمقراطية في الصين**» الصادر عام 2017، ينظر المحلل البريطاني **جون كين** إلى الجانب المليء من الكأس، ويرى أن النظام الصيني تمكن من إيجاد نمط خاص من الديمقراطية تحت مظلة الحزب الواحد، حيث ينظم استطلاعات رأي دورية لقياس تجاوب الشعب تجاه بعض القرارات، كما ينظم انتخابات محلية على مستوى البلديات وأخرى داخل الحزب الشيوعي، فضلًا عن سماحه لبعض منظمات المجتمع المدني بالتحرك ضمن هامش مدروس.

---

(1) China pulls back from the world: rethinking Xi’s ‘project of the century, Financial Times, 13 December 2020.

لكن هذه الإجراءات لا تعدو في رأيي كونها إصلاحات سياسية ترقيعيّة، كما كانت الإصلاحات الاقتصادية التي أطلقها الرئيس الصيني الأسبق **دينغ شياو بينغ** في الثمانينات، والتي صبغت النظام الشيوعي بمسحة رأسمالية تحت مسمى اقتصاد السوق الاجتماعي، وهي التي تعزى إليها قدرة الصين على مقاومة انهيار الاتحاد السوفييتي ثم الصعود الذي نراه اليوم.

وطالما ظل الاستبداد قائمًا، وظلت الهوّة الواسعة اقتصاديًّا وديمغرافيًّا وعسكريًّا بين العملاقين العالميين، يبدو أن تغلّب التنين الصيني على النسر الأمريكي مستبعدًا في المستقبل المنظور، مع رجحان احتمال نشوء نظام دولي متعدّد الأقطاب كما يقول **فريد زكريا**، وتبقى فيه أمريكا هي المتصدرة.

ومن الجدير بالذكر أن **مايكل بيكلي** ينفي أن تكون السيطرة الأمريكية قدرًا محتومًا ومستمرًّا للأبد، وبما أنه كتب كتابه خلال حكم ترمب فلم يستبعد أن يؤدي استيلاء الدهماء والفاسدين على السلطة، وصعود النعرات العنصريّة، وتقييد استقدام أصحاب الكفاءات العليا، وخوض مغامرات عسكرية متهوّرة، أن يؤدّي ذلك كلّه إلى تدهور البلاد وتآكلها داخليًّا.

كما لم يستبعد نشوء تحالف ما بين القوى الأخرى ضد الولايات المتحدة، ليس لمحاربتها بالضرورة بل لعزلها على الأقل، أو إشغالها بمناوشات إرهابية وحروب سيبرانيّة (قرصنة إلكترونية) وتدخّلات في انتخاباتها بوسائل غير شرعية.

والطريف أنه في نهاية حكم ترمب بأواخر عام 2020، وتحديدًا خلال الفترة الانتقالية ما بين نجاح جو بايدن بالانتخابات واستلامه السلطة، انكشفت أكبر عملية اختراق سيبرانيّ في تاريخ الولايات المتحدة، واتجهت أصابع الاتهام إلى متسلّلين من روسيا تمكنوا على مدى تسعة أشهر تقريبًا من اختراق 1800 منظّمة وهيئة وشركة أمريكية، بما فيها مؤسّسات حكومية حساسة. لكن ترمب كعادته دافع عن روسيا، وحاول صرف الأنظار نحو الصين.

وفي الفترة الانتقالية نفسها، انعقد اجتماع بالفيديو بين زعماء الصين وفرنسا وألمانيا وبإشراف الاتحاد الأوروبي، وتم فيه إقرار اتفاقية للاستثمار المتبادل لتعزيز المشاريع المشتركة بين الأوروبيين والصينيين. أصيبت إدارة بايدن -التي لم تستلم السلطة بعد- بالذعر، وطالبت حلفاءها الأوروبيين بالتمهل، إلا أنهم لم يكترثوا ومضوا قدما في ما يحقق مصالحهم، كما تناسوا كل تصريحاتهم ضد انتهاكات الصين لحقوق الإنسان واستعبادها للأويغور.

هذا الحدث كان بمثابة قنبلة دبلوماسية، فقد بيّن حجم الشرخ الجديد بين الحلفاء الغربيين، وأكد للعالم أن الصين نجحت في ما عجزت عنه روسيا من قبل، وأنها قادرة على خلخلة التوازن واستقطاب الحلفاء عندما تقدم لهم الإغراءات الكافية، لا سيما أن الاقتصادات الغربية ستخرج من أزمة كورونا بأعباء هائلة، وكأن أمريكا ستقف وحدها في معركتها ضد الصين.

زد على ذلك أن السنوات الأخيرة كشفت لنا عن أزمات داخليّة تخنق الولايات المتحدة بشدة، وقد تلعب دورا رئيسا في تراجعها عن الصدارة، بدءا باحتمال تراجع ثقة العالم بالدولار مع تصاعد الاهتمام بعملة بيتكوين الافتراضية، وتفاعل مشكلة الفقر مع ما خلفه وباء كورونا الذي أسفر عن مقتل نصف مليون أمريكي خلال سنة واحدة، وعجز السلطة عن إيجاد أي حل لمشاكل العنصرية والانقسام الاجتماعي، الذي غذاه وجود رئيس عنصري في البيت الأبيض .

لقد أدى اقتحام أنصار ترمب لمبنى الكونغرس في السادس من يناير 2021 إلى نوبة ذعر لدى السياسيين والمثقفين والإعلاميين، لا سيما أنهم لم يكفوا عن التحذير طوال سنوات حكم ترمب الأربعة. وعلى مدى الأسابيع التالية لتلك الحادثة الصادمة، قرأتُ العديد من المقالات في الصحافة الأمريكية والأوروبية التي يُجمع كتّابها على أن اندلاع حرب أهلية في البلاد كان إلى وقت قريب ضربا من الخيال لدى الكثيرين، إلا أنه أصبح الآن واقعا محتملا بشدة، بل يشكك أولئك المحللون في قدرة الرئيس الجديد بايدن على

رتق الفجوة التي أحدثها ترمب وأنصاره. وحتى لو لم نرَ آثار هذا الانقسام الآن، فلا نستبعد أن يؤدي إلى نتائج كارثية تتراكم مع الزمن، حتى تؤدي إلى لحظة الانفجار بعد جيل أو جيلين!

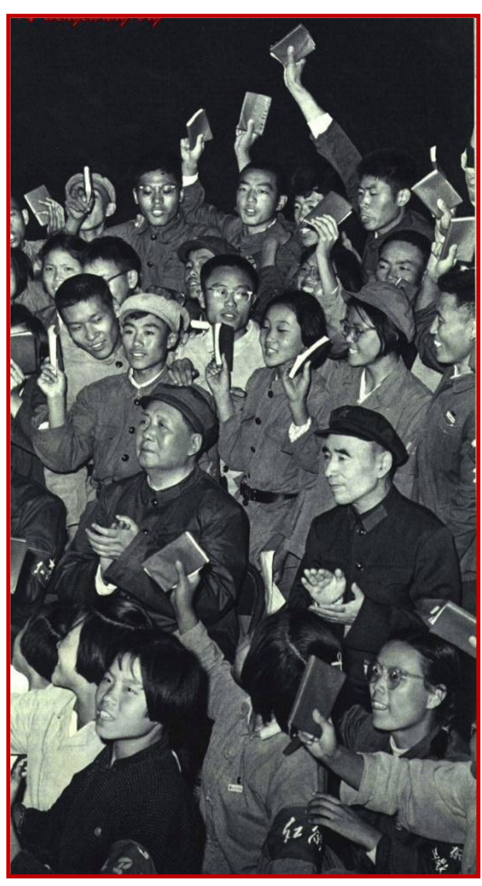
وبالنتيجة، يبدو أنه من الصعب الإجابة على سؤال من سينتصر في هذه المنافسة، فالتنبؤ بالمستقبل القريب ليس مضمونا، فضلا عن الوثوق بتوقعات المحللين على المدى البعيد. لكن المؤكد أن الصين اليوم أقوى مما كانت عليه قبل ثلاثة عقود، أي عندما سقط الاتحاد السوفييتي ووقف الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش في الكونغرس قائلا بكل عنجهية: «لا يوجد بديل عن القيادة الأمريكية، وفي مواجهة الطغيان لن نسمح لأحد بأن يشكك في مصداقية أمريكا، ولن ندع أحد يشكك في قوتنا». أما اليوم، فيبدو أن الولايات المتحدة تكافح للبقاء على ما هي عليه فقط، ومع أن الرئيس الجديد بايدن قال فور استلامه السلطة «أمريكا عادت»، أي بعدما اختطفها ترمب، لكن العالم كله يشك في ذلك، ويكفي أن أنتوني بلينكن قال في خطاب ترشحه لمنصب وزير الخارجية في إدارة بايدن: «أعتقد أن التواضع والثقة يجب أن يكونا الوجهين الآخرين لعملة القيادة الأمريكية». إنها المرة الأولى التي نسمع فيها عن تواضع أمريكا، وهكذا يتصرف النسر الجريح. ؤ

وحشية جديدة

إذا كنا نندّد بوحشية النيوليبراليّة التي فرضتها العولمة الأمريكية على العالم، فعلينا أن نضاعف مخاوفنا اليوم من مستقبل تصعد فيه الصين، حتى لو لم تنازع على سيادته، وهي دولة شيوعية ملحدة لا تعير أي اهتمام للعدالة والحرية.

كان ناشطو الثورات في الربيع العربي يلهثون وراء المسؤولين الغربيين في كل المحافل الدولية لمحاولة إقناعهم بتلقّي الدعم الدولي لمشاريعهم، وكانت إدارة أوباما وبقية دول الاتحاد الأوروبي تقاطع نظام **بشار الأسد** وتفرض عليه العقوبات، وهو ما فعلته أيضًا إدارة

ترمب. ومع أن هذا لم يؤد في النهاية إلى إسقاط النظام الطائفي الوحشي، إلا أن رئيس القطب الصاعد **شي جين بينغ** لم يكن يجد حرجًا في دعم نظام دموي يقصف شعبه بالسلاح الكيميائي ويبيد أكثر من مليون شخص، بينما يتدخل فلاديمير بوتين، زعيم القيصرية المرشحة لتشكيل قطب ثالث، تدخّلًا عسكريًّا مباشرًا لمنع سقوط الأسد. ولا يبدي الرجلان أي اكتراث -ولو ظاهريًّا- بمعايير حقوق الإنسان كما يفعل الغرب.



ماو في وسط الصورة وحوله عناصر من «الحرس الأحمر» وهم يحملون نسخا من «الكتاب الأحمر» الذي كان بمثابة الكتاب المقدس للثورة الثقافية

في ستينات القرن العشرين، لم يخجل مؤسس النظام الشيوعي الصيني **ماو تسي تونغ** من إطلاق **«ثورة ثقافية»** لم تخطر على بال **جنكيز خان وتيمورلنك**. كانت الحكومة تشجّع الأطفال على التجسّس على آبائهم وفضحهم في حال ظهور أي بوادر للتمرّد ضد إله الدولة الملحدة، وهو **ماو** نفسه، وشهدت سنوات هذه المحنة مهازل لا يتخيّلها العقل، إلا أنها لا تكاد تساوي شيئًا أمام مجاعة الصين الكبرى التي يُعتَقَد أنها أودت بحياة أكثر من أربعين مليون إنسان، بسبب أحلام **ماو** الجنونية لتحويل المجتمع الزراعي إلى صناعي بالقوة.

لا شكّ في أن حكومة الصين تغيّرت كثيرًا، وقد يبدو لنا أن الطاغية المجنون لم تبق منه سوى الذكريات المؤلمة، لكن الرئيس **شي جين بينغ** الذي يحكم الصين منذ 2013 يبدو أنه يسير تقريبًا على خطاه، إذ أجرى تعديلات على الدستور تضمنت

إدراج أفكاره الشخصية، وما زال يعزّز نفوذه بصورة غير مسبوقة منذ عهد ماو وبما يضمن له البقاء في الحكم مدى الحياة.

ومع أن الصين تسمح -بحسب الخطاب الرسمي- لمواطنيها بحرّيّة ممارسة الأديان طالما كانت خاضعة للرقابة، إلا أن الحزب الشيوعي دعا في عام 2015 قادة الجماعات الدينيّة في البلاد لإضفاء الطابع الصيني على أديانهم، وبعبارة أخرى دمجها مع الفكر الشيوعي.

وعندما يتعلّق الأمر بالإسلام فالحكومة لا تكتفي بالدعوة للدمج، بل تقوم بذلك بنفسها وعلى طريقتها الوحشيّة، فمنذ 2017 تقيم للمسلمين الأويغور معسكرات وحشية على طريقة محاكم التفتيش البائدة، تحت مسمى مراكز إعادة التعليم والتدريب، ويُعتقَد أنها احتجزت مليون مسلم في المنطقة الغربية من **شينجيانغ (تركستان الشرقية المحتلة)** لتعليمهم أصول المواطنة والولاء للسلطة الملحدة.

وبدرجة أقل من القمع، يتم إخضاع كل الأديان الأخرى في الصين، فالفاتيكان اضطرّت في 2018 للقبول بسحب سلطة الكرسي البابوي عن الأساقفة الكاثوليك في الصين ومنحها للحزب الشيوعي، وزعيم البوذية في التيبت «دالاي لاما» ما زال في المنفى، ومعبد شاولين البوذي ذائع الصيت أُجبر في مطلع 2018 على رفع العلم الصيني الوطني لأول مرة منذ 1500 سنة[1].

لم يعد خافيًا على أحد أنّ الحكومة الشموليّة الملحدة في بكين لا تخجل من فرض نمط حياتها على الشعب بالقوة، وهو خليط من الشعبوية الشيوعيّة التقليديّة مع الرفاهيّة التي يوفرها الازدهار الاقتصادي الجديد، مستفيدة أيضًا من التقدم التكنولوجيّ لمراقبة الناس وضمان انضباطهم في أدق تفاصيل حياتهم، وكأنها تحقّق بذلك حلم تأليه الحكومة

(1) Alexandra Ma, Jailing Muslims, burning Bibles, and forcing monks to wave the national flag: How Xi Jinping is attacking religion in China, businessinsider.com, 3 Aug 2019.

في صورة «**الأخ الأكبر**» الذي وصفه البريطاني الراحل **جورج أورويل** في روايته «1984»، وهو الحلم الذي لم ينجح فيه **هتلر** لعدم كفاية التكنولوجيا آنذاك، ولم يحظ به أي زعيم غربي من بعده بسبب تعارضه مع النزعة الفردية المتأصلة في الغرب.

وكي لا يبدو حديثي مشتقًّا من الخيال العلمي، دعني أحدثك عزيزي القارئ عمّا يقوله خبراء الواقع، ففي مايو 2019، نشرت مجلة «**لوجيك**» التقنية التخصصية -وهي تنشر ثلاثة أعداد فقط في السنة- عددًا خاصا عن الصين، وقدّمت في أحد المقالات سردًا لنشوء وتطوّر الإنترنت في الصين التي كانت تصر على العزلة عدة عقود، ثم قرّرت في التسعينات الانفتاح واستدراك ما فاتها للحاق بالغرب، حتى لو تطلّب الأمر التضحية بقدر من السلطة.

الطريف أن أمريكا رحبت بانفتاح الصين لاعتقادها بأن ذلك سيكون مدخلًا لتغيير الصين وغزوها ثقافيًّا، لكن التقرير يؤكد أن الصينيين كانوا يتمتّعون بالذكاء الكافي للاستفادة من هذا الانفتاح أكثر مما خسروه.

استعرض كاتب التقرير التطور السريع خلال ثلاثة عقود لانخراط الصين في العالم الرقمي، وكيف أصبح المشهد العالمي مع بدء الجيليْن الرابع والخامس من التطويرات الصينيّة للإنترنت، حيث باتت أمريكا تتساءل بجدية عما إذا كانت الصين هي التي ستُغيِّر بقية العالم وليس العكس، إذ لم تعُد واشنطن متردِّدة في الإعراب عن مخاوفها رغم عنجهيّتها، ومنذ بداية عام 2019 أخذت إدارة ترمب بالتحرّك عمليا للتصدّي للتأثير الصينيّ على بنيتها التحتية لتكنولوجيا المعلومات، كما حاولت بكل السبُل الممكنة تقييد شركة «**هواوي**» الصينية، التي تحوّلت خلال سنوات قليلة من شركة مقلِّدة إلى عملاق تكنولوجي يؤسس بنىً تحتيّة للجيل الخامس من الشبكات اللاسلكيّة في عشرات الدول حول العالم.

واللافت هنا أنّ الصين لم تنجح في هذه المنافسة قبل أن تتمكّن من ابتكار حلول خاصة بها، فهي تملك الآن بدائل عملاقة وحيوية وناجحة لكل المواقع الأمريكية الكبرى.

ومثلًا أصبح لديها موقع «**علي بابا**» للتجارة الإلكترونية الذي يغنيها عن «**أمازون**»، ومحرك البحث «**بايدو**» الذي يغني عن «**غوغل**»، فضلًا عن منصات وتطبيقات التواصل الاجتماعي مثل «**سينا ويبو**» و«**تيك توك**» و«**ويتشات**» وغيرها[1].

وهذا يعني بالمجمل أن الصين هي القوّة الوحيدة في العالم التي تمكّنت من اختراق منظومة العولمة الإلكترونية وتطويعها لصالحها، وليس فقط التقليل من أضرارها عليها، وهو أمر لم تنجح فيه دول أخرى مثل روسيا والهند.

زد على ذلك عزيزي القارئ نجاح الصين في توظيف تقدّمها التقنيّ لصالح اختراق خصوصيات شعبها، وهو نجاح يثير مخاوفي شخصيًّا من إمكان تطبيقه على دوائر أوسع خارج حدود الصين، وبطريقة أبشع مما تفعله الولايات المتحدة.

وفي مثال سريع، كشف تحقيق لصحيفة نيويورك تايمز في منتصف عام 2019 كيف حوّلت الصين إقليم **شينجيانغ (موطن الأويغور)** إلى «**قفص افتراضي**» مكمّل للمعسكرات عبر نشر منظومة مراقبة هائلة من الكاميرات التي ترصد كل تحرّكات السكان، والتي تسمح للشرطي بالتعرف على تاريخ أي شخص بمجرد التقاط صورته عند أي حاجز أو نقطة تفتيش، كما يستخدم نظامُ المراقبة تطبيقًا إجباريًّا يُفرَض على كل السكان تحميله على هواتفهم، ليتيح للشرطة اعتقال الأشخاص بشبهة إغلاق هواتفهم، أو تلقيهم مكالمات خارجية، أو لمجرد تجنبهم استخدام الأبواب الأمامية عند دخولهم وخروجهم من منازلهم، أو لأنهم زودوا سيارات أناس آخرين بالوقود، إلى غير ذلك من التُّهَم التافهة[2].

ومع انتشار وباء كورونا، وجدت الحكومة فرصة ذهبية لتوسيع منظومة المراقبة في كل أنحاء البلاد، إذ يقدّر الخبراء أن عدد كاميرات المراقبة في الصين تجاوز **النصف مليار كاميرا** بنهاية 2020، ومع أن دولا أخرى تراقب مواطنيها بحجة الحفاظ على إجراءات

(1) Graham Webster, A Brief History of the Chinese Internet, Logic, Issue 7, May 2019.

(2) كيف تستخدم الصين المراقبة المتطورة لإخضاع الملايين؟، موقع الجزيرة نت، 23 مايو 2019.

الحجر الصحي فإن الصين تسبق كل حكومات الأرض بشروطها القاهرة، واعتمادها نظامًا يصنف البشر على أساس ولائهم للسلطة، ويربط المزايا الحكومية مثل الحصول على القروض وإذن السفر بالنقاط التي يحققونها في سلم الولاء والطاعة.

أستحضر هنا عزيزي القارئ الفيلم الهوليودي المرعب الذي حكى لنا القصة الحقيقيّة للعميل المنشق عن وكالة الأمن القومي الأمريكية **إدوارد سنودن**، ففي إحدى المَشاهد يقول إنه لم يعد قادرًا على الصمت عندما تبيّن له أن تجسس حكومته على اتصالات العالم -حكومات وأفرادًا- لم يكن مبرَّرًا فقط بحماية الأمن ومقاومة الإرهاب أو حتى التصدّي لمنافسة القوى الأخرى، بل هو إشباع لشهوة السلطة تحديدًا. وعندما وضع كل آماله في الرئيس الديمقراطي المثقّف باراك أوباما، القادم من الوسط الأكاديمي القانوني، تيقّن من أن السلطة كلها منظومة فاسدة، وأن أوباما لن يغير شيئًا، فأعلن انشقاقه، ليسعى أوباما في المقابل إلى اعتقاله بأي طريقة، لكن الشاب المتمرد كان قد نجح في التملّص ومن ثم اللجوء إلى روسيا.

والسؤال الآن: إذا كانت المراقبة الأمريكية للعالم قد أثارت فزعنا عندما كشفها **سنودن**، مع كل ما تتمتّع به أمريكا والمنظومة الغربية من قيم لا يمكن تجاهلها، فالمراقبة التي تطمح لها الصين لا تستند إلى أي نظام أخلاقي أصلًا، والإلحاد الشيوعي المادي يتجاوز البراغماتّية الأمريكية التي بُنيت أساسًا على فكر ديني بروتستنتي.

الإلحادُ لا يملك أي خلفيّة أخلاقية، ولا يرى الإنسان سوى أداة يمكن استغلالها وتدميرها دون أي مانع عندما تقتضي الحاجة، ولو كانت مجرد اللذة، أو شهوة السلطة.

نمل بين الأفيال

اشتهرت مقولة طريفة ومؤلمة عن المفكّر السياسي الكويتي **عبد الله النفيسي** في السنوات الأخيرة أثناء تحليله لصراع المنطقة، وهي أن بعض الدول العربية الصغيرة تشبه

«**رتلًا من النمل**» الذي يحاول النجاة عندما تتصارع أفيال عملاقة من حوله.

ويقصد هناك فيل الولايات المتحدة وفيل إيران، وأحيانًا كان يضيف فيل العراق عندما يتحدث عن بلده الكويت في مرحلة ما قبل حرب الخليج الثانية.

وليس القصد من تداول هذه المقولة التقليل من شأن أي دولة أو أمة، وإنما تقريب مبدأ استراتيجي مهم للأذهان، وهو الذي يشغل في العادة قادة تلك الدول التي حبستها الجغرافيا في حيزات ضيقة بين قوى عملاقة متصارعة، وقد يتسع الأمر ليشمل دولًا كبرى سكانيًّا وجغرافيًّا لكنها ضعيفة عسكريًّا واقتصاديًّا، وقد تذهب ضحية لصراعات الجبابرة.

في أواخر عام 2020، نشرت مجلة «**فورين أفيرز**» مقالا للبروفيسور في جامعة «تكساس أي آند إم» كريستوفر لين يتنبأ فيه باحتمال اندلاع حرب عالميّة ثالثة، تدور رحاها الطاحنة بين الولايات المتحدة والصين[1].

يستعرضُ لين المواقف المتفائلة لدى العديد من المحلِّلين منذ نهاية الحرب الباردة، ففي عام 1986 أطلق المؤرخ **جون لويس جاديس** على عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية اسم «السلام المديد»، ثم قال عالم السياسة **جون مولر** إن الأعراف المتغيّرة وضعت حدًّا لصراع القوى العظمى، وفي عام 2011 أعرب عالم النفس **ستيفن بنكر** عن أمله بتحول السلام المديد إلى «سلام جديد» من خلال رصده لتراجع العنف حول العالم.

أما **لين** فيقول إن التفاؤل بقوة الردع النووي لم يكن كافيًا، ففي الماضي القريب كان الجميع يخشى اندلاع حرب نوويّة لأنها ستدمّر الطرفين، لكن التطوّر العلمي سمح لمالكي هذه الأسلحة بتطوير رؤوس نووية مصغرة ومحدودة القوة، بحيث يمكنها بالفعل شن حرب نووية «**محدودة**» دون الخوف من تداعيات واسعة النطاق.

ويردّ **لين** على زملائه الذين يتفاءلون أيضا بقدرة النظام الليبرالي الدولي الذي تقوده أمريكا على حفظ السّلم العالمي، مثل المفكر السياسي **جي. جون إكينبيري**، ويقول **لين** إن

(1) Christopher Layne, Coming Storms: The Return of Great-Power War, Foreign Affairs, November/December 2020.

صعود الشعبوية يكفي للتشكيك في قدرة الغرب على الاحتفاظ بهذا النظام وحماية مصالحه.

ويعود كريستوفر لين إلى الماضي القريب ليقيس على أجواء تشكّل الجغرافيا الجديدة في بداية القرن العشرين، حيث كانت بريطانيا سيّدة العالم، وكانت ألمانيا تصعد بقوة صاروخيّة وتشعر بالغيرة والحسد والغبن، وتبحث لها عن موطئ قدم يليق بما تراه حقًّا لها، إذ لم يكن هدف ألمانيا بالضرورة أن تتحدى بريطانيا وإنّما أن يُعترف بها قوة عظمى مكافئة، وكانت النتيجة اندلاع الحرب العالميّة الأولى.

والعجيب أنه كانت بين البلدين العظيمين روابط مهمة، فالعائلة البريطانية المالكة تتحدّر من أصل ألماني، فضلا عن العلاقات المتشابكة في التجارة والمال والثقافة، ولم يمنع هذا كله الزعماء من اللجوء إلى السلاح لإشباع شهوة التجبّر في نفوسهم، واضعين الملايين من شعوب المنطقة في أتون المعركة.

الأمر نفسه تكرّر بعد عقدين، فالإذلال المُتعمّد الذي وُضعت فيه ألمانيا كان سببًا في تأجيج نزعة أكثر تطرُّفًا لدى النازيين، لتندلع حرب أكثر شراسة بكثير، وهي الحرب العالميّة الثانية.

ويقول لين إن الصين اليوم تكاد تشبه ألمانيا، كما تشبه الولايات المتحدة ما كانت عليه بريطانيا. فالصين تريد أن تنال الاعتراف بكونها قوة عظمى كما كانت قبل صعود الغرب، وهي لم تنس بعد «**قرن الإذلال**» الذي وضعتها فيه اليابان وبريطانيا وفرنسا بعد هزيمتها في حربَي الأفيون الأولى والثانية خلال القرن التاسع عشر.

الصين عانت في القرن العشرين من المجاعة بسبب حماقة مؤسّس نظامها الشيوعي الجديد **ماو تسي تونغ**، لكنها سرعان ما تعافت على يد رئيسها **دينغ شياو بينغ** الذي أطلق سياسة النمو الصامت.

كان هدف **دينغ** اللحاق بالركب من دون إثارة المشاكل ولا حتى لفت الأنظار، وحرصت الصين منذ ذاك الحين على إرضاء الغرب وعدم التدخّل في شؤون أحد. وحتى

عندما حثّها بعض العرب على التدخل لموازنة القوى -بصفتها عضوا دائما في مجلس الأمن- لا سيّما أثناء عبث أمريكا بالعراق وأفغانستان وعربدة إسرائيل في غزة وقمعها للانتفاضة خلال السنوات الأولى من هذه الألفية؛ كانت الصين تكتفي بتصريحات دبلوماسيّة سطحيّة، ومع أنها دعمت **نظام بشار الأسد** في بعض المواقف خلال الثورة السورية الأخيرة فإنها لم تنخرط في المعركة كما فعلت روسيا، وما زالت تفضل الاكتفاء بالنمو الاقتصادي والعسكري دون إزعاج الآخرين.

لكن هذا الصمت «**المؤقت**» هو الذي يقلق البروفيسور **لين**، معتبرًا أنه هدوء ما قبل العاصفة. فالرئيس الأمريكي ترمب شن حربًا تجارية علنيّة على الصين، تبعتها حرب مماثلة من شركات التكنولوجيا الأمريكية لتدمير منافساتها الصينية مثل «**هواوي**». وإذا حدث تطور مفاجئ في شبه الجزيرة الكورية، أو احتكاك غير متوقع خلال المناورات العسكرية في بحر الصين الجنوبي ومضيق تايوان، أو أخذت التوترات في هونغ كونغ منحى صداميًّا، فربما تندلع فعلًا شرارة الحرب.

ويشير **لين** إلى أنّ عدة مراقبين ومحلّلين بارزين في كل من الصين والولايات المتحدة يشاركونه مخاوفه، ولا يستبعدون أن يكون البلدان النوويان على مسار الحرب دون وعي منهما كما كان الحال بين بريطانيا وألمانيا في عام 1914.

وكما تعلم عزيزي القارئ، فهناك دائمًا رأي آخر مضاد، وقد لا يستبعد أصحاب هذا الرأي أن يتّخذ الصراع بين القطبين شكل الحرب الباردة، لكن هذه الحرب الجديدة لن تأخذ فيها الصين محل الاتحاد السوفييتي، إذ لم يكن هناك أي تعاون تجاري يذكر بين الطرفين الشيوعي والرأسمالي، أما اليوم فيعتمد اقتصاد كل من الصين والولايات المتحدة على بعضهما بشكل جوهريّ، وعندما يقرّر أحد القطبين القيام بعمليّة انتحارية لإسقاط اقتصاد الآخر فعليه أن يكون مستعدًّا تمامًا للكارثة التي ستلحق به مباشرة، ما لم تكن هناك إجراءات احترازية مغايرة لما نراه على السطح.

والسؤال الملحّ هنا: سواء كانت حربا نووية أو باردة، ماذا سيحل بالدول الصغيرة؟

ولا أعدك عزيزي القارئ بتقديم أي إجابة، ولا أظن أن مراكز الدراسات الكبرى قادرة على مقاربة الجواب، لذا دعني أحدثّك عن جانب آخر من المأساة.

في مطلع القرن الحالي، قدم الاقتصادي البيروفي **أوزوالدو دي ريفيرو** كتابًا صادمًا وجريئًا بعنوان «**خرافة التنمية الاقتصادية**»، معتمدًا على خبرته الدبلوماسية لأكثر من عقدين كسفير للبيرو لدى الأمم المتحدة ثم منظمة التجارة العالمية، وكذلك رئيسًا لمجموعة البلدان السبعة والسبعين (النامية)، وحاول أن يثبت فيه أن كل وعود التنمية التي روجت لها الدول الكبرى في القرن العشرين لم تكن سوى خدعة، وأن أحلام الدول التي سمّيت بالنامية في اللحاق بركب التقدم لن تتحقّق على الطريقة الرأسماليّة.

وبناء على خبرته الطويلة وما لديه من معطيات، أكد **دي ريفيرو** أنّه من المستحيل استنساخ تجارب الدول الأربع الوحيدة التي تخطّت عتبة التخلف، وهي **كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ**، ويمكنني أن أضيف إليها بعض إمارات ودول الخليج العربي، فهذه الدول الصغيرة لم تنفّذ توصيات النيوليبرالية التي لا تتناسب أصلًا مع ما يسميه «أشباه الدول»، أي الدول الخارجة من نير الاستعمار، أما الدول الأخيرة فما زالت عاجزة أمام التزايد السكاني وصعوبة استقطاب الاستثمارات ودخول عالم التكنولوجيا، ولم تأخذ فيها الطبقة الوسطى الدور المنشود لإنشاء قاعدة ديمقراطيّة كما حدث في أوروبا أثناء الثورة الصناعية، بل نرى تحوّلًا متواصلًا نحو رأسماليّة مزيّفة تتحكّم بها أنظمة فاسدة ومتحالفة مع مستثمرين ومضاربين عالميّين، يسعون فقط لاستنزاف خيرات «أشباه الدول» مع ضخ بعض مظاهر الاستهلاك الترفيّ لإلهاء الشعوب المقهورة[1].

كانت التنبّؤات المتاحة للمؤلف قبل عقدين تشير إلى أن عدد سكان العالم في عام 2020 سيصل إلى ثمانية مليارات نسمة، وأن ثلاثة مليارات منهم سيعيشون تحت خط الفقر، وستكتظّ المدن بأعداد هائلة من السكان مما يزيد من احتمالات الجنوح والإرهاب والتلوث البيئي.

(1) أوزوالدو دي ريفيرو، خرافة التنمية الاقتصادية.. اقتصاديات مستنفذة في القرن الحادي والعشرين، ترجمة نقولا عزقول، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 2001، ص 122.

وأنا أكتب كتابي هذا الآن في أواخر عام 2020 وبداية 2021، فما الذي حدث؟ يؤسفني عزيزي القارئ أن أخبرك بأن الواقع يبدو أكثر شؤمًا. فعدد السكان يقترب بالفعل من العدد المتوقّع، وإذا زرت موقع **وورلد ميترز** أثناء قراءتك لكتابي فربما تجد أن الرقم وصل فعلًا إلى ثمانية مليارات، كما ذكرت مؤسسة **أوكسفام** في مطلع عام 2020 أنه «**من الصادم أن انعدام المساواة قد أضحى على الصعيد العالمي أكثر رسوخًا واتساعًا، وقد تضاعف عدد أصحاب المليارات في العقد الماضي على الرغم من انخفاض ثرواتهم مجتمعة العام الماضي**»[1].

وبشكل غير متوقع، أصبح أصحاب المليارات في العالم، البالغ عددهم 2153 شخصًا فقط، يملكون ثروة تفوق ما يملكه 4.6 مليار إنسان، أي 60٪ من سكان كوكبنا[2].

كان هذا مع بداية ظهور فيروس كورونا الذي لم يُتوقّع آنذاك أنه سيتحوّل إلى جائحة عالمية، وعندما وقعت الكارثة أصدرت أوكسفام تحذيرًا مرعبًا في أبريل 2020 تقول فيه إن الوباء قد يلقي أكثر من نصف سكّان العالم تحت خط الفقر عند انتهاء الأزمة، ما لم يتم الإسراع بتفعيل خطط لدعم الدول الأكثر فقرًا.

كان **دي ريفيرو** يحذّر من أن الأرض لا يمكنها تلبية طلبات ثمانية مليارات إنسان إذا أرادوا العيش بنفس مستوى معيشة الأمريكيّين، أي أن الله لم يخلق لنا هذا العالم لنستهلكه بهذه الطريقة، فالطفل الذي يولَد في الولايات المتّحدة يشكّل نمطُ حياته الاستهلاكي عبئًا مضاعفًا على البيئة قياسًا بالطفل السويدي، بينما يعادل هذا العبء ما يمثّله 28 طفلا مولودًا في تشاد أو نيبال.

لكن أمريكا نفسها تئنّ اليوم من الفقر، فالثروة تزداد تركُّزًا في يد القلّة على حساب الأغلبية، وحتى قبل اندلاع أزمة وباء كورونا كانت الإحصاءات تشير إلى طرد ستة آلاف شخص على الأقل من منازلهم كل يوم بسبب عدم تمكّنهم من دفع الإيجار، كما يعاني أكثر

(1) تقرير بعنوان «يملك أصحاب المليارات في العالم ثروة تفوق ما يملكه 4.6 مليار إنسان»، موقع أوكسفام بالعربية، arabic.oxfam.org، 19 يناير 2020.
(2) المرجع السابق.

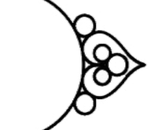
من 40 مليون أمريكي من الفقر، في حين تنفق حكومتهم 738 مليار دولار على الجيش[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فنحن أمام مستقبل مقلق بكل الأحوال، سواء اندلعت حرب نووية أو باردة، أو حتى لم تندلع.

النمل يبحث عن مسارٍ آمن بين قوائم الأفيال المتصارعة، وممالك النمل قد تنهار كلها بضربة واحدة من إحدى تلك القوائم الهائجة.

* * * *

(1) للاستزادة: شاهد فيلما وثائقيا بعنوان «الفقر في أمريكا» بثته قناة دويتشه فيله DW في يناير 2020.

الفصل السادس
الخوف من الشيطان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر: 5- 7].

بهذه الآيات الثلاث تتلخّص قصة الوجود، وعلى أكمل وجوه الوصف والبلاغة والإيجاز. فالمتحدّث هو الخالق والمدبّر والإله الأوحد في الوجود، والمخاطَب هو أنا وأنت -عزيزي القارئ- وكلّ بني آدم، ورسالة التحذير تتضمّن إشارة صريحة للعدو الأوّل الذي أعلن العداء لنا، فوجب أن نتخذه عدوًّا، وأن نتسلّح بكل ما تتطلّبه المعركة.

لن أبالغ في نبش تاريخ هذه الحرب، كي لا أقع في هوّة بلا قرار، فالصراع ممتدٌّ منذ نزول أبينا آدم إلى الأرض، وما زال يتخذ أشكالًا متعددة بتغيّر الزمان والمكان. ومع خروج آخر الأنبياء ﷺ لم تبقَ راية للشيطان إلا رُفعت، والحرب سِجال.

لكن الانتكاسة الأخيرة لمعسكر الوحي، على تهاونه وضعفه، وما تخلّل تاريخه من قهر وظلم وركون للدنيا، وتحديدًا في القرن العشرين، لا يمكن مقارنتها بأي كبوة أو سقطة أو انهيار سابق، بدءًا بحروب الردة وفتن القرن الأول وانتهاك بعض الأمويين للحرمين، ومرورًا بنكبات الباطنيين وغزو المغول وحملات الفرنجة وتشرذم طوائف الأندلس. فضَعْ كل ما سبق في كفّة، وانظر هل يمكن أن توازي كفّة الاستعمار وما بعده؟

لم يكن صعود الغرب الحديث كصعود أي أمة من قبل، ولا يمكن اعتباره إحياءً لمجد حضارة الرومان العظيمة وفلسفة الإغريق الأصيلة. ففي القرن العشرين وحده اختُزِل تراكم التطوّر العلمي لعشرات القرون في لمح البصر، ولم يكن ليحدث لو لم تمهَّد له الأرضية العلمانية- الشيطانية على مدى خمسة قرون، بدءًا بما يسمى نهضة **آل ميديتشي** في فلورنسا

الإيطالية (القرن الخامس عشر)، ومرورًا بالثورة الفرنسية التي صيغت تبعاتها في المحافل الماسونية (القرن الثامن عشر)، وصولًا إلى النظام العالمي الجديد.

كانت هذه مقدمة تمهيديّة للقصة فقط، والآن فلتسمح لي أيها القارئ الكريم بأن أسردها لك على طريقتي.

آدم وإبليس

لطالما تأملتُ في قصة الخلق الواردة في الوحي، والتي تكرّرت في الكتب المقدسة كلها تقريبًا مع ما شابها من تحريف، ثم جاءتنا خالصة نقيّة مع وعد إلهي بحفظها في القرآن الكريم. ولطالما تساءلتُ لماذا اقتضت الحكمة الإلهيّة أن تبدأ قصة وجودنا بهذا الصراع؟

بدأت قصتنا بقوله الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ثم خلَقه من طين، وتركه مدة غير معلومة جسدًا بلا روح في الجنة، وإبليس ينظر إليه ويمتلئ حسدًا وحقدًا[1]. ثم نفخ الله في آدم من روحه، وجاء الأمر الإلهي للملائكة ومعهم إبليس بالسجود له تكريمًا، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، ولعل جميع القراء الكرام يعرفون تتمة القصة في الابتلاء بالشجرة ونسيان آدم وخروجه مع حوّاء من الجنة، لتبدأ قصّتنا على الأرض بهذه القاعدة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

لم يكن نزول آدم وحوّاء عقابًا لهما على الأكل من الشجرة، فالقرآن يوضّح أن الله تعالى كشف للملائكة قبل خلقهما أنه سيجعل الإنسان خليفة في الأرض وليس في الجنة، فكان النزول قدرًا محتومًا. وقد روى لنا النبي ﷺ حوارًا جرى بين **آدم وموسى** عليهما

---

(1) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لما صوّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك» أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: 2611، أما الآثار التي تقول إن الله ترك آدم أربعين سنة على هيئة الطين الصلصال (أي كالفخار) فهي ضعيفة.

السلام، إما بالتقاء روحيهما في الملأ الأعلى أو عندما التقى الأنبياء جميعًا ليلة الإسراء والمعراج. يقول الحديث الصحيح: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي ﷺ فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى**»[1]، أي أن آدم ألزم موسى بالحجة.

إذن فقد كان دخول آدم للجنة مجرد مرحلة مؤقتة، هي مرحلة الإعداد والتعليم، كي نفهم منها الغاية من وجودنا أصلًا، وكي نعرف أن عدونا الأول هو إبليس، وأن القصة كلها قائمة على هذا الصراع الذي ابتدأ قبل أن يولَد أول أبناء آدم.

يقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172، 173]، وبحسب كثير من المفسّرين فإن هاتين الآيتين تلخّصان مبدأ التكليف البشري، حيث خلق الله تعالى أرواح جميع البشر عند خلق أبيهم آدم، ثم أنطقهم الله وسألهم إن كانوا يقرّون بأنه ربّهم فشهدوا بذلك جميعًا، ثم نُفِخَت تلك الأرواح في أجسادها بحسب الترتيب المقدّر لها من عمر البشرية، لتدخل مرحلة الاختبار في الحياة الدنيا وتعيش بما يتوافق مع ما شهدت به منذ البداية، وهو الإيمان الذي يتوافق مع فطرتها البديهية، ثم ستُسأل يوم القيامة عن امتثالها لما أقرت به، وعندئذ سيسترجع البشر تلك الشهادة التي شهدوا بها في عصر أبيهم آدم، وسيعتذرون بالغفلة وبتقليد الآباء الذين ضلّوا قبلهم.

ويدعم هذا التفسير قولُ الله جل وعلا في سورة أخرى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، برقم: 6240.

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 72، 73]. وثمّة روايات عدة لتفسير هاتين الآيتين، وتكاد تتّفق جميعها مع ما روي عن الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي قال إن الأمانة هي الفرائض (أي التكليف)، فقبل أن يُكلّف الله آدم وذرّيّته بالعبادة ويمتحنهم بالدنيا عرَض هذه المسؤوليّة على المخلوقات الأخرى، فخشيت العاقبة وطلبت من ربّها أن يعفيها، ثم عُرضت المسؤولية على آدم وبنيه، والأرجح أن يكون ذلك قد عُرض على كل إنسان على حدة، فقبلوا جميعًا دخول هذه المجازفة، مع علمهم بأن الفشل فيها يقتضي العقوبة، ثم جاء التعليق الإلهيّ بأن الإنسان كان ظلومًا لعدم وفائه بالأمانة على الوجه الأمثل، وكان جهولًا لعدم تقديره فداحة العاقبة الناجمة عن تفريطه بالأمانة.

يؤكد الوحي أن آدم كان أول البشر وأوّل الأنبياء معًا، ففي الحديث قال أحد الصحابة: يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟ قال: «نعم معلَّم مكلَّم»، وقد ورد هذا الحديث بعدة طرق وصحّحه الأرناؤوط والألباني. وفي حديث آخر قال أبو ذر: يا رسول الله أيّ مسجد وضع في الأرض أول؟ فقال ﷺ «المسجد الحرام»، قال ثم أي؟ قال «المسجد الأقصى»، قال كم كان بينهما؟ قال «أربعون سنة»[1]. ونستنتج من الحديث أن آدم عليه السلام، الذي كان نبيا مأمورا بالعبادة والصلاة، بنى أول مسجد لعبادة الإله الواحد مع بزوغ فجر البشريّة، ثم بُني المسجد الأقصى في بيت المقدس بفلسطين بعد أربعين سنة.

وبالرغم من عدم ظهور الشرك في تلك المرحلة، فقد ارتكب أحد أول أبناء آدم الجريمة الأولى، عندما قتل قابيل أخاه هابيل بدافع الغيرة وفقًا لما ورد في «الكتاب المقدس» والقرآن الكريم، إلا أن الانحراف عن الدين نفسه لم يظهر إلا في مرحلة متأخرة.

ويروي الحديث القدسي عن الله تعالى قوله: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمَت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 3425، وأخرجه مسلم برقم 520.

بي ما لم أنزل به سلطانًا»[1]، أي أن بداية الانحراف كانت على يد إبليس وشياطينه.

وهذا يفسر الآية التي وردت في سورة نوح بالقرآن الكريم، عندما شكا نوح عليه الصلاة والسلام قومه إلى الله، فقال من بين ما قاله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]. وقد شرح ابن عباس هذه المصطلحات بقوله إنها «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبدت»[2]، أي أن أول جيل بشري عبَد الأصنام هو قوم نوح، وأن ذلك لم يحدث إلا بعد تدخّل إبليس، حيث دبّر خطته بدهاء وصبر على مدى أجيال، ففي الجيل الأول أقنعهم بصناعة التماثيل لتكون تذكارًا للأموات الصالحين، ثم تطلّب الأمر مرور عدة أجيال لينسى الناس سبب صناعتها، فقال إبليس للأحفاد إن أجدادهم صنعوا التماثيل ليعبدوها كي ينزل عليهم المطر والرحمة، فعبدوها، فأرسل الله إليهم رسوله نوحًا ليأمرهم بالعودة إلى الإيمان. وهذا يعني أن تأثير الشيطان لا يقتصر على الوسوسة باتباع الشهوات، بل هو يخطّط ويدبّر ويبتكر عقائد جديدة.

وقبل أن أتابع قصة الصراع، لا بدّ من التذكير بأن لفظ الشيطان يُطلَق على من يسعى لتضليل الخلق من الإنس والجنّ معًا، فالجنسان مكلّفان ومسؤولان أمام الله بالدرجة نفسها، والله أرسل رسله وشرائعه إليهما معًا، وخُطط التضليل يقوم بها الشياطين من الجنسين، إذ يقول النص القرآني بوضوح: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]، كما نقل القرطبي في تفسيره عن مالك بن دينار قوله: «إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوّذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئُني فيجرّني إلى المعاصي عيانًا».

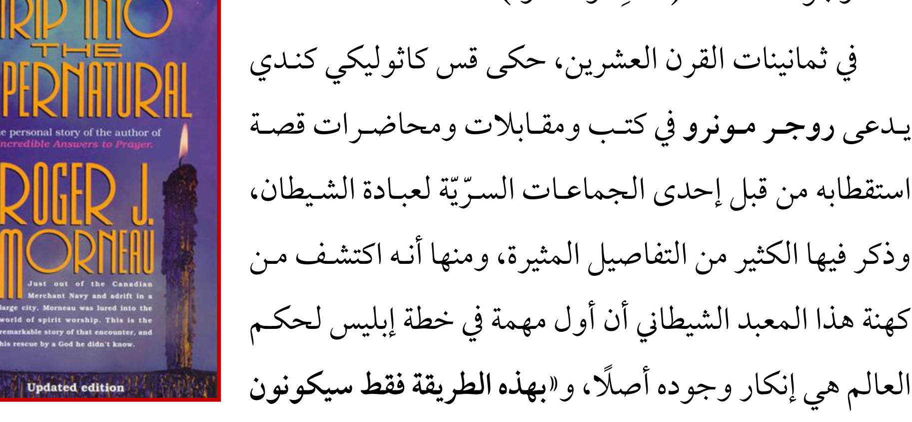
(1) أخرجه مسلم برقم: 2865.

(2) أخرجه البخاري برقم: 4920.

كيد إبليس

لعلك لاحظت عزيزي القارئ شيوع فكرة طاغية في عصرنا الحالي، ولا سيما من قبل دعاة النهضة واستعادة المكانة المفقودة، وهي الحرص الشديد على التهوين من شأن إبليس، فلا يكاد يُذكر اسم الشيطان إلا مقرونًا بالآيات الكريمة التي يوحي سردها مجتزأة عن سياقها بأن الشيطان غائب تمامًا عن المشهد، وأن تأثيره لا يتجاوز الوسوسة التي تكفيها بضع كلمات ينطقها اللسان للاستعاذة بالله منه.

وهذا الجهل لا يعدو كونه من كيد الشيطان نفسه، فأي هدية يتوقعها منا أفضل من هذا التهوين المفضي إلى تجاهل وجوده. وأكاد أجزم بأن انتشار الإلحاد والسخرية من الغيبيات هو من أهمّ مساعي إبليس، فإنكار البشر لوجوده يعني بالضرورة غفلتهم التامة عن معركتهم معه، وهي المعركة التي نصّ التحذير الإلهي -كما رأينا سابقًا- على أنها مدار قصة وجودنا أصلًا: ﴿فاتَّخِذُوه عَدُوًّا﴾.



في ثمانينات القرن العشرين، حكى قس كاثوليكي كندي يدعى **روجر مونرو** في كتب ومقابلات ومحاضرات قصة استقطابه من قبل إحدى الجماعات السرّيّة لعبادة الشيطان، وذكر فيها الكثير من التفاصيل المثيرة، ومنها أنه اكتشف من كهنة هذا المعبد الشيطاني أن أول مهمة في خطة إبليس لحكم العالم هي إنكار وجوده أصلًا، و«**بهذه الطريقة فقط سيكونون قادرين على حكم سكان كوكب الأرض بنجاح لعقود من الزمن**»[1].

دعنا نعُد مجددًا عزيزي القارئ إلى كتاب الله العزيز، فقد ورد كيد الشيطان في موضع واحد، وهو: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 76]، إذ يتمسك الكثير من القراء بهذا النص الذي «**يضعّف**» كيد الشيطان، دون أن ينتهبوا إلى أنه

(1) Roger J. Morneau ،A Trip into the Supernatural, 1982, p. 15.

جاء في سياق القتال نفسه، فهل يعقل أن يقال لجيش ما إن ّالعدو الذي يؤمر بمقاتلته ليس سوى شيء تافه لا يؤبه به؟

نعم، **كيد الشيطان ضعيف إذا قيس بكيد الله تعالى**، أما إذا قُرِن بكيد بني آدم فكيد الشيطان أقوى وأشد، فإبليس هو أصل الكيد وعنوانه[1]. ولا ننسى أيضا أن القرآن عندما يحذر من كيد الكافرين فإنه لا يهوّن من شأن عداوتهم بالقياس إلى قوة المؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ**﴾ [الأنفال: 18]، فالله تعالى هو الذي يوهِن كيدهم، ولا يعني هذا أن علينا الاستخفاف بقوة العدو، بل هو تثبيت للمؤمنين في مواجهة الكافرين دون تساهل وتفريط.

زد على ما سبق تمسّك البعض بالآية التي تقول على لسان الشيطان: ﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ**﴾ [إبراهيم: 22]، وكأنهم يتجاهلون الآية الأخرى التي تقول: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الحجر: 42]، فهي واضحة في إثبات السلطان للشيطان، مع تقييد هذه السلطة بأتباعه، ويدعم هذا أيضا قوله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: 100]، والخلاصة هي أن الوحي ينفي عن الشيطان قدرته في التسلّط على من يعتصم بالله منه، إلا أنه يثبت له هذه السلطة على من يتولّاه.

والعجيب أن نصدّق جميعًا بقوة وسلطة الطغاة من البشر وقدرتهم على التحكم في أدقّ تفاصيل حياتنا، ثم نستبعد ذلك عن إبليس نفسه. والحق أن كلاهما لا يملك السلطة على عقولنا وإرادتنا، فنحن نختار الانقياد للحقّ أو الباطل، مع كل ما يتمتّع به شياطين الإنس والجن من وسائل التضليل والتأثير، بدءًا بالوسوسة الخفيّة، ومرورًا بكل المغريات والضرب على أوتار الشهوات، وحتى وسائل التأثير المدروسة علميًّا في مجال الهندسة الاجتماعية وسيكولوجيا الجماهير، ووصولًا إلى القهر والترهيب. ومع ذلك تبقى للمتسلّطين من الجن والإنس سلطة لا يمكن إنكارها، إلا أنها لا تمسّ الإرادة الذاتية للفرد،

(1) حلمي الرشيدي، إرواء الظمآن بأخبار الشيطان، الدار العالمية، الإسكندرية، 2014، ص 277.

وهذا هو المقصود بنفي سلطة الشياطين على الخلق بما يتناسب مع ثبوت التكليف وحرية الإرادة.

لذا دعنا نقرأ الآية كاملة كي تتّضح في سياقها: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]. أعتقد أن السياق صار الآن أكثر وضوحًا، فمقولة إبليس هذه جاءت على لسانه عندما انتهى الحساب في الآخرة، ووجد أولياؤه أنفسهم في العذاب، فتنكّر لهم متذرعًا بضعفهم وانقيادهم له بإرادتهم، والأمر لا يعدو تهرّبه من المسؤولية بعد وقوع العذاب على الجميع، ونفي قدرته على التأثير في إرادة أتباعه، ولا يعني ذلك بالضرورة أنه مجرد كائن تافه يقتصر أثره على الوسوسة.

يقول د. **عمر الأشقر** إن إبليس هو الذي يخطّط للمعركة مع الإنسان ويقودها، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا في الاتجاهات المختلفة، ويعقد مجالس يناقش فيها جنودَه وجيوشه فيما صنعته، وهذا كله مستفاد من الحديث الصحيح[1] الذي يقول: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة...»[2]

إذن فإبليس له عرش ومُلك وجنود وسرايا، وستأتي معنا لاحقًا قصة اليهودي ابن صيّاد (أو ابن صائد) الذي شكّ النبي ﷺ في كونه الأعور الدجال، وما زال شأنه محل جدل، فهو إن لم يكن الدجّال نفسه فقد كان على أقل تقدير كاهنًا يتّصل بالشياطين، والشاهد في قصته أنه عندما سأله النبي ﷺ: ما ترى؟ قال: أرى عرشًا على الماء، فقال ﷺ «ترى عرش إبليس على البحر»[3]، أي أنه قد يتراءى شيء من مُلك إبليس لأوليائه من شياطين الإنس، وقد يتواصل معهم مباشرة أو عبر وسطائه وجنوده.

---

(1) عمر سليمان الأشقر، عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 4، 1984، ص 63.
(2) أخرجه الإمام مسلم، برقم: 2813.
(3) أخرجه الإمام مسلم، برقم: 2925، وفي سنن الترمذي برقم: 2247.

وإذا كان إبليس قد مهّد لأول الأجيال بمقدمات الشرك، وخطط لذلك ودبّر، فقد أكد القرآن الكريم أيضا سعي جنوده لصرف الناس عن اتباع النبي ﷺ، إذ تقول بالآية الكريمة التي أشرت لها قبل قليل: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام: 112]، فهي تكشف لنا عن التعاون المباشر في الكيد والتخطيط والتدبير بين شياطين الإنس والجن، وهي صريحة أيضا في إخبار النبي ﷺ بأن هذا الحلف سيتصدى لدعوته كما تصدى لكل نبي قبله.

وكذلك المنافقون، كانوا يتحالفون مع الشياطين ويخطّطون معهم في الخفاء، تماما كما يحدث في الجمعيات السرية التي تتسرب لنا بعض الدسائس من محافلها، ففي الصفحة الثالثة من المصحف الشريف نجد هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14]، أي أن المنافقين كانوا يتظاهرون بالإيمان في حضرة الصحابة ثم يخْتلون بشياطينهم من الجن والإنس ليؤكدوا لهم أنهم ما زالوا متحالفين معهم، وأن كل ما يظهرونه من إيمان ليس سوى استهزاء[1].

زد على ذلك ما وثّقته بعض الروايات والأخبار من تدبير إبليس وكيده، وسأذكر أهمها فيما يلي مع الإشارة إلى ضعف بعضها وصحة البعض الآخر، وأبدأ بما روي عن ابن عباس من قصة اجتماع صناديد قريش لمناقشة التخلص من النبي ﷺ، فتجسد حينئذ إبليس في هيئة رجل نجدي، وقدّم نفسه لهم على أنه رجل حكيم ناصح، ثم بدأ بالطعن في كل مقترح حتى يتراجعوا عنه، إلى أن أيّد رأي أبي جهل، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة شابًا ويعطوه سيفا، ثم يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن القصة ضعيفة، بالرغم من دفاع ابن إسحاق عنها في مغازيه.

القصة الثانية هي تجسّد إبليس في صورة سراقة بن مالك، الذي كان من أشراف بني كنانة، فقدّم نفسه لمشركي قريش يوم بدر وقال «**أنا لكم جار**»، ومع أن علماء الحديث

(1) قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية: «وشياطين كل شيء مرَدته، وتكون الشياطين من الإنس والجن».

طعنوا في هذه الرواية أيضا إلا أنها توافق -إن صحّت- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48].

أما قصة مشاركة إبليس في غزوة أحد فصحيحة موثقة، فعن عائشة رضي الله عنها أنه «لما كان يوم أحد هُزم المشركون، فصرخ إبليس لعنة الله عليه أي عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم»[1].

وثمة أحاديث أخرى عن إبليس وشياطين آخرين، ومنها عدة روايات عن تعرّض الشيطان للنبي ﷺ أثناء صلاته، وأكتفي هنا بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي. فقلت: أعوذ بالله منك. ثلاث مرات. ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر. ثلاث مرات. ثم أردت أخذه. والله، لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة»[2]، فهذا الحديث الصحيح ينص على أن إبليس حاول بنفسه أن يحرق النبي أثناء صلاته.

قدرات الشياطين

يعيش الجن في عالمهم الخاص الغائب عن حواسنا، واقتضت حكمة الله أن يكون عالمنا مكشوفًا لهم فقط، لكن آثارهم قد تظهر لنا، بل قد يكون الكثير منها ظاهرًا لنا في حياتنا اليومية دون أن نعلم، وربما دون أن نملك الأدوات للتحقّق.

ومن الضروري أن أذكّر بأن الخوض في الغيبيّات أمر محفوف بالمخاطر، فيجب أن يكون الخائض مستندًا إلى مصدر موثوق، وأولها الوحي الصادق، أما الحس المتتبع للآثار الظاهرية للغيبيّات فقد يشوبه الكثير من التضليل، كما أن الأخبار والروايات المنقولة عن

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: 6890.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: 542.

الشهود قد يشوبها الكذب والتزوير حتى لو كان ناقلها ثقة، فربما يكون هو نفسه ضحية للتضليل من الجن الذين يَنقل عنهم، إذ لا نملك أي أداة لتمحيص شهاداتهم كما هو الحال مع الإنس.

ومع استحضار هذه المقدمات، سأذكّرك أيها القارئ العزيز بما بلغنا عن قدرات الجن، وأولها ما ذكره القرآن الكريم عن سرعة النقل والانتقال، إذ تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان عليه السلام بإحضار عرش ملكة اليمن إلى مقره في بيت المقدس، وخلال في مدة لا تتجاوز قيامه من مجلسه. تقول الآية الكريمة: ﴿***قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ***﴾ [النمل: 39].

كما نصّت الآيات والأحاديث الصحيحة على قدرة الجن على الطيران في الجو إلى مسافات عالية جدًّا، فعندما بدأت رسالة النبي ﷺ اكتشف الجن فجأة أن السماء تحصّنت وحُرست من تلصّصهم، وهذا ما تقوله الآيات على لسان قوم من الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 8-9]. أي أن الشهب بدأت تصطاد الجن الذين يحاولون استراق السمع لما يقضيه الله تعالى، أثناء تردّد تلك الأوامر بين الملائكة في السماء.

والجن قادرون على التشكّل بأشكال الإنسان والحيوان، وفي السنّة النبوية الكثير من الأحاديث الصحيحة التي تؤكد هذه القدرة، ومنها: «الجن على ثلاثة: فثلث لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وثلث حيّات وكلاب، وثلث يحلّون ويظعنون»[1]، وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الحيّات التي تعمر البيوت (أي تظهر في البيوت المسكونة) قبل التحقّق منها ومخاطبتها بكلام البشر لتخرج من المنزل، فإن لم تستجب فهي ليست إذن من الجن ويمكن قتلها[2].

---

(1) رواه الطبراني (22/ 214) (573)، وابن حبان (14/ 26) (6156)، والحاكم (2/ 495). وقد صححه الحاكم فقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه الشيخان، ووافقه الذهبي.

(2) جاء ذلك في عدة أحاديث ومنها قصة الصحابي الذي توفي فور قتله إحدى الحيات، فقال النبي ﷺ: =

وقد يستشكل على البعض هذا الأمر متسائلًا: لماذا لا يُكثر الشياطين إذن من التشكّل والتحكّم مباشرة في حياتنا، والجواب من وجوه، أولها أن تشكّل الشيطان يتضمّن المخاطرة بتعرّضه للقتل، كما حدث للحيّة التي قتلها الصحابي عندما رآها في بيته ثم تبيّن أنها جنّي متشكّل على تلك الهيئة، كما أن التأثير بالوسوسة قد يكون أقوى من التأثير بالظاهر، وأعتقد أيضًا أن خطة الشيطان في الإفساد لا تقتضي هذا الظهور المكثّف وتحمّل مخاطره، وسأشير إلى هذا الأمر في بنود أخرى لاحقًا.

مع ذلك، يحدث ظهور الشياطين لأوليائهم من الإنس كثيرًا، ولكن ليس في العلن، ويؤكد محترفو التأمّل وممارسو «**الروحانيات**» الشرقية أنهم يتواصلون مع ما يعتقدون أنه أرواح حكمائهم الموتى، ويرونهم متجسّدين في حال يقظتهم وليس في أحلام النائمين، وما هذا إلا تضليل من شياطين الجن لمن أسلم عقله لهم.

وقد فصّل ابن تيمية في هذه المسألة بقوله: «فأهل الهند يرون من يعظّمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم، والنصارى يرون من يعظمونه من الأنبياء والحواريين وغيرهم، والضلّال من أهل القبلة يرون من يعظمونه: إما النبي ﷺ وإما غيره من الأنبياء، يقظة ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث فيجيبهم، ومنهم من يخيل إليه أن الحجرة قد انشقّت وخرج منها النبي ﷺ وعانقه هو وصاحباه»[1]، ومن يتعمّق في قراءة تراث المنحرفين عن جوهر التصوف الإسلامي (الزهد) المستمد من روح القرآن والسنة سيجد هذا واقعًا بوضوح جليٍّ، فبعضهم يتشكّل له الشيطان وهو يظنه روح أحد الأنبياء أو الصالحين، فيتلقّى منه ما يضله بدلًا مما يهديه، وقد يغتر بنفسه ويحسب أنه بلغ بذلك منزلة رفيعة عند الله بدلًا من العكس، وهذا عين تلبيس إبليس.

تقودنا هذه المناقشة إلى التعمق في قدرة الجن على التأثير في نفوس البشر، فأقل درجة من هذا التأثير الباطني الخفي هي الوسوسة، وهي مثبتة في نصوص الوحي ولا جدال في

= «إن بالمدينة جنًا قد أسلموا. فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام. فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه. فإنما هو شيطان» أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: 2236.

(1) ينظر: مجموع الفتاوى، الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ج27، ص: 392.

حقيقتها، وإن كنا لا نعلم كيفية تمكن هذه المخلوقات الخفية من بث أفكار وخيالات في وعينا، سواء في اليقظة أو المنام. وقد تقتصر الوسوسة على تحريض الإنسان على المعاصي والذنوب واتباع الشهوات، وربما تشغل ذهنه بالأفكار السوداوية كي يُحزن الشيطان قلبه ويقعده عن العمل، ويمكن أن تمتد الوسوسة لتشمل التفكير بكل أفعال الشر والجرائم، والتخطيط لها، وصولًا إلى تنفيذها.

أما التأثير في حواس البشر فهو درجة أعلى، فتوارد الخواطر على الذهن قد يبدو لنا مجرّد وهم نفسي لا يرتبط بفاعل خارجي من كائنات لا نشعر بها، ولا يؤمن الملحد بوجودها أصلًا، لكن الجن يملكون القدرة أيًضا على خداع حواسّنا نفسها، وهذا مرتبط في العادة بالسحر، وتقوم به الشياطين لتحقيق مصالحها المشتركة مع السحرة من الإنس. فعندما جاء سحرة فرعون بسحرهم العظيم وألقوا حبالهم وعصيّهم تحوّلت فعلًا إلى حيّات، لأن الشياطين تشكلت في هذه الصورة التي يمكن رؤيتها ولمسها، لكن المبالغة هنا في السحر -الذي بلغ فيه سحرة مصر أعلى الدرجات- هي تأثير الشياطين على حواسّ النبي موسى عليه السلام وبقيّة الناس الذين شهدوا هذا المشهد، إذ رأوا تلك الحيات وهي تسعى في مشهد عظيم يدب الرعب في النفوس، كما قالت الآية: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: 66]، أي أن سحر التخييل متعلّق بسعي تلك الحيات وليس بتحوّلها، وكما في قوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116]، فالسحر الذي احترفه السحرة سمح للشياطين بالتدخل في أعين الناس والعبث بحواسهم كي يروا ذاك المشهد على نحو مغاير، إذ جاء في تفسير الطبري أن الشياطين أوهمت الحضور بأن الحيات كانت كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا.

ولعلك تتساءل مجدّدًا عزيزي القارئ: إذا كانت للشياطين قدرة التأثير المباشرة في حواس بني آدم فلمَ لا توظفها دائمًا لطمس الحقائق والتضليل؟ والجواب يكمن في الحدود التي وضعها الله جل وعلا لهذه الكائنات، فالتأثير مرتبط بالسحر، والسحر محدود

بفئة قليلة من الناس الذين يجرؤون عليه ويتحمّلون دفع ضريبته، وقد ينتشر في بعض الدول كما يخبرنا التاريخ عن حضارات سابقة، ولا سيما في مصر الفرعونية، كما ينتشر في بعض القرى النائية في عصرنا الحالي، إلا أنّ عدد السحرة يبقى محدودًا في كل زمان ومكان، كما تبقى قدرة الشياطين محدودة بما سمح الله لهم به.

والسحر في أصله فتنة وامتحان، فكما سمح الله تعالى للجن والإنس بالتمتّع ببعض ملذّات هذه الدنيا، ومنح كلًّا منهم حريّة تجاوز حدود الشرع إن شاء، فقد منحهم أيضا حرية الاختيار وتعلّم هذا العلم امتحانًا لهم، وجعل فيه قدرات خارقة يمكن لمن يندفع في دركاتها أن يمتلك سلطات تتجاوز حدود العادة. وهذا ما نراه واضحًا في قصة الملَكين اللذين أرسلهما الله إلى الحضارات البشرية الأولى في بلاد الرافدين، وتحديدًا إلى بابل، وأنزل معهما هذه العلوم المحرّمة لتكون ابتلاء للناس، فكلّما جاءهما أحد ليتعلّم هذا العلم أنذراه بكل وضوح بأن هذا الأمر كله مجرّد اختبار، وأنه سيتحمّل مسؤولية هذا الكفر. تقول الآية الكريمة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 102، 103].

وتدل الآية السابقة على وجود مصدرين للسحر، أوّلهما ما نسبته الشياطين إلى مُلك سليمان عليه السلام، والثاني ما ذكرتُه أعلاه من الفتنة التي نزل بها الملَكان هاروت وماروت. ويرى بعض الباحثين أن القصّتين كانتا متزامنتان، وأن نزول علم السحر على يد الملَكين في بابل كان ضمن حدود مملكة النبي سليمان عليه السلام[1].

(1) أبو بكر غايغو، قلعة الفطرة والمُغيرون عليها، ترجمة بسام رشيد، المؤلف نفسه، بدون تاريخ، ص 185.

وذكر المفسّرون قصة نسبة الشياطين ما لديهم من سحر إلى النبي سليمان ليفتنوا الناس به، وكأنهم جعلوا من السحر القائم على الشرك جزءًا من الوحي النبوي. قال أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة: «وروي في الحديث أنه لما مات سليمان عليه السلام عمدت الشياطين فكتبت أصناف السحر: من كان يحب أن يبلغ كذا فليفعل كذا، وجعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم سليمان وكتبوا في عنوانه: هذا كتاب **آصف بن برخيا** الصديق **لسليمان بن داود** عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم، ثم دفنوه تحت كرسيّه. فاستخرجه بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه قالوا: ما كان مُلك سليمان إلا بهذا، فأفشوا السحر في الناس، فليس هو في أحد أكثر منه في يهود»[1].

وللسحر تبعات ثقيلة على من يخوض فيه، ويعْلمها كل من سمع شهادات السحرة التائبين وقصص من هلك منهم، فالضريبة الباهظة يدفعها الساحر من صحته وسلامته العقلية وحياته العائلية والاجتماعية، كما أن السحرة الذين ينالون من نعيم الدنيا ما يشتهون ليسوا جميعًا مؤهلين لذلك كما يبدو لي من قصصهم[2]، وربما لا تبدي الشياطين الترحيب -الذي قد يخيل للقارئ- لكلّ من يعرض نفسه عليهم للتمتّع بقدراتهم، فليس كل الناس مؤهّلين مثلًا للعب دور القيادة والزعامة والتأثير في الناس، والشياطين تختار من جنودها في صفوف الإنس من يكون مناسبًا لذلك وهم قلّة.

وعندما نتحدّث عن السحر وتأثير الجن في الحواس والخواطر والنفوس، فلا بدّ من ذكر المسّ الشيطاني، وهو أمر ما زال يثير الجدل بين المسلمين في هذا العصر، وقد كنتُ أتردّد في شأنه بعد سماعي قصصًا كثيرة عن إمكان معالجة المصابين به في عيادات الطب الحديث، ثم وجدت أن الجدل كان قائمًا قبل قرون، وأن ابن تيمية رحمه الله خاض فيه بقوة وعزيمة، كما ميّز تلميذه ابن القيم بين نوعين من الصرَع، أحدهما ناتج عن «**الأرواح**

(1) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، ج 2، ص 74- 75.
(2) يمكن الاستئناس هنا بمحاضرات الساحر السوداني التائب حامد آدم المبثوثة على الإنترنت، فقد ذكر في بعضها أن الشياطين التي تُسخّر للساحر الإنسي تُدفع إلى ذلك دفعًا من قبل قادتها من الجن.

الخبيثة» أي الشياطين، والثاني عن أسباب طبّيّة جسديّة، وقال «وأما جهَلة الأطباء وسقَطُهم وسفلتهم، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة، فأولئك ينكرون صرع الأرواح، ولا يقرّون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحسّ والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط، هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها»[1].

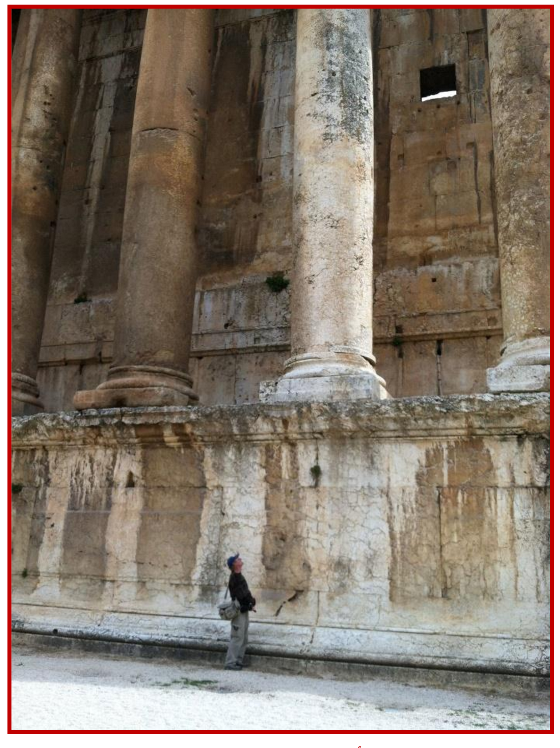
ولعل هذه الآية الكريمة تحسم الجدل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]، فالمسّ إذن حقيقة، وأثره يتّضح بتخبّط الإنس المصاب به.

أما مزاعم الأطباء بإمكان معالجة كل حالات تلبّس ومسّ الشيطان للإنسان فهي في رأيي تدور بين احتمالين: الأول أن زعمهم لم يوثّق علميًّا، فليس هناك بحث أكاديمي يستطيع حصر كل الحالات التي يتحقّق تصنيفها بأنّها مسّ شيطاني ثم يُثبت علاجها طبيًّا دون تدخل الرقية الشرعية، والثاني أنه حتى لو ثبت إمكان معالجة كل الحالات بلا استثناء فلا أستبعد أن يكون ذلك من كيد الشياطين، لا سيما في هذا العصر، فمن مصلحة إبليس تكذيب الإنسان الحديث للسحر وإنكار وجوده، تمهيدًا لإنكار الغيبيّات كلها وشيوع الإلحاد.

ولا شيء يمنع أيضًا من إمكان معالجة الأثر الشيطاني بعلاج طبِّيٍّ، طالما كان الأثر نفسه قابلًا للحسّ والمشاهدة، وهذا يعني أن المسّ الناشئ عن سحر أو عين أو حسد سيؤدّي إلى آثار محسوسة، مثل الهلوسات والصرَع والاضطرابات العصبيّة والهَذَيان، وهذه الأعراض يمكن للعلاج الطبي الكيميائيّ أن يقلّل من آثارها أو يتخلّص منها، كما يمكن للشيطان المتسبّب بها أن يكف عن افتعالها عندما يخضع المبتلى للعلاج على يد الطبيب، كي يكون العلاج نفسه فتنة ومدخلًا لإنكار الغيبيات، ولو أنه لجأ للعلاج القرآني فكان سيحصل على النتيجة نفسها، والله أعلم.

(1) ابن القيم، الطب النبوي، دار الهلال، بيروت، ص 54.

أضف إلى ما سبق قيام الجن بأعمال تتطلب قدرات فنية وعلمية وميكانيكية، وأقصد هنا الجنّ الذين سخرهم الله لنبيّه سليمان عليه السلام، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: 12-13]، أي أنهم كانوا يعملون في تشييد المباني ونحت التماثيل وصناعة الأواني العملاقة، والعجيب في الأمر أننا لم نجد من هذه الإبداعات شيئًا في آثار بيت المقدس، حيث كانت عاصمة لمملكة النبي سليمان، مع أن آثارًا أخرى ظلت محفوظة من مراحل تاريخية أقدم.



الباحث بريان فورستر أمام الحجارة العملاقة في معبد بعلبك بلبنان

(نقلا عن صفحته بموقع فيسبوك)

لكن ورود هذه الأفعال على يد الجن في القرآن يكفينا للاعتقاد باحتمال أن تكون الكثير من المباني القديمة المثيرة للعجب من صنع الجن، فحتى الآن لم يقدّم العلماء العلمانيّون أي تفسير متكامل لبناء أهرام الجيزة، وكذلك أهرام أمريكا اللاتينية ومعابد بعلبك والهند، وأقصد هنا اقتطاع الأحجار هائلة الحجم، مثل التي يبلغ وزن بعضها عند قاعدة هرم خوفو 21 طنًّا، أو الحجر الذي يبلغ طوله 12 مترًا ووزنه 110 أطنان في معبد خفرع، وكذلك رفع تلك الأحجار في أماكن لا تسمح بوجود ما يكفي من العمال والدواب، فضلًا عن دقة النحت المذهلة لصخور الغرانيت شديدة الصلابة، ودقة التناظر مع بعض النجوم والكواكب، وغير ذلك من الأسرار التي تتكشف باستمرار منذ نحو قرنين.

وتفصيل النقاش الدائر في هذا الملف لا يتسع له كتابنا ويتجاوز موضوعه، لذا أحيل القارئ الكريم إلى بعض المصادر التي تحدثت عن «**حضارة مفقودة**» أو «**تقنيات مفقودة**» كان لا بد أن تستخدم لتشييد تلك الآثار الضخمة، ومنها كتاب «**التكنولوجيا المصرية القديمة المفقودة**» Lost Ancient Technology Of Egypt للكاتب **بريان فورستر** Brien Foerster، وكتاب «**تكنولوجيا مفقودة في مصر القديمة**» Lost Technology in Ancient Egypt للمؤلف **كريستوفر دان** Christopher Dunn.

ومن اللافت أن البعض لم يجد بدًّا من اللجوء إلى فرضية الكائنات الفضائية، أي تخيّل مخلوقات لم يثبت وجودها أصلًا لإسناد تلك المهامّ الصعبة والدقيقة لها. وقد أسرف تيار كامل من الباحثين غير المتخصّصين في الدفاع عن هذه النظريّة، وعلى رأسهم الكاتب الأمريكي من أصل روسي **زكريا سيتشين**، وخليفته السويسري **إريك فون دانكن**. ومنذ 2010 تعرض قناة «**هيستوري 2**» الوثائقية سلسلة طويلة من عدة مواسم بعنوان «الفضائيّون القدماء» Ancient Aliens، وهي تلخّص كل المزاعم العجيبة لهذا التيّار على مدى أكثر من 160 حلقة.

والخلاصة أن هذه النظرية متهافتة للغاية، بل هي نموذج مثالي لعقلية المؤامرة التي يستند أصحابها في كل أطروحاتهم إلى مغالطة **الانحياز التوكيدي**، فضلًا عن إصرارهم على المبدأ المادي للوجود، وضرورة تفسير كل الظواهر بمسبّب محسوس، بحيث يُستثنى الخالق والجن والملائكة وكل الغيبيّات من المشهد، وتُنصب كائنات فضائية متطوّرة مكانهم كلما دعت الحاجة!

أما نحن فلسنا مضطرين للاعتقاد بوجود كائنات خارقة مادية، ثم نسبة تلك العجائب لها، طالما تأكد لدينا وجود كائنات قادرة على صنع الأعاجيب وهي تعيش على أرضنا، غير أنها غائبة عن الحس. لا سيّما أن كل الحضارات التي تركت لنا آثارًا عجيبة، بل خارقة، كانت قائمة على طبقة من الملوك الطواغيت، وتحتهم طبقة من الكهنة الذين جمعوا بين

احتكار علوم باطنية (غنوصية) سرية، وبين السحر والعرافة والتنجيم[1]. فالاتصال بالشياطين لدى تلك النخب أمر مؤكّد لا مجرّد نظرية، وقدرة الشياطين على البناء والصناعة مؤكّدة أيضًا بنص القرآن الكريم.

وقد لفت انتباهي ما قاله الإمام ابن تيمية رحمه الله عن توصّل الجن إلى علوم متقدمة في عصره، فذكر أن أحد الشيوخ الذين كان لهم اتصال بالجن أخبره بأن «الجن يُرونه شيئًا براقا مثل الماء والزجاج، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به، قال فأُخبر الناس به، ويوصلون إليّ كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه، فيوصلون جوابي إليه»[2]. وهذه القصة التي لم يقف الشيخ ابن تيمية على تفسير كيفيتها تذكّرني بظاهرتين، أولاهما التخاطر الذي يدعيه ممارسو طقوس الطاقات الروحانية، وهم في رأيي على اتصال بالجن من دون أن يعلموا، والثانية هي طرق الاتصال الحديثة التي تعمل بآلية فيزيائية مفهومة، ولا أجد من حيث المبدأ مانعًا من تداخل الظاهرتين، بمعنى أن الجن كانوا يدركون منذ بدء خلقتهم تلك الآلية التي لم يكتشفها البشر إلا في العصر الحديث، كما لا أستبعد أن يكون اكتشاف بني آدم للكثير من قوانين الفيزياء والكيمياء قد تمّ عن طريق التواصل بين الجنسين، ولتحقيق المصالح المتبادلة بين شياطين الإنس والجن كما جرت العادة على مر القرون.

قد يبدو هذا الطرح صادمًا لك عزيزي القارئ، وأرجو أن تصبر حتى أسترجع بعض الشواهد التاريخية لبيان مدى تغلغل الشياطين في حياة البشر، وشهوة السلطة لدى إبليس وجنده، ثم أعيد فتح ملف العلوم الحديثة، لنرى كيف يمكن فهم أعاجيب أخرى نراها في عصرنا الحالي ضمن نفس السياق.

---

(1) للاطلاع على جانب من التأثير الغنوصي الهرمسي في الحضارة المصرية القديمة، أنصح بكتاب «نبي الله إدريس بين المصرية القديمة واليهودية والإسلام» للمؤلفة الدكتورة هدى درويش.

(2) عالم الجن والشياطين، ص 27.

طموح الألوهية

ربما نحتاج إلى ثورة معرفية شاملة لإعادة كتابة الكثير من الأحداث والمفاهيم والتعريفات، ولن نخطو خطوة واحدة نحو الفهم ما لم نتحرر أولا من عقدة التوجس من «**نظريّة المؤامرة**» التي تثقل كاهل أي مفكر أو مثقف، فالشرطي الداخلي يقف بالمرصاد تجاه أي تحليل يستبطن احتمال وجود جهة تحرك الأحداث، ولو جزءًا منها، والمنظومة الفكرية والعلمية المعترف بها هي التي تؤمن فقط بانتظام الصُّدف والعشوائية، كالإلحاد تمامًا، فكما انتظم الكون الهائل -في خيال الملحد- بعكس قوانين الإنتروبيا[1]، وتشكّلَ فيه كوكب الأرض القابل للحياة، وربما كواكب أخرى مماثلة، وكما تطوّرت الحياة «**عشوائيًّا**» وارتقت أصنافها وأنواعها عبر آلية الانتخاب الطبيعي الداروينيّة حتى أنتجت كائنًا عاقلًا يكتب لك عزيزي القارئ هذه الأفكار، توالدت أيضا -في خيال المفكر الخاضع لعقلية اللامؤامرة- أفكار تلقائيّة، وتطورت مذاهب وتيارات ودول وحضارات عبر آلية الحراك الاجتماعي وصراع الطبقات دون أي نيّة مسبقة، فالأصل المقدّس في هذه العقلية هو الحكم المسبق ببراءة كل المخلوقات من احتمال التآمر والتخطيط.

سبق أن أشرت في هذا الفصل إلى كيد إبليس وجنده، وكذلك إلى بعض قدرات الجن الخارقة، وسأضيف التذكير بوعد إبليس الذي أطلقه منذ بدء قصة أبينا آدم، وحتى قبل أن نفتح عيوننا على هذا الوجود.

إبليس قال في حضرة خالقه جل وعلا: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16-17]، وكأن المسألة في رأيه تتعلق بمبدأ الانتقام، فكما طُرد من الملكوت، سيعمل هو أيضًا على إخراج أكبر عدد منا -نحن بني آدم- من الجنة، وسيبذل لذلك كل الوسائل، ويطرق كل باب، ويأتينا من كل جهة.

---

(1) قوانين القصور الحراري تنص على أن حرارة المنظومة المغلقة تميل إلى التلاشي مع الزمن، ما يعني استحالة أن يكون الكون موجودا منذ الأزل.

وكان الردّ الإلهي بتمكينه جزئيًّا، وبمنحه الأدوات والوسائل، فقال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 63-65]. ففي الآية إشارة واضحة لجيوش إبليس، وفيها أيضًا وعد له بمشاركتنا في المال والولد.

ولم يكن إبليس يبالغ عندما قال «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»، بل صدَق وعدُه فعلًا. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:20]، وما زال اللعين يصدُق، بل وعَد النبي ﷺ بأن الدين في تناقص والضلال في تزايد، فالشيطان يزداد بذلك نجاحا وغرورا.

والسؤال التالي لهذه النقطة هو: هل كان إبليس مكتفيًا بإخراج آدم من الجنة، ثم إبعاد أكبر عدد من أبناء آدم عن الجنة في الآخرة؟ وهل الحقد هو دافعه الوحيد لخوض هذه المعركة طويلة الأمد، مع كل ما يبذل فيها من جهود؟

الواقع أن إبليس يطمع بهدف أكبر، وهو تأليه نفسه، فهو لا يرى في الضالين من بني آدم سوى عبيد له، ورعايا في قطيعه. والأمر يتجاوز الحقد والحسد إلى الكبر والغرور والتأله، وهذا ما نراه واضحًا في خطابه بين يدي ربه، وتبجّحه بالتحدي، وكأنّه عندما رأى في نفسه القدرة على التمرّد والخروج عن الطاعة اعتقد أنه قادر أيضًا على الخروج عن هيمنة الله تعالى.

قد تبدو فكرة التأله ساذجة في نظر المؤمن الذي نشأ وتربى ونضج على الإيمان والعبودية لله، إلا أنّها مطروحة على ألسنة اللادينيين والشكوكيّين والملحدين من بني آدم. فالمتمرّد لا يجد مانعًا من البوح بهذا التحدّي، وحتى مع إنكار بعضهم وجود الله صراحةً فإني أرى في خطابهم السطحيّ إثباتًا ضمنيًّا لوجوده ولكن بصيغة عدم الاحترام، وكثيرًا ما يجمع تبجّحهم بين جحود الخالق وإعلان التمرّد عليه (أي الاعتراف بوجودِه) في المجلس الواحد، مع أنهما نقيضان!

والحاصل أن الغرور إذا استبدّ بعقل الإنسان فلن يمنعه ضعفه وتفاهة حجمه وقدْره عن التطلّع إلى تحدّي إله الكون، فلا تعجب عزيزي القارئ إن بلغت سكْرة الغرور بإبليس مبلغًا أكثر حمقًا، وهو الذي كان حاضرًا قبل خلق آدم، وذا مكانة في الملكوت الإلهي، ومؤهّلا لمخاطبة رب العزة مباشرة وإعلان التحدّي بين يديه.

قد لا تجد الكثير من مؤشّرات هذا التألّه في تراثنا الإسلامي، ولكن إن بحثت في التراث المشوّه والمحرّف والمزوّر فستجد العجائب، وستجتمع في يدك خيوط متشابكة لطوائف ومذاهب وأديان تكاد تشير كلها في النهاية إلى هوس إبليس بحلم الألوهية.

سبق أن أشرت إلى الحديث الذي يوثق بداية الانشقاق عن خط عبادة الله، وهو الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه وجاء فيه: «وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[1]، فكانت بداية الوثنية بعبادة الأسلاف من البشر، لكن المعابد التي بقيت آثارها تحكي لنا عما حدث بعد ذلك، حيث عُبدت أو قُدست كائنات أخرى، من الكواكب والنجوم والحيوانات والأشجار، إلا أنها كانت جميعا ترمز إلى كيانات علوية أكثر قداسة، وكأن تلك المحسوسات كانت محلًّا مادّيًّا لحلول أو تجسّد الآلهة.

المنهج العلميّ العلمانيّ الحديث يُجمع كما أسلفنا على الانطلاق من خلفية لا دينيّة، بمعنى استبعاد التأويل الديني من دائرة الفهم حتى لو كانت ممكنة، وقد لا يكون هذا المنهج نفسه سوى أداة من أدوات إبليس لتصفية العقل البشري من أي ارتباط بالوحي. وعلى هذا الأساس، ستجد أن كل دراسات الأديان والتاريخ والأنثروبولوجيا الحديثة تنطلق من مسلّمات ثابتة، ومن أهمّها أن كل القصص الدينية والسحريّة وما يتعلّق بها من غيبيّات ليست سوى أساطير خرافيّة، وعلى هذا الأساس المبدئيّ يجتهد الباحث في محاولة فهم وتفسير كل نصٍّ أو عقيدة تقع بين يديه.

لذا أصبح من المسلّمات الآن في الأوساط الأكاديمية العلمانيّة أنّ الإنسان القديم - الذي يطلِقون عليه صفة «البدائيّ»- عندما فتح عينيه على هذا العالم المعقّد لم يجد بدًّا من

(1) أخرجه في الصحيح برقم: 2865.

تخيّل قوى خفية تكمن وراء ظواهر الطبيعة، فابتكر خياله آلهة وأرواحًا وكائنات تكْمن في كل شيء وتتسبب في حركة الشمس والكواكب، وتصدر عنها أصوات الرعد وهبوب العواصف وهطول الأمطار وحدوث الفيضانات، ثم بالغ الإنسان القديم في تأملاته الخياليّة حتى أبدع أساطير وملاحم لكائنات غيبية تتصارع فيما بينها، وقد يتشكّل بعضها في هيئات متعدّدة.

وأول ما يخطر على بالي من شكوك إزاء هذا الطرح هو سبب التشابه الكبير بين تلك الأساطير في كل مكان من هذا العالم، فالاختلافات تقتصر على بعض التفاصيل غالبًا، بينما نجد إصرارًا من الإنسان القديم أينما وُجد على الإيمان بتلك الكائنات الغيبية، فلماذا لم يفكر باحتمال أن يكون كل شيء قد وُجد بالصدفة كما يعتقد الكثيرون اليوم؟ وأن يقتصر الوجود على الجانب المادي المحسوس دون غيره؟ طالما أن ملايين البشر منذ ما قبل التاريخ وإلى عصر النهضة لم يشاهدوا أو يسمعوا أو يقتربوا بأي طريقة من تلك الكائنات الخفية التي أصرّوا على وجودها!

قد يصدّق الكثيرون الأسطورة الحديثة الشائعة عن ارتباط الإلحاد باكتشاف الإنسان لقوانين الكون، وأنه عندما فهم آلية عمل الطبيعة استغنى عن فكرة التأويل الغيبي، وقد تحضُر هنا قصة الرياضي والفلكي الفرنسي **بيير لابلاس** الذي سأله **نابليون بونابرت** عن سبب غياب ذكر الإله في نسقه الكوني فأجابه -كما تقول القصة المشهورة- إنه لم يجد حاجة للإله في فهمه للكون. لكن **لابلاس** لم يكتشف حلًّا للغزٍ كان السابقون يعجزون عن فهمه، بل كان **أرسطو** يؤمن بأن الكون يمكنه أن يسير لوحده، ومع ذلك فقد كان يصر على ضرورة وجود الإله كي يكون هو «**المحرّك الأول**» لهذا الكون، فلا بد من وجود سبب وخالق حتى لو جنح العقل إلى الاعتقاد بإمكانية استمرار عمل الكون المعقّد دون تدخّل. لذا فإن نشوء الإلحاد في عصر الحداثة كان نتيجة لعوامل أخرى تضاف إلى نشوة الانبهار بالتطوّر العلمي، أهّمها شيوع ظاهرة نقد الكتاب المقدس وثبوت تهافت الأساطير اليهودية والمسيحيّة، وأيضا توجيه الثقافة العامّة صوب العلمنة وانتزاع القداسة من الوجود على

أيدي النخب التي قادت الثورات وغيرت المنظومة السياسية والاقتصادية في أوروبا، لينشأ العالم على هذا النحو الذي نراه اليوم.

وأعود مجدَّدًا إلى الشكوك، وأتساءل من هو واضع تلك الأساطير لكائنات خيالية في كل مكان وزمان؟ ألسنا نتحدّث عن حضارات كاملة تضمّ ملايين البشر؟ فما هي القصة العلميّة الموثّقة، أو حتى المرجّح حدوثها، للشخص أو المجموعة التي تفرّغت للتأمل والتفكّر وإبداع تلك القصص؟ لا بد أنها كانت عملية منظمة وموجهة، وليست مجرد فكرة خطرت على ذهن «إنسان بدائي» لتتحوّل بكل براءة إلى فلكلور شعبي وكيان ثقافي، وتقام على أساسها منظومة معقدة سياسيًّا واجتماعيًّا، وتبنى لها المعابد وتُجبى لها الأموال وتُقدّم على مذابحها القرابين الدموية.

لنعد إلى الماضي ونرى كيف تخيّل الإنسان القديم تلك المخلوقات الغيبيّة، ففي رواية يُعتقد أنها كانت متداولة عن كاهن من فترة ما قبل التاريخ، نجد وصفًا لرجال لهم أجنحة، وكان لبعضِهم جسد إنسان وقوائم ماعز، أو جسد ثور ورأس إنسان، كما تجسّد بعضهم في هيئة أفاعٍ وزواحف[1].

ومع بدء مرحلة الحضارات التي دوّنت تاريخها إثر اختراع الكتابة، نجد لدى السومريّين في بلاد الرافدين (العراق) قصصًا عن كائنات تشبه الوحوش، وبعضها مركّب أيضا من أكثر من كائن، وبعضها الآخر يتخفّى ولا يظهر إلا بعد تلاوة العزائم والطلاسم، كما تتمّتع بالقدرة على التلبّس، أي الحلول أو الالتصاق بطريقة ما في الجسم البشري[2].

انتشرت أيضًا بين السومريّين أساطير عن تحول أرواح بعض الموتى إلى هذه الكائنات المركبة، وقالوا إنها تطير باتجاه الشمس عند غروبها، ثم تتحوّل إلى كائنات شريرة في الصباح، فلا بدّ من اتقاء شرها بإرضائها. وتعيش تلك الأرواح في العالم السفلي «**كور**»،

(1) بول فريشاور، الجنس في العالم القديم، دار نينوى، ط 1، 1999، ص 26.

(2) أحمد النعيمي، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، دار سينا، القاهرة، ط 1، 1995، ص 326.

وهي تتمتّع بسلطات كبيرة وتتدخل في أعمال الآلهة، وتُنسب إليها الأمراض والزلازل والفيضانات وكافة أشكال الشرور.

ويَحفل معجم الأساطير السومرية بأسماء كثيرة لتلك الكائنات، ولكل منها صفة وشكل ووظيفة، فبعضها يطير في الهواء، والبعض الآخر يعيش في الصحاري ويظهر للمسافرين وقوافل التجار، ولا بد من اللجوء للكهنة كي يمارسوا طقوسهم الخاصة التي تلجم تلك الكائنات وتحمي الناس من شرها، أو لاستدعاء كائنات أخرى طيبة وطلب مساعدتها[1].

أما أهم تلك الكائنات السومرية فهو إله العالم السفلي «**إنكي**»، ففي مقابل استعلاء **آن وإنليل**، اهتم السحرة بإنكي وجعلوه أكثر الآلهة قربًا من البشر، وقالوا إنه كان يعلم جميع الأسرار التي أخفتها الآلهة فقرر أن يكشفها للإنسان الأول، لا سيما بعدما اكتشف خطط الآلهة التي أرادت حرمان البشر من المعرفة، لذا كان الناس يعودون إليه ليستوضحوا منه بعض الأسرار، وهي ليست سوى خليط من علوم الهندسة والطب والرياضيات مع فنون السحر والتنجيم والشعوذة.

وبالطريقة نفسها تقريبًا، تقول الأسطورة البابلية إن الإله «**نرغال**» تمرّد على الآلهة ورفض أن يُظهر الاحترام لرسولها «**أريشكيجال**»، فعوقب بالهبوط إلى العالم السفلي، وتحول هناك إلى إله مستقل ومتمرد في مملكته الخاصة به، وهي عالم الظلام والموت والكوارث[2].


منحوتة للمعبود نرغال

سأعود إلى قصّتَي **إنكي ونرغال** بعد قليلٍ، فأرجو أن تبقيهما في ذاكرتك الحاضرة عزيزي القارئ، واسمح لي بمتابعة الحديث عن اعتقاد البابليّين بوجود كائنات ذات

(1) خزعل الماجدي، بخور الآلهة، دار الأهلية، عمان، ط1، 1998، ص 203- 212.
(2) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1988، ص 290- 293.

أصل إلهي في العالم السفليّ، فهي أيضا مركّبة من أجساد تجمع بين أعضاء بشرية وحيوانية، والعجيب في هذه القصة أن الإله **مردوخ** -بحسب الأساطير البابليّة- عندما أراد خلق الإنسان لم يجد طريقة أفضل من قتل الشيطانة **تيامت**، ثم مزج دمها بالتراب، ما يعني أن الإنسان خُلق من دم شيطاني ممزوج بتراب الأرض، وكأن واضع هذه القصة ليس إلا شيطانًا تدخَّل في قصة الوحي ليجعل بني آدم تبعًا لإبليس حتى في أصل خلقتهم!

والمهم هنا أن سكان بلاد الرافدين القدماء عبدوا تلك الكائنات الخفية، والتي قالوا عنها إنها كانت تتجسّد على هيئة حيوانات، أو في صور مرعبة تمزج بين الحيوان والإنسان، ولم تكن عبادتهم لها سوى اتّقاء لشرّها في الغالب، بينما كان بعضها يُعبَد لطيبته، ولما يُظهره من قدرته على حمايتهم من الآلهة الأخرى الشرّيرة. وكان السحر والتمائم والطلاسم وتقديم القرابين هي الطريقة المعتمدة للتواصل مع هذه الكائنات، كما كان هناك سحرة أشرار يسلّطون تلك الكائنات القادمة من العالم السفليّ على بعض الناس، فلا يُتّقى شرها إلا باللجوء إلى كهنة يمارسون طقوسًا مضادّة لدفع ذلك السحر والبلاء.

وكي لا أطيل في سرد الأمثلة، أحيلك عزيزي القارئ إلى المراجع المتخصّصة في تاريخ الأساطير، وستجد أن الآشوريين والآراميين والكنعانيين والفينيقيين فعلوا الأمر نفسه، مع اختلافات بسيطة في التفاصيل والمسميات، فكانت جميع تلك الحضارات تتقرّب إلى إله العالم السفلي وتعبده، سواء اتقاء لشرّه بعدما تحول إلى سيد لمملكة الشر، أو حبًّا له بعدما اقتنعوا بأنه كان يريد الخير للإنسان قبل أن يُطرَد من السماء.

وإذا تأمّلت قليلا في تراث الأقدمين، سيلفت نظرك ما حظيت به الشمس تحديدًا من مكانة بالغة، وإذا كان التأويل العلماني يكتفي بالظواهر، فلا يرى في ذلك سوى تقديسًا من «الإنسان البدائيّ» للنجم الوحيد الذي يمنح الأرض دفئها وحيويتها، فإن بعدًا آخر أكثر خفاء يتضح لنا في الأحاديث النبوية التي نهت عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، ففي رواية بصحيح **مسلم**: «**فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار**». قال **النووي**: «قيل القرنان ناحيتا الرأس، وأنه على ظاهره وهذا هو الأقوى. قالوا ومعناه أنه يدني رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في

الصورة، وحينئذ يكون له ولبنيه تسلّط ظاهر، وتمكُّن من أن يلبّسوا على المصلين صلاتهم، فكُرهت الصلاة حينئذ صيانة لها»[1]، وقد أيّد **ابن قتيبة** في «تأويل مختلف الحديث» هذا التفسير.

إذن فعبادة الشمس لم تكن في حقيقتها سوى عبادة لإبليس نفسه، وما زال ممارسو اليوغا والطقوس الهندوسية وأتباع **حركة العصر الجديد** New Age movement في عصرنا هذا يمارسون طقوسهم عند شروق الشمس أو غروبها، وما زالت الماسونية تسمي محافلها الكبرى باسم «**الشرق الأعظم**» Grand Orient، وتشترط تشييد كل محافلها في اتجاه المشرق كما تُشيّد المساجد باتجاه القبلة.





وفي مصر القديمة، كان كبار الفراعنة يزعمون أنهم أبناء «**رع**» المتمثّل بالشمس، كما كانوا يمثلون الإلهة **إيزيس** أحيانا على هيئة تماثيل ونقوش لامرأة وعلى رأسها قرص الشمس بين قرنين.

ولم تكن إيزيس كغيرها من الآلهة المصرية، بل جعلوها إلهة كونيّة تنظّم حركة الشمس والقمر والنجوم، فتضمن بدورها خصوبة الأرض، كما أرجعوا إليها الفضل في اختراع الزراعة وسنّ القوانين وتطوير الحضارة[2]، وهنا نرى دورًا

(1) الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، ج 6، ص 112.

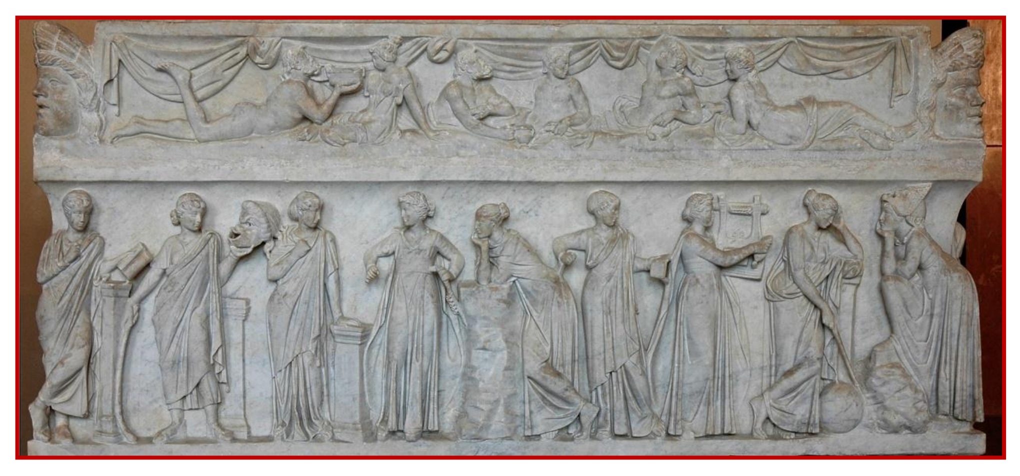
(2)Friedrich Solmsen, Isis among the Greeks and Romans, Harvard University Press, 1979, p. 35.

واسعًا لهذا الكائن الذي يتطابق مع صفات إبليس، فلم يعد مجرّد إله للعالم السفلي الذي تصدُر عنه الشرور ويُتّقى شرّه كما في العراق والشام، كما لم يكتف بأنه حامل للخير وشعلة الحضارة والعلم كما في حضارات أخرى، بل صار هنا يتمتّع بسلطة التحكم في الكون وحركة الكواكب وتعاقب الليل والنهار وفصول السنة، وكل ما ينشأ عن ذلك من تبدل في حياة الناس وأرزاقهم، ولم يعد ينقص إبليس سوى دور الخلق فقط، وهو أمر يبدو أنه لا يطمح إلى ادعائه.

أما في بلاد **الإغريق** فيبدو أن الأمر كان أكثر سوءًا، إذ أصبحت الآلهة كلها تقريبًا دون مستوى القداسة، فليس بينها من هو منزّه عن الرذائل والشهوات التي تعترينا نحن البشر، فضلًا عن صفات الشياطين. خذ مثلًا كبير الآلهة **زيوس**، فالملاحم تذكره على هيئة رجل شهواني وطماع، لا يريد الخير للناس، وكأن الإله السماوي هنا قد تبادل الأدوار مع إله العالم السفلي! وهناك أيضًا طيف واسع من الكائنات الغيبية التي تحمل صفات الجن المتخفّين عن عيون البشر، وبعضهم يتمتّع بالقدرة على التشكل والظهور في هيئة مركبة من البشر والحيوان، وهم يحترفون الإغواء بالجنس والغناء الجميل.

وخذ على سبيل المثال، ربّة القمر **هيكات** «إلهة الظلام» التي اعتقدوا أنها تظهر عندما يكتمل القمر، وكانوا يتقرّبون إليها بالسحر، وقد تظهر على هيئة كلب أسود. واللافت أن أتباع الطوائف الوثنية (**ويكا**) في عصرنا الحالي يمارسون طقوسًا لعبادة **هيكات** نفسها، وقد وجدتُ في مواقعهم الإلكترونية شرحًا لبعض هذه الطقوس التي تتطابق تمامًا مع أعمال السحر في استحضارها للشياطين، وليس هناك دليل أوضح من هذا على أن القدماء عبدوا شيطانًا تجسّد لهم وهم يحسبونه من الآلهة.

وكما رأينا في حضارات أخرى، نجد أيضا لدى اليونانيّين آلهة تقدِّم المعرفة والإلهام للبشر، ومنها مثلًا إله يحب الخير للناس ويعلمهم الطب يدعى «**خيرون**»، أما الفنون فتخصّصت فيها تسع إلهات سميت بالميوزات، وكن يتجسّدن على هيئة نساء حسناوات، ولكل واحدة منهن اسم وتخصّص، فمثلًا كانت **كاليوبي** إلهة شعر الملاحم، **وثاليا** إلهة الكوميديا، **وتيربسيكوري** إلهة الرقص والأغاني التي تؤدى جماعيًّا، وهكذا.

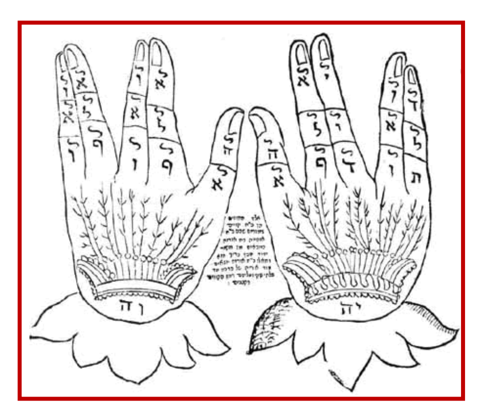


الميوزات التسعة في منحوتة تعود إلى القرن الثاني الميلادي

وهذا الارتباط الوظيفيّ بين المعرفة والعلم والإلهام والإبداع، وبين الآلهة التي تُعبَد بالسحر وتُقدم لها القرابين، ظلّ يتكرّر تقريبًا في كل الحضارات السابقة، ولا يكاد يحتاج إلى دليل لنثبت للقارئ العزيز أنه ليس سوى عبادة لإبليس وشياطينه، لا سيما عندما نرى هذه القصة وهي تتخلّى عن طبقات الغموض لتتّضح أخيرًا في النسخة المحرفة من التوراة، ولنجد أنفسنا أمام إبليس وهو يكشف عن وجهه بكل جلاء في قصة «**لوسيفر**» أو حامل الضياء، فأحبار بني إسرائيل الذين أعادوا كتابة سفر التكوين على طريقتهم زعموا أوّلًا أن إبليس من الملائكة، ثم جعلوا الشجرة المحرّمة في الجنة شجرة للمعرفة، وزعموا أيضًا أن الإله نهى آدم عن الأكل منها كي لا يكتشف الحقيقة ويصبح خالدًا مثله، فالإله جل وعلا حسب زعمهم خدعه وأوهمه بأنه إن أكلها سيموت. وفي المقابل، سعى إبليس لمساعدة آدم بالتجسّد على هيئة حيّة للتسلّل خلسة إلى الجنة وإطلاع آدم على سر الشجرة، ما يعني أن الإله –سبحانه– في أسطورتهم هو المضلّل، وإبليس هو المنقِذ، ولذا أسموه حامل الضياء، أو حامل شعلة المعرفة.

وبحسب الأسطورة، عندما نزل آدم من الجنة هبط معه إبليس ومجموعة أخرى ممن بات اسمهم «**الملائكة الساقطة**»، فهم ليسوا من الجنّ، إذ حذف الأحبار جنس الجن من القصة حتى لم يعد لدى اليهود والنصارى اليوم أي نصّ يدل على وجودهم، فالأسطورة

التوراتيّة زعمت أن فئة من الملائكة تمرّدت على الإله وخرجت عن سلطته، فطردهم من السماء وأنزلهم إلى الأرض، وما زالوا حتى الآن خارجين عن سلطته ومتناول قدرته[1].



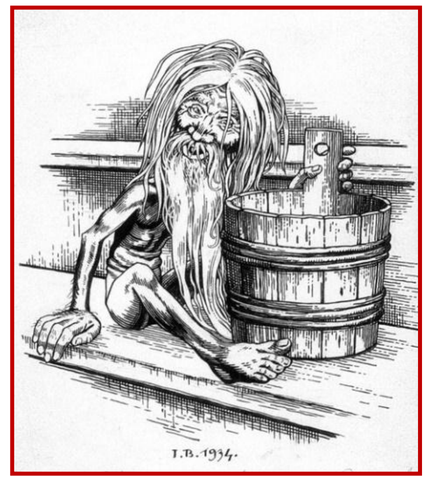
في المرحلة التالية من التحريف، تغلغلت الأفكار الباطنية (**الغنوصية**) في الديانة اليهودية على يد أحبار **القبّالاه (الكابالا)**، ونشأت فكرة الحلولية والاتحاد، أي حلول الإله في الكون واتحاد الإنسان به، مع صعود العقيدة الثنوية (**ثنائيّة الإله**)، فنتجت فكرة تأليه إبليس، إذ لم يعد مجرّد ملاك ساقط يتمتّع فقط بقوى خارقة وبالقدرة على التمرّد والرغبة في نفع بني آدم، بل أصبح إلهًا أرضيًّا مقابلًا للإله السماوي، ولم يعد الاتحاد الصوفيّ الغنوصيّ بالإله السماوي سوى قشرة ظاهريّة لحقيقةٍ أخرى، وهي الاتّحاد بالإله الآخر، أي إبليس نفسه، والطريق المؤدّي إلى ذلك هو السحر والطلسمات والتنجيم وبقية العلوم السرّيّة[2].

يتّضح الآن مما سبق –وقد آثرت الاقتصار على أمثلة مختصرة جدًّا– أن إبليس وبقيّة الشياطين لم يوفّروا أي فرصة لاتّخاذ موقع الآلهة التي تعبد، أيّ منافسة الله جل وعلا على الألوهيّة، وليس الاكتفاء فقط بتضليل بني آدم وصرفهم عن عبادة ربهم والإيمان به وحده. ويبدو أن الطرق والوسائل والمناهج تتفاوت وتتنوّع بتنوّع الشياطين أنفسهم وتنوّع عابديهم، فهناك من يُعبَد اتقاءً لشرّه، وهناك من يقدّم نفسه في صورة الإله الخيّر والحامل

(1) يرى اليهود والنصارى أن الملائكة ينقسمون إلى طبقتين: الأولى تدعى **السيرافيم**، ولم يسقط أحد من أفرادها، بل عملهم هو تسبيح الله وطاعة الأوامر، والثانية تدعى **الكاروبيم**، ويندرج منها إبليس الذي سقط وأسقط معه الكثير من الرؤساء والأرباب، وهؤلاء هم المعنيّون بمقولة شاؤول، الذي كان أول من حرّف دين عيسى عليه السلام ويسمى اليوم بالقديس بولس الرسول، فقال في إحدى رسائله: «**فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين، مع أجناد الشر الروحية في السماوات**» [رسالة أفسيس: 6/ 12].

(2) محمد حمزة الكتاني، مفهوم الخلاص في الديانة اليهودية، دار الكتب العلمية، 2012، ص 94.

لشعلة المعرفة وجذوة الإبداع، وأنه يستحقّ التقديس والتقرب انتفاعًا بما لديه، وهناك أيضًا شياطين تقدم نفسها في موقف وسط، فهي ليست شريرة بالمطلق، بل لديها نزوات وشهوات كما هو حالنا نحن، وقد تضعف وتخطئ، إلا أنها تظلّ كائنات خارقة وفي مرتبة أعلى من البشر فتستحقّ أن تُعبد، وربما أيضًا تستحق الشفقة والتعاطف بعدما طردتها الآلهة الأخرى من السماء إلى الأرض، فأصبحت مثلنا نحن البشر، ولا ينبغي إذن أن تكون ذنوبها مبرّرًا لهذه العقوبة «**القاسية**».



بانيك

ولا تحسب أخي القارئ أن عبادة تلك الشياطين كانت محدودة بجدران المعابد ومذابح القرابين، بل كانت حاضرة في حياتهم اليومية، فهناك تجسّدات لا تحصى للشياطين التي نقلتها لنا سجلّات الأساطير والأشعار والحكايات من كل شعوب الأرض، وهي أيضًا تتشابه في الكثير من التفاصيل بالرغم من تنوّعها بتنوّع البيئة والظروف، ومن أشهرها أشباح المنازل، مثل «**بانيك** Bannik» الذي سُمي بشبح الحمّام لاعتقاد بعض الشعوب الروسيّة بأنه يعيش في الحمّامات السلافية، التي تشبه حمّامات البخار والساونا اليوم، وكانت بمثابة نوادٍ اجتماعية مخصصة للنساء، يلدن فيها ويمارسن التنجيم، فكان من الضروري وجود شياطين في مثل هذا المكان.

ومن الأمثلة أيضا الشبح «**دوموفوي** Domovoi» الذي آمن بوجوده السلافيّون في روسيا وشرق أوروبا، و«**نيسي**» الذي اعتقد به **الإسكندنافيون**، وكان كلاهما على هيئة قزم له لحية طويلة لا يُرى بالعين، وهو كائن يتعايش معه سكان المنازل ويتركون له بعض الطعام والشراب على المائدة، ويعتقدون أنه سيحميهم من الأخطار لو أحسنوا معاملته،

وما زال الكثير من الناس يؤمنون به حتى اليوم ويطلبون من الكهنة أن يبارك لهم أي منزل ينتقلون إليه كي ينتقل معهم ذاك القزم الذي أصبح جزءًا من حياتهم[1].



وتمتلئ الميثولوجيّات الأوروبية بشياطين آخرين يشاطرون الناس تفاصيل حياتهم، مثل الحوريات الصغيرة الجميلة (**فيري**) التي تعيش في الغابات وتطير كالفراشات. وكائنات **الهولدرا** التي تتخذ هيئة النساء الفاتنات وتعيش في الغابات، وكانت تغري الرجال بسحرها. وكائنات **الترول** المذكورة في القصص النورديّة القديمة، وهي تسكن في الجبال والكهوف وتفضل اعتزال البشر. ومثلها أيضًا كائنات **الفيترا** التي تعيش تحت الأرض، وهي كذلك تعتزل الناس ولا تتدخّل في شؤونهم ما لم يتعرّضوا لها ويؤذونها، أما أشهر تلك الكائنات فهي «**الآلف**» التي وردت في الميثولوجيا الإسكندنافيّة والنورديّة والجرمانيّة، وهي كائنات خالدة صغيرة الحجم تعيش في الغابات والكهوف، لها آذان مدبّبة وأجسام رشيقة وهيئات جميلة، وتتمتع بقوى سحرية قد تستخدمها في الخير أو الشر.

ومع أنّ هذه الصفات موجودة أيضًا لدى كائنات مماثلة عرفتها أساطير العراق والشام وشعوب أخرى كما أسلفنا، لكن سيطرة الغرب على منابر الثقافة والترفيه في عصرنا هي السبب في شيوع أسماء هذه الكائنات تحديدًا في الروايات والأفلام الحديثة، والتي أصبحت حاضرة في منازلنا ويعشقها أطفال العالم أينما وجدوا.

وفي العقود الأخيرة، لا يمرّ عام واحد قبل أن تنتج استديوهات هوليود وأوروبا واليابان وغيرها عدة أفلام ومسلسلات عن قصص تلك الكائنات، فضلًا عما لا يحصى من

(1) نورا جنداوي، المعتقدات السلافية: ماضٍ ينهض من جديد، موقع السبيل al-sabeel.net، 7 يناير 2021.

ألعاب الفيديو والأغاني المصورة (الفيديو كليب) والكتب والروايات ومجلات الرسوم (كوميكس)، وهي تُقدَّم لنا في صورة الفانتازيا الحالمة التي تداعب خيالنا بكل براءة، دون أن تنتبه الغالبيّة الساحقة من الناس إلى التطبيع الذي يحدث كل يوم مع عالم الشياطين، كما كان الحال منذ عصر الوثنيّة الأولى.

وهذا الواقع المعاش هو الإجابة التي أقدّمها للقارئ إذا سألني عن سبب غياب الشياطين عن عصرنا الحالي، فإذا كانت الشياطين قد اعتادت على التجسّد والظهور قبل آلاف السنين في هيئة كائنات مركّبة من الحيوانات والبشر، أو حوريّات تغري الرجال، أو كائنات نورانيّة تلهم الباحثين عن الحقيقة، أو في صورة وحوش وعفاريت وغيلان وتنانين تنفخ النيران وتتسبّب بالأمراض وتقطع الطرق، وإذا كانت تظهر في الماضي أمام عيون «**الإنسان القديم**» في المعابد المكرّسة لتقديسها وتقديم القرابين بين أيديها، أو تترك آثارها في منازلهم عندما يطلبون خيرها ويتعوّذون بها من شرها، أو يلمحون مرورها وتجسّدها في الغابات والحقول والصحاري والكهوف، أو يتصارَعون معها فتفتك بهم أو يفتكون بها، فلماذا لم نعد نشهد هذه المواقف اليوم؟ أو لماذا تقتصر تلك المشاهدات والتجارب على من يمارسون السحر فقط؟

هذه الأسئلة الاعتراضيّة أسمعها كثيرًا حتى من قِبل مسلمين متديّنين لا ينكرون وجود الجن والسحر، والحقيقة الموضوعيّة هي أن كل فرد منا يحكم على الواقع من خلال تجاربه ومعلوماته وما انتهى إلى سمعه وبصره، فيَحسب لا شعوريًّا أنه «**مركز الوجود**» ويقيس الواقع الموضوعي على ذاته. لذا يغيب عن كثير منّا أن هناك تجارب ومشاهدات لا تحصى في العصر الحديث تتطابق مع كل ما نُقل إلينا عن العصور السابقة.

في الفيلم الوثائقي «**الكابوس**» The Nightmare المنتَج عام 2015 قدّم المخرج الأمريكي **رودني آشر** روايات واقعية على ألسنة أصحابها ممن يعانون منذ سنوات طويلة من الكوابيس، ولا أقصد الأحلام المزعجة التي نعرفها جميعا بل التواصل خلال النوم مع كائنات تتجسّد على هيئة أشخاص في هيئة مظلمة، أو حيوانات، وإذا اتّضحت ملامحها

فهي تشبه الصورة المتداولة للكائنات الفضائية ذات العيون الواسعة والمدببة. ومعظم المتحدّثين يؤكّدون أنهم يعيشون تجارب حقيقيّة لا خياليّة، وأحدهم يقول إن زوجته التي كانت نائمة بجانبه رأت بعينها قطة سوداء تجلس على صدرها وتتحدث إليه، فهذه ليست مجرّد أحلام يهلوس بها صاحبها بل حضور حيّ لكائنات متجسّدة يراها الآخرون. وثمّة قصص أخرى يؤكد فيها ضيوف الفيلم أنهم رأوا تلك «**الشياطين**» -كما قالوا- في اليقظة أيضًا، ولا ينتهي الفيلم قبل التأكيد على أن تجارب المعاناة مع هذه الكائنات التي تؤدي إلى «**شلل النوم**» -وهو المصطلَح المعترف به طبّيًّا- منتشرة حول العالم بالطريقة نفسها، ولكن مع اختلاف المسمّيات فقط.



صورة تمثيليّة لما يراه ضحايا فيلم الكابوس أثناء نومهم

ومع أنّ الفيلم يتحدّث عن تجارب أشخاص أمريكيين ممن لا يلعب السحرُ والجن والروحانيّات أي دور في تشكيل خلفيّاتهم الثقافية، ومع أنه مجرّد مثال من بين أفلام وكتب تؤكد انتشار هذه الظاهرة بين سكّان المدن الغربيّة، لكن البعض سيحاجج بأن قصص الجنّ تنتشر بين سكان الأرياف والصحاري بدرجة أكبر، إذ ما زالوا يتحدّثون عن نفس المشاهدات القديمة للكائنات العجيبة ويتداولونها، لكن هذا في رأيي ليس نتيجة جهلٍ بالضرورة، ولا لأن «**نور التعليم العلماني**» لم يشرق على قراهم وبواديهم كما في المدن المتحضّرة، مع أن هذا قد يكون تفسيرًا محتملًا في بعض الحالات، بل لأن مصالح الشياطين في تضليل بني آدم واستعبادهم قد تتفاوت بين الريف والبداوة والحضر، فتضليل

سكان نيويورك بالإباحيّة والإلحاد ونمط الاستهلاك يمكن أن يعبر إلى العقول والقلوب عبر الوسائل الحديثة المبهرة، أمّا تضليل سكان بلدة ريفية بولاية **نبراسكا** مثلا (أي في أمريكا نفسها) فمن الأسهل أن يحدث عبر الخرافات القديمة. وإذا ابتعدنا قليلًا، فيبدو من الأسهل لإبليس أن يستعبد مئات الملايين في الهند باليوغا، وحشودًا أخرى في بلد عربي بحضرات التصوّف البدعية، وشعبًا آخر بحفلات الزّار[1]، وفئة أخرى في بعض أرياف المسلمين أنفسهم بالسحر والشعوذة، وهلمّ جرًا.

خطّة الشيطان للتألّه والتضليل والإفساد تتغيّر بحسب البيئة والظروف والزمان، فلما كان الناس يعيشون في مجتمعات قائمة على الوثنيّة والدكتاتوريّة الشموليّة، كانت المعابد تبنى لعبادة الشياطين، وكانوا يتجسّدون ويظهرون للناس الذين تشبّعت قلوبهم بالرهبة من هذه الكائنات حتى اعتقدوا أنها آلهة، ولم يجرؤوا على مقاومتها. وعندما بُعث النبي ﷺ وعاد نور الوحي إلى أرض العرب، وهي منطقة سبق أن عاثت فيها الشياطين فسادًا وبدّلت في عقائد الناس كأي بقعة أخرى العالم، عندئذ قال النبي لأصحابه «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[2] فلْنلاحظ هنا أن اليأس أصاب إبليس من أن يُعبد هو وليس أن تعبد الأوثان، وهذا يعني أنه كان يُعبَد فعلًا قبل أن يصيبه اليأس ببعثه المصطفى ونزول الوحي، فالأوثان إذن لم تكن سوى واجهة للشياطين.

ولكن هذا اليأس مؤقّت، فقد أكّد النبي ﷺ في عدة أحاديث صحيحة أن عبادة الأصنام ستعود إلى جزيرة العرب في آخر الزمان، ومنها **اللات والعزى وذو الخلَصة**. كما أن هذا اليأس كان محددًا بحدود جزيرة العرب التي استنارت بنور الوحي وقامت فيها دولة الإسلام، لكن إبليس لم ييأس من أن يُعبد في بقية أقطار الأرض آنذاك.

أما في عصرنا الحديث فلم يعد الشيطان بحاجة إلى أن يُعبد جهارًا طالما كان من

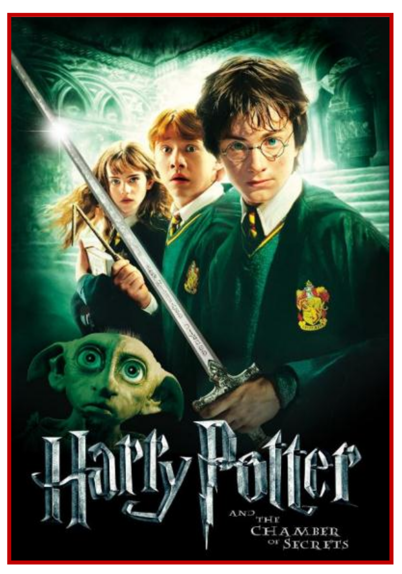
---

(1) **الزار** هي مجموعة من طقوس الغناء والرقص الشعبية، ذات حركات وعبارات خاصة، يصاحبها إطلاق أنواع من البخور ودقات معينة صاخبة على الدفوف، وهي في الأصل طقس وثني أُخِذ من القبائل الأفريقية القديمة، وانتقل من الحبشة إلى السودان ومنها إلى مصر.

(2) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، برقم: 2812

الأفضل له ألا يؤمن الإنسان الحديث بوجوده، بل يغرق في الضلال إلى درجة إنكار وجود الإله نفسه وكل الغيبيّات، بما فيها الشياطين. لذا يبدو أن إبليس استغنى عن أساليبه القديمة في أجزاء واسعة من العالم الحديث، واستبدل بالمعابد والهياكل منابر هوليود ومسارح الموسيقى وشاشات التلفزيون والهواتف المحمولة، وحتّى قاعات الجامعات الرصينة التي تجعل من اللادينية شرطًا للمنهج العلمي.

وفي الوقت نفسه ما زالت هناك شعوب في العصر الحديث تمارس الطقوس القديمة، وتعبد الشياطين كما كان أجدادها يفعلون، بل يزداد أتباع هذه الوثنيات القديمة في الدول الغربية نفسها تحت مظلّة **حركة العصر الجديد**، وفي ممارسات اليوغا والعلاج بالطاقة والطب البديل وأبواب أخرى لا تحصى.



ألا يلفت نظرك عزيزي القارئ إصرار كل الشركات الكبرى العاملة في الصناعة الثقافية والترفيهيّة على إغراق أطفال العالم كله بقصص السحر والعفاريت؟ وهل لاحظت مثلي أن السحرة لم يعودوا يظهرون في صورة الأشرار كما كانوا في أدب القرون الوسطى أثناء سيطرة الكنيسة؟ لقد تحوّلت الكاتبة البريطانية **جوانا رولينغ** من أم عاطلة عن العمل إلى مليونيرة بعد تأليف سلسلتها الشهيرة «**هاري بوتر**»، وتحولت شخصيّة هذا الساحر المراهق إلى أحد أعلام الثقافة المعاصرة بعدما استثمرت فيه هوليود ببذخ، بل يبدو أن بريطانيا -بحكومتها ذات الارتباط الوثيق بالكنيسة- ترى في شخصية الساحر اللطيف رمزًا يجب تبنّيه رسميًّا، ولن تفاجأ إذا رأيت متجرًا متخصّصًا في بيع منتجات **هاري بوتر** فقط في مطار هيثرو بلندن، بينما تعرض المحلات الأخرى تذكارات متنوعة، وكأن هذا الساحر يمثّل بريطانيا نفسها.

وفي المقابل، يصر المثبّطون دائما على ربط انتشار كل قصص السحر والتطبيع مع الشياطين بالربح التجاري، وبرغبة الجماهير في مشاهدة هذه الأعمال التي تداعب خيالهم، مع أن القصص الدينية -سواء كانت يهودية أو مسيحية أو إسلامية- يمكنها أن تداعب الخيال وتحقّق الأرباح أيضًا، لكن شياطين الجن والإنس المتنفِّذين في مفاصل القوى والتأثير ليسوا بهذه السذاجة، ولم يكن الربح يومًا هو هدفهم الوحيد، حتى قبل أن يسيطروا على ثروات العالم.

علم وسحر

خلال مراحل متفاوتة من التاريخ، لم تكن أدوار الجمعيات السرّيّة في التأثير على صناع الرأي والقرار، خافية على أي مؤرخ منصف، باستثناء من يفكر مسبقا بعقلية اللامؤامرة، غير أن نفوذ هذه الجمعيّات أخذ بعدًا آخر في القرون الأخيرة، ولا سيما إبّان الثورة الفرنسية وما بعدها، حيث ارتسمت ملامح النظام العالمي الحالي، وخرائطه وسياساته، وهويّاته المتصارعة.

وأبرز تلك الملامح استبعاد **البعد الديني** من أي مشهد خارج أسوار المعابد، وفرض العلمنة القسريّة -بدرجات متفاوتة- على الفضاء العام، باعتبار أنّ الدين لا يمكن أن يجتمع مع أي شيء آخر، في السياسة والقانون والفكر والعلم والفن، وحتى لو تضمّن النص الديني ما يتقاطع مع بعض دوائر اهتمامات المجالات الأخرى فينبغي اقتطاعه، وإقناع البشر بأنّ الدين هو الشيءَ الوحيد الذي يتناقض مع أي شيء آخر، وأنه لا يملك أي قدرة تفسيريّة لأي شيء، حتى للقضايا الوجودية التي كانت على مر العصور من اختصاص علماء الأديان والعقائد، فقد وُضِعَت هذه المهمّة أولًا في يد الفلاسفة الملاحدة، ثم زعم كهنة معابد العلم أن الفلسفة نفسها ماتت ولم يبق سوى علماء المختبرات والرياضيّات لتولّي هذه المهمة المستحيلة[1].

(1) انظر على سبيل المثال مقدمة كتاب «التصميم العظيم» للفيزيائي ستيفن هوكنغ (2010)، إذ يقول في مقدمته =

والشائع في كل الأوساط العلمية اليوم أن مؤسّسي العلوم الحديثة -منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر- هم أقطاب التوجه العلمانيّ بالضرورة، فإن لم يكونوا ملحدين أو لا دينيين فلا بد -حسب الشائع- أنهم كانوا لا أَدَرِيّين أو متشكّكين أو ربما يخفون هرطقتهم في قلوبهم خشية بطش الكنيسة، وكأن النزعة العلميّة لا تجتمع لدى أولئك الرواد مع أي ميول دينية أو اعتقاد بالغيب والميتافيزيقا.

لكن التحقيق التاريخيّ يؤكّد العكس، ولا أقول إنّ الكثير من العلماء يؤمنون بالله ويعتزّون بمسيحيّتهم، بل كان الكثير من أقطاب النهضة العلميّة أعضاء في الجمعيّات السرّيّة، ومنشغلين في التبحّر بالمذاهب الباطنية، بل كان بعضهم يمارس السحر ويتقرّب إلى الشياطين، وكانوا يتزعّمون تلك الجمعيات كما يفعل كهنة المعابد!

وإن شئت العودة إلى الجذور فستجد بين السحر والعلم تداخلًا يكاد يكون عضويًا يصعب انفكاكه. خذ مثلًا اليوناني **فيثاغورس** الذي اشتهر بنظريّات حملت اسمه في الهندسة والحساب، إذ لا يعلم معظم الناس اليوم أن هذا العالِم الذي ولد قبل الميلاد بنحو ستمئة سنة كان من أهم أقطاب الجمعيات السرّيّة في التاريخ، فقد طاف العالم لتعلّم السحر والعلوم الباطنيّة على يد معلّمين من القبّاليين اليهود وكهنة جمعيّة **إيزيس** السرّيّة في مصر، وجمعيّات أخرى في سورية وبلاد الفينيقيّين والكلدانيّين والبابليّين، ثم أودع أسراره في الجانب الذي ندرسه اليوم من إرثه العلمي الذي نراه مجرّدًا عن السحر.

وفي القرون اللاحقة المسمّاة بالعصور الوسطى، لم ينفكّ ارتباط الأساطير والسحر والخيمياء عن بقيّة العلوم إلا نادرًا، وحتى في العالم الإسلامي الذي يحرَّم فيه السحر تحريمًا قاطعا، وأزعم أن الدراسات التاريخية لم تولِ هذا الجانب ما يستحقّ من البحث، فنحن مولعون بالتباهي بإرثنا الحضاري في العصور الذهبيّة للحضارة الإسلامية على اعتبار

= بجرأة عجيبة إن «الفلسفة قد ماتت»، كما حاول هوكنغ في سلسلة وثائقية بعنوان «العباقرة» من إنتاج شبكة ناشيونال جيوغرافيك أن يخوض في المسائل الوجودية الفلسفية باستخدام أدوات العلم التجريبي، ومنطلقًا بالضرورة من مبدأ الإلحاد.

أن ذاك التطوّر العلمي كان نتيجة لتمسُّك العلماء والأمراء بتعاليم الإسلام، وهذا صحيح جزئيًّا غير أنه يُغفل جانبًا كبيرًا من الصورة، فالكثير من علماء الكيمياء والطب والهندسة والفلك في التاريخ الإسلامي كانوا من الباطنيّين المنشغلين أيضًا بالجانب السحريّ الشيطانيّ للعلوم، وقد كان الأقدمون على علم بهذا التداخل وحذّروا منه، وعلى رأسهم **أبو حامد الغزالي** الذي حذر في كتابه «**تهافت الفلاسفة**» من أن يؤدّي انبهار ضعاف العقول من العوام بالعلوم إلى الاعتقاد بعصمة الفلاسفة في جميع ما يقولون، غافلين عن أن البراعة في مجال محدّد لا تعني البراعة في جميع ما سواه، لا سيّما أن **الغزاليّ** كان منشغلًا بمكافحة الموجة الباطنّية الطاغية على يد الطوائف الإسماعيليّة آنذاك، فألّف ضدهم كتابه «**فضائح الباطنية**»، لكنه في الوقت نفسه لم يقلل من شأن العلوم المجردة، كالرياضيات التي قال إنه لا معنى لإنكارها، ولا للمخالفة فيها، فإنها ترجع إلى الحساب والهندسة، وهي أمور برهانيّة لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها[1].

وإذا كان بعض الفقهاء قد ميّزوا بين علوم مذمومة وأخرى محمودة، بناء على معيار علاقتها بالسحر والغنوصية، فقد رأى بعضهم صعوبة التمييز في بعض العلوم، وخصوصًا علم الفلك الذي كان قائما أصلًا على التنجيم، لا سيما مع ضعف أدوات الرصد آنذاك، وكذلك الكيمياء لارتباطها الشديد بالخيمياء واشتباهها بالسحر. لذا قالها إخوان الصفا بصراحة في رسائلهم -وهم أعضاء جمعية سرية باطنية- واعترضوا على من يقول «إن علم الطب لا منفعة فيه، وإن علم الهندسة لا حقيقة له، وإن علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة..»، ثم حاولوا الرد على الفقهاء في الرسالة الحادية عشرة دفاعًا عن تلك العلوم التي تشكّل أساس مذهبهم[2].

أما **الغزالي** فأوضح أن العلم المذموم لا يُذمّ لعينه وإنما يذمّ في حق العباد لأسباب تتعلّق بالضرر، وضرب مثلًا بالسحر وهو حق، إذ شهِد القرآن له، لكنه مذموم لما يؤدي إليه

(1) الغزالي، تهافت الفلاسفة، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص 82- 87.

(2) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، مطبعة نخبة الأخبار، 1306هـ، ج 4، ص 95.

من ضرر وشر، ثم ذكّر بعلم النجوم (الفلك المتداخل بالتنجيم) الذي يتضمن قسمين: **قسم حسابي**، كالذي ذكره القرآن في قوله: ﴿الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: 5]، والآخر: **الأحكام**، وهو يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب كما يستدل الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، لكنه مذموم بالشرع كما في الحديث: «إذا ذُكرت النجوم فأمسِكوا»[1]، لأنه يوقع في النفس الاعتقاد بأن الكواكب «جواهر شريفة سماوية» تؤثّر في حياتنا على الأرض، مما قد يؤدي إلى الشرك[2].

وبالطريقة نفسها كان **ابن خلدون** يقول إن علوم السحر -التي تدخل فيها الكيمياء أيضًا- ليست محرّمة لكونها باطلة، بل هي حقّ وأثرها موجود وملموس، لكن تحريمها يعود إلى ضرر الاعتقاد بالتأثير، أي فساد العقيدة بردّ الأمور إلى الشياطين وكأنها قادرة على الفعل بما يعارض إرادة الله تعالى[3].

وخلاصة القول في الإسلام أن العالَم كله -بما هو خلق لله تعالى- وحدة واحدة، لا انفكاك فيها بين الروح والجسد، وبين عالمي الغيب والشهود، ولا يعني هذا بحال من الأحوال الحلوليّة ووحدة الوجود، بل التوازن بين طرفي الإلحاد المادي والحلوليّة الباطنية. لذا لا يجد المسلم مشكلة في الاعتقاد بأسباب غيبيّة لتفسير ظواهر طبيعية، كما لا يتعارض لديه اكتشاف الأسباب الطبيعية مع اعتقاده بوجود الله والملائكة والجن.

أما العلمانيّة فإمّا أن تنكر وجود الغيب جملة، أو تنفي أثره وتُقيّده، وإذا بلغ العقلُ العلمانيُّ درجة الإلحاد فلا بد أن يخلط بين الدين والسحر ويجعلهما في خانة واحدة، ثم يتّخذ موقف الرفض التام، أما «**العلمانية الجزئية**»[4] فيمكنها التعايش مع الدين، وتفهم

(1) ذكر السيوطي طرق روايته في الجامع الصغير برقم 613 وخلاصة الحكم فيه أنه حسن. وكذلك ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 545 وقد صحّحه.

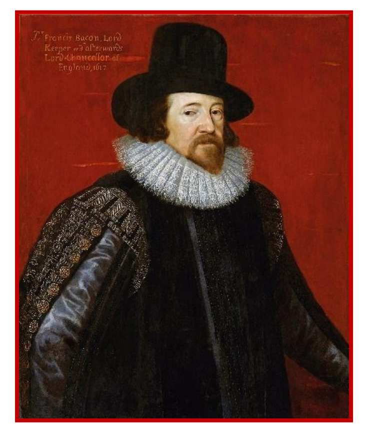
(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار االمعرفة، بيروت، ج 1، ص 29.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1988، ص 657- 664.

(4) هذا المصطلح يُنسب إلى المفكر المصري الراحل عبد الوهاب المسيري، حيث شرح في كتابه «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» الصادر عام 2002 نظريته التي تميز بين علمانية جزئية تقبل التعايش مع الدين ما لم يتدخل في السياسة، وأخرى شاملة تفرض رؤيتها المادية على كل شيء.

احتمال تجرُّده عن السحر، كما يقول عزمي بشارة: «**وعندما ينفصل السحر عن الدين، يتوقّف الدين عن مخاطبة قوى طبيعيّة، ويبقى من الدين مخاطبة قوى إلهيّة فقط خارج العلاقات السببيّة**»[1]، ويضيف أنه يمكن للدين إذا تخلّص من السحر أن يتعايش مع العلم طالما أبقى المتديّنون عقيدتهم الدينيّة خارج نطاق تعاملهم مع الطبيعة القائمة على السببيّة.

وبالعودة إلى السرد التاريخيّ، وبعد احتدام الجدل -كما رأينا- في تاريخنا الإسلامي وصعوبة الانفكاك بين الفلسفتين الطبيعيّة والباطنيّة، قد تُفاجَأ عزيزي القارئ إنّ علمت أن عصر النهضة في أوروبّا لم يكن أفضَل حالًا، بل ظلّ بعض العلماء المعاصرين منشغلين بالعلوم السرّيّة حتى يومنا هذا، بالرغم من شيوع فكرة الانفكاك بين السحر والعلم الطبيعيّ، واعتبارها أساس حركة تقنين ظواهر الطبيعة التي تشكّل النظام العلمي المجرّد الذي نعرّفه اليوم.



فرانسيس بيكون

فعلى سبيل المثال، كان الإنجليزي **روجر بيكون** (توفي عام 1292) مهتمًّا بالخيمياء السحرية، بالرغم من شهرته اليوم بأنه أول أوروبي يضع قوانين المنهج العلمي، وذلك بعد اطّلاعه على فلسفة المسلمين. وإذا كان اهتمامه بالسحر هذا مبرَّرًا بنشأته في القرن الثالث عشر، فإن خليفته **فرانسيس بيكون** (توفي عام 1626) الذي يعدّ اليوم رائد الثورة العلمية القائمة على الملاحظة والتجريب، لم يكن أفضل حالًا بالرغم من فارق الزمن، إذ كان مهتمًّا أيضًا بالخيمياء، كما كان على علاقة وثيقة بجمعيّتَي **الصليب الوردي (روزيكروشن)** و**الماسونية**، وبعض المؤرّخين يرجّحون أنه كان أستاذًا أعظم في

(1) عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013، ج1، ص 106.

الجمعيّتين[1]، ولو بحثتَ عن النظريّات المتعلّقة بوفاته ستجد ما يدهشك، فهناك من يعتقد أنه ادّعى الموت لينتقل سرًّا خارج إنجلترا، ويعيش عقودًا في حالة تنقّل بين دول أوروبية عدة، ويمارس نشاطه السرّيّ متخفّيًا تحت اسم مستعار في ظل شبكةٍ من الجماعات السرّيّة، لكن هذا الجانب العجيب من شخصيّته وتاريخه يبدو مطموسًا تمامًا، ولا تجده إلا في الكتب المتخصّصة، أما سيرته التي تُدرّس في مدارس وجامعات العالم فلا تأتي إلا على الجانب العلمي التجريبي المشرق.

وقبل ظهور فرانسيس بقليل، كانت عائلة **مديتشي** الحاكمة في مدينة فلورنسا الإيطالية تضع أسس عصر النهضة كما هو شائع في تاريخ العلم، لكن فلورنسا كانت حافلة بالجمعيّات السرية والأنشطة السحريّة، ويكفي هنا أن نعود إلى الجانب الخفيّ لأحد نجوم فلورنسا في تلك المرحلة، وهو **ليوناردو دافنشي** (توفي عام 1519) الذي لا يُذكر اسمه في أي مرجع تعليمي أو إعلامي إلا مشفوعًا بصفة العبقري ومجلّلًا بهالة التقديس، فقد كان في أعلى مراتب جمعّية الصليب الوردي، وقال عنه معاصره وكاتب سيرته **فارساري** إنه كان بمثابة «**فريق من ذوي التفكير الهرطقي**»[2]، وثمة دراسات وأفلام وثائقية تتساءل عن احتمال اتصاله بكائنات فضائيّة لكثرة استشرافاته المستقبليّة المبكّرة، وتضمين الكثير من الرموز المحيّرة في رسومه.

والأمثلة كثيرة، ومنها الكاتب الإنجليزي **توماس براون** (توفي عام 1682) الذي اشتهر بإعجابه بثورة بيكون العلمية، لكن كتاباته الأدبيّة كانت مفعمَةً بالفلسفة الباطنية، والفلكيّ الدنماركي **تيخو براهي** (توفي عام 1601)، الذي لم يمنعه اهتمامه بالرصد الفلكي عن الاشتغال بالخيمياء.

وخذ أيضا الإيرلندي **روبرت بويل** (توفي عام 1691)، الذي كان عضوًا بالجمعيّة

---

(1) Helene H. Armstrong, Francis Bacon: The Spear Shaker, Golden Gate Press, San Francisco, 1985.

(2) ميشيل بيجنت وهنري لنكولن وريتشارد لي، الدم المقدس الكأس المقدسة، ترجمة محمد الواكد، دار الأوائل، 2010، ص 582.

الملكيّة، وله إنجازات واختراعات في الكيمياء والفيزياء، ويصنّفه فلاسفة العلم كأحد أهم روّاد المنهج التجريبي ومؤسّسي الكيمياء الحديثة. لكن التاريخ يقول إنه كان مقربا من نخبة «**الصليب الوردي**» في بلاط **فريدريك** ملك مقاطعة **البلاتينايت**، كما تلقّى العلوم الباطنية السحريّة في جنيف، وثمة مراسلات محفوظة بخط يده تشير إلى كونه عضوا في «**كلية سرية**».

ومن العجيب أن يسجَّل اسمه في التاريخ مؤسّسًا لعلم الكيمياء بعدما كان منشغلًا بالخيمياء السحرية، ففي رصيده بحثان خيميائيان منشوران، وبيان منشور يعلن فيه تفرغه في بعض الأيام لإجراء تجاربه الخيميائية، وقال فيه: «**هذه التجارب استجابة لهدفي السابق في ترك نوع من التراث السحري للأتباع المولعين في دراسة ذلك الفن**»[1]، ممّا يشير إلى أن الاشتغال بهذه الفنون لم يكن وصمة عار فيما يسمّى بعصر النهضة والأنوار.

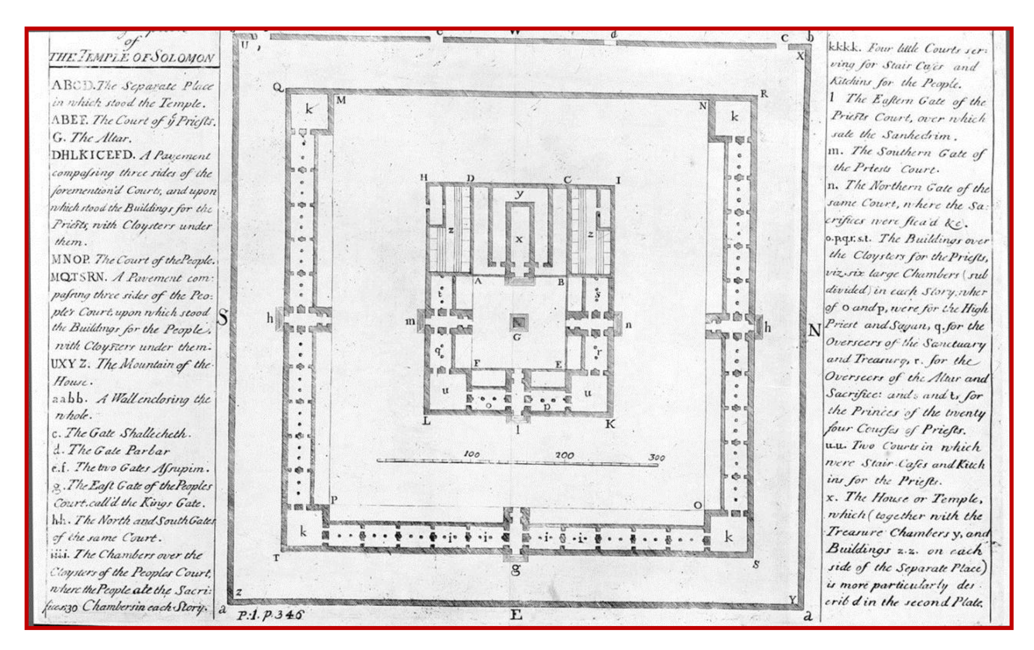
وقد تزداد دهشتك عزيزي القارئ إن علمت أن **إسحق نيوتن** (توفي عام 1727) كان غارقًا أيضًا بالعلوم الباطنيّة حتى أذنيه، وهو تلميذ بويل الذي تلقى عنه الخيمياء، كما كتب نيوتن عن تاريخ الممالك القديمة متتبعًا الأصول الإسرائيليّة، واعتنى بفلسفة **القبالاه** (كابالا) اليهودية الباطنية معتقدًا أنها مستودع للمعارف المقدسة، بل كان يرى أن «**تناغم الكُرات**» الذي تحدث عنه فيثاغورس ليس سوى استعارة عن قانون الجاذبيّة الذي صار ينسَب إلى نيوتن.

أضف إلى ذلك أن نيوتن كان على صلة بأصدقائه **الماسون**، كما كان عضوًا في جمعية «**سبالدنغ للنبلاء**»، وأنه أبدى اهتمامًا كبيرًا بهندسة «**هيكل سليمان**» الذي يعتبره الماسون ذروة فن العمارة ومستودعًا لأسرار مقدّسة، لذا يقول مؤلفو كتاب «**الدم المقدس.. الكأس المقدسة**» إن «مثل هذه الاهتمامات من طرف نيوتن كانت بالنسبة لنا شيئًا مفاجئًا، فهي لا تتفق مع الصورة المأخوذة عنه والمنتشرة في القرن الحالي. صورة العالِم الذي قام بشكل نهائيّ بتأسيس الفارق بين الفلسفة الطبيعيّة وعلم اللاهوت»[2].

---

(1) المرجع السابق، ص 588.

(2) المرجع السابق، ص 590.



مخطط هيكّل سليمان كما رسمه نيوتن في كتابه «التسلسل الزمني للممالك القديمة»

وأثناء إعدادي لهذا الكتاب، طرحت دار مزادات **سوذبيز** الأمريكية للبيع مخطوطة لم تنشر سابقًا، دوَّن فيها نيوتن ملاحظاته عن الأهرام المصرية، اعتقادًا منه باحتوائها على مفتاح لفك الرموز المخبّأة في الكتاب المقدس، والتي ستسمح له في النهاية بتحديد موعد نهاية العالم.

وكانت المخطوطة محترقة في بعض أجزائها بسبب الحريق الذي اندلع في بعض أوراق نيوتن، لذا لم يكن من الممكن اكتشاف كلّ أفكاره بهذا الصدد، لكن الخبير لدى مزادات سوذبيز **غابرييل هيتون** قال في تقرير لصحيفة **أوبزيرفر** إن نيوتن كان يؤمن بأن وحدة قياس الطول التي سماها المصريون «**الذراع الملكية**»، والتي مكّنتهم من قياس محيط الأرض، ستسمح له بفهم الجاذبيّة، فضلًا عن معرفة الأسرار الهندسّية الغامضة لأماكن مثل معبد سليمان والأهرام، ومن ثم التنبّؤ بموعد نهاية العالم.

وكشف **هيتون** أن المخطوطة التي بلغت قيمتها نحو نصف مليون دولار كانت ملكًا للاقتصادي المشهور **جون مينارد كينز**، الذي يعد مؤسِّسا لنظريّة اقتصادية أثّرت في اتجاه

الاقتصاد الرأسمالي بعد الحرب العالمية الثانية، واللافت أن **كينز** كان يصف نيوتن -الذي يعتبر من مؤسّسي العلم الحديث- «**آخر السحرة**»![1]

ربما ستفاجأ أيضا عزيزي القارئ إذا أخبرتك أن جمعية سرية تأسّست في بريطانيا بتلك الفترة تحت مسمّى «**الكلية الخفية**» (Invisible College)، ولم يُعرف اسمها إلا من مراسلات روبرت بويل أستاذ نيوتن، وكانت بمثابة مجمع علمي يضم في عضويته «**فلاسفة الطبيعة**» من أمثال **جون ويلكنز وجون واليس وإيفلين جون وروبرت هوك**، ويُفترَض أن غايتها كانت اكتساب المعرفة من خلال المنهج التجريبيّ الحديث، لكنها كانت غارقة في الخيمياء والعلوم الباطنيّة والسحر، بل لم تكن هذه الكلّية سوى فرع من فروع جمعيّة **الصليب الوردي** المعروفة بممارسة السحر حتى يومنا هذا[2].

والأغرب من ذلك أن هذه الكلّيّة الخفيّة كانت نواة الجمعيّة الملكيّة في لندن Royal Society of London for the Improvement of Natural Knowledge، التي تأسّست عام 1660، وهي مفخرة بريطانيا العلميّة حتى اليوم، إذ ما زالت الحكومة تموّلها بملايين الجنيهات كل عام، ويعدّ منصب رئاستها من أعلى التشريفات التي يحلم بها العلماء، أي أن هذا المجمع الذي يقدّم نفسه اليوم بمثابة الهيكل المقدّس للعلم التجريبيّ المجرّد عن كافة أشكال الروحانيّات والغيبيّات قد خرج من بطن الجمعيّات السرّيّة السحريّة.

ولو بحثتَ عن الروابط المتينة بين الجمعيّة الملكيّة والماسونيّة، التي ظهرت رسميًّا للعلن مع تأسيس محفل لندن الأعظم عام 1717، فستجد مراجع كثيرة توثق تلك العلاقة العضوية، بالرغم ممّا يثيره هذا التداخل العجيب -بين عالَمَين يفترَض أنهما متناقضَان- من أسئلة مدهشة.

الماسوني الراحل الكبير **شاهين مكاريوس** كان ممّن وثّقوا قصة تأسيس المحفل

(1) Harriet Sherwood, Revealed: Isaac Newton’s attempts to unlock secret code of pyramids, The Guardian, 6 Dec 2020.

(2) انظر مادة Invisible College في موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت.

الأعظم على يد كبار علماء إنجلترا، ومنهم **ثيوفيلوس ديزاغليه** عضو الجمعيّة العمليّة الملكيّة الذي كان مقرّبًا من الملك **جورج** الثالث، وعالم الآثار **جورج باين**، والدكتور **جيمس أندرسون**[1]، وبذلك تحوّلت الماسونية إلى مؤسسة هيكليّة هرميّة يتربّع على رأسها النظام الملكي، وتضم في قادتها كبار علماء العصر. أما محفل **يورك** الأعظم في شمال إنجلترا فظلَّ على طقوسه القديمة، وظلّت رئاسته في قبضة عائلة **سانكلير روسلين**[2]، التي يُعتقَد على نطاق واسع أنها تتحدّر من سلالات فرسان الهيكل.

يبرّر **مكاريوس** سرية الماسونيّة واهتماماتها العلميّة بالعودة إلى بداية القصة، فيقول إن القدماء تملّكتهم الدهشة أمام ظواهر الطبيعة، فالعوام منهم عبدوا الكواكب وقدّسوا كل ما كان يبدو لهم غامضًا، أما العباقرة وأصحاب الأخلاق النبيلة فاكتشفوا بعض أسرار الطبيعة -دون أن يذكر لنا كيف اكتشفوها- ثم قرّروا كتمانها برموز سرية كي لا تقع في أيدي الأشرار، وظلّوا يتوارثونها داخل جمعياتهم السرية التي لا تريد إلا الخير للبشريّة، وهكذا ظلّت تنتقل بين أيديهم وتعبر الحضارات بكل أمانة دون خلل ولا تسريب، لا سيما على يد الكهنة المصريّين الذين درسوا ما ابتكره أسلافهم من «حكماء الفرس والكلدان الذين أبدعوا فيما كتبوه وأتوا بالسحر الحلال»، ثم سلّموه إلى الإغريق، لينتهي المطاف بهذه المعرفة المقدّسة في أوروبا، وتستقرّ في المحافل الماسونية[3].

بهذا السرد البسيط الخالي من التوثيق والأدلة يلخص **مكاريوس** قصة احتكار المعرفة، ونحن ندين بالشكر لصراحته عندما يصف السحر بأنه حلال، فهو اعتراف واضح بالتعامل مع الشياطين وتلقّي المعرفة عنهم، ولا يضرّنا بعد ذلك خلط الماسون هذه المعرفة بالعلم الحديث، فالأصل صار واضحًا.

وفي سياق التبرير أيضًا، يقول المؤرخ المصري الراحل **لويس عوض** عن نشأة الماسونيّة واستقطابها للعلماء إنها كانت بمثابة ثورة للمثقّفين الرافضين للدين، ومحاولة

---

(1) شاهين مكاريوس، الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص 158.

(2) المرجع السابق، ص 161.

(3) المرجع السابق، ص 25- 27.

لإيجاد طريق ثالث بين غيبيّات الدين وعقلانيّة العلم، وهي نوع من الديانة الشخصيّة لغير القادرين على التحرّر من الأديان، أو نوع من **الفيثاغورثيّة** الجديدة التي تخلط قوانين الرياضيات بالحكمة الدينيّة[1]، لكن الحقيقة التي أقرّها بعض كبار الماسون في الغرب لم تكن بهذا الاستخفاف بالعقول، فعقيدتهم اقتبست من كل العلوم الباطنيّة السرّيّة، وكانت هي الوعاء الحاضن لكل ما تراكم على مر العصور من أسرار السحر وفنون التواصل مع الشياطين والاقتباس منهم، ونجد هذا واضحًا جدًّا في كتاب المنجم والماسوني الكندي الكبير **مانلي بالمر هول** «**التعاليم السرّيّة لكل العصور**»، وأيضا في كتاب قطب الماسونية الأمريكي **ألبرت بايك** «**الأخلاق والعقيدة للطقوس الأسكتلنديّة القديمة والمقبولة**».

على أي حال، لم يكن تدخّل الجمعيّات السرّيّة بمجال العلم خاصًّا ببريطانيا فقط، فمدينة نابولي التي شهدت بواكير النهضة العلمية شهدت أيضا إنشاء أوّل مجتمع علميٍّ تحت مسمى «**أكاديمية الأسرار**» على يد **جيامباتيستا ديلا بورتا** (توفي عام 1615)، وهو الذي كان عضوًا في أكاديمية دي لينشي، وزميلًا للفلكي الشهير **غاليليه غاليليو**. وما زال كتاب «**السحر الطبيعي**» الذي ألفه **ديلا بورتا** معروفا حتى اليوم، ومع أن مؤرخي العلوم لا يصنفونه في باب السحر الميتافيزيقي (الذي يتعامل مع الشياطين)، على اعتبار أن السحر الطبيعي كان قابلًا للتأويل، مما سمح لأولئك المؤلفين بالتملّص من محاسبة الكنيسة آنذاك[2]، إلا أني لا أرى فارقًا بين السحر الطبيعيّ والسحر الميتافيزيقيّ، فكلاهما يستقي من منبع الباطنيّة الشيطانيّة.

ولو تتبعتَ المرحلة الذهبية لانتشار الماسونية في أقطار العالم ستجد أنها حُملت على أجنحة العلم في كل مكان، فحتى في أنحاء الدولة العثمانية كانت المدارس العلميّة الحديثة تقام على يد أقطاب المحافل الناشئة، ومنها مثلًا مدرسة «**المهندسخانة**» التي كانت معهدا بارزًا لتعليم الرياضيات والهندسة والحقوق والإدارة والعلوم الطبيعية والعسكرية في مصر

(1) لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص 291.

(2) لورنس إم برينسيبيه، الثورة العلمية.. مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة محمد إسماعيل، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط 1، 2014، ص 38- 40.

خلال القرن التاسع عشر، و«**جمعية محبي العلم**» التي أسّسها اليهودي الماسوني **يعقوب صنوع**، وكل الأنشطة العلمية التي رعتها جمعية العثمانيّين الجدد وجمعيّة تركيّا الفتاة.

يقول **لورنس إم برينسيبيه** في كتابه «**الثورة العلميّة**» إن «**الفلسفة الطبيعية**» كانت مرتبطة في تلك المرحلة بقوة بما نسمّيه «**العلم**» Science في يومنا الحاليّ، ولم تتم صياغة مصطلح العالِم إلا في القرن التاسع عشر[1]، أما علماء تلك الأيام فكانوا منخرطين بمنظور أوسع للفلسفة الطبيعية التي تشمل إلى جانب العلم التجريبي كلًّا من اللاهوت وما وراء الطبيعة، وبطبيعة الحال العلوم الباطنيّة والسحر.

ويحاول المؤلف أن يتفهّم هذا الترابط بين العلم والأساطير والباطنيّة، مستعرضًا أمثلة للتداخل الذي كان سائدًا ومقبولًا، مثل ترجمة فيلسوف النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر **مارسيليو فيسينو** للنصوص الهرمسية، التي تُنسب لشخصية تدعى «**هرمس مثلث العظمة**»، وهي من أكثر النصوص الباطنية ذيوعًا، ثم ترجمته لنص «**لوح الزمرد الهرمسيّ**»[2]، الذي يعدّ من النصوص الأثيرة لدى محترفي العلوم السحريّة، ولا سيما في طائفة **القبّالاه** اليهودية. لكن هذا التبرير ليس مقنعًا على الإطلاق، فما الذي يدفع العلماء العلمانيّين في تلك المرحلة إلى الإقبال على علوم السحر والأسرار الغنوصية بالتوازي مع نفورهم الشديد من الأديان؟ وبعبارة أخرى: لماذا يتقبّلون الغيبيّات عندما تتعلّق بالشياطين ويحاربونها عندما تربطهم بالله؟

دعنا نوسّع دائرة بحثنا لنصل إلى القرن العشرين، حيث استقرّت كثيرٌ من النظريّات الكبرى وباتت متداولة في الجامعات حول العالم ولم تعُد سرية، وسنجد أنَّ لدى الكثير من العلماء نزعات باطنيّة مريبة، بالرغم من تشبّثهم أحيانًا بالنفور من الدين والتديّن، وكأن سيف النزعة المادّيّة لا يُسلّط إلا على الأديان التي نعرفها، في مقابل التساهل إزاء الشطحات الباطنية.

(1) المرجع السابق، ص 33.

(2) المرجع السابق، ص 31.

خذ مثلًا **نيكولا تِسلا**، الفيزيائي الصربي الذي هاجر إلى أمريكا وتنافس مع المخترع المشهور **توماس أديسون**، فهناك الكثير من الشائعات والأساطير عن حياة هذا العالم المتوحّد غريب الأطوار، ولا شكّ في أن عشّاق نظريات المؤامرة وجدوا في قصته وشخصيّته حقلًا خصبًا لزرع خيالاتهم، ومن الصعب فرز الصحيح من الكاذب في فضاء الإنترنت، لا سيما أن البعض ينسب له اكتشاف أنظمة كونية بديلة لنظرية النسبيّة التي أطلقها **ألبرت أينشتاين**، ويعتبرون أن النُخَب المتنفّذة تواطأت على منح الصدارة لأينشتاين وإبرازه في صورة العبقري الأول في تاريخ البشرية، وهو الذي كان مرشحًا لرئاسة دولة إسرائيل عند تأسيسها، بينما قُمِعت أبحاث **تسلا** عن الطاقة الحرّة البديلة والانتقال عبر الأثير وتسخير القوة الكهرومغناطيسيّة. وأنا لا أستطيع أن أدلي بدلوٍ في هذا المجال، وأكتفي بالإشارة إلى أبحاث بعض من تعمّقوا فيه، مثل الدكتور **بيتر ليندمان Peter Lindemann**.

ينسب البعض إلى **تسلا** أنه كان متمسّكا بوجود وسيط اسمه الأثير، وهو مادة خفيّة اعتُقد أنها تملأ الفضاء بوصفها وسطا ناقلا للمجال الكهرومغناطيسي وقوى الجاذبيّة، ثم أسقط الوسط العلمي احتمال وجودها بعد ظهور نظرية النسبيّة، لكن قصور نظرية الكمّ (كوانتم) عن تفسير كل الظواهر يشجع البعض حتى الآن على العودة إلى افتراض وجود الأثير، وربما البحث في احتمال أن يفسّر هذا الوسط الغامض وجود كائنات غيبيّة مثل الجن[1].

هذه النقطة تنقلني إلى جانب مغْفل من تاريخ **تسلا**، وهو علاقته مع الزعيم الهندوسي **سوامي فيفيكاناندا** الذي حمل على عاتقه نشر ثقافة **اليوغا** ومذهب **الفيدانتا** في أمريكا بأواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين، وهو أيضًا مؤسس برلمان الأديان العالمي المهتم بنشر فكرة «**وحدة الأديان**»، وكان أستاذًا في محفل **الأمل والمرساة** الماسوني،

(1) وصلني خلال إعداد هذا الكتاب مخطوط كتاب بعنوان «نيكولا تسلا: فيزياء الأثير»، جمع وترجم فيه الباحث أحمد حجازي عشرات المقالات القديمة من الصحف والمجلات المتخصصة، وأيد فيه وجود جانب مخفي من العلم، لا سيما المتعلقة بفيزياء الأثير والطاقة الحرة، وأرجو أن يرى هذا الكتاب النور قريبا.

وبطبيعة الحال كان من زعماء **حركة العصر الجديد**. وقد تركت العلاقة بين الرجلين أثرًا واضحًا في فلسفة الوجود لدى **تسلا**، إذ كان **سوامي** يأمل في أن يصل من خلال تجارب صديقه إلى فهم علميٍّ لفلسفة وحدة الوجود، كما كان **تسلا** يأمل في أن تلهمه النصوص **الفيديّة** القديمة (الكتاب المقدس لدى الهندوس) باكتشاف طريقة تختزل القوة والمادة في طاقة بديلة.

استحضار **تسلا** في هذا السياق هو مثال مثير لجانب ما زال مظلمًا في الوسط العلمي، فإذا كان زملاؤه من العلماء العلمانيّين يفضلون تجنب الجانب الفلسفي «الروحاني» في أبحاث هذا الرجل، فإن أقطاب **حركة العصر الجديد** الذين أسرفوا في دمج السحر والعلوم الباطنيّة يجدون في تركته العلميّة كنزًا ثمينًا. وحتى في حال استبعادنا للنظريات والتأويلات العجيبة، فسيبقى تداخل السحر في العلم جليًّا في هذه القصة.

والأمر لا يقتصر على **تسلا** والإقصاء الذي عانى منه حتى آخر حياته، فالفيزياء التي يبجّلها العلماء المادّيّون من بعد **تسلا** لم تعد تقدّم الأمل في التمسّك بحبال المنطق، بل أصبحت فيزياء الكمّ نافذة يطلّون منها على ما هو أغرب من السحر، وهم مع ذلك متمسّكون نفسيًّا باللادينيّة الرافضة لعالم الغيب، وإن كنت أعتقد أن أجوبة الكثير منهم على أسئلة الدين تفضي إلى اللاأدرية، فهم حائرون بالدرجة الأولى.

في كتابه «**فيزياء المستحيل**»، يقول الفيزيائي الأمريكي (من أصل ياباني) **ميشيو كاكو** إن «**الكوانتم تخترق قوانين التفكير الأساسيّة كلها**»[1]، ويكرر هذه الفكرة في مواضع عدة، وهي من أكثر المغالطات شيوعًا ودفعًا للعلماء إلى هوّة العدميّة، وهي أيضًا من المقدّمات التي دفعت **كاكو** للاعتقاد بأن المستحيل بات ممكنًا في عالم الفيزياء الحديثة، مما يتعارض جذريًّا مع العقلانيّة التي بدأت بها الحداثة أولى خطواتها.

يتساءل **كاكو**، مبدع نظرية الأوتار الفائقة، عما إذا كانت نظرية الأكوان المتوازية ستفتح آفاقًا لفهم أبعاد أخرى لا نفهم وجودها، ويقول لعلّها هي التي تفسّر اختفاء

(1) ميشيو كاكو، فيزياء المستحيل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أبريل 2013، ص 78.

«**مستويات أخرى من الوجود، كمنازل الآلهة أو الأشباح**» عن حواسّنا[1].

وفي الفيلم الوثائقي «**الكابوس**» -الذي أشرت إليه سابقًا- يحاول أحد المتحدّثين في الفيلم إيجاد تفسير علمي علماني لما يشاهده من كائنات، ولكن من دون جدوى، ومع ذلك يعترف في نهاية الفيلم بأنه يشعر بأن هذا البلاء لن يفارقه حتى يقطع نفَسَه تمامًا في إحدى الليالي حتى يقتله، أما بقيّة ضيوف الفيلم فيجزمون بأن ما يرونه ليس خيالًا ولا طاقة للعلم به، بل هو شيء حقيقي قادم من عالم روحاني مفارق لعالمنا، كما اقترح أحدهم اللجوء إلى نظرية **كاكو** والتفكير بأبعاد أخرى تعيش فيها كائنات خفيّة، وهي تتواصل معنا وتظهر لنا من دون أن نستطيع نحن الولوج إلى عالمها.

فيلم «**الكابوس**» أنتج عام 2015 وعُرِض في مهرجانات عالميّة، وما زال يُعرَض على منصّات وشبكات الأفلام، وهو جزء من محاولات فهم هذه الظاهرة التي لم يعد من الممكن إغفالها، كما لم يعد من المجدي انتظار العلماء لتفسيرها بأدواتهم ومناهجهم التي ثبت قصورها عن الخوض في هذا الجانب من الوجود، بالرغم من المحاولات التي لا تحصى لإخضاع «**الباراسيكولوجي**» للتجارب في جامعات غربيّة مرموقة.

في عام 1974، قدّر الفلكيّ الراحل **كارل ساغان** -الذي اشتهر بتقديم السلسلة التلفزيونية **كوزموس**- وجود مليون حضارة تشبه حضارتنا في مجرة درب التبّانة وحدها[2]، وهو نفسه كان يميل إلى الاعتقاد بأن أصل حياتنا قد نشأ على يد كائنات فضائيّة. هكذا كان التفكير الماديّ الإلحاديّ يحاول أن يشبّ عن طوق العقلانيّة قبل بضع عقود، أما اليوم فهناك تقبّل كبير في الوسط العلمي الحديث لوجود أبعاد وأكوان وعوالم خفيّة، ولو تجسّدت الشياطين فجأة أمام أشد العلماء تعنّتا فلن يكذّب عينيه، ولن يعتبرها خدعة هوليوديّة، بل سيجد في «**فيزياء المستحيل**» طيفًا من التبريرات لوجود كائنات عجيبة في أبعاد خفيّة، حتى لو ظلّ مصرًّا على رفض التفسير الديني لما يراه بعينيه ويسمعه بأذنيه.

---

(1) المرجع السابق، ص 264.

(2) المرجع السابق، ص 158.

ولكن، قبل أن يصل العلماء اللادينيّون إلى هذه المرحلة، كان أسلافهم قد مرّوا بمرحلة التطرّف الإلحادي، ولا أستبعد أن من سبقوا أولئك كانوا قد وضعوا أسس العلم على أساس سحريّ.

وكأن العلم الحديث قد مر بدورة شيطانية مُحْكَمة، فالروّاد (في عصر النهضة) تمرّدوا على الدين بالإغراق في نقيضه الشيطانيّ، ثم جاء الجيل الذي تمرّد على الدين بالغفلة عن الأصل والاكتفاء بإنكار الغيبيّات بالجملة، والآن يتهيّأ الجيل الثالث للإقبال على الغيبيّات في صورتها الشيطانيّة مجدّدا.

لقد مر بنا كيف عبَد «**الحكماء**» في طوائفهم المغلقة وجمعيّاتهم السريّة إبليس وجنوده، إذ قدّم لهم نفسه في صورة **لوسيفر** «**حامل الضياء**»، أي الملاك القادم من عالم الملكوت وهو يحمل بيده شعلة المعرفة. وإذا كان الجن قد مُكِّنوا في أصل خلقتهم من خرق نواميس عالمنا، بقدراتهم التي عرّجنا عليها، من تخفٍّ وتشكّل وتنقل وطيران وإنشاء وصناعة وتأثير في النفوس والأجساد البشريّة، وإذا كان إبليس نفسه قد عاش زمنًا غير معلوم في عالم الملكوت مطّلعًا على شيء مما لم نحط به علما، وإذا كان قد عاش بعد ذلك عمر البشريّة كاملًا، فلا جرم أن لديه من المعرفة ما يتجاوز كل ما تراكم لدى بني آدم من تجارب، ولا يبعد إذن أن يكون قد أَطْلع عبيده من شياطين الإنس على بعض الأسرار التي استأثرت بها المحافل السرّيّة، وتوارثتها بعهود الدم.

وإذا كان هذا الطرح يبدو –مع الأسف- غريبًا اليوم، فقد كان مألوفًا للغاية على مرّ العصور التي سبَقَت عصر الغفلة الكبرى الذي نعيشه، وقد عرضت لك عزيزي القارئ في هذا الفصل نماذج من معتقدات كل الشعوب عن الكائنات الخفيّة التي نقلت إليهم شتّى أنواع العلوم عن طريق السحرة والشامانات والكهنة، فعبدوا تلك الشياطين وقدموا لها القرابين وجعلوا منها آلهة.

وعندما بُعِث آخر الأنبياء ﷺ، لم يكن قومه من العرب يشذّون عن بقية الأمم، فكانوا يعتقدون أن الجن جنس من الملائكة، وأنهم آلهة ترقى إلى منافسة الرب جل وعلا، لذا

خاطبهم القرآن مباشرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 40- 41]، فعبادة العرب للأصنام والكواكب لم تكن سوى اعتقاد بحلول أرواح تلك الشياطين فيها، فقال القرآن على لسانهم: ﴿***مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى***﴾ [الزمر: 3]، وعندما كان النبي ﷺ يدعو القبائل العربية إلى الإسلام خلال موسم الحج كان عمه أبو لهب يتبعه ويصرخ في الناس قائلًا «إنّ هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى ومناة من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني أُقيش»[1].

كانت الشياطين حاضرة في الحياة اليومية للعرب، وكان الكهنة والأطباء والشعراء يقتبسون منها، بل كانوا يؤمنون بأن لكل شاعر مُجيد شيطانًا يقول الشعر على لسانه، كما نسبوا الغناء والألحان إلى مبدعي الشياطين، وعندما جاءهم النبي ﷺ بالقرآن الذي فاق كل أشعارهم بلاغة وحسنًا اتهموه بالسحر والأخذ عن الشياطين، إذ كانت تجربتهم تؤكد أن للشياطين قدرات إبداعيّة ومعرفيّة متفوّقة، حتى نسبوا الذكاء الشديد إلى وادي عبقر الذي يسكنه الجن، فكل من كان يأتي بالعجائب يسمى عبقريًا. ولا ننفي أن تنطوي هذه المعتقدات على مبالغة وإسراف، فليس كل مبدع ونابغة قد اقتبس من الجن، لكن أصل الظاهرة صار واضحًا.

هذا كلّه يدعوني للاعتقاد بأن الطفرة العلميّة التي شهدناها في القرنين الأخيرين قد خرجت أصولها من وعاء الشياطين، وبُثّت إلى فطاحل الجمعيات العلمية ممن كانوا في الوقت نفسه أساتذة لمحافل الجمعيات السرية، ولم يأت ذلك عبثًا، بل اختيارًا دقيقًا من إبليس للزمان والمكان، فزمن الحداثة هو من آخر المراحل في أمة آخر الأنبياء، ومكانها هو أوروبا التي احتضنت بقايا فرسان الهيكل ومعابد الشيطان وجمعيات السحر والغنوصية والغيتوهات اليهودية، وأمريكا هي القارة الجديدة التي تشرّبت الدين المسيحي المعدّل (**البروتستنتية**)، الذي حمل على عاتقه مسؤولية نقل اليهود إلى أرض الميعاد، ووقود هذه

(1) ابن هشام، سيرة ابن هشام، المكتبة العصرية، صيدا، ط2، 1999، ج 2، ص 62.

الحملة هو الكشوفات الجغرافية ونهب ذهب العالم واستعباد عشرات الملايين من السود ثم الاستعمار، وظاهرها هو طفرة العلم وثقافة حقوق الإنسان وانطلاقة الرجل الأبيض الحامل لعبء نشر الحضارة، ولكن على الطريقة الشيطانية.

أعلم جيّدًا ما ستلاقيه كلماتي هذه من استنكار، والسبب هو أننا نعيش في هذا الزمن الذي اختار فيه إبليس التواري عن المشهد، بعدما كان حضور شياطينه في حياة الناس جزءًا جوهريًّا منه. فحتى الدعاة والشيوخ من المسلمين رضخ الكثير منهم لضغط الثقافة الغالبة، وأصبحت غايتهم التقليل من شأن الجن والسحر والحسد، وإنكار كل ما أمكن إنكاره من شواهد وحوادث، وكأن هذا من مقتضيات اللحاق بمن سبق إلى منجزات العلم، وقد فاتهم أنهم مهما أنكروا من حضور الجن وتأثير الشياطين فسيبقى الإيمان بهذه الغيبيّات أساسًا في عقيدتهم، وما خطابهم هذا إلا حيلة نفسية للهروب والتخفّف من عبء الإيمان بالغيب وعقدة النقص، وهو إنكار لدرجة التأثير وليس جحودًا بحقيقته، فلن يُرضوا بذلك من ينكر الغيب بالكلية، ولن يدفعوا الشباب المسلم أيضًا للحاق بإنجازات من أنكر الغيب.

الصعود من جديد

لو أطلقنا نظرة سريعة على قصص الأنبياء التي سردها لنا القرآن الكريم، فسنجد أن الحالة الشائعة في التاريخ البشريّ هي الطغيان والكفر، فبعدما ذكرت سورة يس قصة الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى قرية واحدة، وما لاقوه من تكذيب، ثم ما لاقاه القوم من صيحة تركتهم خامدين، جاءت الخاتمة بالقول: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: 30]، وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ: «عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد»[1].

إذن فحالة الإيمان والاستقامة تكاد تكون استثناءات من التاريخ، فحتى لو آمنت بعض

(1) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: 5705، ومسلم في صحيحه برقم: 220.

الأقوام برسالة أنبيائها، فسرعان ما كان الشيطان وجنوده ينتزعون السلطة من جديد. ولن نجد أدلة أوضح على ذلك من الآثار الباقية نفسها، فلا نكاد نجد اليوم أثرًا لمسجد واحد مما قبل رسالة نبيّنا الخاتم ﷺ، مع أن الأنبياء جميعا كانوا يقيمون الصلاة كما نقيمها، لكن السيادة كانت تُحتكر دائمًا في يد أتباع الشيطان وحزبه، بل بلغت سلطات الشياطين من الجن والإنس مبلغًا عظيمًا في الحضارات التي تركت لنا آثارها، والأمثلة لا تحصى، وقد ذكرتُ منها آنفًا حضارات بلاد الرافدين ومصر، ويمكنك أن تضيف إليهما عشرات الدول التي ساد فيها كهنة المعابد والسحرة والشامانات.

وعندما بُعث آخر الأنبياء ﷺ، كان يخشى في بداية بعثته من أن تلحق أمته بما سبقها من الأمم الهالكة، فكان يسأل الله ألا يبيدهم[1]، وكان إذا رأى غيمـًا أو ريحـًا عُرِف ذلك في وجهه[2] أي كان يتوقّع نزول العذاب على قريش في أي لحظة، وعندما كان يجهّز جيشه لأول معركة (غزوة بدر) قام يدعو الله في جوف الليل قائلا: «اللهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ، فَلا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا[3]».

لكن رحمة الله اقتضت أن ينتصر الإسلام في أمة محمد ﷺ انتصارًا لم يشهده أي نبي من قبل، فقامت دولة قوية على أساس الوحي، وأخبر النبي ﷺ أمته أن دولتهم باقية، بل بشرهم بفتح أعظم الممالك، بدءًا بالدولتين الفارسيّة والبيزنطيّة.

ومع ذلك، فلا بد أن يتراجع الحق ولو لم تنطفئ جذوته، فرُوي عن الصادق الملهم ﷺ قوله: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة

(1) جاء في الحديث: «سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» [أخرجه مسلم برقم 2890.

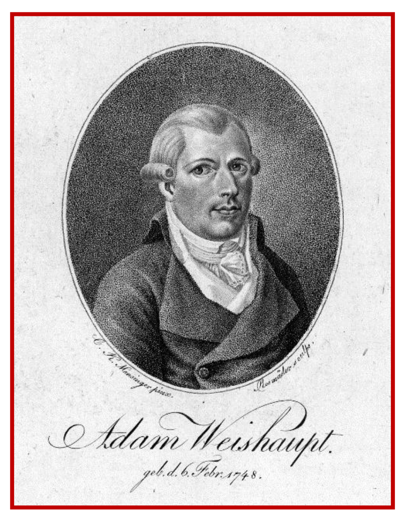
(2) أخرجه مسلم برقم: 998.

(3) أخرجه مسلم برقم: 1763.

على منهاج النبوة»[1]، وفي حديث حسن حُدّدت فترة الخلافة بثلاثين سنة فقط، ثم يبدأ بعدها المُلك، وهذا ما حدث.

ومع أن دولة الإسلام ظلّت قائمة، حتى في ظل الملك العضوض، إلا أنّنا نعيش اليوم المرحلة المؤلمة التي انهارت فيها تلك الدولة، إذ تكالب الأعداء على الدولة العثمانيّة من الداخل والخارج، وانهارت آخر معاقل الإسلام، لتبدأ قبل نحو قرن من وقت كتابة هذه السطور مرحلة المُلك الجبري، وما زال المسلمون في ظلّها يزدادون ضعفًا وتشرذمًا وخوفًا، والشيطان وحزبه يزدادون قوة، بل أصبحت قوتهم لا تقارَن بما امتلكوه من قبل في التاريخ.

واللافت أن دولة الإسلام -على ضعفها وتخاذل حكامها- لم تسقط وحدها في العصر الحديث، بل سقطت معها سلطة الكنيسة أيضًا في أوروبا، وسادت مكانهما السلطة العلمانيّة بقوة السلاح والإرهاب، كما كانت المحافل الماسونيّة والجمعيّات السريّة هي كلمة السرّ في التجربتين بكل وضوح.



والآن اسمح لي أيها القارئ الكريم بأن أحكي لك جانبًا مُغْفَلًا من القصّة، ولنعد إلى عام 1776، وهو الذي أنهى فيه الأستاذ اليسوعيّ الألماني المنشق عن الكنيسة -بالأحرى المرتدّ عن المسيحية بعد أن كان قسًّا- **آدم وايزهاوبت** المهمة التي كلفته بها نخبة من المتنفّذين، على رأسها عائلة **روتشيلد** التي كانت تملك أعظم بنوك أوروبا، ومن ثم أمريكا. وهذه المهمّة لم تكن سوى إجراء التعديلات النهائيّة على مخطّط السيطرة العالميّة لجماعة المتنوّرين السرّيّة Illuminati، والتي تتّخذ من عبادة الشيطان عقيدة لها، وتسعى لمنح إبليس السيادة الفعليّة على العالم.

(1) أخرجه أحمد في مسنده عن النعمان بن بشير، وكذلك الطيالسي والبيهقي، وصححه الألباني وحسنه الأرناؤوط

تضمّنت الخطّة إشعال الثورات من داخل المحافل الماسونيّة التي سيطر عليها المتنوّرون، وقلب أنظمة الحكم الملكيّة الدينيّة إلى جمهوريّات علمانيّة. وأرسلت هذه النخبة المسيطرة عدة نسخ من الخطة المكتوبة إلى دول أوروبية عدّة، وقُدّر لحامل الرسالة -التي كانت مرسلة من المقر في فرانكفورت إلى باريس- أن تصيبه صاعقة ويلقى حتفه في عام 1784، ثم تكتشف الشرطة الوثيقة بحوزة جثّته، فتُسلّمها إلى الحكومة البافاريّة (إقليم يقع في ألمانيا الحالية)، لتقوم بدورها بمداهمات لمقرّات المنظّمة وتكتشف بقيّة الوثائق التي تؤكّد حقيقة المؤامرة، ثم تنشرها في عدة كتب ما زالت نسخها محفوظة في المكتبات حتى اليوم، وأهمها كتاب حمل عنوان «**الكتابات الأصليّة لنظام وطائفة المتنوّرين**» The Original Writing of the Order and Sect of the Illuminati.

تم إرسال هذه الوثائق والمنشورات إلى سلطات دول أخرى، لكن بعض المؤرّخين يؤكّدون أنه كان قد فات الأوان، إذ كانت المنظّمة قد نجحت في نشر ما بين ألفين إلى أربعة آلاف عضو من العباقرة والأثرياء والمتنفّذين في عشرات المدن الأوروبّية والأمريكيّة للسيطرة على المحافل الماسونيّة التي كانت قائمة آنذاك[1].

وبالفعل، اندلعت الثورة الفرنسية عام 1789، أي بعد خمس سنوات فقط من اكتشاف المخطّط، وسرعان ما انتقلت عدوى الثورات والاضطرابات إلى كل الممالك المتهالكة لتنهار كأحجار الدومينو. وما حدث في فرنسا تحديدًا يكفي لكشف وحشيّة هذه الثورات وعدم تسامحها مع الأديان، فالفترة التالية على سقوط المُلك سمّيت تاريخيًّا بـ«**فترة الإرهاب**».

من الشائع طبعًا إنكار كل المخطّطات ورميها في سلّة «**نظريات المؤامرة**»، فمع أن تلك الخطة موثّقة في كتب نشرتها حكومة **بافاريا** بنفسها، لكن المتداوَل اليوم هو أن منظّمة المتنوّرين السرّيّة دخلت في صراع مع الحكومة، لا سيما بعدما قُدّمت شكاوى من ممارسة

(1) وليام غاي كار، الشيطان أمير العالم، ترجمة عماد إبراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2014، ص 171.

بعض رموز المنظمة طقوسًا سحرية تتعارض مع المسيحيّة، إضافة إلى اتهامات بالسخرية من القوميّة الألمانية، ثم اتهامات أخرى بالتآمر لقتل بعض المسؤولين، ممّا دفع الحكومة لإصدار مرسوم بحظر كل الجمعيّات السريّة في بافاريا[1]، وهذا شجّع على الاعتقاد بأن بعض مسؤولي الحكومة لفّقوا اتهامات المؤامرة للقضاء على المنظّمة، وهي رواية تتشابه مع الرواية المتبنّاة اليوم أكاديميًّا لتبرئة جماعة **فرسان الهيكل** التي قضي عليها في مطلع القرن الرابع عشر، فبالرغم من الأدلّة المتكاثرة على أنهم مارسوا في السرّ طقوس السحر وعبادة الشيطان داخل معابدهم -التي كانت مجرد كنائس في الظاهر- أو في أنفاق تحت الأرض، فالخطاب الرسمي اليوم يميل إلى اتهام ملك فرنسا **فيليب الرابع** بتفليق تلك التهم للجماعة «البريئة» بالتعاون مع البابا للتخلّص منهم، أي أن الحل «المقبول» لإنكار المؤامرة لدى جماعة سرّيّة هو الاعتقاد بوجود مؤامرة أخرى مضادّة دبّرتها السلطة للقضاء عليها، فأيّ المؤامرتين أولى بالتصديق؟!

وحتى في حال الاقتناع بوجود المؤامرة واكتشافها من قبل السلطات البافاريّة، فالخطاب السائد يميل إلى التخفيف من آثار هذه المؤامرة معتبرًا أنها انتهت عند هذا الحد، وأنّ المنظمة نفسها لم تعد موجودة. لكن العديد من الباحثين والسياسيّين في تلك الفترة ناضلوا لإثبات وجود هذا المخطّط وأنه تم تنفيذه على أرض الواقع، ومنهم الأكاديمي **ليوبولد هوفمان** الذي أقر بأنّ مهمّته خلال انتسابه للمتنوّرين كانت تقتضي خدمة أهداف المنظمة داخل الجامعة، كما كتب في مجلة «**وينر زايتسشريفت**» -التي كان يديرها- مقالات تؤكد أن المنظمة خطّطت بالفعل لاندلاع الثورة الفرنسية، ثم أصدر عدة كتيبات توثق شهاداته على المؤامرة التي كان من أعضائها قبل انشقاقه[2].

ومن أشهر المراجع التي تحدّثت عن المؤامرة في تلك الفترة مؤلفات اليسوعي

---

(1) هذه الرواية التبريرية نجدها في مؤلفات باحثين مثل الفرنسي رينيه فورستير، وتحديدًا في كتابه الصادر عام 1915 بعنوان «**المتنورون البافاريون والماسونية الألمانية**» Les Illumines de Baviere et la Franc-Maçonnerie Allemande.

(2) Les Illumines de Baviere et la Franc-Maçonnerie Allemande, p. 658.

الفرنسي أوغستين بيرويل، الذي أصدر خلال عامي 1797 و1798 أربع مجلدات بعنوان «**مذكّرات التنوير لتاريخ اليعقوبيّين**» « Memoirs of Illumination of Jacobinism History»[1]، وما زالت هذه المجلّدات تعد مرجعًا مهمًّا لما حدث في تلك الفترة الحسّاسة من التاريخ الحديث، حيث أكد **بيرويل** أن محفل الشرق الأعظم الفرنسي خطّط للثورة الفرنسية، وأن أعضاء قيادة منظمة المتنوّرين، المنخرطين أيضًا في الماسونية هم الذين أعطوا التعليمات لإعداد الثورة، واستند في ذلك إلى منشورات الحكومة البافارية واعترافات المنشقّين عن المنظمة.

أما الكتاب الأشهر في هذا المجال، والذي صدر في عام 1797 أيضًا، فجاء موقّعًا بيد أحد كبار الماسون المنشقّين، وهو البروفيسور **الأسكتلندي جون روبيسون**، وكان بعنوان «**أدلة على وجود مؤامرة**» «Proofs of a Conspiracy».

كان **روبيسون** أستاذًا قديرًا في جامعة **آيدنبرغ**، وأمين سر الجمعية الملكية، كما كان ماسونيًّا من الدرجة الثالثة والثلاثين، لذا كان **وايزهاوبت** نفسه يتطّلع إلى التعاون معه كي يتمكن من إقحام خطّته في الوسط الأكاديمي، لكن تجري الرياح أحيانًا بما لا تشتهي السفن، ومهما كانت الخطّة مُحكمة فلن يعدو واضعوها الشياطين قدرهم ليبلغوا منزلة الآلهة. ومع أن الحكومات لم تأخذ تحذيرات سلطات بافاريا على محمل الجد، واندلعت بالفعل الثورات كما كان مخطّطًا لها، فقد شاء الله أن ينشقّ أحد أعضاء النخبة، وأن يسجّل **روبيسون** بيده كل التفاصيل التي اطّلع عليها وينشرها في كتاب بلغ حجمه نحو 550 صفحة[2].

وبالإضافة إلى **بيرويل وروبيسون**، نشر مؤلف آخر يدعى **بارويل** كتابًا بعنوان «**مذكرات اليعقوبيّة**»، ونشر أيضًا الأديب الأسكتلندي السير **والتر سكوت** جانبًا من هذه

(1) نادي اليعقوبيّين أو اليعاقبة هو جمعيّة سياسيّة تأسست إبان الثورة الفرنسية لتمثل ناشطي الثورة، وجاء هذا الاسم من اتخاذ الجماعة ديرا مستأجرًا اسمه «دير يعقوب» في باريس مقرًّا لهم، فينبغي الانتباه إلى أنهم جماعة علمانية لا علاقة لهم بالدين حتى لو أوحى اسمهم بذلك.

(2) الشيطان أمير العالم، ص 175– 178.

المؤامرة في كتاب من مجلّدين حمل عنوان «**حياة نابليون**»[1]، كما ألقى رئيس جامعة هارفرد الأمريكية **ديفيد تابان** في عام 1798 محاضرة أمام الخرّيجين حذّر فيها من مخاطر منظّمة المتنوّرين التي تسرّبت إلى أمريكا، مستشهدًا بدورهم في الثورة الفرنسية. وفي السنة نفسها كان رئيس جامعة **ييل** الأمريكية ينشر ورقة بعنوان «**واجب الأمريكيين في الأزمة الحالية**»، متحدّثًا فيها عن نفس هذا الخطر[2]. وهناك العديد من الرسائل والمقالات والخطب التي حاولت آنذاك كشف المؤامرة، وما زال يشار إليها من قبل باحثين ومؤرخين، وبعضها محفوظ في المكتبات الوطنية وسجلات الوثائق.

وبالعودة إلى **روبيسون**، الذي انشقّ عن النخبة وفضحها، فقد تعرّض للتضييق والسخرية والتشكيك في عقله، ولو عدت عزيزي القارئ إلى المراجع العصريّة (مثل موسوعة ويكيبيديا) فستجد أنها -كما هو الخطاب السائد- تتهمه بالانقلاب في آخر حياته من مخترع ورياضي وكيميائي عبقري إلى شخص مهووس بنظريات المؤامرة، أي أن قدْره الأكاديمي ورجاحة عقله لم يشفعا له عندما قرّر الخروج عن الخط المعتاد عالميًّا لعقلية اللامؤامرة.

ما حدث بعد ذلك هو أن مسيرة العالم الحديث سارت باتجاه تحقيق مصالح تلك النخب، وتم فرض العلمنة القسريّة على العالم بالقوة. ومهما تحدّث الباحثون والمؤرخون عن وثائق المؤامرة، فسيبقى تأثيرهم محدودًا ولا يُذكَر قياسًا إلى قوة السلاح والمال الذي احتكرته النخب. ومع ذلك لم ييأس بعض المثقفين من المحاولة، وأذكر منهم الكاتبة البريطانية **نيستا وبستر**، التي وُلدت بعد قرن بالضبط من موعد كتابة **وايزهاوبت** للخطة، وتركت كتابة القصص والروايات للتفرّغ في تتبع تفاصيل المؤامرة، وكان من أهم كتبها «Secret Societies and Subversive Movements» المنشور عام 1924، الذي

(1) المرجع السابق، ص 178.

(2) المرجع السابق، ص 275- 276.

ترجمه المؤرخ **محمد عبد الله عنان** بعنوان «**تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة**»، ونسبه لنفسه للأسف بعد إضافة بعض الفصول.

كتاب **وبستر** يعد مرجعًا مهمًّا للجمعيّات السريّة، وترك أثرًا مهمًّا في الثقافة العربية بعد ترجمته، وما زال حتى الآن محل سخرية في الغرب، كما هو حال كل الأبحاث التي تشير إلى وجود أي مؤامرة غربية، مع أن العقل الغربي يتقبّل تلقائيا أي خبر يتحدّث عن مؤامرة يدبرها «**متشدّدون إسلاميّون**» في كهوف أفغانستان أو أنفاق غزة. وأنا لا أدافع هنا عن **وبستر**، إذ كانت مثل الكثير من المهتمّين بهذا الملف ذات عقليّة يمينيّة متطرّفة، ولا أستبعد أن يتضمن طرحها مبالغات خياليّة، لكن هذا لا ينفي صحة الأصل بالضرورة. وقد كانت موالية في البداية للزعيم النازي **أدولف هتلر** بعدما قدّم نفسه مناضلًا ضد سيطرة النخب المالية اليهودية على الاقتصاد الأوروبّي، ثم غيّرت موقفها تجاهه أثناء الحرب العالميّة الثانية عندما تبين لها جنونه وعنصريّته واستبداده.

وكما نعلم، تغيّرت خارطة العالم بعد تلك الحرب، وأُعلن عام 1948 عن قيام دولة لليهود على أرض فلسطين، تحقيقًا لوعد وزير خارجية المملكة المتحدة **آرثر بلفور** الذي وجهه إلى اللورد **ليونيل دي روتشيلد** الممثّل الأبرز للحركة الصهيونيّة.



في منتصف خمسينات القرن العشرين، نشر الضابط في البحرية الكنديّة المتقاعد **وليام غاي كار** كتابه «**أحجار على رقعة الشطرنج**»، وسرعان ما ذاع صيته وتُرجم إلى لغات عدة بما فيها العربية، إذ أكد فيها من خلال مشاهداته في الحرب العالمية الثانية أن تلك الملحمة الرهيبة لم تكن سوى الحلقة الأخيرة من المؤامرة التي رسمتها جماعة المتنوّرين Illuminati على يد **وايزهاوبت** عام 1776، وبتكليف من عائلة **روتشيلد** التي أصبحت أقوى بكثير مما قبل.

بعد سنتين، نشر غاي كار كتابه الثاني «**الضباب الأحمر فوق أمريكا**»، مؤكّدًا فيه أن النخبة المصرفيّة التي كانت تحكم أوروبا لصالح ما أسماه «**كنيس إبليس**» قد انتقلت إلى الولايات المتحدة، لا سيما بعد أن نقلت معها ثلثي ذهب العالم -الذي نُهب معظمه من شعوب استعبدها الأوروبّيّون تحت مسمى حركة الكشوفات والاستعمار- أثناء الحرب، وذلك لتزويد الجيوش بالمؤن والأسلحة.

وفي النهاية اختتم **غاي كار** مشروعه الفكري بكتاب مثير أسماه «**الشيطان أمير العالم**»، وتوفّي عام 1959 قبل أن يكمله، ثم قرر نجله **وليام** الابن بعد سبع سنوات أن يكمل العمل على مسوّدة الكتاب، لكن الكتاب لم يظهر إلى النور إلا بعد ثلاثين سنة أخرى، وهو الآن منشور بنسخة عربيّة ولغات أخرى. وهناك كتب أخرى ألفها **غاي كار** ومعظمها غير مترجم للعربيّة، لكن هذه الكتب الثلاث تلخّص رسالته التي أراد أن يوصلها للعالم.

كرر غاي كار التحذيرات التي أطلقها **روبيسون** وغيره، إلا أنه أضاف معلومات جديدة حدثت لاحقًا، وأهمها أن الخطة التي عدلها **وايزهاوبت** أعيد تعديلها على يد أحد كبار زعماء الماسونيّة الأمريكيّين وهو **ألبرت بايك**[1]، وهي مذكورة بالتفصيل في رسالة موقعة من **بايك** وموجهة إلى زعيم الثورة الإيطاليّة **جوزيبي مازيني** عام 1871.

(1) يحظى بايك بتوقير كبير في الثقافة الأمريكية، فكان محاميًا ودبلوماسيًا وجنرالا في الجيش، كما كان من قادة حركة «**كوكلوكس كلان**» العنصرية المتطرفة التي لها سجل حافل في قتل السود، بل يعتقد بعض المؤرخين أنه مؤسّسها، لكن هذه المعلومة محل شك. وهو الجنرال الوحيد الذي حظي بفرصة نصب تمثال له في واشنطن، وقد حاول الناشط السياسيّ اليساري **ليندون لاروش** في عام 1992 إطلاق حملة للمطالبة بإنزال التمثال، لكن المحافل الماسونيّة تصدت له، وأثناء تأليفي لهذا الكتاب، وبينما كانت شوارع أمريكا تشتعل في مظاهرات ضد العنصرية، تجمع ناشطون أمام تمثال **بايك** ورفعوا بيانا يطالب بإنزاله، لما يمثله من احتفاء بالعنصرية، لكن مطلبهم لم يتحقّق، وفي 19 يونيو 2020 ربط بعض المتظاهرين الملثمين التمثال بحبل وأسقطوه ليلًا، ثم أضرموا فيه النار، ووثقوا فعلتهم بالكاميرات، وعلى الفور كتب الرئيس ترمب على تويتر تغريدة غاضبة يحمّل فيها الشرطة مسؤولية التساهل أمام المتظاهرين، ووصف ما فعلوه بوصمة العار على أمريكا.



ألبرت بايك بلباسه الماسوني

يقول **غاي كار** إن الرسالة تتضمن خطة لإشعال ثلاث حروب عالمية، الأولى كانت تهدف إلى تمكين المتنورين من الإطاحة بسلالة القياصرة في روسيا وتحويل بلدهم إلى معقل للشيوعيّة الإلحادية، حيث تم تأجيج هذه الحرب على يد عملاء نجحوا في توظيف الخلافات بين الإمبراطوريّتين البريطانيّة والألمانية آنذاك. وبعد الحرب ستتولّى الشيوعيّة مهمّة تدمير حكومات أخرى والقضاء على الأديان في مساحة واسعة من العالم، وهذا ما حدث فعلًا.

ثم تأتي الحرب العالميّة الثانية عبر توظيف الخلافات بين الفاشيّين والنازيّين من جهة والصهيونيّة وحلفائها من الجهة الأخرى، وستنتهي بتدمير النازية وسيطرة الصهيونيّة على جزء كبير من العالم، كما ستكتسب الشيوعية بعد الحرب نفوذًا أكبر لكونها من المنتصرين على النازية، مما يسمح لها بموازنة القوى المسيحيّة المتبقّية في الغرب، وقد تمّ ذلك أيضًا.

أما الحرب العالميّة الثالثة فسيتم تأجيجها بناء على الخلافات بين الصهاينة والعالم الإسلامي، ليقضي كل منهما على الآخر، وبما أن القوى الأخرى ستنحاز إلى أحد الطرفين فستعمّ الفوضى في كل أرجاء العالم، وسيكون الملحدون والعدميّون في أوج قوتهم، وسينشرون الفوضى الثوريّة العدميّة على طريقتهم، كما سيفقد المسيحيّون الثقة بكنائسهم العاجزة عن تقديم أي حل للخروج من الفوضى.

وهنا ستحين الفرصة لظهور **لوسيفر** (إبليس)، وسيخرج أتباعه أخيرًا إلى السطح ويعلنون بدء مرحلة تلقي «**النور الحقيقي**»، وينادون بعبادة هذا الإله الجديد الذي يحمل السلام للبشرية، وتنتهي بذلك -حسب الخطة- مرحلة كل من الإسلام والمسيحيّة والإلحاد.

وفي كتابه الأخير «**الشيطان أمير العالم**»، تحدث **غاي كار** بالتفصيل عن رؤيته الكاثوليكيّة للشيطان، وهي مليئة بالأساطير التي لا نقرّه عليها، غير أن اعتماده على هذ

المدخل العقائدي -الذي يسمح له بمنح إبليس منزلة أنصاف الآلهة على الأقل- لا يعني أن وجود طموح التألّه لدى إبليس مجرّد أسطورة، بل أعتقد أن تحريف التوراة والإنجيل بطريقة تمنح إبليس هذه المنزلة هو دليل على أن إبليس يطمح لها فعلًا، وأنه هو الذي أوحى بهذه الفكرة للمزوّرين والمحرّفين.

من المهم أيضا الانتباه إلى أن المؤلف الكندي أكد مرارًا على أنه ليس محسوبا على «**معاداة السامية**»، وأنه لا يتهم اليهود أنفسهم بالتآمر بل يعتبرهم ضحيّة كغيرهم[1]، كما برّأ الماسونية نفسها وجعلها ضحية[2]، معتبرا أن **وايزهاوبت وبايك ومازيني** وغيرهم من قادة «**كنيس الشيطان**» هم الذين سيطروا على الماسونيّة وبقية الجمعيّات السرية الكبرى، بدعم من أثرياء العالم مثل عائلتي **روتشيلد وروكفلر**، وتمكّنوا من تحويل مسارها نحو تنفيذ مخططهم لسيادة إبليس على العالم.

ويجدر القول هنا إن التأسيس الرسميّ لجماعة المتنوّرين تم في عام 1776، أما تأسيس أول محفَل علنيٍّ للماسونية فكان عام 1717 وهو محفل إنجلترا الأكبر، ثم أنشئ أول محفل ماسونيٍّ في ألمانيا عام 1733، وهذا يعني أن تغلغل المتنوّرين في الماسونية جاء مبكّرًا.

وكي لا أطيل في التفاصيل، سأفترض أنك عزيزي القارئ تسألني مندهشًا عن مدى صحة هذا الطرح العجيب والمخيف، وهنا لا بدّ من وقفة منهجية، فمن أهم الصعوبات التي تواجه أي باحث في السياسة والتاريخ أن التحيّزات الأيديولوجية تلعب دورًا كبيرًا في المصادر، فضلًا عن تأويل وقراءة تلك المصادر. أما إذا كان الباحث يخوض في مخّططات تآمريّة لجماعات سريّة فالمشاكل تصبح مضاعفة، لأن المصادر نفسها تصبح شحيحة، ومطعون في صدقها، وقد تكون ضحية للابتزاز والتشويه، وحتى لو صدقَت تلك المصادر فيما تقوله فكيف يضمن الباحث أو الناقد أنها صادقة؟ لا سيّما أن الغالبية تشكّك في تلك الرواية التي لا يكون لها من شهود سوى قلة قليلة مضطَهدة، وربما ملاحَقة.

(1) الشيطان أمير العالم، ص 163، 203، 254.

(2) المرجع السابق، ص 164.

مبدئيًّا يمكننا القول إن الخطة المنسوبة إلى **وايزهاوبت** تتمتّع بقدر كبير من الموثوقيّة، فالناشر هو الحكومة **البافارية**، ولم يظهر في المقابل من يطعن في صحّتها حسب علمي، لكن التشكيك جاء لاحقًا على اعتبار أن منظمة المتنوّرين نفسها انحلّت وأن الثورة الفرنسيّة اندلعت تلقائيًّا ولأسباب كثيرة لا علاقة لها بتلك الخطة.

ويقول **غاي كار** إن المتآمرين بذلوا كل جهودهم للقضاء على نسخ الكتب التي كشفت المؤامرة، وفي أحد الأمثلة التي يؤكدها عرضت مؤسسة **روكفلر** على صديق له مبلغًا مفتوحًا من المال مقابل نسخة يملكها من كتاب **روبيسون**[1].

أما أدلة غاي كار فعلى رأسها رسالة بايك إلى مازيني، وهو يقول إنها مفهرسة في مكتبة المتحف البريطاني، وإن عشرات الباحثين نقلوا عنها، وعلى رأسهم الكاردينال الكاثوليكي من تشيلي **خوسيه ماريا رودريجز**، الذي كان قد ألف كتابا بعنوان «**كشف أسرار الماسونية**» عام 1925. ثم يذكر غاي كار في الهامش أن القيّم على المخطوطات في المكتبة أبلغه بأن هذ الرسالة ليست مفهرسة، مضيفًا استنكاره لهذا الكلام طالما كان شخصًا بنزاهة الكاردينال قد نقل عنها، وكأنه يتّهم المكتبة بأنها أخفت الرسالة بعد افتضاح أمرها.

حاولت بدوري أن أتوثّق من صحة الرسالة، ولم أستطع العثور على دليل مؤكّد. وبطبيعة الحال وجدت المواقع الماسونيّة تشكك في الأمر برمته، ومنها مثلًا الموقع التابع للمحفل الأكبر في مقاطعة «**بريتش كولومبيا**» الكندية[2]، وكذلك مقال لباحث يدعى **مايكل هاوبت** -وهو مؤسّس موقع اسمه «**الحرب العالمية الثالثة**»- يقول فيه إنه تواصل مع المتحف البريطاني وأكّد له الأخير أن الرسالة لم تكن في حوزتهم أبدًا[3]، لكن نفي المتحف ليس بدليل طالما كان هناك احتمال بأنه أخفى الرسالة، فمن المعروف أن الكثير من المتاحف والجامعات والمؤسّسات العلمية مقربة من الماسونية، وربما خاضعة لها،

(1) المرجع السابق، ص 178.

(2) Pike and Mazzini: https://freemasonry.bcy.ca/anti-masonry/pike_mazzini.html

(3) https://www.threeworldwars.com/albert-pike2.htm

واللافت أن **هاوبت** الذي أنكر صحة رسالة **ألبرت** هو نفسه يدافع عن فكرة الحروب الثلاثة مستندًا إلى أدلة أخرى، وعلى رأسها الأرشيف المحفوظ عن جمعية المتنوّرين، فضلًا عن توافُق الكثير من الوقائع مع المخطّط، ونبوءات الكتاب المقدس.

مؤامرة أم خيال؟

هنا نصل إلى نقطة منهجيّة أخرى، فقد تجد نفسك عزيزي القارئ حائرًا أمام تيارين متناقضين يحشد كل منهما أدلته ووثائقه، فهل سيبقى السؤال معلّقًا عما إذا كانت هناك مؤامرة إبليسيّة فعلًا أم لا؟

أفضّل عند الإجابة عن مثل هذه الأسئلة أن أميّز دائمًا بين ما أسمّيه عقليّتَي المؤامرة واللامؤامرة، فكلتاهما تتّخذان موقفًا مؤدلجًا، ومن الصعب على الإنسان أن يتعامل مع المعطيات دون موقفٍ مسبَقٍ، إلا أننا مطالبون دائمًا بالتوازن والتجرّد وتذكير النفس بضرورة النزاهة، لا سيّما إذا كان أحدنا يكتب كتابًا أو ينشر مقالًا أو يلقي خطبة تؤثّر في الناس.

وأنا لا أزعم لنفسي الالتزام بالموضوعيّة، مع مجاهدتي لنفسي، كما لا أزعم أني أحطت بكل المعطيات التي قد تساعدني على إرشادك إلى الصواب، بل لا بد من القول إن الإحاطة بكل الوثائق والشهادات والمؤلَّفات التي تؤرّخ لما حدث على مدى قرون ضرب من المستحيل، هذا فضلًا عن صعوبة التحّقق من نزاهة ناقلي تلك الروايات والأحداث في بيئة لم تلتزم بضوابط النقل التي عرفها تاريخنا الإسلامي، ولم تشهد تدوينًا لتراجم الرجال كالتي تخصّص فيها علماء الجرح والتعديل، وزد على ذلك أننا نتحدّث عن جمعيات سرية ومؤامرات يُفترَض أنها وُضعت في اجتماعات مغلقة، وأنّ حَرَس هذه المؤامرات الخبيثة يتمتّعون بما يكفي من السلطة والنفوذ لكتمان أسرارهم، ثم لتشويهها وتحريفها والتشكيك فيها إن قُدّر لها أو لجزء منها أن ينكشف.

من أجل كل ما سبق، لا بد لنا من مصدر آخر نحتكم إليه، فكما أشرت سابقًا إلى بعض الباحثين الغربيّين -مثل **غاي كار وهاوبت** ومن قبلهما المؤرّخون اليسوعيّون- انطلقوا أساسًا من خلفيّتهم المسيحيّة، وإلى النصوص التي تتحدّث عن صراع إبليس القديم مع بني آدم وحرصه على السيادة والمُلك، ثم قرأوا من خلال هذا المنظور الأحداث المعاصرة لجماعات سرّيّة تمارس السحر والاتصال بالشياطين، وتتغلغل في منافذ الحكم، وتسعى ظاهريًّا للقضاء على كل أشكال السلطة السياسيّة والدينيّة، وتنشر الإلحاد والعبثيّة والفساد الأخلاقيّ، ثم ينشقّ عنها العشرات ممن يؤكّدون أنهم شاهدوا وسمعوا من داخل تلك المحافل ما يؤكّد أن إبليس يقود شياطينه من الإنس لتحقيق تلك الأهداف.

وماذا عن الإسلام؟ سبق أن ذكرتُ الإشارات الواردة في الوحي إلى تسلُّط إبليس وأطماعه، وبقي أن أشير إلى أن الصورة لن تكتمل حتى نقرأ نبوءات الوحي لما سيحدث من فتن وملاحم في آخر الزمان. فمع أنّ النبي ﷺ لم يذكر أن إبليس يسعى لتأسيس مملكته في الفصول الأخيرة من قصة الصراع، إلا أنه حذّر كثيرًا من شيطان إنسيّ هو الأعور الدجال، وأكّد أن فتنته هي الأكبر في القصة كلّها.

ومع أن بعض المفسّرين المعاصرين مالوا إلى اعتبار الدجال هو إبليس نفسه في تجسّده الأخير، وهو احتمال مستبعَد وسأذكره مع احتمالات أخرى لاحقًا، إلا أن النقطة التي يجدر أن نتأمّل فيها عند ختام هذا الفصل هي أن أهداف إبليس ستكون قد قاربت على الاكتمال بظهور الدجال، الذي سيملك من القدرات ما لم يحلم به أي طاغية منذ نزول آدم إلى الأرض.

الفتنة مستمرّة ومتصاعدة، ونحن نعيش في آخر الأمم، وربما نكون أيضًا في آخر أجيال هذه الأمة. القرن العشرون اختصر قرونًا من التقدم العلميّ، ونحن شهدنا في أعمارنا القصيرة طفرات وقفزات هائلة يصعب على الإنسان العادي تحمّلها والتأقلم معها، كما

نرى بأعيننا الانهيار الأخلاقيّ وتشريع الفواحش والانتقال الحثيث نحو تكريس تشيُّئِ الإنسان وحيونته، بل شيطنته.

لا أحد يدري أين نكون بالضبط من خارطة الزمن، فعلم الساعة استأثر به الله تعالى عن أعز أنبيائه. وقبل أن نتابع بحث مخاوفنا مما هو قادم، فليسمح لي القارئ الكريم بتذكيره بالصورة الكاملة لإبليس مرة أخرى، فمع أن وعده سيصدُق فعلًا في هذه الدنيا الفانية، فلن ننسى أنه عندما يجد نفسه منتكسًا في قعر جنهم أمام أتباعه، فسيعترف لهم في النهاية بأنه أخلف وعده: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22].

❋ ❋ ❋ ❋



الفصل السابع
الخوف من الدجال

أشرتُ في الفصل السابق إلى التراجع الكبير للخوف من إبليس وفتنته ومكائده، ليس فقط في الأوساط العلمانيّة التي تنكر وجوده، بل حتى في أوساطنا نحن المسلمين، مع أن إبليس لم يبلغ -في رأيي- من التمكّن ما بلغه في هذا العصر!

والأمر نفسه أراه في علاقتنا مع أكبر الفتن، فكلما ازددنا قربًا من خروج الدجّال العلنيّ، ازداد جهلنا به وتناسينا لفتنته، وكأنّنا نحقق بذلك جزءًا من مقدّمات الخروج، ففي الأثر عن الصعب بن جثامة، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره، وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر[1]».

ألا ترى عزيزي القارئ كيف تتسارع الأحداث باتجاه تكتّل «الخائفين من الوحي» في معسكر واحد؟ وكأننا نحث الخطى نحو الانقسام الأخير في آخر الزمان، كما ورد في الحديث الشريف: «يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمانٍ لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذلكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غد»[2] ومع أن هذا التمايز الكبير لن يقع إلا بعد فِتَنٍ أخرى، وهي فتن الأحلاس والسراء والدُهَيماء، ومع أن التحقّق من وقوع هذه الفتن في عصرنا الحالي ليس محل اتفاق، ومع ترجيح معظم المحقّقين المعاصرين عدم وقوعها بعد، إلا أنّ التمايز جارٍ كما يبدو على قدم وساق، وأقنعة النفاق في المعسكر الأوّل تتسابق على السقوط، بينما تصرّ أبواق المعسكر الثاني على المواجهة، وتجزم باستحالة التعايش.

(1) وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» برقم: (907) وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» 7/ 335، وقال: رواه عبد الله بن أحمد من رواية بقية عن صفوان بن عمرو، وهي صحيحة كما قال ابن معين، وبقية رجاله ثقات، قال الشيخ شعيب الارناؤوط إسناده ضعيف

(2) أخرجه أبو داود في السنن، برقم: 4242.

وفي الحديث الصحيح: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر من الدجال» وفي رواية: «أمر أكبر من الدجال»[1]، كما جاء في حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «وما صُنِعت فتنة منذ كانت الدنيا، صغيرة ولا كبيرة، إلا تتضع لفتنة الدجال[2]»، وفي رواية أخرى «وما صُنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال»[3]. وهذه إشارة لا ينبغي المرور عليها دون تدقيق، وقد بحثتُ عن شرح أو تفسير لها في كتب التراث فلم أجد ما يُشبِع الفضول، إذ لا يقتصر التحذير على عِظم فتنة الدجال بل يجعل كل ما سبقها جزءا منها، أو ربما مقدمة لها.

والسؤال الذي راودني هنا: إذا كان الدجّال سيخرج فقط في آخر الزمان، ولن يدوم خروجه سوى أربعين يومًا ثم يُقتل بعدها على يد المسيح عيسى عليه السلام، كما في الحديث: «قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»[4]، فلماذا حذّر كل الأنبياء منه كما في الحديث الصحيح: «ما بُعث نبي إلا وأنذر أمته الأعور الكذاب»[5] إذ يفترض أنهم كانوا على علم بأنه سيخرج في أمّة آخر الأنبياء محمد ﷺ، بل في آخر أيام تلك الأمّة.

قد يكون الجواب كامنًا في حقيقة الدجّال التي لم تُكشَف لنا كل فصولها، فربما كان هذا الرجل حاضرًا طوال تلك القرون كحضور إبليس منذ خلق آدم عليه السلام، فهو يدير الفتن في الخفاء، وينتظر الإذن بالخروج ليظهَرَ للناس ويدّعي الألوهية في آخر حلقات هذه الحياة الدنيا. لذا رأى بعض المفسّرين أن الدجّال وإبليس اسمان مختلفان لكيان واحد، ومنهم الشيخ المعاصر **بسّام جرّار** الذي دافع عن نظريّته في بعض دروسه الموثّقة على

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: 2946.

(2) أخرجه أحمد في المسند عن حذيفة برقم 23304، وابن حبان في صحيحه برقم:6807، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم:3082، دون كلمة «تتضع».

(3) أخرجه أحمد في المسند عن حذيفة برقم: 22793.

(4) أخرجه مسلم في الصحيح، برقم: 2937.

(5) أخرجه البخاري في الصحيح، برقم: 3057، ومسلم في صحيحه برقم: 2933.

الإنترنت، فهو يرى أنّ الدجّال الذي سيظهر متجسّدًا على هيئة رجل من بني آدم في آخر الزمان ليس إلا إبليس نفسه، وأن هذا الظهور يمثل الفصل الأخير من معركة إبليس وجنوده مع بني آدم. لكنّ هذا الرأي لا يصمد أمام فرضيّة كون اليهوديّ **ابن صيّاد** -الذي سأذكر قصّته بعد قليل- هو الدجّال، وهو احتمال لم يستبعده النبي ﷺ، مع علمه بأنّ هذا الإنسان وُلد في عصره بالمدينة المنورة ولم يكن حيًّا يرزق قبل ذلك، أي أنّ النبيّ كان يتحقّق من احتمال كون رجل آدمي هو الدجّال مع علمه يقينًا بأنّه ليس إبليس.

وممّا يطعن أيضًا في احتمال كون إبليس والدجّال مخلوقًا واحدًا أنّ الكفر مستمر بعد هلاك الدجّال، فمع أن الإيمان سيعمّ ببقاء عيسى عليه السلام بين الناس، وستنتشر البركة أيضًا في المال والرزق، لكن هذا الوضع المثالي سينقلب بعد وفاة هذا النبيّ الكريم، وسيعود إبليس إلى نشاطه مرة أخرى، فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق. ولدينا في هذا حديث صحيح، إذ روى ابن عمر عن النبي ﷺ قوله: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين -لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا- فيبعث الله **عيسى بن مريم** -عليه السلام- كأنه **عروة بن مسعود**، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أنّ أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، قال فيبقى شرار الناس في خفّة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثّل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون؟ فيقولون فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم حسنٌ عيشهم»[1].

مع هذا يمكن أن نفترض أن للأعور الدجّال صفات غير مألوفة لدى البشر، تميّزه عن بقيّة الدجاجلة الذين يظهرون قبله، كتلبّس إبليس (سيّد الشياطين) في جسد الدجّال كما يتلبّس الشياطين في أجساد البشر عندما يتعرّضون للسحر، ممّا يمنح هذا الدجّال تحديدًا قدرات خارقة لا يقدر عليها غيره. وأذكر هنا أن ابن صيّاد كان مختلفًا عن بقية البشر منذ

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم: 2940.

حمل أمه به، ففي الحديث يقول أبو ذر رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ قد بعثني إلى أمه، قال سلْها كم حملت به، فأتيتها فسألتها فقالت حملت به اثني عشر شهراً. قال ثم أرسلني إليها: فقال سلها عن صيحته حين وقع، قال: فرجعت إليها فسألتها، فقالت: صاح صياح الصبي ابن شهر»[1] وهذه صفات عجيبة، فقد تأخّر عن مولده في بطن أمه كثيرًا، إذ يجمع الأطباء على أن أقصى مدة للحمل لا تتجاوز 42 أسبوعًا، أي أقل من عشرة أشهر بقليل، أما حمل ابن صيّاد فبلغ عامًا كاملًا، وعندما خرج كان بكاؤه كبكاء طفل أكبر من حديثي الولادة.

أما علاقته بإبليس فقد أشرت إليها في الفصل السابق، فعندما سأله النبي ﷺ: ما ترى؟ قال: أرى عرشا على الماء، فقال ﷺ «ترى عرش إبليس على البحر»[2]، وهذا يدل على اتّصال ابن صيّاد المباشر بإبليس.

زد على ذلك قصة عبد الله بن عمر مع ابن صيّاد عندما التقى به في أحد طرق المدينة، فقال ابن عمر له قولًا أغضبه، فانتفخ ابن صيّاد «**حتى ملأ السكّة**»، فدخل ابن عمر على حفصة وأخبرها بما رآه فقالت له: رحمك الله ما أردت من ابن صيّاد؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غضبة يغضبها»[3] وهذا أمر عجيب أيضًا، فأي إنسان هذا الذي يمكن أن يدفعه الغضب إلى الانتفاخ حتى يملأ جسده الطريق؟!

وقد يرى البعض أن تحذير الأنبياء كلّهم من الدجّال مؤشّر على اجتماع مقدّمات الفتن كلّها في تلك الفتنة الأخيرة، أي أنهم كانوا يحذّرون من الأصل الذي تقوم عليه الفتن، وهو تكذيب الوحي واتباع الهوى، فكلّ محاولات التضليل التي عرفتها البشريّة هي «**تنويعات**» على الفتنة الكبرى التي سيعلنها الدجال في آخر الأيام، حيث يخرج مدّعيًا لنفسه الألوهيّة نفسها وليس النبوّة، وزاعمًا أن لديه نارًا وجنة، ومُظهرًا قدراته في إنزال المطر وإخراج كنوز

(1) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه برقم: 20812، ورجاله رجال الصحيح.
(2) أخرجه الإمام مسلم، برقم: 2925، وفي سنن الترمذي برقم: 2247.
(3) أخرجه مسلم، برقم: 2932.

الأرض وإحياء الموتى، وهي كلّها فتن لاختبار الناس وامتحانهم، فالأصل ألا يصدّق الإنسان العاقل إنسانًا آخر -أو حتى جنّيًا- يدّعي الألوهيّة وهو لا يعدو كونه كائنًا يمشي على رجلين، وتعاني عينه من العَور، وكُتب على جبينه أنه كافر[1]، حتى لو كانت لديه قدرات خارقة.

ابن صيّاد والجساسة

قبل أن نتابع النقاش، لا بد من التوقّف عند قصّة اليهوديّ ابن صيّاد، الذي امتحنه النبي ﷺ ليعلم حاله، ثم سكت عنه ولم يخبر عن حقيقته، لكن بعض الصحابة جزموا بأنه هو الدجّال المنتظر في آخر الزمان، إذ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلف عند النبيّ ﷺ أن ابن صيّاد هو الدجّال ولم ينكر عليه ذلك، وثبت ذلك أيضًا عن جابر بن عبد الله وابن عمر وأبي ذر.

ففي الحديث الصحيح عن **محمّد بن المنكدر**، قال «رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صياد هو الدجال. قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ»[2]

وكان ابن عمر يقول: «والله ما أشكّ أن المسيح الدجّال ابن صيّاد[3]»، بل بلغت الثقة بالصحابي أبي ذر رضي الله عنه أن يقول: «لأن أحلف عشر مرات أن ابن صائد هو الدجال أحب إليّ من أن أحلف مرة واحدة أنه ليس به»[4]

وقد يُشْكِل على البعض الجمع بين روايات ابن صيّاد وحديث فاطمة بنت قيس

---

(1) قال النبي ﷺ: «ما بُعث نبي إلا وأنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر» [متفق عليه].

(2) أخرجه البخاري برقم (7355)، ومسلم برقم: (2929)

(3) رواه أبو داود (4330). وسكت عنه، وصحح إسناده النووي في شرح صحيح مسلم، (18/ 47)، والمناوي في تخريج أحاديث المصابيح، (4/ 534)، وابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح، 5/ 145.

(4) رواه أحمد برقم: (21357). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (8/ 5): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ثم قال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وهو ثقة

المشهور بحديث الجسّاسة، وهو حديث طويل رُوي في صحيح مسلم، ويحكي قصة الصحابي تميم الداري الذي كان نصرانيًّا، إذ ركب سفينة مع أصحابه فوجدوا أنفسهم في جزيرة معزولة، واستقبلتهم فيها دابّة كثيفة الشعر تتكلّم، فخافوا منها وحسبوها شيطانة، غير أنها أرشدتهم إلى دَير وقالت إن فيه رجلًا يتطلّع بشوق إلى لقياهم، وهناك وجدوا رجلًا ضخما موثّقا بالسلاسل، ودار بينهم حوار أخبروه فيه عن ظهور النبي ﷺ، وأخبرهم في نهايته بأنه «المسيح»، وأنه يوشك أن يؤذن له في الخروج، فانطلق تميم إلى المدينة المنورة وأخبر النبي بالقصة وأعلن إسلامه.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن بعض العلماء المعاصرين طعنوا في صحة الحديث مع أن الإمام **مسلم** أخرجه في صحيحه، ومنهم الشيخ **محمد رشيد رضا** الذي ردّ الحديث في «تفسير المنار»، والشيخ **محمد بن صالح العثيمين** الذي قال في بعض دروسه إن «**النفس لا تطمئنّ إلى صحته**»، وكذلك الدكتور **حاكم المطيري** الذي وضع رسالة بعنوان «**دراسة لحديث الجسّاسة وبيان ما فيه من العلل في الإسناد والمتن**»، إلا أنّ جمهور العلماء في كل العصور متّفقون على صحته، فالحديث روي من طرق أخرى غير طريق الإمام الشعبيّ، وأخرجه إلى جانب الإمام مسلم عدد من أصحاب السنن والمسانيد، ولمن يريد الاستزادة في هذا الباب أنصحه بكتاب «**دفاع عن السنّة**» للدكتور محمد محمد أبو شهبة، وكتاب «**آراء محمد رشيد رضا العقائدية في أشراط الساعة الكبرى وآثارها الفكرية**» للباحث **مشاري المطرفي**.

ولعل أخذ الجمهور بهذا الحديث هو سبب ترجيحهم أن ابن صيّاد كان مجرد دجّال يتعامل مع الشياطين بالسحر وليس هو الأعور المنتظر في آخر الزمان، فعندما أقرّ النوويّ – في شرحه لصحيح مسلم– بصحّة حديث جابر بشأن سكوت النبيّ ﷺ عندما حلف عمر بين يديه على أن ابن صيّاد هو الدجال، رأى النووي أنه يُحتمل توقّف النبي ﷺ في أمر ابن صيّاد، ثم جاءه البيان بأن الدجّال موثق بالسلاسل كما رآه تميم.

وفي نفس الاتّجاه أيضا، رأى ابن تيمية في «**مجموع الفتاوى**[1]» وابن كثير في «**النهاية في الفتن والملاحم**[2]» «أن النبي ﷺ كان متوقّفًا في أمر ابن صيّاد إلى أن جاء النبأ اليقين من تميم الداري، لكن ابن حجر قدّم تحليلًا آخر في «**فتح الباري**[3]» عندما قال إن ابن صيّاد قد يكون شيطانًا تجسّد في عصر النبيّ وما بعده إلى حين اختفائه يوم الحرّة، ثم توجّه إلى أصبهان، وهي مدينة تقع في إيران اليوم وقد حدّد النبي خروج أتباع الدجّال اليهود في آخر الزمان منها، ليستتر مع قرينه (إبليس) هناك بانتظار لحظة الخروج. وهذا القول قد يقدّم تفسيرًا مريحًا لقصة انتفاخ ابن صيّاد في بعض طرق المدينة حتى ملأ السكّة كما مرّ بنا، ولست أدري إن كان هناك ما يمنع أن ينتفخ السحرة بتلك الهيئة العجيبة دون أن تتضرّر أجسادهم، وإلا فلا بدّ أن نعتبر ابن صيّاد إما الدجّال نفسه أو شيطانًا من الجن.

وسواءً كان الدجّال مقيدًا بالسلاسل في جزيرة لا يعلمها إلا الله، ولم يُظهرها الله جلّ وعلا إلا لسفينة لم يكن فيها أحد من الصحابة كي يحكوا لنا قصتها وتكون سببًا في اقتناعهم بنبوّة محمد، أو كان الدجّال هو ذاك الشخص الغامض (ابن صيّاد) الذي اختفى فجأة بعد وفاة النبي ولم يثبت موته، فالظاهر في الحالتين أنه كان وما زال حيًّا.

ولم يكن النبي ﷺ يوفّر فرصة لتحذير أصحابه من الدجّال، وكأنه يقول لأمته من بعده إن الدجال زعيم معسكر الشرّ الشيطانيّ من الإنس، وإن فتنته لا تقتصر على ما سيحدث لحظة خروجه، فلن يشهد تلك المرحلة إلا جزءٌ محدودٌ جدًّا من البشرية الممتدة منذ عصر آدم، مع أن الأنبياء كلّهم كانوا يحذرون منه، وقبل أن يخرج بوجهه إلى الناس.

وإن كان الدجال هو ابن صيّاد فعلًا، فتأمل معي عزيزي القارئ في أخبار نهايته، إذ ضعّف ابن حجر في «**فتح الباري**» قول من ذهب إلى أنه مات في المدينة المنورة، وصحح هذه الرواية المنقولة عن جابر رضي الله عنه: «فقدنا ابن صيّاد يوم الحرّة»[4]، ويوم الحرّة

(1) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: (11/ 283).

(2) النهاية في الفتن والملاحم، إسماعيل بن كثير، (1/ 108).

(3) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (13/ 328).

(4) رواه أبو داود وابن أبي شيبة والمناوي وصححه النووي وابن حجر

هو يوم الشؤم الذي قلب تاريخ أمتنا نحو الظلم والطغيان، ففيه سلّط **يزيد بن معاوية** جيشًا من الشام على أهل المدينة المنورة، عندما نقضوا بيعة يزيد احتجاجًا على جريمة كربلاء وقتل الحسين سبط النبي ﷺ، فلم يتورّع الجيش الأموي عن قتل خيرة الصحابة والتابعين واستباحة مدينة النبي ﷺ، ثم فُقد ابن صيّاد في هذا اليوم الرهيب، وكأنه عاد للتخفّي وتدبير الفتن من وراء حجاب، وهو يعلم أن له يومًا موعودًا للخروج واستعباد الناس جهارًا، بعدما أضلّهم وفتنهم في الخفاء قرونًا، أو ربما ذهب إلى قرينه إبليس للتخفّي معه كما يقول ابن حجر.

وهنا أعود إلى الحديث الذي ذكرت جزءًا منه سابقا، لنقرأه الآن كاملا: «لأَنَا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صُنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال». والسؤال هنا: كيف تكون الفتنة التي اندلعت بين الصحابة أنفسهم (فتنة بعضكم) أخوف عند النبي ﷺ من فتنة الدجال، مع أنه صرّح مرارًا بأن فتنة الدجّال أكبر الفتن وأشدها، بل قال في الحديث نفسه إن كل الفتن لم تُصنع إلا لفتنة الدجال؟ والجواب في رأيي أنه ﷺ كان يعلم -عندما وجّه رسالته هذه لأصحابه- أن الدجّال لن يخرج في عصر الصحابة، بمعنى الخروج العلني النهائي، بل في عصور لاحقة، فكان يبوح لهم بخوفه عليهم من الفتنة والاقتتال، وهذا ما حدث فعلًا بين الصحابة رضي الله عنهم مع أنهم أفضل البشر، فاقتتلوا في وقعة الجمل ويوم صفين، ثم بلغت الفتنة ذروتها عندما هاجم جيش الأمويّين -بما فيه من منافقين ومرتزقة وأعراب لم يدخل الإيمان في قلوبهم- أطهر بقعتين، مكة المكرمة والمدينة المنورة.

قد يُعارَض هذا الرأي بحديث «غيرُ الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم»[1]، فظاهر الحديث أنّ النبي ﷺ لم يستبعد خروج الدجال في حياته عليه السلام، لكن مطلع الحديث يشير أيضًا مرة أخرى إلى خوف النبي على الصحابة من فتنة أخرى،

(1) أخرجه مسلم، برقم: 2937.

وكأنه يقول إنه يخاف عليهم من الفتنة التي ستندلع بعد وفاته عندما لا يكون بينهم ليمنعها عنهم، وهي قادمة لا محالة كما أطلعه الله عليها بعلمه الغيب، أمّا إن خرج الدجال في حياته فسيكون هو الضامن لاحتواء فتنته.

وقد يقال كيف يذكر النبي ﷺ احتمال خروج الدجّال في حياته، مع أنّه ذكر أنّ خروجه سيكون مقدّمة لأشراط الساعة الكبرى؟ فلا بد أن تسبق الدجّال مراحل كثيرة كان النبيّ نفسه قد حدث الصحابة عنها، وهي مراحل الخلافة ثم الملك العاضّ ثم الملك الجبري ثم عودة الخلافة، وما يتخلّل ذلك من معارك وفتن وفتوحات. والجواب الذي أراه -والله أعلم- محتمل في أمرين، الأول أن يكون الحديث السابق الذي رواه مسلم قد قاله ﷺ مبكّرًا قبل أن يطلعه الله على بقيّة أشراط الساعة وتفاصيلها وما يحدث من فتن، والاحتمال الثاني أن يكون قصدُ النبي ﷺ هو التحذير من خروجٍ أوّلٍ للدجّال قبل خروجه الأخير، أي أنه لم يستبعد أن يعلن الدجّال عن نفسه في حياة النبيّ، سواء كان هو ابن صيّاد الذي كان يعيش بين ظهرانيهم، أو رجلا آخر مقيّدًا في جزيرة معزولة، فيكون له ظهور مرحلي عابر، وليس الخروج النهائيّ الموعود في آخر الزمان والذي لا ينتهي إلا بمقتل الدجّال على يد عيسى عليه السلام.

وإذا كان الاحتمال الأخير صحيحًا، فيمكننا القول إنّ ما حدث من فتن تشيب لها الرؤوس، بدءًا باقتتال الصحابة أنفسهم رضي الله عنهم، ومرورًا بما نراه من انهيار قوّة الإسلام وتسيّد شياطين الجن والإنس على الأرض في كل مكان، هي نفسها من فتن الدجال الذي كان وما زال حيًّا يرزق، وما هي إلا مقدّمات لخروجه النهائيّ عندما تحين فرصة ظهوره العلنيّ، وتجوّله في أقطار الأرض بسرعة عجيبة، واستعراض قواته وقدراته وجيوشه، واستمتاعه بادعاء الألوهيّة نفسها، وليس فقط السيادة على البشر، والله أعلم.

وقبل أن أختم هذا المبحث، سألفت نظرك إلى لغز آخر في صدر الإسلام، قد تكون له علاقة بالظهور المحتمل للدجّال، وأقصد هنا شخصيّة عبد الله بن سبأ، اليهودي المتأسلم الذي اتفق المؤرخون على خطورة دوره في زرع بذور أول البدع نشوءً في أمة الإسلام، وهي

دعوى «**الرجعة**» التي بثّها من قبلُ اليهودي شاؤول (**بولس**) عندما حرّف دين التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام، زاعمًا أن النبي عيسى صُلب فدُفن ثم رُفع بعد ثلاثة أيام لكونه إلهًا، فسار ابن سبأ على خطاه في عهد عثمان بن عفان وهو يقول بين العوامّ إنه يعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع (وهي عقيدة المسلمين) ولا يصدّق أن محمّدًا يرجع، ثم بدأ بنشر فكرة أن يكون لكل نبيّ وصيًّا، داعيًا إلى جعل علي بن أبي طالب وصيًّا للنبيّ، وتطوّر الأمر لاحقًا إلى ادّعاء تأليه عليّ (مع أن هذه الجزئية موضع جدل في نسبتها إلى السبئيّة)، كما كان له ولجماعته السرّية دور جوهريّ في تأجيج الفتن بين الصحابة، وفي التحريض على قتل عثمان، واندلاع معركة الجمل، وظهور بدعة التشيّع التي فرّقت المسلمين حتى يومنا هذا.

وسبب استشهادي بهذه الشخصيّة أن ظهور ابن سبأ واختفاءه كان أيضًا لغزًا محيّرًا، فمع أن بدء قصّة ابن صيّاد كانت معروفة بمولده في المدينة المنورة في حياة النبي ﷺ، لكن أصل ابن سبأ –القادم من اليمن في عهد عثمان– ما زال موضع جدل، كما يتشابه الرجلان في غموض النهاية والمآل، فابن صيّاد اختفى يوم الحرّة على الأرجح ولا يُعرَف له قبر، كما لا نعرف شيئًا عن وفاة ابن سبأ، ولا نستبعد أن يكون جزءًا من مشروع الدجّال أيضًا[1].

---

(1) صار من الشائع اليوم التشكيك في وجود ابن سبأ وكأنه شخصية أسطورية، مع أنه كان محل اتفاق لدى القدماء من الشيعة والسنة معًا، كما لم يشك في وجوده الجيل الأول من المستشرقين، لكن طائفة أخرى من المستشرقين شككت فيه لاحقًا، مثل كيتاني وبرنارد لويس، فتابعهم معظم علماء الشيعة المعاصرين، وانتقلت البدعة إلى باحثين من السنة على اعتبار أن الخلفاء الراشدين لم يكونوا «حمقى» حتى يخدعهم ابن سبأ وجماعته، وهذه حجة عجيبة لا داعي لها، فنفي أثر المؤامرة ليس ضروريًّا لتنزيه الصحابة عن الخطأ، بل سيؤدي هذا النفي بالمقابل إلى إثبات تورّط الصحابة في اقتتال داخلي وفتن كبرى من تلقاء أنفسهم، وهذا هروب من قبيح إلى أقبح. وقد فصّل بعض المعاصرين في الرد على هذه الدعوى وأثبتوا وجود ابن سبأ وفتنته، ومنهم علي الصلابي في كتابه «تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان»، ومحمد أمحزون في كتابه «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الطبري والمحدّثين»، وسلمان بن حمد العودة في كتابه «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام».

متى يخرج الدجّال؟

مع أني بدأت هذا الفصل بالإشارة إلى أن التمايز بين معسكري الإيمان والنفاق -وهو من مقدّمات خروج الدجال- يتحقق كما يبدو في واقعنا اليوم، إلا أني لا أزعم بذلك أنّنا بلغنا المرحلة الأخيرة من الفتن، فثمّة مقدّمات أخرى لا بد من حدوثها قبل خروجه.

سأحدّثك عزيزي القارئ بعد قليل عن تلك الفتن، ولكن لنستعرض أولًا أهم المقدّمات التي تسبقُ الدجّال، مما لم يحدث بعد، وأولها أن يحْكُم هذه الأمة اثنا عشر خليفة، ففي الحديث الصحيح: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»[1] وفي رواية للبخاري: «يكون اثنا عشر أميرًا».

وكي نفهم المقصود، لا بد من تحرير مفهوم الخلافة، فالخليفة هو الذي تُجمع عليه الأمة ولا يكون سلطانًا أو ملكًا على جزء من ديار الإسلام، ففي لفظ آخر للحديث السابق: «كلّهم تجتمع عليه الأمّة»، كما ميّز النبي ﷺ بين الخلافة والملك، ففي الحديث: «تكون النبوّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريّة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة، ثم سكت»[2]، وهناك روايات أخرى بنفس المعنى تتفاوت بين الصحيح والحسن[3].

إذن فلا بد من ظهور اثني عشر خليفة، تتحقّق فيهم صفات العدل والرشد، ويتولّون الحكم برضا أهل الحل والعقد وليس بوراثة الحكم كما يفعل الملوك، وتجتمع عليهم

---

(1) رواه البخاري برقم: 7222، ومسلم واللفظ له برقم 1821.

(2) أخرجه أحمد في مسنده عن النعمان بن بشير، وكذلك الطيالسي والبيهقي، وصححه الألباني وحسنه الأرناؤوط

(3) من الأحاديث المهمة في هذا الباب: «إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة، ثم مُلكا عضوضا، ثم كائنٌ جبريّة وعتوًا وفسادًا في الأرض، يستحلون الحرير والفروج والخمور، يُرزقون على ذلك ويُنصرون حتى يلقوا الله» [حديث حسن].

الأمة فلا يكون حكمهم مقتصرًا على جزء ما من ديار الإسلام، وقد مضى ممن تتحقّق فيهم هذه الشروط أربعة من الخلفاء الراشدين، ويُحسب **عمر بن عبد العزيز** خامسًا، وربما يجادل البعض باحتساب الحسن وابن الزبير، إلا أن حكمهما لم يكن محل إجماع، كما يُستبعَد احتساب معاوية في عِداد الخلفاء، إذ جاء في سيرة معاوية في كتاب البداية والنهاية: «كان معاوية يقول أنا أوّل الملوك وآخر خليفة، قلت: والسنّة أن يقال لمعاوية ملك ولا يقال له خليفة لحديث سفينة: الخلفاء بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا عضوضا»[1]، ويقصد ابن كثير هنا أن الحديث الشريف الذي رواه الصحابي سفينة رضي الله عنه ينصّ على انتهاء فترة الخلافة الأولى بانقضاء ثلاثين سنة من وفاة الرسول ﷺ، وقد حسبها رواة الحديث ووجدوا أنها توافق نهاية حكم علي بن أبي طالب، ليبدأ بعدها حكم الملوك على يد معاوية، إذن فما زلنا ننتظر ظهور عدة خلفاء حتى يكتمل نصاب الاثني عشر خليفة، ولا بدّ من ظهورهم قبل الدجال.

والذي يظهر لنا أن الملك العاضّ بدأ على يد الأمويين، وظل قائمًا في الأمة حتى سقوط السلطنة العثمانيّة، وبدأ بعدها المُلك الجبريّ الذي نعيش في ظله اليوم، وهو أشد عسفًا وبؤسًا مما قبله، فإذا كان الملوك السابقون قد ظلموا وطغوا فإنهم أبقوا على حكم الإسلام وحمَوا بيضته، أما ملوك اليوم فبعضهم تجرّأ على محاربة الإسلام نفسه، وبعضهم أقصاه من المشهد وحصره في حدود العبادة وقيود المعاملات فقط.

ولا بدّ لهذا الظلام من أن ينجلي كما وعد الصادق المصدَّق ﷺ، ولا ندري كيف ستكون عودة الخلافة، إذ لا تبدو في الأفق المنظور أي بوادر لها، لكن الله قادر على أن يبدّل الحال في أي لحظة.

كما لا بد أيضًا من وقوع الملاحم الكبرى قبل خروج الدجال، ففي الحديث: «عُمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينيّة خروج الدجال»، واختُلِف في الحديث، إذ ضعّفه

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، دار عالم الكتب، 2003، ج 11، ص 439.

الأرناؤوط وحسّنه الألبانيّ، وإذا صحّ فهو يعني أن المدينة المنورة ستتعرّض للخراب، وفي أحاديث أخرى يهجرها أهلها لسبب غير معروف مما يرجّح أن خرابها سيكون بخلوّها من السكّان وليس بدمار المباني، وفي الوقت نفسه تنزل الخلافة ببيت المقدس، ثم تقع الملحمة بين المسلمين والروم وتُفتح القسطنطينية، وبعد هذا كلّه يخرج الدجّال. ولا يخفى أن الخلافة نزلت ببيت المقدس في أيام عمر، كما فُتحت القسطنطينيّة على يد العثمانيين، لكن بيت المقدس نُزع من يد المسلمين وعاد مرّتين على يد الأيوبيّين، ثم نُزع في عصرنا الحالي وما زال حتى الآن في يد اليهود، ولم تعد إسطنبول اليوم أيضًا مقرًّا لدار الإسلام ولا تحكمها الشريعة، فلا بد إذن من عودة الخلافة وسيطرة المسلمين على هاتين المدينتين كما تنصّ الأحاديث النبوية.

ووفقًا لأحاديث الملاحم، يتصالَح الروم مع المسلمين ويقاتلون عدوًّا واحدًا، ثم يصطدم الحليفان، فيرفع الروم اثني عشر راية، ويقتتلون مع دولة الخلافة، ومعسكر المسلمين يومئذ في الغوطة قرب دمشق، وتكون هذه الملحمة العظيمة مقدمة لفتح القسطنطينية، ويكون هذا الفتح مقدّمة أيضًا لفتح روما.

أما الملحمة الثانية فتندلع بين المسلمين واليهود، ومعسكر المسلمين فيها شرق نهر الأردن، ويتحرّر فيها المسجد الأقصى، ويكون ذلك أيضًا في عهد خليفة من خلفاء آخر الزمان، والأرجح أنها ستحدث قبل ملحمة الروم، وربما يهرب من ينهزم من اليهود فيها إلى المشرق.

وبعدما ينتهي المسلمون من ملحمة الروم، والتي يُقتل فيها عدد لا يحصى من المسلمين، تزهد البقيّة المنتصرة منهم في الغنائم من شدة مصابهم. يقول ابن مسعود «فبأي غنيمة يُفرح؟ أو أي ميراث يُقاسَم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم...»[1]، وفي

(1) أخرجه مسلم برقم: 2899.

روايات أخرى فإن الصريخ هو إبليس، وصرخته كاذبة، ولكن ما إن يعود المسلمون إلى بلادهم حتى يخرج الدجّال بالفعل.

وقبل خروجه، ثمة فتن أخرى لا نعلم إن كانت تتزامن مع عصر الخلافة الثانية أم قبلها، فعن عبد الله بن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ قعودًا فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي فتنة هَرَب وحَرَب، ثم فتنة السراء دخلها أو دخَنها من تحت قدمَي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني، إنما وليّي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة، فإذا قيل: انقطعت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسى كافرا، حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد»[1]

قد يسبق إلى ذهنك عزيزي القارئ أن أيامنا هذه تبدو مشابهة لأوصاف فتنة الدهيماء، وهو ما قال به الكثير من الدعاة المعاصرين، ودروسهم ومحاضراتهم تملأ فضاء الإنترنت وهي تبشّر بخروج الدجّال «**من اليوم أو غد**»، فبعضهم يرى أن الفتنة التي لم تدع أحدًا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة هي فتنة الإعلام الفاسد الذي اقتحم كل البيوت، عبر الراديو أولًا، ثم التلفزيون، وأخيرًا الهواتف المحمولة، كما أننا نرى في السنوات الأخيرة تذبذب الناس بين الإيمان والكفر تذبذبًا مرعبًا، لكن الحديث ينصّ على أن هذه الفتنة مسبوقة بفتنتين، وهذه الفتن الثلاث ستعمّ الأمة كلّها كما يبدو من ظاهر النص، وفتنة السرّاء (وهي مرحلة تنعّم تقع بين فتنتين شديدتين) يجب أن تندلع شرارتها من قِبل رجل من آل البيت إلا أنّه ليس على هدي النبوّة، ثم يتّفق الناس على خليفة يحكم الأمة كلّها وليس جزءًا منها، ويكون حكمه قصيرًا غير مستقر، تشبيهًا بعدم استقرار عظمة الورك على الضلع، وبعد هذا كله تندلع فتنة الدهيماء التي تنتهي بخروج الدجال، وهذه الأحداث المتتابعة كلّها لم تقع

---

(1) أخرجه أحمد في المسند عن عبد الله بن عمر، وصحّحه الحاكم والذهبي، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم: 4194.

حتى اليوم، وقد حاول الأقدمون تنزيل وقائع عليها في عصر الأمويّين والعباسيين لكن اجتهادهم لم يكن صحيحًا.

بعد تتالي تلك الملاحم والفتن، سيخرج الدجال علنا من جهة المشرق، وسيلحق به -على الأرجح- اليهود الذي نزحوا إلى هناك بعد فرارهم من ملحمة بيت المقدس. يقول الحديث «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة»[1]، وستبدأُ بذلك الفتنة الكبرى التي تضلّ بها حشود من البشر، ومنهم كثير من المسلمين.

أما تولّي الخليفة العادل -المسمّى بالمهدي- للسلطة فلا نعرف بالضبط إن كان سيحدث قبل خروج الدجال بقليل أم أثناء ظهوره، لكن الأصل أن المهدي مسبوق بخلفاء صالحين، وأنه هو المكمّل للاثني عشر.

يقول الحديث «لا تقوم الساعة حتى تُملأ الأرض ظلمًا وجورًا وعدوانًا، ثم يخرج من أهل بيتي من يملؤها قسطًا وعدلًا كما مُلئت ظلمًا وعدوانًا»[2] وبقية القصة معروفة لدى معظم المسلمين، إذ ينزل عيسى عليه السلام في خلافة المهدي، وعندما يرى الدجالُ المزهوّ بقوته ومُلكه نبيَّ الله عيسى عليه السلام بعينه يذوب كما يذوب الرصاص، فيهرب منه، لكن النبيّ عيسى يلحق به ويقتله بحربته عند باب لدّ، وهو منطقة تقع الآن في موقع مطار تل أبيب، ثم يتفرّق جيش الدجال الذي كان يحاصر المسلمين، وتميل الكفة بتأييد الله لهم، وهذه هي الملحمة الثانية التي يقاتل فيها المسلمون اليهود، وهي التي نعتقد أنها المذكورة في الحديث الصحيح: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود[3]».

وهكذا تنتهي قصة الدجّال بعد أن عاث في الأرض فسادًا مدة أربعين يوما[4]، وربما

(1) أخرجه مسلم في الصحيح برقم: 2944.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم: 8712. وصححه الذهبي والألباني.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: 2926.
(4) لا بد من التذكير مجددا بأن أيام الدجال ليست كلها كأيامنا الحالية كما جاء في الحديث الذي سبق ذكره.

سبقتها آلاف من السنوات التي كان يخطّط ويعمل فيها عبر وكلائه وحلفائه من شياطين الإنس والجن.

ثم يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيحاصرون المسلمين ومعهم نبي الله عيسى بن مريم، لكن الله يكفي المسلمين مؤونة قتالهم، ويبعث على يأجوج ومأجوج الدود فيُقتلون أثناء فرضهم الحصار.

و«يُهلك الله عز وجل في إمارته (أي عيسى) الملل كلها غير الإسلام»[1]، ويبقى عيسى عليه السلام سبع سنين بين المسلمين، وهي فترة تعم فيها البركة والسلام والإسلام، ثم يتوفاه الله ويدفنه المسلمون، وسرعان ما يعود الناس بعدها إلى الكفر حتى لا تقوم الساعة إلا على الكفار.

وتترجّح لدي بعد دراسة هذه الأحاديث ملحوظتان لا بد من ذكرهما[2]:

الأولى أن منجزات التكنولوجيا الحديثة ستندثر قبل بدء الملاحم، لسبب قد لا نعرفه الآن، فالنصوص تشير بوضوح إلى معارك قوامها الخيول والسيوف والحراب والتلاحم الذي لا يحدث إلا في النمط القديم من الحروب، ولا أستبعد أن يستأثر الدجال بالتكنولوجيا التي تندثر ويفقدها بقية الناس، لا سيما أن الحديث يقول: «وله حمار يركبه، عرضُ ما بين أذنيه أربعون ذراعا»[3]، وهو حديث مُختلَف على صحّته وتضعيفه، ومع أن الأصل لدى العلماء حملُ الاسم على الحقيقة دون تأويل، أي أنّ للدجّال حمارًا حقيقيّا بهذا الحجم، لكن هذا الوصف لا ينطبق على الحمير، ولو كان على هذه الصورة فلم يعد اسمه حمارًا إلا من حيث التشبيه، والوصف لا ينطبق أيضًا على الطائرة كما زعم بعض

(1) أخرجه أبو داود (4324)، وأحمد (9630) باختلاف يسير، والطبري في تفسيره 6/ 459

(2) هاتان الملحوظتان أيدهما الشيخ محمد الحسن ولد الددو في حلقات بعنوان «أحاديث الفتن والملاحم» من برنامج مفاهيم، الذي بثته قناة «فور شباب» عام 2011.

(3) أخرجه أحمد (14954) واللفظ له، وابن خزيمة في التوحيد (1/ 102)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار 5694

المعاصرين، لذا أعتقد أن للدجال مركوبًا قد يشبه الحمار، أو يُطلق عليه اسم الحمار، وإما أن يكون من وسائل النقل الحديثة أو من دوابّ الجن التي لا نعرفها، والله أعلم.

أما الملحوظة الثانية فهي أن الأحاديث توحي بأن الفتن والملاحم ستحدث جغرافيا في «العالم القديم»، أي ما يسمى اليوم بمنطقة الشرق الأوسط وأوروبا ووسط آسيا، وأن الدجّال سيتجول في هذه المنطقة فقط مع أن «**الأرض تطوى له**»، وهذا يُرجِّح في رأيي أن بقية القارات لن تبقى مأهولة بالسكان، أو ستكون مغمورة بالماء، وربما يكون عدد الناس آنذاك أقلّ بكثير من عددهم اليوم، وعلى النقيض من توقّعات الانفجار السكاني.

صورة من فيلم 2012

قد يستبعد البعض صحّة هاتين الفرضيتين، لأن النفس تألف صعود الحضارة لا انهيارها إلى درجة الاندثار، كما تألف تزايد البشر لا انقراض طائفة كبيرة منهم. لكن روايات وأفلام الخيال العلمي لم تتأخّر عن طرح هذه الرؤى، وأذكر منها مثلا فيلم «2012» الذي أنتجه هوليود عام 2009، وهو يستوحي قصته للكارثة العالميّة من نبوءة شعب المايا القديم بأن «يوم الهلاك» سيحل عام 2012، لكن الفيلم لم يجعلها نهاية للعالم كله بل تخيّل حدوث فيضان هائل يغمر كل القارات باستثناء أفريقيا، ولا تنجو من بقية القارات سوى النخبة ومن يلحق بها ممن يحظون بركوب سفينة تشبه سفينة نوح.

ومن الأمثلة أيضا، فيلم «**آلة الزمن**» المنتج عام 2002 بناء على رواية بنفس الاسم، إذ تخيّل منتجوه أن بطل الفيلم الذي سيستقل آلة الزمن ويكتشف مآل العالم في القرون المقبلة سيشهد تطوّر العلم والتكنولوجيا تدريجيًّا، ثم توالي الكوارث الطبيعيّة والكونيّة، بما فيها انفجار القمر، وبعد 800 ألف سنة يفاجأ بأن البشرية قد عادت إلى ما كانت عليه في

العصر الحجري، وأن بعض الآلات والمنتجات المتطوّرة أصبحت في عداد القطع الأثرية التي يتعجّب منها الناس في ذاك الزمن.

ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذه مجرّد قصص ابتدعها الخيال، وليست من نبوءات الوحي، لكن ورودها على الخاطر يكفي لنفي استبعادها حتى لدى من لا يؤمن بالنبوءات.

وبالعودة إلى السؤال المركزي عن موعد خروج الدجّال، وهل يمكن أن نشهد خروجه في حياتنا؟ فقد بيّنت لك عزيزي القارئ أن بين يديه مقدّمات لا بد منها، لكن هذا لا يعني أنها تقتضي مرور أجيال طويلة، ولا بد هنا من بعض التفصيل.

فإذا عدنا إلى أحاديث أشراط الساعة، التي قسّمها العلماء إلى كبرى وصغرى، وبعضهم جعل بينهما أشراطًا وسطى وعلى رأسها عودة الخلافة وربما ظهور المهديّ قبل خروج الدجال، فسنجد أن الأشراط الصغرى لم تكتمل كلها بعد، فمع أن معظمها ظهر أو ما زال قائمًا، لكن البعض لم يحدث حتى الآن، مثل عودة جزيرة العرب جنَّات وأنهارًا، وكذلك انتفاخ الأهلّة، أي رؤية الهلال عند بدوّ ظهوره كبيرًا حتى يقال ساعة خروجه إنه لليلتين أو ثلاثة، وتولّي رجل يقال له الجهجاه المُلك[1].

قد يجادل البعض بأننا لا نجد ما يمنع تزامن العلامات الصغرى مع الكبرى، أو وقوع ما بقي من الصغرى في فترة قصيرة قبل بدء العلامات الكبرى التي ستتوالى بسرعة، ومع ذلك فلا بد من ظهور عدة خلفاء كما أسلفنا، واندلاع الملاحم، ووقوع الفتن الثلاث، أو أربع فتن كما في بعض الروايات الضعيفة، لكن هذا لا يعني أن الأمر يتطلّب قرونًا ولا عقودًا من الزمن، فلا نستبعد أن تتوالى هذه الأحداث الجِسام كلّها في فترة قصيرة، وأن يتعاقب على الحكم عدة خلفاء في بضع سنين، وأن تحدث الملاحم أيضًا وتنتهي تباعًا خلال جيل واحد.

(1) جاء في الحديث الصحيح: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له الجهجاه» [رواه مسلم].

والذي يدعوني إلى هذا الافتراض أنّ السلف لم يستبعدوا ذلك في القرون الأولى، مع أنهم رحلوا وانقضت بعدهم قرون مديدة، ولم تبدأ العلامات الكبرى بعد.

خذ مثلًا ما يروى عن الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه من روايات كان يتوقع فيها أن يشهد بنفسه الأشراط الكبرى، ومنها قوله: «إني لأرجو إن طال بي عُمرٌ أن ألقى عيسى بن مريم ﷺ، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام»[1]، ولعل تفاؤله هو الذي دفعه للقول: «يوشك من عاش منكم أن يرى عيسى ابن مريم حكمًا عدلًا...»[2].

ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أن العديد من التابعين وتابعي التابعين كانوا يتقصّون مدى تطابق أشراط الساعة والفتن مع ما حدث في أيامهم من مصائب مؤلمة، بدءًا باقتتال الصحابة أنفسهم في يومي الجمل وصفين، وما تلا ذلك من سفك للدماء في مدينة رسول الله ﷺ يوم الحَرّة، وفي هذا دليل إضافي على أنهم لم يستبعدوا تسارع الأحداث حتى تكتمل أشراط الساعة وينزل عيسى عليه السلام في ذاك الزمن.

وقد عادت تلك المخاوف والآمال أيضًا مع كل حادثة كبرى ألمّت بالأمة على طول تاريخها، فعندما غزا التتار والمغول بلاد المسلمين ظنّوا أن القيامة قد اقتربت، وعندما سقط بيت المقدس في يد الصليبيّين ثم استعاده صلاح الدين الأيوبي اعتقد الكثيرون أنها من علامات الساعة، والأمر نفسه حدث مع فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح، ونحن نشهد اليوم تأويلات لا تحصى للفتن منذ سقوط الدولة العثمانية وتشتّت المسلمين وضياع الأقصى وتوالي الحروب والثورات والفتن الرهيبة، لكن تنزيل النصوص على هذه الأحداث متعذّر كما أسلفنا، وقد وضع الشيخ **عبد الله العجيري** كتابًا قيّمًا بعنوان «**معالم ومنارات في تنزيل نصوص الفتن والملاحم وأشراط الساعة على الوقائع والأحداث**» وضع

(1) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم عن أنس برقم: 8635 وحسنه الألباني في صحيح الجامع: 1981.

(2) أخرجه أحمد عن بى هريرة، وفي البخاري برقم: 3448، ومسلم برقم: 155، اللفظ الآتي: وَالَّذِي نَفْسِى بيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ

فيه قواعد مهمّة لعمليّة التنزيل، منتقدًا في الوقت نفسه التساهل الذي يمارسه البعض، وربما لأهداف سياسيّة أو طائفيّة، أو حتى لتحقيق الشهرة ولفت الأنظار للأسف.

بين الخوف والأمل

لعلك تلاحظ عزيزي القارئ أنّ الحديث عن فتنة الدجال وخروج المهدي بات من المحرّمات لدى شريحة واسعة من المسلمين، ولا أقصد هنا العلمانيّين واللادينيّين وكل من يرفض نبوءات الأديان، بل أتحدّث عن مسلمين متديّنين، ولا سيما الدعاة الحركيّين المشغولين بملفّ النهضة واستعادة مجد الأمة.

والمشكلة تنبع في رأيي من اعتقاد فئة من الناس بأن المهديّ هو المخلّص المنتظَر الذي ينبغي أن تعلّق عليه آمال الخلاص، بل هو الذي لن يأتي الخلاص إلا على يديه، فنتج عن ذلك شيوع عقليّة التواكل عند المسلمين بانتظار ظهور هذا المخلّص، وتقاعسوا عن العمل على استعادة الخلافة أو حتّى مقاومة العدو والسعي لامتلاك بعض أسباب القوة.

ولا أدري حقًّا من أين صدر هذا الفهم العجيب، فالأحاديث الصحيحة تنصّ كما ذكرتُ على عودة الخلافة بعد هذا الملك الجبريّ الذي ترزح تحته أمّتنا اليوم، وسيكون المهدي هو آخر هؤلاء الخلفاء، فلا بد إذن من فترة ينصلح فيها حال الأمة قبل المهدي، بل لن يظهر المهديّ إلا بعد عودة الخلافة على يد أسلافه.

زد على ذلك أن التفاؤل الرومنسيّ بخروج المهديّ ينبغي أن يشوبه الخوف مما يظهر قبله من فتن رهيبة، ففتن الأحلاس والسراء والدهيماء لم تقع على الأرجح بعد، وقد كان بعض السلف يخشون شهودها، وإني لأرجو أن أشهد في حياتي صلاح الحال ووحدة الأمة وعودة الخلافة للحكم بالعدل والشرع، غير أني أخشى على نفسي وديني ممّا يسبق خروج المهدي من فتن هائلة، كما لا أضمن نجاتي من فتنة الدجّال الكبرى، وقد جاء في دعاء النبي: «**وإذا أردتَ فتنة قوم فتوفّني غير مفتون**»[1] وجاء في حديث آخر: «**والموت خير**

(1) أخرجه الترمذي (3235) واللفظ له، وأحمد (22162)

للمؤمن من الفتنة»[1]، وفي الحديثين جواز تمنّي الموت خشية الفتنة في الدين.

ونتيجة لشيوع ثقافة التواكل، تبنّى كثير من الدعاة مبدأ تكذيب أخبار المهديّ، ومرجعهم في ذلك نفسيّ بالدرجة الأولى، وكان الأحرى بهم أن يصحّحوا المفهوم الخاطئ لخروج المهديّ وأن يبيّنوا للناس أنه لن يخرج قبل استعادة الخلافة، فهو ليس إلا حلقة أخيرة في سلسلة الإصلاح، وليس الإصلاح منوطًا بخروجه.

ومع أن الاعتقاد بخروج المهدي ليس من ضرورات العقيدة، لكن تكذيب الأحاديث الصحيحة تحقيقًا لهدف «**حركيّ**» هو أمر لا يقل سوءًا عن التواكل نفسه. وقد فصّل الشيخ المعاصر **محمد إسماعيل المقدم** في كتابه «**المهدي وفقه أشراط الساعة**» الموقف من تخريج أحاديث المهدي، وبيّن تعّدد الرواة والطرق، وأنها تؤدّي في النهاية إلى الإقرار بالتواتر.

أما تركُ الدعاة لواجبهم في تذكير الناس بفتنة الدجال فتلك قصة أخرى، وهي ناشئة أيضًا في رأيي عن تصدر التفاهة للمشهد في عصر مواقع التواصل الاجتماعي. فمع شيوع الربط بين التواكل وترك العمل من جهة، وانتشار خطاب التحذير من الفتن وأشراط الساعة من جهة أخرى، صار بعض الدعاة يتردّدون في مصادمة هذه الثقافة خشية إثارة غضب الشارع الذي بات أكثر تأثيرًا من أهل العلم، فالصوت الأعلى اليوم لخطاب التجديد والتعايش والانفتاح على الآخر، والمنابر الإعلاميّة تُعطى لكل داعية يصب جام غضبه على المسلمين «**المتخلّفين**» بدلًا من الغرب «**الذي يمد يده لنا**»، والدعم السخيّ يُوجّه لكل مفكر ينظّر للاندماج في منظومة المجتمع الدولي وليس لمن يذكّر بأنّ هذه المنظومة أقيمت أصلًا على شروط إبليس والدجال.

مع ذلك، لا أستبعد أن يخطر على بالك عزيزي القارئ ما يتردّد دائمًا من مخاوف، فالذي يعتقد أن خروج الدجّال وما قبله من فتن قاب قوسين أو أدنى فقد ينصرف عن

(1) أخرجه الإمام أحمد أخرجه أحمد (23674)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة 6114 وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم:1508.

العمل ويقع في هوّة اليأس والعجز، ولكن هذا يقال أيضًا على الخوف من الموت، فمَن منّا يضمن أن يعيش إلى الغد؟ وطالما كانت هذه الحياة كلها قائمة على مبدأ جوهري، وهو استحالة معرفة أي مخلوق متى تحين ساعة خروجه الأبدي منها، فلماذا نظل مع ذلك حريصين على الدراسة والعمل والزواج والإنجاب والاستثمار والادخار؟

القاعدة هي: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»[1]، والنبيّ ﷺ أوصانا بوصية واضحة الدلالة في قوله: «**إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فَسيلة فليغرسها**»[2] قال **المناوي** رحمه الله: «أراد بقيام الساعة أماراتها، بدليل حديث: إذا سمع أحدكم بالدجال وفي يده فسيلة فليغرسها فإن للناس عيشًا بعد. ومقصودُه الأمر بالغرس لمن يجيء بعد، وإن ظهرت الأشراط ولم يبق من الدنيا إلا القليل»[3].

وروي عن الصحابي عبد الله بن سلام رضي الله عنه قوله: «إن سمعت بالدجال قد خرج وأنت على وَدِيَّة تغرسها، فلا تعجل أن تصلحها؛ فإن للناس بعد ذلك عيشًا»[4]، وعن الحارث بن لقيط قال: كان الرجل منا تُنتج فرسه فينحرها فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذه؟ فجاءنا كتاب عمر: أن أصلحوا ما رزقكم الله؛ فإن في الأمر تنفّسًا[5]، أي أن من الصحابة والتابعين من كان يتوقع قيام الساعة قبل أن يعيش حتى يركب على المُهر الذي ولدته فرسه، لكن عمر بن الخطاب صحّح هذه الفكرة الخاطئة وبيّن لهم أنهم حتى لو عاصروا خروج الدجّال -وهو أمر مستبعد أصلًا- فسيعيش المسلمون بعده بوجود عيسى عليه السلام بينهم، ثم سيعيشون فترة من الزمن لا نعلمها بعد وفاة عيسى، إلى أن يرسل الله ريحًا طيّبة تقبض أرواح المؤمنين فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

---

(1) هذا ليس حديثا نبويا، بل قول مأثور.

(2) أخرجه أحمد برقم (12902)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (479)، وعبد بن حميد في «مسنده» برقم: (1216)، والبزار في مسنده، برقم: (7408)، والألباني في السلسلة الصحيحة برقم: 9.

(3) زين الدين المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، 1988، ج 1، ص 372.

(4) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، التخريج في الموضع السابق؛ وصحح إسنادها المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (1/ 372)، وقد ضعف الألباني هذه الرواية في ضعيف الأدب المفرد رقم 73.

(5) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (478) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

ولو كان في التخويف من الدجال ما يخشاه دعاتنا اليوم من التقاعس لكان النبي ﷺ أولى بالامتناع عن تخويفنا منه، إذ تؤكّد الأحاديث الصحيحة أنه كان مهتمًّا باكتشاف حقيقة ابن صيّاد كما أسلفنا، وكان لا يدع التذكير بالدجّال على المنابر إلا نادرًا، بل كان يتعوّذ بالله من الدجّال في كل صلاة كما يتعوذ من النار، ففي الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال»[1].

ولو كان التحذير من الفتن يؤدّي إلى الإحباط فلماذا لم يتقاعس السلف؟ ألم يكن بعض الصحابة يُقسمون بالله -كما ذكرتُ سابقًا- على أن ابن صيّاد الذي يعيش بينهم هو الدجّال؟ ومع ذلك فتحوا الفتوحات وأنشأوا دولة الإسلام.

ألم ينقل لنا البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة العلم أحاديث الفتن؟ ومع ذلك، ألم يستثمروا حياتهم في العلم والعمل؟!

استحضار الفتن مفيد كفائدة الاتعاظ بالموت الذي قد ينزل بنا في أي لحظة، فنحن في ابتلاء ما دمنا في هذه الحياة، والمسلم لا يطمئن للدنيا، كما لا يصيبه الذعر والعجز عندما يتذكر أنها دنيا زائلة.

وخلاصة القول: إننا أحق بالخوف من كل الأجيال التي سبقتنا منذ نزول آدم عليه السلام إلى الأرض، فإبليس لم يبلغ من القوّة والسلطة ما بلغه اليوم، ولم يكن الدجّال قريبًا من الخروج كما هو حاله اليوم. وإذا كان الوحي قد أنذر الأمم كلها وحذّرها من هذين الشيطانين، فما عسانا نفعل إذن؟ أيُعقَل أن تنصبّ كل جهودنا على التنمية الاقتصادية المادّيّة؟ وأن يكون منتهى أحلامنا اللحاق بالغرب؟

الخوف ضروريّ للتحريض على العمل، وللامتناع عن الركون إلى الدنيا، وفي الحديث الشريف: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن**

---

(1) أخرجه مسلم برقم: 588.

سلعة الله الجنة»[1] ، أي إذا خاف المسافر من المبيت على الطريق والتعرض لقطاع الطرق في الليل فلا بدّ أن يسرع، ومن حثّ الخطى فسيبلغ بر الأمان قبل الصباح.

وختامًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان**»[2].

* * * *

(1) أخرجه الترمذي في السنن، برقم: 245، وهو حديث حسن.

(2) أخرجه مسلم برقم: 2664.



الفصل الثامن
الخوف من الإسلام

عندما أُفرد للخوف ومستقبله كتابًا، فلا يكفي المرور على ظاهرة خوف جزء من البشريّة من الوحي الإلهيّ دون توقُّف وتأمُّل، ولا يليق أن أدرجها في فصول سابقة، فالخوف هنا لا يُدرَس في سياق الصناعة والتجارة فقط، ولا يُحسب بحسابات الصراع الاستراتيجي وموازين القوى. خوف الإنسان من الالتجاء إلى خالقه، وجنوحه نحو عدوّه إبليس بحثًا عن الأمن تحت جناحه، ماذا يمكن أن تسمّي هذه الظاهرة عزيزي القارئ؟!

دعك من المقدّمات التي قد تستهلك الكتاب كلّه، فثمّة خوف في بقاع واسعة من العالم، والمخيف الذي يقضّ مضاجع تلك القلوب هو الإسلام نفسه. وبما أني لست بصدد إثبات كونه وحيًا، فسأفترض أنك إما تشاركني التسليم بهذه الحقيقة، أو تتفهّم على الأقل كونها منطلقًا لأفكاري إن لم تكن مؤمنًا، وإن وافقتني أيضًا على منطلقات فهمي لحقيقة الصراع القائم اليوم فستصبح مهمّتي أسهل.

في كتاب «**المثقّفون المغالطون**»، الذي استشهدت به سابقًا، وضع **باسكال بونيفاس** فصلًا بعنوان «**الإسلام يخيف**»، واسترجع تقريرًا نشرته صحيفة **لوفيغارو** عام 1988 تحت شعار «هل سنبقى فرنسيين في الثلاثين سنة القادمة؟»، مع صورة مركّبة لامرأة فرنسية تضع خمارًا. وها قد مرّت أكثر من ثلاثون سنة على نشر ذاك السؤال، وما زالت نسبة المسلمين في هذا البلد تدور حول 5٪ فقط[1]، ومع ذلك يبقى الإسلام هو السبب الأوّل لذعر الكثير من الفرنسيّين!

---

(1) لا تسمح فرنسا بإجراء إحصاء سكاني عرقي أو ديني، لكن تقديرات العديد من الجهات تقترب من هذه النسبة وفقًا لموسوعة ويكيبيديا. انظر مادة: Islam in France.

يقول **بونيفاس** إن ميراث الاستعمار هو السبب الأول لتفسير هذا الخوف، فالشعوب المسلمة في أفريقيا تعرضت للغزو وسوء المعاملة، بل لم يُبرَّر الاستعمار إلا باعتبار تلك الشعوب أقل تطوّرًا من الناحية البيولوجية، ثم انتصر الجزائريّون في نضالهم الطويل واضطرّت الحكومة الفرنسية لترحيل رعاياها الذين استوطنوا الجزائر واعتبروها بلدهم على مدى أجيال، وفي النهاية جاء النزوح العكسي من الجزائر باتجاه فرنسا، فانتشرت فكرة «**جاؤوا ليأخذوا رزقنا**»، وازداد الطين بلّة مع إصرار هؤلاء المسلمين على عدم الاندماج بعكس أقلّيّات أخرى قادمة من إسبانيا وإيطاليا وأوروبا الشرقيّة، وأصبح من المألوف جدًّا أن تسمع زعيمة اليمين المتطرف **مارين لوبان** -التي وصلت إلى المنافسة على كرسي الرئاسة في 2017- وهي تصرّح في 2010 بتشبيه صلاة المسلمين في الشارع (أي عندما تمتلئ المساجد في صلاة الجمعة وتمتد الصفوف إلى خارجها) بالاحتلال النازيّ لفرنسا إبّان الحرب العالميّة الثانية[1].

يقرّ **بونيفاس** بأن العلمانيّة في بلاده لا تكره من الأديان إلا الإسلام، بل ينزلق الدفاع عن العلمانيّة الفرنسية نحو الدفاع عن الهويّة اليهوديّة-المسيحيّة لإقصاء المسلمين تحديدًا، ولا يصبح المسلم «معتدلًا» في معيار العلمانيّ الفرنسيّ إلا إذا تخلّى عن الصلاة والصوم[2].

إذن فمشاعر الخوف والكراهية والعنصريّة مخصّصة للمسلمين الملتزمين بدينهم في الدرجة الأولى، وبغض النظر عن نجاحهم المهنيّ ودفعهم للضرائب وتعايشهم السلمي مع جيرانهم. بعبارة أخرى، العقليّة الفرنسيّة -في الغالب- تخاف من رؤية الاختلاف الإسلاميّ أكثر من أي اختلاف آخر. وسبق أن تحدّثتُ عن بعض ملامح هذا الخوف الفرنسي في فصل «**صناعة الخوف**»، والذي يصبغ الهويّة الفرنسيّة بطابع خاصٍّ من الفوقيّة المبطّنة بالخوف.

(1) المثقفون المغالطون، ص 51- 52.

(2) المرجع السابق، ص 53.

ألا يمكن القول إذن إنّها عقدة النقص تجاه عدوٍّ منافس؟ فالمسلمون لم تعُد لديهم أمّة موحّدة وقويّة، وحضارتهم باتت عرضة للسلب والنهب، ومع ذلك يشعر جيرانهم في شمال البحر المتوسّط بالخوف من تهديدهم الثقافيّ إلى درجة تستدعي الاستنفار على كل الأصعدة.

قد يقال إنّ المسلم الملتزم ينبغي أن يخاف بدوره من انتشار السفور والتعرّي في بلاده، لكن هذا ليس خوفًا على الهوية من الاندثار، إذ يخاف المسلم أيضًا من تهديدات ثقافيّة أخرى قد تطال عادات المجتمع الذي نشأ فيه، لكن مسائل لباس المرأة والحشمة والعفة والامتناع عن شرب الخمر هي التزامات أخلاقيّة يتشارك فيها المسلمون كلّيًّا أو جزئيًّا مع الملتزمين من اليهود والمسيحيّين وفي أديان أخرى، فالخوف الذي يدفع كبار المثقّفين والسياسيّين من رؤيتهم لقطعة قماش على رأس امرأة مسلّمة ليس خوفًا على هويّة الأمة الفرنسيّة وتاريخها، بل خوف من الالتزام بدين الإسلام نفسه.

ألا ترى عزيزي القارئ احتفاء الغرب كلّه بالغزو الثقافيّ الهنديّ لبلادهم، بالرغم من التباعد الكبير جغرافيًّا وعرقيًّا؟ ألا ينبغي أن يكون الهنديّ الأسمر أقلّ شأنًا من العربيّ في معيار العنصريّة البيضاء؟ أليست الأساطير الهندوسيّة المغرقة في عبادة ملايين الأصنام أكثر تنافرًا مع الحداثة؟ وهل يعقل أن تكون الطبقيّة الحتميّة واحتقار المرأة المنصوص عليهما في ديانة الهندوس أحبّ إلى قلوب الغرب ممّا نصّ عليه الإسلام من تكريم الإنسان؟

منذ الاحتلال البريطانيّ للهند أصبحت الأخيرة درّة التاج البريطاني، وبدلًا من قطع رؤوس الهنود كما فعلت فرنسا بالجزائريين تحول مهاتما غاندي إلى رمز حضاريٍّ في الثقافة الغربيّة نفسها، وانطلق زعماء الهندوس إلى أصقاع أوروبا وأمريكا لافتتاح المعابد ومدارس تعليم اليوغا والتأمّل.



حشود من الإنجليز يحتفون بزيارة غاندي للعاصمة البريطانية لندن عام 1931

لقد وجد إبليس ضالّته هناك، فدمج «**الروحانيّة**» الشرقيّة القادمة من الهند -وكذلك التيبت البوذيّة- بالماديّة الغربيّة، وأنتج خليطًا من الأديان والمذاهب والتقليعات تحت مظلّة «**حركة العصر الجديد**»، فأصبح من المقبول مثلًا أن تخصّص الأمم المتحدة يومًا عالميًّا لليوغا كل عام، وأن يمارس المواطن الحداثي طقوسه الشيطانية كل صباح وهو يشرب قهوته من سلسلة «**ستاربكس**»، دون أن يجد في ترديد ترانيم «**المانترا**» ما يتعارض مع علمانيّته، إلا أنه قد يصاب بالجنون إذا رأى سائق سيارة أجرة مسلم يفترش سجادة صغيرة ليصلّي على الرصيف بمدينة غربيّة.

المبرّرات لا تنتهي عندما يتطوّع المثقّفون للغوص في التاريخ واستخراج مخلّفات «صراع» المواطن الأوروبي العادي مع الكنيسة، وهو صراع ضُخِّم كثيرًا ومُلِئت ذكراه بالأكاذيب، ففساد الكهنوت الكنسيّ لا يقل عن فساد الطغمة الرأسماليّة اليوم، ودعاوى احتكار الكنيسة للعلم وفرض الجهل والتجهيل على العوام أصبحت من الشائعات التي يخجل الباحث المنصف من تكرارها، بل كانت الأديرة ترعى كبرى الجامعات وتتبنّى العباقرة، إلا أنها كانت ترفض العلوم الباطنيّة والممارسات السحريّة، كما تحارب بطبيعة الحال الأفكار المعادية للدين.

أما دعوى نفور العقليّة الحداثيّة العلمانيّة من حجاب المرأة بسبب ثقل تاريخ الاضطهاد الذي عانت منه النساء في أوروبا فهو عذر أقبح من ذنب، إذ أصبحت المرأة في منظومة التحرر والمساواة مهدورة الكرامة، ولا يخفى على القارئ الكريم أن العقليّة النسوية، التي يستفزّها مظهر امرأة قررت تغطية شعرها بإرادتها الكاملة، لا تشعر بوخز الضمير عندما ترى عاهرة تعرض جسدها في واجهة زجاجيّة بأحد شوارع أمستردام. الأولى تبدو لها مقهورة مهما أقسمت على أن أحدًا لم يجبرها على الاحتشام، والثانية أصبحت شعارًا للحرية، مع أنّ الجميع يعرف أن المومس لم تتحوّل إلى جسد بلا روح إلا لأنّ المجتمع أجبرها على السعي وراء الرزق بحجة المساواة، ورفع عن محارمها من الرجال واجب النفقة والإكرام حتى الممات!

العقليّة المحصورة في سجن كراهية الإسلام لا يلفت انتباهها مرور امرأة تغطّي رأسها بقبّعة من الصوف في الشتاء، وتضع كمامة على وجهها للوقاية من الأمراض والتلوّث. هنا لا تشعر بأن تغطية الجسد تؤدي إلى اختلاف ثقافي يستدعي إعلان الحرب على المختلف الذي يأبى الاندماج، لكن عندما يكون سبب تغطية الرأس أو الوجه هو اقتناع المرأة نفسها بأن الله أمرها بذلك فهذه مشكلة تهتزّ لها أركان الدولة والمجتمع. هذا يضع مبرّرات حظر النقاب لأسباب أمنيّة في مأزق أيضًا، فوباء كورونا الذي انتشر في العالم كله عام 2020 جعل من تغطية الوجه فرضًا يعاقب القانون على تركه، بعدما كان جريمة!

وماذا عن المصافحة؟ ألم يمتنع العالم عنها بعدما كان تحرُّج أي مسلم أو مسلمة من مصافحة شخص من الجنس الآخر يعدّ تطرّفًا؟

مع ذلك، لم تقبل السلطات الألمانية طلب طبيب لبناني الحصول على الجنسية، بالرغم من اجتيازه امتحان الجنسيّة بدرجات عالية، لأنه ارتكب جريمة الامتناع عن مصافحة المسؤولة عن تسليمه شهادة التجنيس. وعندما رفع الطبيب قضيّته إلى القضاء متذرّعًا بأنه وعد زوجته بعدم مصافحة النساء وجد أنّ القضاة أكثر تشدّدًا من موظّفة التجنيس.

ولم يتردّد القاضي في بيان الأسباب التي تستدعي خوف ألمانيا من امتناع أي مواطن عن مصافحة امرأة، فقرّر أن يتحدث بالنيابة عن الشعب الألماني معلنًا أنّ المصافحة من الطقوس المشتركة للترحيب والتوديع، وأنها «متجذّرة في الحياة الاجتماعية والثقافية والقانونية التي تشكّل الأسلوب الذي نحيا به جميعًا في ألمانيا»، لذا فإنّ من يرفض المصافحة على أساس اختلاف الجنس فإنه «**ينتهك المساواة المنصوص عليها في الدستور الألماني**».

وإذا استشعرت عزيزي القارئ شيئًا من التفاهة فيما سبق، فإليك الجزء الأكثر جدّية وصراحة، إذ قال القاضي إن رفض الرجل المصافحة في تلك الحالة جاء «لإضفاء الشرعيّة على المنظور السلفيّ» للعلاقة بين الرجل والمرأة، وما يتّبع ذلك من تداعيات اجتماعية[1].

تخيل الآن أن يرفض قاضٍ في أي دولة ديمقراطية تعتز بثقافتها طلب الجنسيّة من يهودي ينتسب إلى طائفة الحريديم، لأن نظرته للمرأة قائمة جذريًّا على احتقارها وليس فقط تجنّب ملامستها أو رفض المساواة معها. تخيّل فقط!

أسطورة الاستبدال العظيم

من الطريف -وربما المؤلم- أنّه كلما تزايد انتشار شعور الانهزامية والخنوع والضعف لدى المسلمين، تزايد في المقابل خوف الغرب من غزو أولئك المسلمين المنهزمين لحضارتهم والقضاء عليها! فيا ليت شبابنا يدركون فعلًا مدى قوة دينهم التي يندّد بها الآخرون بينما يغرقون هم في المشاعر السلبيّة.

هناك نظريّات عديدة تؤصل ذاك الذعر من «**الغزو الإسلامي**» الذي لا يكاد يعلم عنه معظم المسلمين شيئًا، وقد يفاجأ القارئ الكريم إن أخبرته بأنها تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، فحتى قبل انهيار الدولة العثمانية واندلاع الحربين العالميّتين، كتب **موريس**

(1) لهذه الأسباب حرمت محكمة ألمانية طبيبًا لبنانيًا من نيل الجنسية، موقع DW العربي، 19 أكتوبر 2020.

باريس، وهو أحد مؤسّسي جمعية الشباب القومية، مقالًا -نشر عام 1900- وجاء فيه أن انخفاض معدل المواليد واستنفاد طاقة الفرنسيّين على امتداد القرن التاسع عشر مثلت عوامل حاسمة لقدوم الأجانب ورغبتهم في تدمير الهويّة الفرنسيّة[1].

لاحقًا تخلّى القوميّون عن دبلوماسيتهم، وصعد سفّاح مجنون مثل **بينيتو موسوليني** إلى السلطة ليحكم إيطاليا بشعارات الفاشية، فتجرأ **أدولف هتلر** على تكرار التجربة في ألمانيا، ثم **فرانشيسكو فرانكو** في إسبانيا، وكان هؤلاء يندّدون علانية بالأقلّيات قبل أن يحكموا عليها بالإبادة، لكن المسلمين لم يكن لهم وجود يذكر آنذاك في أوروبا.

ما حدث لاحقًا هو استيراد هذه الأفكار التي دمرت أوروبا، وتطبيقها على المسلمين، سواء كانوا مهاجرين أو من الأوروبّيين الأصليين أنفسهم، وتعد نظرية «**الاستبدال العظيم**» هي الوعاء الأبرز لهذه الأفكار، ويُعتقَد أنها ظهرت بهذا الاسم للمرة الأولى في رواية «**معسكر القدّيسين**» Le Camp des Saints عام 1973 للكاتب الفرنسي **جان راسبيل**.

تخيّل الكاتب أن أوروبّا ستنهار بسبب موجة هجرة ساحقة من دول ما كان يسمى بالعالم الثالث، وقد يبدو ظهور هذه الفكرة المتطرّفة غريبًا في خضم صراع الغرب مع المعسكر الشيوعي، فالهجرات كانت محدودة ومقتصرة على العمال المستضعفين، لا سيما بعد خروج أوروبا مدمّرة من الحرب العالميّة الثانية، فكانت بحاجة ماسة إلى توظيف النساء في كل المهن الشاقّة لتغطية النقص في الرجال -بعد مقتل الملايين منهم- ثم تعويض النقص بالأيدي العاملة من الدول المسلمة وغيرها.

وما إن انتهت مرحلة إعادة الإعمار في أوروبّا، حتى بدأ التململ من العمال الذين جاؤوا للاستيطان ولم يرغبوا بالعودة إلى بلادهم، وبما أن فرنسا احتضنت عددًا كبيرًا من الجزائريّين وغيرهم من الأفارقة فقد كانت الأزمة لديها أكبر، لا سيما أنّ فرنسا تحديدًا

(1) مقال بعنوان: تبناها منفذ مجزرة نيوزيلندا واليمين المتطرف في الغرب.. ما هي نظرية «الاستبدال العظيم»؟، موقع الجزيرة نت، 12 أكتوبر 2020.

كانت رأس الحربة في الحملات الصليبية قبل نحو ألف عام، فتاريخها مشحون بالصدام مع المسلمين، ويكاد هذا الصدام أن يكون جزءًا أصيلًا من هويّتها.

سأعود لاحقًا إلى الحديث عن تطوّر مصطلح الاستبدال العظيم كي ألتزم بالتسلسل التاريخي، فالخوف من الإسلام أخذ بعدًا آخر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، بل دخل العالم مرحلة جديدة من إعادة ترتيب الأولويات وتوزيع القوى والمصالح والولاءات، فإذا كانت بداية التسعينات قد شهدت إطلاق **جورج بوش الأب** حقبة «**النظام العالمي الجديد**» المتفائل بأفول الحرب الباردة وانتهاء الشيوعيّة، فقد أطلق ابنه بوش الثاني حقبة الصراع الجديدة مع العدّ الجديد، وهو الإسلام.

أذكر أني كنت خلال دراستي الجامعيّة في أواخر التسعينات لا أجد شيئًا يُذكَر عن العرب ومنطقة الشرق الأوسط في الصحافة الغربيّة، وإذا وُجد شيء عن المسلمين فلا يتجاوز غالبًا الصور النمطيّة المسيئة، أو ضمن أخبار الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي ومن المنظور الصهيوني، أما بعد هجمات سبتمبر فأصبح المسلمون هم الشغل الشاغل لكل الإعلام الغربي.

ولا ننسى أيضًا أنّ هوليود قامت بدور مثاليٍّ في تعليب العقليّة الغربيّة ضمن إطار الكراهية والتخويف، فربطت طوال عقود بين الإسلام وصور نمطيّة محدودة للغاية: الثراء الفاحش والتخلّف والإرهاب. وبعد تلك الهجمات وانطلاق حقبة «**الحرب على الإرهاب**»، أصبح من الضروري إصدار عدّة أفلام ومسلسلات كل سنة للمشاركة في المعركة[1].

عشرات الحركات والتنظيمات تشكّلت في الغرب منذ بداية القرن الجديد لمواجهة «الخطر الإسلامي»، ومنها مثلًا حركة **مكافحة الجهاد** (Counter-jihad) التي تعدّ تيارًا واسعًا يضم مؤلّفين ومدوّنين وخلايا تفكير وتنظيمات نشطة في الشوارع، وربما لا يخلو

(1) للمزيد عن دور هوليود في التنميط أحيل إلى كتابي «ضريبة هوليود: ماذا يدفع العرب والمسلمون للظهور في الشاشات العالمية؟» المنشور من قبل دار الفكر في عام 2011.

بلد غربي من فرع لها، وهي تؤمن بفكرة تعرّض العالم الغربي لخطر سيطرة الإسلام الوشيكة، سواء ثقافيًّا أو ديمغرافيًّا.

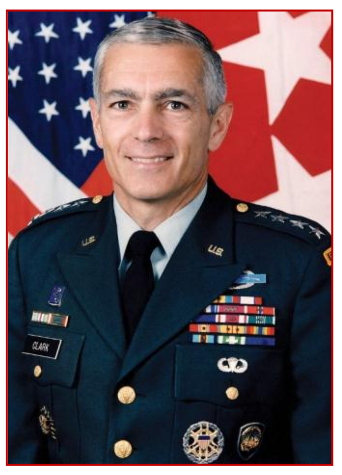
وبما أن الهجمات والتفجيرات لم تتوقّف عند الحادي عشر من سبتمبر 2001، بل تعرّضت كبرى العواصم الأوروبية لتفجيرات دامية مثل لندن وباريس ومدريد، فمن الطبيعي أن يتحول الخوف إلى حملة مسعورة ذات شعبية هائلة خلال العقد الأول من هذا القرن، فلم تعد أفكار الاستبدال والغزو مقتصرة على خطاب نظريات المؤامرة والحركات الشعبويّة، بل تمكّن المنظّرون لهذا التيّار من تنظيم «**قمة مكافحة الجهاد**» في كوبنهاغن عاصمة الدنمارك في أبريل 2007، ثمّ نجحوا في عقد قمة أخرى في أكتوبر من العام نفسه في مبنى البرلمان الأوروبي في بروكسل.

وفي ظلّ هذا الحراك انتعش التنظير لتطوير فكرة الاستبدال العظيم، ونشرت كاتبة بريطانية إسرائيلية اسمها **جيزيل ليتمان**، وتتخذ لنفسها اسمًا حركيًّا هو **بات يور** أي بنت النيل، كتابًا بعنوان «**يورابيا: المحور العربي الأوروبي**» في عام 2005، واتهمت فيه قوى عربية وفرنسية بقيادة مؤامرة لأسلمة وتعريب أوروبا، على اعتبار أن معدل التكاثر لدى المسلمين في فرنسا أكثر منه بين المواطنين البيض الأصليين، وأن مستقبل دويلة إسرائيل نفسها سيكون في خطر عندما تصبح الغلبة الديمغرافيّة والثقافيّة لصالح المسلمين في أوروبا!

ومع أن نظرية **يورابيا** Eurabia لم تحظَ بأي قبول أكاديمي لاستنادها إلى خرافات بعيدة جدًّا عن الواقع، إلا أنها وافقت هوى المتعصّبين، ودغدغت مشاعر طيف واسع من السياسيّين والمثقّفين في كل أنحاء أوروبا، لا سيما أن العديد من الضواحي والمدن الأوروبية صار يغلب عليها طابع المهاجرين المسلمين، مثل ضاحية **مولينبيك** في العاصمة البلجيكيّة بروكسل، وضاحيتي **إيفري سور سين وسان سانت دينيس** قرب باريس، وضاحية **رينكبي** في السويد التي تستقطب المهاجرين الصوماليّين حتى سميت «**مقديشو الصغرى**». فعندما يرى العنصريّ الأبيض أن غالبية المارة في شوارع تلك الضواحي لهم

لون بشرة مختلف وبلباس يغلب عليه الحجاب والحشمة، يتخيّل تلقائيًّا تحول بقيّة شوارع أوروبا إلى مثل هذا المشهد.

تعرّضت الجاليات المسلمة في الغرب لتضييق تاريخيّ خلال تلك السنوات، أما في بلاد المسلمين فالظلم والاضطهاد هو الأصل الذي يعمل به الطغاة في كل الظروف، سواء قبل هجمات تنظيم القاعدة أو بعدها، لكن عشر سنوات من سياسة «**تجفيف المنابع**»، وما تخلّلها أيضا من غزو دموي واحتلال مباشر لبلدين مسلمين، هما أفغانستان والعراق، كانا كفيلَين بإعادة الحسابات، فالتنظيمات الجهاديّة خسرت معظم قوتها، كما فشلت خطة إدارة بوش الابن في إعادة رسم خارطة المنطقة كلها بالوقت نفسه.



الجنرال الأمريكي ويسلي كلارك

وكي تبقى هذه الشهادة للتاريخ ينبغي أن أسجلها في كتابي، ففي مارس 2007 تحدّث الجنرال الأمريكي **ويسلي كلارك**، الذي كان في منصب القائد الأعلى لحلفاء الناتو في أوروبا ما بين 1997 و2000، خلال ندوة مفتوحة ومسجلة يمكن للقارئ مشاهدتها على الإنترنت، وكشف فيها أنه حضر اجتماعًا بالبنتاغون بعد 10 أيام فقط من هجوم سبتمبر، وصُدم عندما اكتشف أن لدى الجيش خطّة لشن حرب على العراق، مع أن تنظيم القاعدة، وحركة طالبان التي تؤوي القاعدة في أفغانستان، كانا العدو الوحيد. ثم صُدم **كلارك** صدمة أخرى بعد بضعة أسابيع عندما أخبره أحد قادة البنتاغون بشكل سرّي أنها كانت خطة لتدمير 7 دول في غضون خمس سنوات، وهي العراق وسوريا ولبنان وليبيا والصومال والسودان وإيران.

ضع هذه الشهادة الخطيرة في ذهنك عزيزي القارئ إذا تعمّقت في البحث عن خطة قدّمها كل من **ديك تشيني ودونالد رمسفيلد وبول وولفويتز** –وهم كبار رجال إدارة بوش

الابن- تحت مسمى «**مشروع القرن الأمريكي الجديد**» مع بداية وصولهم للحكم، وهو مشروع بدأ بالتبلور قبل عدة سنوات على يد منظّرين يمينيين، يحلم بتحويل الولايات المتحدة إلى شرطي للعالم، وينصّ بوضوح على ضرورة وقوع «**حدث كارثي ومحفّز**» مثل هجوم اليابان على ميناء **بيرل هاربر** الذي دفع الولايات المتحدة للتخلّي عن الحياد والانخراط في الحرب العالميّة الثانية، فحدوث كارثة بهذا الحجم ستسمح بتغيير أولويات كثيرة وتبرير سلسلة من الحروب.

أما ما يثار من شكوك حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر نفسها فتلك قصة أخرى، ومناقشتها ليست موضوع الكتاب، فمع أني أستبعد الكثير من أطروحات نظريات المؤامرة في هذا الصدد إلا أن الأدلة التي تبقى بعد التمحيص كافية لإقناعي بأنها كانت مؤامرة بالفعل، وأن برجي نيويورك لم ينهارا لمجرد اصطدام طائرتين بهما، وثمة أدلة يقينيّة لدينا الآن على أن إدارة بوش كانت لديها خطّة لتغيير العالم قبل ذاك اليوم.

مع نهاية العقد الأوّل من هذا القرن، كانت حملة الكراهية ضد المسلمين حول العالم قد نضجت وآتت أكلها، كما أصبحت مملّة في الوقت نفسه، فطوال عشر سنوات كان الشغل الشاغل لوسائل الإعلام والترفيه والثقافة والتحليل والتنظير هو حصر الإرهاب بالمسلمين وليس ربطهما ببعضهما فقط، وكانت المقولة الشائعة بكل وقاحة هي: «**صحيح أنه ليس كل المسلمين إرهابيّين، لكن كلّ الإرهابيّين مسلمين**».

ونظرًا لرواج فكرة التآمر وفشل إدارة بوش الابن في حروبها، إلى درجة تخلّيها عن شنّ بقيّة الحروب وتدمير الدول السبعة، فقد تراجع أيضًا نشاط حركات الكراهية نسبيًّا، بل نشأت في المقابل ظاهرة للتعاطف مع المسلمين باعتبارهم أقلّيّات مضطهدة، وهذا التعاطف جزء أصيل من العقليّة الليبراليّة التي تضع الحق في كفة الأقلّيّات دائمًا، ما يجعل من الصعب استبعاد المسلمين عن هذه المزايا بالجملة.

الإرهاب الأبيض الجديد

عشر سنوات حافلة بتغذية وحش الكراهية والخوف من الإسلام، كانت كافية لإنشاء جيل كامل من الإرهابيّين في الطرف الآخر المعادي للإسلام، فمع انقضاء العقد الأول من هذا القرن، تبيّن أنّ الوقت قد حان ليخرج مارد الإرهاب الأبيض من قمقمه. ومع أنّ المجتمعات الغربية -وخصوصًا في أمريكا- كانت تتعرّض لعدد لا يحصى من الجرائم يوميًّا، ومن بينها الكثير من جرائم الكراهية ضد المسلمين، إلا أن صفة الإرهاب ظلّت على مدى عقود لصيقة بالمسلمين حصرًا، وكأن دينهم يأمر بقتل الأبرياء في كل مكان!

لكن دوام الحال من المحال، ففي مطلع العقد الجديد، وتحديدًا في 22 يوليو 2011 كان العالم الغربي على موعد مع نوع جديد من الإرهاب الذي ظل يتجاهله، إذ جاء الرد من أوسلو، عاصمة النرويج المعروفة ببرودتها ومسالمتها وهدوئها وترفها، فمع أنّ نسبة المسلمين في هذا البلد لم تكن تتجاوز آنذاك حسب التقديرات 3.7٪[1]، إلا أنّ الإرهابيّ الأبيض **أندرس بريفيك** -الذي كان في سن الثلاثين- كان يؤمن بأن «**الاستبدال العظيم**» قادم على عجل، فضحّى بشبابه ومستقبله من أجل «إنقاذ» بلده من هذا الغزو الثقافي!



أندرس بريفيك

تحرك **أندرس** بمفرده كما قال في تصريحاته المفصلة[2]، وقام بعد تخطيط طويل بتفجير شاحنة مفخّخة ركنها أمام مبنى ضخم، وهو ضمن مجمّع يشمل مقر الحكومة ومسكن رئيس الوزراء **ينس ستولتنبرغ**. ثم بعد ساعتين، وبينما كانت البلاد في حالة تخبّط، ارتدى السفاح ملابس شرطي وذهب إلى معسكر صيفي في إحدى الجزر، كان يخيّم فيه شبيبة حزب العمّال الحاكم، وفتح النار على

(1)Religious Composition by Country: 2010-2050, Pew Research Center.

(2) هذا النوع من الهجمات يطلق عليه اسم «الذئاب المنفردة»، فهي تنفذ من قبل شخص أو مجموعة لتحقيق مصالح تنظيم أو حركة أو أيديولوجيا من دون تواصل مع قيادة الحركة أو تلقي دعم منها، ويكون الدافع هو إيمان المنفذ بمبادئ الحركة ودعمه لها بجهده الشخصي.

المشاركين من الشباب والمسؤولين، ثم سلّم نفسه طوعيًّا للشرطة عندما أحاطت بالمعسكر قبل أن يقتل المزيد من الناس، ليسفر هذا الهجوم عن حصيلة هزت العالم تعدادها 77 قتيلًا و319 جريحًا.

وبما أن السفاح مواطن أبيض، لم يُعامل بطبيعة الحال كما يُعامل أي مهاجم مسلم يشن هجومًا بالسكين في أحد شوارع أوروبّا، فغالبًا ما يُقتل هؤلاء على أرض الحدث، أما **أندرس** فاعتُقل ومُنح فرصة الدفاع عن نفسه، وأصبح بطلًا عالميًّا على مدى سنوات، إذ أعلن القضاء منذ بدء محاكمته أنه سيمنح هذا المجرم خمسة أيام يتحدّث فيها عن أفكاره ودوافعه، مع أنه قال بكل صراحة: «**إنّ المحاكمة ستتيح الفرصة الوحيدة لإعلان أفكاري للعالم**»[1].

كان **أندرس** يرى نفسه فارسًا تاريخيًّا كرّس حياته لوقف الهجرة الإسلامية إلى أوروبا، فقرّر أن يفجّر المبنى الحكومي انتقامًا من الحكومة التي لم تمنع برأيه هذه الهجرة، كما أراد أن يقتل أكبر عدد من أنصار الحزب اليساري الحاكم، لأنه يراهم مجرد أشخاص ليبراليين متخاذلين لتسامحهم مع المهاجرين.

لم يكن أندرس مسيحيًّا متشدّدًا كما افترضت وسائل الإعلام، بل أعلن مرارًا كراهيته للمسيحية، وأنه من أتباع الأساطير الوثنية الجديدة، فهو يعبد المعبود النوردي القديم «**أودين**»، لكن حقده المرَضي على الإسلام جعله أكثر تطرّفًا من أتباع أي ديانة أخرى، مما فتح عيون الإعلام والمراقبين على نوع جديد من التطرّف.

ترك **أندرس** بيانًا ضخمًا يضمّ أكثر من 1500 صفحة، وصف فيه أفكاره المتطرّفة، وقالت صحيفة «**إسرائيل اليوم**» الإسرائيلية اليمينيّة إن اسم إسرائيل تكرر في بيانه أكثر من 300 مرة، كلها في سياق التمجيد، فمع أنه وثني لا يؤمن بالمسيحيّة ولا اليهوديّة إلا أنه رأى في إسرائيل دولة تمثله لأنها تقمع المسلمين، وطالب الاتحاد الأوروبي بأن يعطف كما

(1) محاكمة علنية لمرتكب مذبحة النرويج، موقع الجزيرة نت، 16/ 4/ 2012.

ينبغـي علـى إسـرائيل[1]! ويبـدو أن احتضـان بلـده لاتفـاق أوسـلو بـين الفلسـطينيين والإسرائيليين عام 1993 كان قد ترك في نفسه هذا الأثر الموجع، فحقده على المسلمين يصل إلى درجة تمني إبادتهم أو تهجيرهم من أوطانهم بدلا من منحهم الحق في العيش على جزء من أرضهم المحتلة.

كـان هـذا الحـدث التـاريخي مفزعًـا كأحـداث الحـادي عشـر مـن سـبتمبر، إذ اسـتيقظ الغـرب فجأة على واقـع الإرهـاب المحلّـي الـذي بـدى أكثـر توحّشًـا، فالعقليّـات الفاشـيّة والنازيّة التي قُمعت بكل الوسائل الخشنة والناعمة ما زالت تتكاثر كالعفن في الظلام، وهي مسـتعدّة لإسـقاط الحكومـات بـالقوّة، وسـتجد حاضـنة شـعبيّة واسـعة بعكـس «**الإرهـاب الإسلامي**» الذي كان منبوذًا بطبيعة الحال.

دعم الإسلاميين «المعتدلين»

في العام نفسه، ومع بدء تشكّل ملامح العقد الجديد واكتشاف الوجه الآخـر للإرهـاب في الغرب، انقلبت الصورة في المشرق الإسلامي فجأة، فالشوارع التي كانـت حافلـة بصـور وتماثيل الزعماء اشتعلت بلهيب الثورات التي لـم يتوقّعهـا معظـم السياسـيّين والمحللـين، واحتفى الإعلام الليبراليّ الغربيّ بالصورة الديمقراطيّة الجديدة للشرق الأوسط.

في البداية، ومع توالي سقوط العروش المهترئة، توقّع البعض أن الغـرب سيعمل على تنصيب زعماء ليبراليين في المنطقة، وبدء مرحلة جديدة من إحلال الديمقراطيـة الموجّهـة، أي على النمط الذي يحقّق مصلحة الغرب أولًا، وهذا هو منتهى مشروع بوش الابن الـذي لم يكتمل، لا سيّما مع ظهور اليهودي الفرنسي **برنار هنري ليفـي** وسـط المظـاهرات وكأنـه واحد من الثوّار، حاملًا في جعبته مشاريع دعم السلطات الجديدة التي ستُفصّل على مقاس التطبيع مع إسرائيل.

(1) القاتل النرويجي يمجد إسرائيل، موقع الجزيرة نت، 25/ 7/ 2011.

في الوقت نفسه، برز مشروع نظّر له أستاذ القانون في جامعة هارفارد، اليهودي الأرثوذكسي **نوح فيلدمان**، الذي يتقن اللغتين العربية والعبرية ويحمل الدكتوراه في الفكر الإسلامي من أكسفورد، إذ كان قد أصدر أول كتبه في 2003 بعنوان «**ما بعد الجهاد: أمريكا والصراع من أجل ديمقراطية إسلامية**»، وطالب فيه صنّاع القرار باحتواء الجهاديّيّن عبر نشر الديمقراطيّة بنكهة إسلامية «**معتدلة**»، ثم واصل شرح نظريته في سلسلة كتب ومحاضرات وندوات، ومنها كتابه «**سقوط وصعود الدولة الإسلامية**» عام 2008، الذي سلّط الضوء على اسم **فيلدمان** في أوساط الأكاديميين والمستشرقين وخلايا التفكير الاستراتيجية في واشنطن.

كان فيلدمان يرى ضرورة دعم الإسلاميين «**المعتدلين**» بدلًا من العلمانيين الصرحاء، لأن الشارع العربي يفضل السلطات المحافظة التي تجمع بين التنمية والعدالة الاجتماعية وبين التمسّك بتعاليم الدين، ولكن بشرط التنازل عن تطبيق الشريعة، وحاجج بأن وصول هؤلاء «**المعتدلين**» سيحقق مصالح الغرب دون إثارة حفيظة الشعوب، وسيمنع أيضًا من يعتبرهم الغربُ متطرفين من اكتساب الشعبية أو حتى شرعية الحكم.

لم يبق **فيلدمان** منظّرًا في قاعات الدرس كما قد يتبادر إلى ذهنك عزيزي القارئ، بل مُنح أدوارًا عملية ليمارس سلطته وينفذ مشروعه، فهو من أبرز المساهمين في كتابة دستور العراق المؤقّت عام 2004 تحت إشراف الحاكم الأمريكي للعراق **بول بريمر**، ثم ساهم أيضًا في كتابة الدستور الأفغاني بعدها. وعندما انطلقت الثورات كان قد اكتسب من الخبرة ما يكفي ليعرض على حزب النهضة في تونس المساعدة في كتابة الدستور، إلا أنهم توجّسوا منه، وعرض خدماته أيضًا على المصريين، لكن تتمّة القصّة معروفة، فمشروع تصعيد «**المعتدلين**» الذي نظّرت أيضًا له مؤسّسة **راند** للأبحاث لم يؤت ثماره[1]، ولم يُمكّن

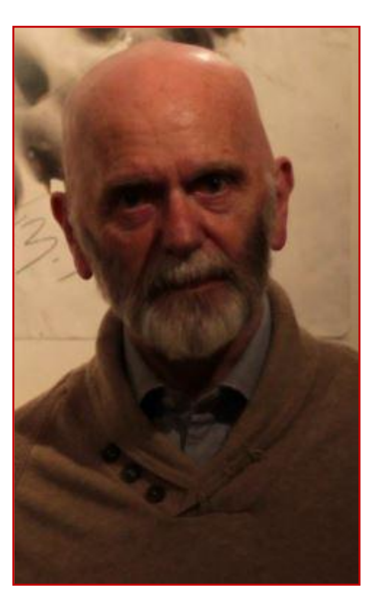
(1) انظر كتاب «الإسلام الديمقراطي المدني» للمؤلفة **شيريل بينارد**، وهي رئيسة مؤسسة راند الأمريكية للأبحاث، وزوجة **زلماي خليل زاد** الدبلوماسيّ الأمريكيّ من أصل إيرانيّ.

الإسلاميون مهما كانوا «معتدلين» من السلطة، بل انقلب الغرب أيضًا على الرئيس التركي **رجب طيب أردوغان** الذي كان يعتقَد أنه النموذج المعتدل الذي يراد تصديره.

إذن سقَط مشروع دعم الإسلاميّين «المعتدلين»، وأصبح الدعم السافر لموجة ثانية من الدكتاتوريّة في المنطقة لا يخفى على أحد، وفقدت حشود من النازحين والمضطَّهدين الأمل في الحياة الكريمة، ولم يعد لدى الحالمين بمستقبل أفضل سوى محاولة الهجرة إلى الغرب، ولو على متن قوارب متهالكة قد تعرّضهم لخطر الغرق.

الخوف من المهاجرين

لم يكن ينقص المهووسين بالخوف من الإسلام، في الطرف الشمالي من البحر الأبيض المتوسط، إلا رؤية حشود من المهاجرين وهي تشقّ طريقها نحوهم، ليبدأ فصل جديد من التنظير المؤامراتي، فحتى قبل انطلاق موجات الهجرة الجديدة كان مصطلح «**الاستبدال العظيم**» le grand remplacement قد تحوّل إلى نظرية، كما أصبح شعارًا للحركات اليمينيّة المتطرفة.



رينو كامو

ففي عام 2012، استعار الكاتب الفرنسي **رينو كامو** المصطلح من **راسبيل** وطرح كتابه الأشهر «**الاستبدال العظيم**»، وحاجج فيه بأن الهويّة الأوروبية كلّها باتت مهددة بخطر الاستبدال، معتبرًا أن جيلًا واحدًا قد يكون كافيًا لتحويل الثقافة العامة في أوروبا إلى ثقافة المهاجرين المسلمين.

اعتمد كامو على قراءة مكذوبة لإحصاءات الهجرة ومعدل النمو السكاني، إذ لم تتفاءل أي دراسة إحصائيّة بأن يزيد عدد سكان فرنسا المسلمين عن 8٪ حتى عام 2030، مع تفاوت في تقدير معدّلات المتدينين منهم.

وحتى مع بلوغ موجة الهجرة ذروتها في ألمانيا مثلًا، وهي أكثر دول أوروبّا ترحيبًا بالمهاجرين، تتحدّث الإحصاءات عن دخول مليون مهاجر فقط إلى البلاد[1]، معظمهم من الشباب والأطفال، وهو عدد لن يغيّر الكثير في بلد يزيد عدد سكّانه عن 83 مليونًا، ويواجه نقصًا حادًّا في الخصوبة والإنجاب وتوفير اليد العاملة، لا سيّما مع الأخذ بالاعتبار أن السلطات تقوم بكل ما تستطيع فعله لإدماج القادمين من صغار السنّ عبر مناهج التعليم، وهو ما نرى آثاره بوضوح خلال سنوات قليلة، من فقدانٍ للّغة الأم وتغيّرٍ في العادات والسلوك، وربما فقدان الدين نفسه.

هذا الذعر المزيّف من «**الاستبدال العظيم**» تجده في أمريكا أيضًا، ففي فيلم وثائقيّ لقناة دويتشه فيله DW الألمانية بعنوان «**أمريكا والدين.. قوة الإنجيليّين في الولايات المتّحدة**»، وهو منتَج في مطلع عام 2021، يقول أحد أعضاء المليشيات المسيحية المسلّحة في ولاية **جورجيا** أثناء تدرّبه على السلاح أمام الكاميرا، وهو قس في كنيستين: «نحن نكافح من أجل إيماننا كلّ يوم، لدينا المسلمون من جهة، والكثير من الملحدين والطوائف الأخرى، فأين نذهب؟»، ويأتي الرد من المعلّق الصوتي في الفيلم موضِّحًا أنّ نسبة المسيحيّين في الولاية تبلغ 80٪، بينما لا تزيد نسبة المسلمين عن 1٪، ومع ذلك يتساءل القسّ المسلّح: «**أين نذهب؟**».

وأنا أتساءل بالمقابل: ماذا سيفعل هذا المتطرّف إذا صارت نسبة المسلمين 10٪؟ علمًا بأن جميع المسلمين في ولايته وبقية الولايات خاضعون لقوانين الدولة وسلطتها، ولم يجرؤ أحد منهم على إثارة الضجّة!

ولعلك تلاحظ عزيزي القارئ أنّ نسبة المسيحيين فقط -فضلًا عن طوائف أخرى- في بعض الدول العربيّة المسلمة قد تزيد عن 10٪، وأنهم في الغالب متنفّذون ومقرّبون من السلطات، ولديهم من الأموال والمناصب في الجيوش والمخابرات ما يفوق نسبتهم إلى

(1) Germany rolls up refugee welcome mat to face off right-wing threat, edition.cnn.com, 27 January 2019.

إجمالي السكّان بكثير، ومع ذلك لم ينتشر في بلاد المسلمين هذا الشعور بالرعب من استبدالهم.

والمدهش أن منظّري فكرة «**الاستبدال العظيم**» لا يتحدّثون عن استبدال عفويٍّ تلقائيٍّ، بل عن مؤامرة مدبّرة تديرها النخبة الليبراليّة وأقطاب العولمة، مثل سلطات الاتّحاد الأوروبي، وعند هذه النقطة يمكنك أن تفهم إلى أي مدى من السذاجة والحماقة وصلت تلك العقول، لا سيّما أنّ كامو نفسه ليس مجرّد مراهق ينظّر للمؤامرات على شبكة الإنترنت، بل درس الحقوق والقانون في كبرى الجامعات، ويحمل شهادة الماجستير في الفلسفة، ويُفترض أن يكون ملمًّا بقواعد البحث العلميّ ومناهج علم الاجتماع.

لكن هذا لم يمنع زعماء اليمين المتطرّف من ترديد خرافات تلك النظرية، مثل **ماريون ماريشال لوبان ونيكولاس باي وستيفان رافييه وجوليان سانشيز**، ووفقًا لشهادة **باسكال بونيفاس** في كتابه «**المثقّفون المغالطون**»، فإن منابر الإعلام تفضّل هذا الخطاب وتفتح له الأبواب.

خذ مثلًا الكاتب اليهودي الفرنسي **إريك زمور**، الذي أفرد له **بونيفاس** فصلًا للحديث عن سخافاته، فهو من أكثر المتطرّفين حضورًا في الإعلام الفرنسيّ، وهو يرى أن النموّ الديمغرافيّ انقلب لصالح غير البيض بعدما كان عدد الأوروبيّين أكبر من عدد الأفارقة بأربعة أضعاف، فضخامة عدد البيض سمحت لهم باحتلال العالم وإبادة السكّان الأصليّين في أمريكا الشماليّة وأستراليا واستعباد الأفارقة، أما اليوم فأصبحوا أقلّيّة على مستوى العالم، والمهاجرون الذين يتصدّرهم المسلمون سيفعلون بالبيض ما فعلوه هم ببقيّة الشعوب[1]!

أشعر أمام هذه الكلمات بالامتنان لصراحة **زيمور**، ففيها اعتراف ضمني بخوف الطغاة عندما يشعرون بأن قوتهم بدأت بالتلاشي، وأن موعد انتقام المقهورين قد اقترب. ولا

(1) مقال بعنوان: تبناها منفذ مجزرة نيوزيلندا واليمين المتطرف في الغرب.. ما هي نظرية «الاستبدال العظيم»؟، مرجع سابق.

يخفى على القارئ الكريم أن مشاعر الخوف هذه لم تعد مقتصرة على فرنسا، بل باتت نظرية عابرة للحدود والقوميات، وكأنها حالة خوف جماعي.

لقد شاهدتُ في السنوات الأخيرة العديد من الأفلام الوثائقيّة الغربيّة، المنتجة من قبل التيار الليبرالي بطبيعة الحال، وهي تدقّ نواقيس الخطر بكل جدّيّة في تسليطها الضوء على الانتشار السريع والمرعب لأفكار اليمين المتطرّف في كل الدول الغربيّة تقريبًا، وسبق أن أشرت إلى هذه الظاهرة في فصول سابقة من الكتاب، لكن السياق يستدعي إعادة التحليل مع الأخذ بالاعتبار أن الغرب صار منقسمًا بحدة، فمع أنّ هناك شريحة ليبراليّة تتعاطف مع المسلمين بصفتهم من الأقلّيات المضطّهدة، إلا أن الخوف من الإسلام نفسه يبقى عاملًا مشتركًا بين الجميع تقريبًا.

الإسلام يظهر في المخيال الغربيّ المعاصر على أنّه التهديد الثقافيّ الأبرز لحضارة تشعر أنها في طور الأفول، فالمحافظ المسيحيّ يصطدم بهذا الدين مستحضرًا تراثه الصليبيّ الدمويّ وصراعه العقديّ التقليديّ، والمحافظ القوميّ أو الأصلانيّ -وقد يكون وثنيًّا مثل **أندرس**- يصطدم بالإسلام إذا جاء محمولًا على يد المهاجرين، لأنه يريد الاحتفاظ بثقافة وطنه وأمّته دون أيّ تأثيرٍ خارجيٍّ، والليبراليّ سواء كان ملحدًا أو لا دينيًّا أو مؤمنًا قد يتعاطف مع المسلمين من جهة كونهم جماعة بشريّة ينبغي أن تتمتّع بحقوق الإنسان، لا سيّما إذا كانت من المهاجرين الذين حظوا بحق المواطنة، إلا أنّه يصطدم مع دينهم وتقاليدهم ونمط حياتهم، لا سيّما فيما يتعلّق بالقضايا الأخلاقيّة والجنسيّة ومفهوم الجندر والحقوق المدنية.

إحياء «الاستبدال العظيم»

لنعد مجدّدًا إلى قصّة النرويجيّ **أندرس**، فربّما تتّفق معي عزيزي القارئ على أنّه لم يرتكب فعلته تلك ويسلّم نفسه للقضاء إلا وهو يعلم أنه سيتحوّل إلى بطل قومي لدى أمثاله، وإلى نجم عالميٍّ تتناقل كل وسائل الإعلام صوره وتفاصيل حياته، وأن «**يد**

العدالة» لن تحكم عليه بالقتل قصاصًا كما في الإسلام الذي يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، بل سيُمنح منبرًا ما كان سيحلم به لو ظل مجرد ناشط أو كاتب يبث أفكاره المتطرفة على الإنترنت، وإنْ كانت العقوبة تقتضي حبسه 21 عامًا فهو يعلم أن السجن في الدول الإسكندنافيّة أقرب إلى أن يكون دار رعاية من مكان يُعاقَب فيه المجرمون.

تخيّل مثلًا عزيزي القارئ أن السفّاح يتابع دراسته في جامعة أوسلو من داخل زنزانته، بل ربح أيضًا دعوى ضد الحكومة عندما اشتكى بعد مضيّ خمس سنوات على سجنه من «**المعاملة غير الإنسانيّة**»، ويقصد بذلك تعريته أثناء التفتيش، وتقديم الطعام بأدوات بلاستيكيّة بدلًا من المعدنيّة.

وهو لا يكتفي برفع يده لتقديم التحيّة على الطريقة النازية كلما ظهر في المحكمة، ورفضه القيام بأي عمل داخل ورشات السجناء لأنه «**أرفع من القيام بهذه الأعمال**»، بل يعتبر نفسه مفكّرًا عظيمًا وبطلًا مثل **نيلسون مانديلا**[1].

من المفهوم إذن أن تشجِّع هذه الميوعة في القوانين أي مهووس بتكرار الجريمة، فالقوانين التي يفرضها تيّار العولمة الليبراليّ على العالم حذفت عقوبة الإعدام من معاجم القضاء، والإرهابيّ الأبيض ليس انتحاريًّا بل متمسّك بالحياة وراغب في الشهرة، خصوصًا لو كان وثنيًّا مثل المجرم **أندرس**، وحتى لو كان مسيحيًّا فليس لديه وعد بالجنة مقابل الشهادة كما هو حال منفّذي العمليّات الانتحاريّة أو الفدائيّة من المسلمين، وهذا يعني أنّ الظروف مواتية لتشجيعه على ارتكاب الجريمة إن توفّرت لديه الشجاعة الكافية.

مرّت سنوات ثقيلة على العالم الممتلئ بالعنف، وقبل أن ينتهي العقد الذي ابتدأه أندرس بإعلان قدوم الإرهاب الأبيض، استلم الراية إرهابي آخر في الطرف المقابل من الكوكب، ومن دولة تشبه النرويج أيضا في عزلتها وسلميّتها وترفها، وهي **نيوزيلندا**.

(1) «سفاح أوسلو» يربح قضية ضد النرويج من خلف القضبان، صحيفة العربي الجديد، 22 أبريل 2016.

ففي منتصف مارس 2019، حمل الأسترالي **برينتون تارانت** -الذي كان مدرِّبًا رياضيًّا في أواخر العشرينات من عمره- سلاحه وتوجه من أستراليا إلى نيوزيلندا المجاورة، وقصَد مسجدين في مدينة كرايستشيرش الهادئة عند وقت الذروة واحتشاد المصلّين، ثم فتح النيران على كل من صادفه من المسلمين، فقتل نحو خمسين شخصًا وجرح مثلهم.


السفاح بث جريمته مباشرة على فيسبوك

كان السفاح يستلهم جريمة أندرس في جريمته الجماعية، إلا أن تطوّر التقنيّات منحه ميزة إضافية لنقل الإجرام إلى مرحلة أبعد، فقد بثّ المجزرة في نقل مباشر عبر موقع فيسبوك متباهيًا بها أمام أصدقائه، ومعلنا -مثل أندرس- تحدّيه للسلطات وللعالم كله عبر كشف هويّته واستعداده للمحاكمة.

ترك السفّاح بيانًا أيضًا على طريقة **أندرس**، فجاء في 73 صفحة، واللافت هنا أنه سماه «**الاستبدال العظيم**»، مما وضع **كامو** في حرج ودفعه لإعلان براءته من أي جريمة تستلهم أفكاره المعادية للمهاجرين المسلمين[(1)].

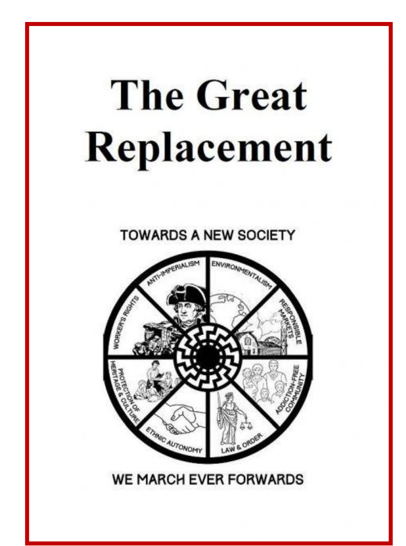
ظل **تارانت** محور اهتمام الإعلام العالمي، فهذه أول جريمة قتل جماعي تُبثّ على الهواء مباشرة في التاريخ، وحظي كمعلِّمه **أندرس** بفرصة مجانية لتسليط الضوء على معتقداته، حتى انتشرت حول العالم صورة بندقيّته التي كتب عليها عشرات الشعارات، وهي كلّها أسماء لشخصيات وتواريخ لأحداث تتعلّق بتاريخ الصراع الإسلامي-الأوروبي.

وصف **تارانت** نفسه أيضا بأنه قومي إثنيّ وثني، ومع أنه لم يكن مؤمنًا بالمسيحيّة فقد

(1) قال كامو هذا خلال ظهوره في حلقة من البرنامج الوثائقي «خارج النص» على قناة الجزيرة، وكانت بعنوان «الاستبدال الكبير»، وتم بثها في 15 مارس 2020.

اعتبرها عنصرًا مهمًّا لتوحيد أوروبّا في مواجهة التدهور الأخلاقيّ الليبراليّ وتدفّق المهاجرين المسلمين.

اعتبر هذا المجرم أن مجزرته جاءت انتقامًا لكل من قُتل على يد المسلمين، ولا يقصد فقط ضحايا الهجمات الحديثة داخل أوروبّا بل أيضًا كل من قُتِل منذ ظهور الإسلام، وهو يحلم بعودة الحملات الصليبيّة لاستعادة إسطنبول التي كانت تسمّى القسطنطينيّة ومركزًا للمسيحيّة الأرثوذكسيّة.



كنت قد اطّلعت على بعض نصوص هذا البيان المليء بالهراء، وليس فيه ما يثير الدهشة بعد صدمة إقدام كاتبه على جريمة بتلك الوحشيّة، والتي لم يفرّق فيها بين رجل أو طفل أو امرأة أو عجوز. لكن أكثر ما لفت نظري هو تهديده للمسلمين بأنّهم لن ينعموا بالسلام حتى يعودوا إلى أوطانهم، والتي رسم لهم حدودها بناء على قراءته للتاريخ، فكل ما يقع شرق إسطنبول يحق للمسلمين أن يعيشوا فيه، أما إذا تجرّؤوا على الانتقال غربًا فسيكون القتل في انتظارهم!

والسؤال هنا: لماذا لم يطبق هذا الأحمق قواعده على المسيحيّة التي لا يؤمن بها؟ فطالما كانت الوثنيّة هي الحقّ الذي يعتنقه فعليه أن يطالب أيضًا بطرد المسيحيّين من كل أوروبّا، أو إعادة من تنصّر أجداده قبل ألفي سنة إلى وثنيّته الأولى.

المسيحيّة دين طارئ قادم من الشرق أيضًا، فالمسيح عليه السلام من بني إسرائيل الذين عاشوا في فلسطين، وشاؤول (**القديس بولس**) الذي أنشأ دين المسيحيّة بعد رفع النبي عيسى عليه السلام إلى السماء كان أيضًا من بني إسرائيل، وقد زعم أن يسوع تجلّى له عند مدخل دمشق فآمن به، ومن هناك انطلق هذا الدين إلى أوروبّا لاحقًا.

شاهدت يوما مقابلة مع مثقّفة أوروبّيّة من أصحاب العقليّة اليمينيّة المتطرّفة، كانت تحاول إبراز الوجه اللطيف بقولها إنها لا تكره المسلمين وحضارتهم، وإنها ترى أن المساجد والعمارة الإسلامية في غاية الجمال، لكنها لن تكون كذلك إلا في المشرق وليس في أوروبا، فهذه القارّة يجب أن تبقى وفيّة لتراثها الذي يقتصر على الكنائس والكاتدرائيّات. ولكن، من الذي جعل هذه المباني جزءًا من هويّة أوروبّا؟ ألم يكن أصلها وثنيًّا كما كانت بلاد المشرق نفسها؟ لماذا لا تكون الهويّة الأوروبّيّة ممثَّلة بحجارة المعابد **الميغاليثيّة** مثل «**ستون هنج**» في بريطانيا مثلًا؟!

هناك أوروبّيون اعتنقوا الإسلام في البوسنة وصربيا والجبل الأسود وألبانيا واليونان أثناء الحكم العثماني، وقد وصف **تارانت** نفسه في بيانه بأنه «**مزيل الكباب**»، وهي صفة كان يتفاخر بها مجرمو الصرب للدلالة على إبادتهم للبوسنيّين المسلمين أثناء الحرب في التسعينات، على اعتبار أن أوروبّا يجب أن تبقى معقلًا للمسيحيّة، أو للإلحاد والعلمانيّة، أو حتى للوثنيّة القديمة التي يتعصّب لها **أندرس وتارانت**، أما الإسلام فيجب التخلّص من معتنقيه حتى لو كانوا من السكّان الأصليّين!

هنا تبرز وحشيّة وحماقة هذه العقليّة، فهي لا تكره المهاجرين فقط لأسباب عرقيّة، بل تعتبر الأوروبّيّ الذي يعتنق الإسلام تحديدًا -دون بقيّة الأديان- خائنًا يستحقّ القتل، والإبادة هنا تكون جماعيّة لا تميّز بين صغير وكبير، ولا تفتح بابًا للحوار ولا تقبل التفاهم.

وإذا كان عصرنا قد شهد جريمتي قتل جماعي -كما ذكرنا- خلال عشر سنوات، فمن يدري ما الذي سيحدث لاحقًا؟ ما الذي يمنع مثلًا المليشيات اليمينيّة الأمريكيّة -التي تتدرّب على السلاح تحت عين السلطات ودون أن تخرج على القانون- من أن تعلن حربًا شاملة على المسلمين الأمريكيّين في أي لحظة؟ ألم تكن منظّمة **كوكلوكس كلان** المتطرّفة تفعل هذا ضد السود؟ إذ كان عناصرها حتى عصر قريب يشنّون هجمات مسلحة على المزارع والقرى الأمريكيّة ويحرقون منازل السود وهم بداخلها مع أطفالهم، وإذا تمكّنوا من أحدهم شنقوه على الأشجار وتركوه معلّقًا ليدبّ الرعب في قلوب البقيّة، وجريمة

هؤلاء الوحيدة هي أنهم سود فقط، فهم لم يهاجروا أصلًا بل خطفهم المجرمون البيض من أفريقيا وشحنوهم كالبضائع إلى أمريكا لاستعبادهم، ثم جاء أحفاد الخاطفين لإبادة أحفاد العبيد!

واليوم يكره المتطرّفون البيض الإسلامَ أكثر بكثير من كراهيتهم للسود، فالأسود لم يكن في نظرهم سوى كائن أقرب إلى الحيوانات من البشر ويجب التخلّص منه بعد انتهاء دوره في إنشاء الحضارة التي نراها اليوم، أما المهاجر المسلم فلم يكن عبدًا ولن يكون، وهو يحمل معه إرث حضارة عظمى، وربما يحلم باستعادتها، حتى لو لم يكن وجوده على أرض أوروبا وأمريكا وأستراليا مقدمة لتلك الاستعادة، فيكفي أنه ينتمي إلى حضارة منافِسة ما زالت تملك كل مقوّمات الحياة.

ربما تعلّم القضاء النيوزيلندي الدرس، فلم يكتفِ بالحكم على **تارانت** بالسجن 21 عامًا فقط، كما لم يحكم عليه بالإعدام طبعًا، فقرّر سجنه مدى الحياة، وقال له القاضي: «**جرائمك شريرة لدرجة أنه حتى لو تم احتجازك حتى وفاتك فلن تستنفد شروط العقوبة**»[1]، كما أصرت رئيسة الوزراء **جاسيندا أرديرن** على عدم ذكر اسمه في أي مكان كي يبقى نكرة، ويبدو أيضًا أن ظروف اعتقاله بائسة ولا تقارَن بسجون النرويج، فهل يكفي هذا لردع المهووسين بالخوف من الإسلام؟ أرجو ذلك.

الإسلاموفوبيا على الطريقة الهندوسيّة

لا أذكر متى كانت أوّل مرة سمعتُ فيها بمصطلح الإسلاموفوبيا، إلا أنّي أذكر دهشتي واستنكاري وغضبي من وصول الأمر إلى درجة تحول دين الله إلى مصدر رعب للبشر.

المصطلح متداول في الغرب بالدرجة الأولى، وهو وصمة عار بطبيعة الحال، فحتى اليمينيّ المتطرّف لا يتبنّاه مع أنه يعتقد به، لكن يندر أن يسلّط الإعلام الضوء على هذه

(1) هجوم نيوزيلندا: الحكم على **برينتون تارانت** بالسجن مدى الحياة من دون الإفراج المشروط، موقع بي بي سي عربي، 27 أغسطس 2020.

الظاهرة في الشرق الآسيوي، حيث تأخذ الكراهية هناك شكلًا أكثر وحشيّة بكثير، فنحن نتحدّث هنا عن دول لا تقيم وزنًا لحكم القانون إلا نادرًا.

خذ الهند مثلًا، بلد بحجم قارة، حكمه المسلمون حوالي ثمانية قرون وأنشأوا فيه حضارة عظيمة، وعندما ضعفت شوكتهم وانشغلوا بحطام الدنيا، غزاهم ملك مسلم آخر من الترك يدعى «نادر شاه» في منتصف القرن الثامن عشر، فلما رأى الإنجليز ما حل بهم من ضعف تسلّلوا إلى الهند عن طريق التجارة، ثم بسطوا سيطرتهم واحتلّوا البلد وأشاعوا الفرقة بين طوائفه، وخصّوا المسلمين تحديدًا بالقدر الأكبر من الاضطهاد.

أشرتُ سابقًا إلى تحوّل **مهاتما غاندي** في الثقافة الغربيّة إلى رمز للمقاومة، فهو النموذج الذي يحبّه الغرب لمن يقاومهم، ليس فقط لأنه رفع شعار «**اللاعنف**» أمام عنف المحتلّ الإنجليزي، بل لأن الهندوس الذين كان يقودهم لم يكونوا مقاومين للاحتلال أصلًا، فزعماء حلم «**النهضة الهندوسيّة**» كانوا يسخَرون من الذين يعارضون المستعمر، وكانوا يقولون عن أنفسهم إنّهم يستعدون لأمور أكبر من الاستقلال، فهدفهم هو القضاء على السلطة المسلمة وإنشاء دولة هندوسية، ومَن غيرُ الإنجليز سيتحالف معهم لتحقيق هذا الحلم؟

الدور الإنجليزيّ في الهند كان مماثلًا لدوره في فلسطين، وهو إعادة ترتيب القوى، فالحركة القوميّة الهندوسيّة تتشابه حدّ التطابق مع الحركة الصهيونيّة في الفكر والمنهج، والصداقة المتينة بين الحزب الهنديّ الحاكم اليوم وبين دويلة إسرائيل خير دليل. وفي النهاية لم تغادر قوات الإنجليز شبه القارّة الهنديّة إلا بعدما مكّنت الهندوس من السلطة، وزرعت بذرة التقسيم، لتنفصل **باكستان وبنغلاديش** ويُهجّر إليهما ملايين المسلمين.

دارت حروب وقلاقل لسنا بصدد ذكرها، فما يهمّنا في هذا السياق هو رفض القوميّين الهندوس للتوجّهات العلمانيّة والديمقراطيّة التي كان **غاندي** يتحدّث عنها، كما وقفوا بالمرصاد لحكومة **جواهر لال نهرو**، وهم المسؤولون أيضًا عن اغتياله[1].

(1) ظفر الإسلام خان، هدفها الأول رحيل الإسلام من الهند.. تعرف على «الهندوتوا» وصعودها السياسي وعلاقاتها بإسرائيل، الجزيرة نت، 12 أغسطس 2020.

فشلت حكومات الهند الديمقراطيّة منذ الاستقلال في احتواء اليمين الهندوسيّ القوميّ المتطرّف، وظلّت قوتهم تتصاعد حتى وصلوا إلى السلطة مع انتخاب **ناريندرا مودي** رئيسًا للوزراء عام 2014، فهو منذ شبابه منخرط في الحركات المتطرّفة، وكان صعود حزبه المتطرّف **بهاراتيا جاناتا** صدمة مرعبة للمسلمين، ويكفي أن تعلم عزيزي القارئ أن زعيم إحدى أضخم دول العالم، الذي كان في السابق رئيسًا لحكومة ولاية **غوجارات**، لم يحرّك ساكنًا لمنع مقتل نحو ألف مسلم خلال اضطرابات طائفيّة، بل تتّهمه العديد من جماعات حقوق الإنسان بأنّه هو الذي شجّع على أعمال العنف، حتى نُقل عنه قوله في عام 2013 إن المسلمين الذين سقطوا ضحايا على يد المتطرّفين الهندوس يشبهون الجِراء التي تدعسها السيارات في الشوارع.



ومع أن دول الغرب قاطعت حكومة هذه الولاية المجرمة، لكن أحدًا لم يطالب بمحاكمة مودي، بل انتُخِب في العام التالي زعيمًا للدولة كلها، واستقبله الغرب بكل ترحاب، وما زالت الجرائم تُرتكب جماعيًّا بحق المسلمين على فترات متقطّعة وسط صمت مطبق من هذه الحكومة التي يرأسها طائفي شعبويّ مجرم.

وبنفس العقليّة الصربيّة المتطرّفة التي ترى أن البوسنيّين خانوا أمّتهم باعتناقهم الإسلام، يمارس المتطرّفون الهندوس منذ اعتلاء **مودي** السلطة إجرامهم بهدف «**إعادة**» الهنود الذين اعتنق أجدادهم الإسلام قبل مئات السنين إلى عبادة الأوثان الشيطانيّة.

فبعد شهور قليلة من استلام حزب **بهاراتيا جاناتا** الحكم، انتشرت قصص عجيبة لتغيير دين المسلمين -وأيضًا المسيحيّين في بعض الحالات- جماعيًّا، ومنها مثلًا دعوة وجّهها القوميّون الهندوس إلى عائلات من الفقراء المسلمين للحصول على مساعدات اجتماعيّة، ولما حضر هؤلاء المساكين -الذين يسترزقون من جمع النفايات في حي

عشوائي بمدينة **أغرا** الشماليّة- اكتشفوا أنهم وسط احتفال ديني مباغت، وتم الإعلان في نهايته أنهم عادوا إلى الهندوسيّة، وتوالت التقارير الإعلامية عن أن هذه الحفلات تتمّ بالإكراه والخداع، وأحيانًا بالإغراء مقابل وعود بالدعم المادي[1].

ومنذ عام 1925، تتصدر الحركة المسلّحة «**راشتريا سوايامسيفاك سانغ**» الجماعات القوميّة الهندوسيّة المعروفة باسم «**سانغ باريفار**» (**أسرة سانغ**)، وجميع أعضائها مدرَّبون تدريبًا شبه عسكري، ويتشاركون مع الحزب الحاكم أيديولوجيته المتطرفة، وهم يعتبرون أن اعتناق مئات الملايين من الهنود للإسلام كان بفعل الإكراه قبل قرون، وأن الوضع الطبيعي الآن هو «**العودة**» (غار وابسي) إلى الوثنية، وكأن الهندي لا يمكنه إلا أن يكون من عبدة الشيطان، وإذا اختار بكل طواعية عقيدة أخرى فقد خالف حكم الطبيعة!

هناك خلاف حول نسبة المسلمين إلى السكّان في الهند، وربما يصعب كثيرًا الوصول إلى إحصاءات دقيقة في بلد بهذه الضخامة مع ضعف الإمكانات، ولكن حسب المعطيات المتاحة يبدو أن معدّل نموّهم يأخذ في التباطؤ خلال العقود الثلاث الأخيرة، ومع ذلك ما زال هو الأعلى قياسًا للهندوس[2]، وربما تزيد نسبتهم بقليل عن 14٪[3].

ومع أنها نسبة لا ينبغي أن تثير القلق في بلد يسيطر عليه الهندوس اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، ومع أنّ المسلمين اليوم في أضعف حالاتهم منذ فجر الإسلام، لكن لوثة الخوف من الإسلام تكفي لدفع حركة «**راشتريا سوايامسيفاك سانغ**» المسلّحة للتحذير في كل مناسبة -ومنذ تأسيسها قبل نحو قرن- من «الانقراض» الخفيّ للهندوس!

يعتمد هؤلاء كتابًا لفيلسوفهم **مادهاف ساداشيف جولوولكر** يدعى «**نحن.. أو تعريف أمّتنا**»، نُشر مع بداية الحرب العالمية الثانية عام 1939، ويقول فيه إنّ حرمان اليهود من حقوقهم في ألمانيا على يد النازيين هو النموذج المثالي للتعامل مع الأقلّيّات في الهند، فإما

(1) أولريتش فون شويرين، تغيير أديان الأقليات الدينية في الهند: عودة إلى دين الأجداد أم هداية قسرية؟، موقع قنطرة الألماني ar.qantara.de، 30 مارس 2015.

(2) Muslim population growth slows, www.thehindu.com, 25 AUG 2015.
(3) worldpopulationreview.com.

أن يتبنّى المسلمون والمسيحيّون الديانة والثقافة واللغة الهندوسيّة، أو عليهم الخضوع التام من دون المطالبة بأي حقوق مدنية[1]!

ووسط صمت الغرب، وربما تشجيعه في الكواليس، يتفنّن المتطرفون الهندوس حتى ساعة كتابة هذا الكتاب في اضطهاد المسلمين، إذ شهد عام 2020 جرائم وحشيّة اقتحم فيها المجرمون منازل المسلمين، فضربوا وروّعوا العائلات بما فيها من أطفال ونساء، وأحرقوا الكثير من المنازل والمحلات دون أي تحرّك يذكر من الشرطة، أما حكومة مودي فكانت مشغولة بتحقيق أحلام أنصاره، بدءًا بإلغاء الحكم الذاتيّ لكشمير، الذي كاد أن يتسبّب بحرب مع باكستان، ومرورًا بالتدخّل في قوانين الأحوال الشخصيّة الإسلاميّة، والضغط على قضاة المحكمة العليا حتى حكموا بإعطاء أرض مسجد **بابري** التاريخيّ للهندوس -بعد هدمه- كي يقيموا عليه معبدهم، وصولًا إلى سنّ قانون يحرِم كثيرًا من المسلمين من الجنسيّة، مما دفع المسلمين في النهاية للانفجار والخروج في مظاهرات كبيرة بأرجاء البلاد، لتردّ عليهم الشرطة بالقمع الوحشيّ، وينتهي الأمر باستغلال الحكومة لوباء كورونا وفرض إجراءات الحظر الصحّيّ والإغلاق كي يتلاشى هذا الحراك الغاضب[2].

وبعد استلام بايدن للسلطة في البيت الأبيض، تساءل الكاتب ديباسيش روي شودري عما إذا كان الرئيس الأمريكي الليبرالي الجديد سيتخلى عن مودي الذي كان صديقا لترمب، حيث أبدى الكاتب -وهو مؤلف مشارك لكتاب «قتل الديمقراطية.. ممر الهند إلى الاستبداد» - تعجبه من إصرار كل رئيس أمريكي على استخدام كلمة «الديمقراطية» عندما يتحدث عن علاقة بلاده بالهند، مع أن المتطرفين الهندوس لا يبدون أي احترام للديمقراطية[3].

(1) تغيير أديان الأقليات الدينية في الهند: عودة إلى دين الأجداد أم هداية قسرية؟، مرجع سابق.

(2) هدفها الأول رحيل الإسلام من الهند.. تعرف على «الهندوتوا» وصعودها السياسي وعلاقاتها بإسرائيل، مرجع سابق.

(3) Debasish Roy Chowdhury, How Long Will Joe Biden Pretend Narendra Modi's India Is a Democratic Ally?, Time, 15 Feb 2021.



إحراق منازل ومحلات المسلمين في نيودلهي عام 2020

«الإرهاب البوذي»

لو أجرينا استطلاعًا للرأي في أحد الشوارع الغربيّة، وسألنا الناس عن أكثر شعوب وطوائف العالم حبًّا للسلام والوئام، فأتوقّع أن الغالبيّة ستشير إلى معتنقي البوذيّة، وقد يوافقهم في هذا الرأي كل من يتأثّر بالأيديولوجيا الطاغية التي تسوّقها هوليود وغيرها في كل مكان، فالنموذج التسويقيّ الذي تُعلّب فيه البوذية حول العالم ملتصق التصاقًا عضويًّا بالسلام والمحبّة إلى درجة الرومنسيّة الحالمة، فهل هذا واقعيّ؟

حسنًا، لو اقتصر الأمر على التعاليم المدوّنة في الكتب وما يردّده الكهنة فقد يكون صحيحًا، لا سيّما أن البوذيّة -وحتى الهندوسيّة التي تعدّ الديانة الأم- تؤمن بقاعدة **الكارما**، أي كما تدين تدان، وبالتناسخ الذي يجعل من كل الكائنات الحيّة حاملة لأرواح البشر، مما يستلزم الرأفة بالحشرات والامتناع عن قتلها، فضلًا عن بقية الكائنات، كما تؤمن بوحدة الوجود واندماج الإله بمخلوقاته، مما يضفي القداسة على كل شيء.

ففي النص المسمى «**ميتا سوتا**» (الحب العالمي)، يدعو بوذا كل من يسعى إلى الحكمة والسلام إلى أن يكون مُستقيمًا، وألا يتورّط في مشاكل الناس، وألا يحمّل نفسه عبء المال، وأن يسيطر على حواسّه، وأن يسعى في سعادة جميع المخلوقات، وألا يخيب أمل أحد، ولا يحتقر كائنًا.

لكن التطبيق يختلف في حالات كثيرة جدًّا عن تلك المبادئ، وربما بدرجة أكبر مما لدى الأديان الأخرى بما فيها الإسلام، والفارق هو التسويق، فمصلحة النخب المسيطرة تتحقّق في تصدير الوثنيّات الشيطانيّة وتلميعها، مقابل ربط الشرّ كلّه بدين الوحي، وهذا هو المتوقّع.

في القرن التاسع عشر، بدأ مذهب بوذيٍّ جديد بالظهور في سريلانكا وسمي بالبروتستنتيّة البوذيّة، وكان مؤسسه «**داراما بالا**» يضع أُسُسًا جديدة للمقاومة المسلّحة ضد الاحتلال البريطانيّ، جاعلًا من اللغة السنهاليّة والتعاليم البوذية والقومية السريلانكيّة وحدة واحدة لا تتجزّأ.

وكما فعل الإنجليز في الهند، لم يخرجوا من سريلانكا إلا وهي مفعمة بالتطرّف القومي، فلم يتسامح البوذيّون الجدد مع مواطنيهم الهندوس (**أقلّية التاميل**) الذين طالبوا بحقوقهم بعد الاستقلال، ونشبت بين الطرفين حرب أهلية، وأصبحت كل الحكومات منذ ذلك الحين تتقرّب من غالبيّة الشعب بالمزيد من التشدّد البوذيّ، أما عندما يتعلّق الأمر بحقوق الأقلّيّة المسلمة فتلك قصّة أخرى.

وحتى اليوم تشهد سريلانكا -على فترات متقطّعة- مجازر طائفيّة ضدّ المسلمين، ومنها مثلًا هجوم جماعيّ في 2012 على عشرات القرى، وضرب وقتل العديد من المسلمين بالسيوف، ومن بين المشاهد الفظيعة التي نقلتها بعض كاميرات المراسلين آنذاك صور جثث محترقة لأطفال صغار. ثمّ هجوم آخر لأتباع جماعة «**بودو بالا سينا**» البوذيّة المتطرّفة على منازل ومزارع وشركات المسلمين في عام 2014، والحصار الذي فرضه البوذيّون على أحياء المسلمين مما كاد يتسبّب بمجاعة، حيث نقلت تقارير

غربية عن شهود عيان أن الشرطة كانت تكتفي بالمراقبة عن بعد ثم نقل جثث الضحايا المسلمين[1].

وتكرّر الأمر في مارس 2018 عندما اشتهرت قصة لجوء مئات المسلمين إلى أحد المساجد وتحصّنهم فيه، بعدما أحرق البوذيّون الغاضبون منازلهم، ومع توالي قصص المجازر والتنديد الدولي بصمت الشرطة، بل بتواطؤها، اضطرّت الحكومة إلى فرض حالة الطوارئ عشرة أيام[2].

والمبرّر الذي يتكرّر دائمًا هو الخوف من الغزو الإسلاميّ المتوهَّم، مع أن الأقلّيّة المسلمة تشكّل في أقصى التقديرات 10٪ فقط من عدد السكّان، إذ لم يخجل الرهبان البوذيّون في 2018 من إجبار اللاجئين المسلمين (من أقلية الروهينغيا) القادمين من ميانمار على الفرار من ملاجئ الإيواء بعدما تعرّضت النساء والأطفال للرمي بالحجارة، فضلًا عن تلقيهم تهديدات بالقتل[3]، والسبب هو خوف الرهبان من زيادة عدد المسلمين في دولتهم التي يجب أن تبقى بوذيّة خالصة!

ومع أن المسلمين لا يملكون أي قوة تذكر في سريلانكا، وليس لديهم أي ثقل ديمغرافيّ حتى يحلموا بالانفصال كالهندوس الذين لديهم الامتداد الكافي في الهند المجاورة، فمع ذلك لا يوفّر البوذيّون –وعلى رأسهم الرهبان– أي فرصة لإثارة غضب الغوغاء ضدّهم في حملات متجدّدة كل سنة أو سنتين، بل يبدو أن لصاقات «الحلال» التي توضع على اللحوم في المتاجر تقضّ مضاجع متطرفي جماعة «**بودو بالا سينا**» وتدفعهم لغزو المتاجر وملاحقتها، مع أن معظم اللحوم في سريلانكا تُذبح وفقًا للقواعد الإسلاميّة لأنّها أرخص ثمنًا، لكن الخوف من أي ظهور ثقافيّ إسلاميّ يثير مخاوفهم المرضيّة.

وبما أنّ المسلمين لا يملكون حولًا ولا قوّة، اعتاد قادتهم على منع الأتباع

(1) Buddhist-Muslim Unrest Boils Over in Sri Lanka, The New York Times, 16 June 2014.

(2) نهاد زكي، دينهم مشهور بالمحبة والسلام.. تاريخ البوذيّين مع الدماء، موقع ساسة بوست، 31 مايو 2019.

(3) Sri Lanka blocks social media networks to stop sectarian violence, www.reuters.com, 7 March 2018.

المضطَّهدين في سريلانكا من التفكير بأي رد فعل انتقاميّ من الهجمات ضدّهم[1]، والاكتفاء باللجوء للحكومات التي لا تقل تطرّفًا، لكن تراكم هذا الظلم الذي يبلغ حدّ التطهير العرقيّ والتهجير القسريّ فجّر غضب بعض المسلمين الذين اتُهموا بتشكيل «**جماعة التوحيد الوطنيّة**»، والتي قيل إنها امتداد لتنظيم الدولة الإسلاميّة، إذ لم يكن أحد يهتمّ من قبل بالمجازر السنويّة للمسلمين في هذا البلد إلى أن شنّت تلك الجماعة في 21 أبريل 2019 سلسلة تفجيرات أمام عدّة كنائس وفنادق في عيد الفصح، وقتلت أكثر من 258 شخصًا، لينتقل بذلك الاضطهاد إلى مرحلة أخرى، وكأنّ الرهبان المذعورين لم يكن ينقصهم إلا عمليّة كهذه!

هذا ينقلنا إلى الوجه الأكثر سفورًا للإرهاب البوذيّ، فكل ما سبق لا يساوي شيئًا من فظاعة ما يجري في ميانمار، الدولة الواقعة شمال الهند والتي كانت تسمى بورما، فهي أيضًا دولة فقيرة لا يؤبه بها، مكتظّة سكانيًّا، وتتوالى على حكمها سلطات عسكريّة منذ استقلالها على مدى خمسين عامًا، إلى أن تسلَّم المدنيّون فيها السلطة بعد ضغط غربي قبل نحو عشر سنوات.



وكي لا أطيل في سرد التفاصيل، فسأكتفي بلفت نظرك عزيزي القارئ إلى ضيق الغرب نفسه بهذا الإرهاب البوذي السافر، فمع أن وصف الإرهاب لا يطلق في الإعلام الغربي عادةً إلا على المسلمين، لكن مجلّة «تايم» الأمريكية المشهورة خصّصت غلافها في العدد الصادر بشهر يوليو 2013 لراهب بوذي من ميانمار يدعى **آشين ويراثو**، ووضعت تحت صورته هذا العنوان المثير: «**وجه الإرهاب البوذيّ**». وهذا يعني أن استخدامي لمصطلح «**الإرهاب البوذيّ**» مبرَّر بالاستعارة من هذه

(1) Neil DeVotta ‹Sri Lanka’s Christians and Muslims Weren’t Enemies, Foreign Policy, 25 APRIL 2019.

المجلّة الأمريكيّة، فأنا لا أعمّم بذلك صفة الإرهاب على كل بوذيٍّ حتمًا، ولا أسوّغ إطلاق صفة الإرهاب على أي دين.

اشتهر **ويراثو** بعلاقته بمنظمة قوميّة متطرّفة تدعى «**969**»، وهي تتلقّى دعمًا مباشرًا من الحكومة، وهدفها الأساسيّ إنقاذ **ميانمار** من التهديد المتصوَّر لارتفاع عدد المسلمين داخل البلاد[1]، وهو من الشخصيّات الدينية النادرة في العالم التي لا تتردّد في إظهار تشدّدها السافر ضدّ كلّ من يعارضها، إلى درجة أن الحكومة نفسها ضاقت به ذرعًا في عام 2003 وحكمت عليه بالسجن لمدة 25 عامًا بتهمة التحريض ضد المسلمين، إلا أنه حصل على عفو في عام 2011 عندما وصل المدنيّون إلى السلطة، وما زال منذ ذلك الوقت يضاعف جرعات الكراهية التي قد تثير دهشتك.

تصوّر مثلًا أن راهبًا، يُفترض أن يكون مشغولًا بالانقطاع للصلاة والزهد والتعليم الديني، ينظم حملات لمنع الشعب من الشراء من المحلّات التي يملكها مواطنون مسلمون «كي لا يستفيد منها العدو»، وتصور أيضا أنه حوّل دير «**ماسووين**» الذي يديره إلى معسكر لتدريب 2500 طالب على محاربة «**المسلّحين المسلمين**»، وأنه أقام في هذا الدير معرّضًا دائمًا لصور ما يعتبره «ضحايا عنف المسلمين»، كي يشحن كل من يدخل هذا المعبد بالكراهية ضدّ كل ما يمت للإسلام بصلة[2]!

هذا الراهب المجرم يطوف بأنحاء البلاد وتُفتح له منابر الإعلام لإلقاء الخطب النارية التي يتّهم فيها الأقلّيّة المسلمة المستضعفة بأنّها تحوّل النساء البوذيّات بالقوّة إلى الإسلام، كما يردّد دائمًا أكاذيب سافرة عن معدّلات إنجابهم الخياليّة، مشبّهًا المسلمين بسمك الكارب الإفريقي، فهم يتكاثرون بسرعة ويأكلون بعضهم والأنواع الأخرى، حسب زعمه.

(1) أسيد صديقي، التشدد البوذي ضد الأقليات المسلمة في آسيا: الفاعلون والتداعيات، ترجمة كريم الماجري، مركز الجزيرة للدراسات، أغسطس 2016.

(2) Aparupa Bhattacherjee, Myanmar's Ashin Wirathu: Five Reasons for His Rise, Institute of Peace and Conflict Studies, 29 Oct 2014.

وفي تصريحات لصحيفة الغارديان البريطانية في عام 2013، زعم **ويراثو** أن البوذيّين يتعرّضون للاغتصاب والتحرّش الجنسيّ والحصار من قبل عصابات مسلمة في كل مدينة، بل بلغت وقاحته الزعم بوجود «**أغلبيّة مسلمة فجّة ووحشيّة في كل مدينة**»[1]، وهي أكاذيب أثارت سخرية الصحيفة.

في حوار آخر لصالح «بي بي سي» في العام نفسه، اتهم **ويراثو** المسلمين -هكذا بالتعميم دون استثناء- بأنهم لا يتصرّفون بدماثة إلا عندما يكونون ضعفاء، وما إن يصبحون أقوياء حتّى يتحولون إلى ذئاب، ثم قال لمن يجري معه الحوار: «**إن لم تصدق ما أقوله، أعطِ ما لديك من تكنولوجيا نووية لحركة طالبان، سيختفي بلدك من الوجود**».

وفي مثل هذه التصريحات تظهر صفاقة الحاقدين على الإسلام، فهم لا يرون أي تطرّف في العالم إلا عندما ينفجر غضب جماعة ما من المسلمين تحت ضغط الظلم المتراكم، فجماعة **طالبان** تحديدًا التي استشهد بها لم تكن مصنّفة أصلًا ضمن التيّار الجهاديّ، وتسميتها تشير إلى تكوّنها من **طلّاب العلم الشرعي** الذين كانوا يدرسون المذهب **الحنفي** في بلد خنقته الحروب، والتشدّد لم تعرفه **أفغانستان** إلا عندما سيطر الشيوعيّون على السلطة بدعم سوفيّيتي في عام 1978، إذ مارسوا بكل وحشية أساليب القهر المعتادة لنشر الإلحاد، مثل إغلاق المساجد، ومنع الحجاب، والسخرية العلنيّة الاستفزازية من كلّ مسلم متديّن في الجامعات والأماكن العامة، ممّا فجّر الغضب الإسلامي في الأرياف ودفع باتجاه الحرب الأهلية والاحتلال السوفيّيتي خلال الثمانينات، أما قصّة دفع طلبة العلم -الذين احتضنوا تنظيم القاعدة- نحو التشدّد لاحقًا فتلك قصّة لها تفاصيل لا يتّسع لها هذا المقام.

في عام 2014، أصبح **ويراثو** رئيسًا لمنظّمة «**ماباثا**» (الرابطة الوطنيّة لبورما)، التي انتشرت بسرعة في جميع أنحاء البلاد قبل حظرها عام 2017، وأصبح هو المسؤول الأوّل

(1) Kate Hodal, Buddhist monk uses racism and rumours to spread hatred in Burma, The Guardian, 18 Apr 2013.

عن جرائم التطهير العرقيّ ضدّ المسلمين الروهينغيا في إقليم **أراكان**، مما دفع موقع فيسبوك لحظره في مطلع 2018، كما حظرت تايلاند دخوله لأراضيها، وأصبح الكثيرون يتبرؤون منه، حتى اضطرت الأديرة الرسمية المدعومة من الحكومة إلى منع **ويراثو** من إلقاء الخطب لمدة عام كامل في عام 2017، إلا أنّه ظل مع ذلك حرًّا طليقًا دون أن يحاسبه أحد، بل ظلّ وجهًا بارزًا في المسيرات الشعبيّة التي تؤيّد الجيش ضد الحكومة المدنيّة، مستغلًّا كل مناسبة في بثّ سمومه ضدّ المسلمين.

ولم يقع هذا المتطرّف في المتاعب إلا بعدما رفع سقفه إلى درجة شتم بعض أعضاء الحكومة والتعدّي على أعراضهم، ثم وصلت به الجرأة إلى شتم الزعيمة السياسية **أونغ سان سو تشي**، الحاصلة على جائزة نوبل للسلام عام 1991 والتي أصبحت زعيمة البلاد في 2016، وهنا صدر عليه حكم بالسجن لمدة 3 سنوات، لكن دون أن يُقبض عليه!

وفي 2015، عندما أرسلت الأمم المتحدة دبلوماسيّة من كوريا الجنوبية إلى ميانمار للتحقيق في مأساة الروهينغيا، لم يتردّد الراهب البوذي البذيء في وصفها بأنها «عاهرة». وعندما أصدرت المبعوثة الأمميّة تقريرها الذي يطالب بالتحقيق مع كبار ضبّاط الجيش في ميانمار بتهمة الإبادة الجماعيّة، وبدأت المحكمة الجنائيّة الدولية تحقيقها الأوليّ، خرج هذا الراهب مرّة أخرى للصراخ بين الجماهير قائلًا «عندما يصل وفد المحكمة إلى هنا سيكون هذا هو اليوم الذي أحمل فيه السلاح»[(1)]!



عنصر من الجيش يتأمّل في قرية للروهينغيا بعد تدميرها بالكامل

تفاصيل المأساة قد تكون معروفة لديك عزيزي القارئ، ففي عام 2017 أحرق المتطرّفون قرى كاملة للروهينغيا، وتسرّبت قصص مروّعة للقتل والاغتصاب أمام عيون السلطات، وهُجِّر نحو مليون مسلم نحو بنغلاديش على يد الجيش نفسه، وما زال الكثير من هؤلاء المنكوبين يعيشون في خيام وملاجئ تملأ الأفق، وكلّما

(1) سواميناثان ناتاراجان، من هو بن لادن البوذي؟، موقع بي بي سي عربي، 4 يونيو 2019.

حاول بعضهم الفرار في قارب متهالك باتجاه ماليزيا أو تايلاند أو أستراليا نقلت لنا وسائل الإعلام قصصًا مرعبة لمآسيهم، ما بين الضياع شهورًا في البحر، أو تعرّضهم للطرد والضرب على يد أي سلطة تتلقّاهم على شواطئها.

والعذر المكرّر دائمًا هو الخوف من الإسلام نفسه، وليس مكافحة التحرّش والاغتصاب والإرهاب، ولا الذعر من تكاثر المسلمين كما «تتكاثر بعض الحيوانات»، ولا القلق على تلاشي الهويّة البوذية، فنسبة المسلمين في ميانمار لا تصل إلى 5٪ من السكان الذين يتجاوز عددهم الخمسين مليونًا، وهم كالنعاج وسط غابة من الذئاب التي لا ترحم.

خوف الصين العظيم

سبق أن أشرت في مواضع عدة من هذا الكتاب إلى الوحشيّة الاستثنائيّة التي يقدّمها لنا النموذج الصينيّ في صورة الدولة الشموليّة الحديثة، ولا أنوي تكرار الطرح مجدّدًا، بل سأتناوله من المنظور الذي يلائم السياق، فلا يمكن أن نتحدّث عن الخوف من الإسلام دون التوقّف عند هذا النموذج الفريد.

الصين كأي دولة شموليّة، تتخذ من الاستغباء منهجًا ثابتًا في أي خطاب موجه للآخر، سواء داخليًّا أو خارجيًّا. هي طبعًا مهتمّة للغاية بصورتها في الخارج، دون أي اكتراث للداخل، لكن المشترك في الخطابين هو طرح الأكاذيب الممنهجة (**البروباغاندا**) بثقة تامة، مع توقّع أن يصدّق الآخرون دعايتها تحت ضغط المصلحة أو الإبهار والتأثير الخفيّ.

ربما تكون كوريا الشماليّة نموذجًا لا يطمح إلى مقاربته أي دكتاتور في هذا العصر، وهو نموذج سبق أن تعرّضت له، لكن الصين ليست منغلقة على نفسها ولا تنوي الانكفاء كما في السابق وراء سورها العظيم، بل تطرح نفسها في صورة التنّين القادم من الشرق لغزو العالم، ومن الضروريّ أن تلقى الترحيب الكافي أينما حطّت رحالها.

مع ذلك، لم يفكّر الحزب الشيوعيّ الصينيّ حتى الآن بتلطيف منهجه في قمع **الأويغور** المسلمين بإقليم **شينجيانغ** (تركستان الشرقية)، ولست بصدد بحث خياراته التي كان

يمكنه اللجوء إليها بدلًا من إقامة معسكرات جماعيّة لإكراه الناس على قلب هوياتهم تحت طائلة الخوف، فما يهمّنا هنا هو السبب الذي يدفع دولة عظمى إلى ارتكاب جرائم بهذه البشاعة، والمخاطرة بصورتها في الوقت الذي تغازل فيه العالم لتتوسّع فيه. أليس هو مجدّدًا الخوف من الإسلام؟ أليس هو خوفها العظيم؟

ولكن يبدو أن الصين، تلك القوة النوويّة والاقتصادية العظمى، تخاف من المسلمين العزّل أكثر من خوفها من تشوه صورتها في هذه المرحلة الحسّاسة جدًّا من تاريخها، فكل جهودها الدبلوماسيّة في الدفاع عن نفسها باءت بالفشل، وربما لم يبقَ أحد في العالم لم يسمع بأسلوبها الساذج في اضطهاد **الأويغور**.

التقارير والأفلام الوثائقية والبيانات الصحفيّة والحقوقيّة تلف العالم لفضح الطغيان الصينيّ الذي يبدو أقرب للخيال، وسأكتفي بالاستشهاد بفيلم وثائقيّ أنتجته قناة الجزيرة الإنجليزيّة عام 2019 بعنوان «**لا يوجد مكان آمن للاتصال بالمنزل**» Uighurs: Nowhere To Call Home، حيث التقى صانع الفيلم بالعديد من الأويغور الهاربين إلى تركيا، ومنهم المدرّس عبد الله أيّوب الذي بكى وهو يتحدث عن تعرّضه للاغتصاب الجماعيّ في أول تجربة له في السجن، ثم سرد تفاصيل مؤلمة عن التعذيب أثناء احتجازه 15 شهرًا.

في الفيلم نفسه تجرّأت أيضًا سيدة كازاخستانيّة على الظهور لتروي معاناتها العجيبة، فمع أنها ليست من الصين أصلًا، ودخلت إقليم تركستان الشرقيّة بهدف التجارة، كما اعتادت أن تفعل منذ سنوات، فقد اعتقلوها واتهموها بأنها تدعي لنفسها جنسيّة أخرى كي تنجو من العقاب، ثم جربت بنفسها من الفظائع ما اعتدنا على سماعه من ممارسات الأنظمة الوحشية في بلادنا.

الصين تصر دائمًا على إصدار تقارير تلفزيونيّة مضحكة تظهر لنا كيف يتعلّم المسلمون الأويغور داخل «**معسكرات إعادة التأهيل**» الطريقة المثلى لتحوّلهم من إرهابيّين إلى مواطنين صالحين، أي كيف أصبحوا يتحدّثون باللغة الصينيّة بدلًا من لغتهم

التي تُكتَب بحروف عربيّة، وكيف صاروا يدينون بالولاء للأمّة المقدّسة وحزبها الشيوعيّ الملحد، ثم كيف تخلّصوا من حشمتهم وحيائهم وانطلقوا للرقص بكل سعادة أمام الكاميرات!

الخارجون من تلك السجون الوحشيّة يؤكدون أن هذا كلّه مجرد دعاية، وأنهم لم يروا الشمس طوال فترة سجنهم، فحتّى الصورة المغرقة في الحماقة التي تقدمها لنا الصين عن «**إعادة تأهيل**» شعب كامل ليست صحيحة، فمسخ الهوية يتمّ بالتعذيب هناك وليس في صفوف دراسيّة وقاعات رقص أنيقة!

والحقيقة التي باتت معروفة بالتواتر أن مدارس مسخ الهويّة مخصّصة للأطفال فقط بعد تفريقهم عن آبائهم، ففي تحقيق أعدّته قناة بي بي سي عام 2019 تأكد قيام السلطات الصينيّة بانتزاع الأبناء بعد وضع آبائهم وأمّهاتهم في المعسكرات التي لا يرون فيها الشمس، وأكّد مسؤول صينيّ للقناة أنّهم ينقلون هؤلاء الأطفال إلى مدارس داخليّة[1].

ونعود للتساؤل مجدّدًا، ما الذي يرعب حكومة دولة عظمى من أقلّيّة ما إلى درجة إجبار نسائها على تناول حبوب منع الحمل وإخضاعهنّ لعمليّات تعقيم قسريّة؟ وما الذي يخيفها حتى تعتقل كل **أويغوري** لديه أقارب في 26 دولة حول العالم وكل من اتّصل منهم بشخص في الخارج عبر تطبيق واتسآب؟ وهل يمكن أن يصل الخوف بأيّ حكومة إلى درجة مصادرة جميع المصاحف وسجّادات الصلاة والمتعلّقات الدينيّة من منازل الناس مقابل التهديد بالعقوبة؟ وما هي العقليّة التي قرّرت وضع مليون رجل وامرأة -على أقلّ تقدير- في حوالي 400 معسكر منتشر في أرجاء الإقليم؟[2]

في الفيلم الوثائقي الذي أنتجته الجزيرة، يقول أحد الناشطين الأويغور إنهم لن يرضخوا وسيقاومون هذه الحملة الوحشيّة لتشويه هويتهم، فيسأله صانع الفيلم أليس هذا دليلًا على انشقاقكم عن الحكومة؟ فيجيبه بأنهم لم يفكروا بذلك طوال عقود، إذ كانوا

(1) مسلمو الإيغور: من هم و ما الذي يتعرضون له في الصين؟، موقع بي بي سي عربي، 5 نوفمبر 2020.
(2) المرجع السابق.

يعيشون بسلام دون اصطدام بالحكم الشيوعي ودون إعلان التمرّد عليه أو حتى رفضه، لكن السلطات هي التي قرّرت فجأة أن هذا الشعب بات يمثل خطرًا ويجب تأديبه وفكّ ارتباطه بتاريخه وهويته.

الأويغور شعب تركي تاريخيًّا وثقافيًّا وعرقيًّا، وينتمي لشعوب آسيا الوسطى، والصين احتلّت بلادهم وضمّتها إليهم دون رضاهم، وجعلت من تركستان الشرقيّة الإقليم الصينيّ الأكبر تحت اسم شينجيانغ، ومع أن القانون ينصّ على تمتّعهم بالحكم الذاتي مثل التيبت (معقل البوذية) لكن الواقع يؤكد العكس تمامًا.

عشرات الأفلام المصوّرة بهواتف محمولة تنتشر حول العالم لتثبت أن الإبداع الصينيّ يتعطّل تمامًا على أعتاب الخوف من الإسلام، منها مثلًا اقتحام عناصر الشرطة لمنازل الأويغور وتحرّشهم بالنساء أمام أزواجهن لاكتشاف مدى وطنيّتهم التي لا تتحقّق بدون التخلّص من فطرة الغيرة، ومبيت عناصر الشرطة في منازل النساء اللاتي اعتُقل أزواجهن كي تتحقّق الحكومة من اقتناع المرأة المسلمة أن الشرطيّ الصينيّ أولى بالثقة من زوجها المسلم!

في حلقة صورها رحّالة عربيّ وبثّها على موقع يوتيوب، يتجول الشاب في شوارع وأسواق مدينة **أورومشي** بتركستان الشرقية خلال نهار رمضان، باحثًا عن أي ملامح للإسلام المقموع، فلا يرى إلا مساجد مغلقة، وشرطة سرية متنكرة بملابس مدنيّة في كل زاوية لتلاحقه وتسأله عمّا يفعل، وهو يقارن بين ما وثقه بعدسته في 2019 من اختفاء تام لكل مظاهر الإسلام وما وثّقه بنفسه في المدينة قبل سنتين من جموع المصلّين التي تملأ المساجد التاريخيّة الجميلة.

وعندما يعجز الرحالة عن اكتشاف أي ملمح يدل على أنّ الإسلام قد مرّ من هناك، يسأل عاملًا من الأويغور في أحد المطاعم: هل أنت صائم؟ فيصاب العامل بالفزع ويتظاهر بأنه لم يفهم، ثم يتحرّك خطوتين باتجاه وعاء الأرز الذي يبيعه، ويتناول منه لقمة بحركة

استعراضية لينفي عن نفسه تهمة الصيام التي قد توثقها الكاميرا فتأخذه إلى ما وراء الشمس![1]

خوف على المسلمين أم منهم؟

الإسلام ليس كائنًا مشخَّصًا، وليس موجودًا عينيًّا كما نعلم. هو عقيدة مجرّدة توجد بوجود من يعتقد بها ويؤمن بها ويدافع عنها، ووجودها ظل متذبذبًا على امتداد وجود المكلّفين من الجن والإنس، فتارة يكاد الإسلام يختفي، وتارة يتجدّد وينتعش ببعثة الأنبياء، وقد يقوى وتصبح له شوكة ودولة بسواعد وتضحيات المؤمنين به.

ومع أن الإسلام لقي الكثير من الرفض في بداية بعثة آخر الأنبياء، وربما خشي النبي ﷺ نفسُه من ألا تحقّق دعوته غايتها في البداية، فوقف يدعو قبيل الوقعة الأولى في أرض بدر: «اللهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللهمّ آت ما وعدتني، اللهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض»[2].

وقد أنجز الله وعده فأنزل عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، وبلغت الرسالة غايتها ومكّن الله المسلمين من أكبر الممالك على الأرض، ثم بدأ التراجع كما وعد النبي ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريّة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت».[3]

(1) حلقة بعنوان «وين اختفوا مسلمي الصين؟ الإيغور»، قناة Joe HaTTab في موقع يوتيوب، 27 مايو 2019.

(2) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، برقم: 1763.

(3) أخرجه أحمد في مسنده عن النعمان بن بشير، وكذلك الطيالسي والبيهقي، وصححه الألباني وحسنه الأرناؤوط

وكما ذكرتُ في فصل سابق، فالراجح اليوم أننا في مرحلة المُلك الجبري، أي الأكثر ظلمًا وقهرًا وجبروتًا وطغيانًا من المُلك العضوض الذي ظهر مع بدء الملك الوراثيّ، وانتهى بسقوط السلطنة العثمانيّة، وستعود الخلافة يقينًا بإذن الله في آخر الزمان.

حاول العديد من العلماء المسلمين استعادة الخلافة فور سقوط العثمانيّين قبل قرن تقريبًا[1]، فبادر الشيخ المصريّ **حسن البنّا** بتأسيس جماعة دعويّة إصلاحيّة سياسيّة سمّيت بالإخوان المسلمين، وسرعان ما انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي الذي بات مقسّمًا وتحت الاحتلال الأجنبيّ المباشر، ثم توالت المبادرات، مثل مشروع الشيخ **أبو الأعلى المودوديّ** في الهند وباكستان، ومشروع **حزب التحرير** الذي انطلق من بلاد الشام، ووصولًا إلى الحركات الجهاديّة التي حملت السلاح، وحتى أعلنت إحداها «**خلافة**» دمويّة في العراق والشام لم تستمرّ طويلًا، ودُمِّرت بسببها أحلام الثائرين ضدّ أنظمة الطغيان.

ولو سألتك عزيزي القارئ عما تراه حولك اليوم من حال المسلمين، فلا أظنّ أن الجواب سيختلف كثيرًا أينما كان مكانك، وربما أسمع ما يتردّد في خاطرك من أنّنا لم نصل من قبل في تاريخنا إلى مثل هذا الحال من الضعف والتشرذم، فالجماعات التي كانت تسعى لاستعادة الخلافة لم تعد مُجرّمة في الغرب فقط، بل باتت تُصنف إرهابية في بلاد المسلمين اليوم بعدما استشعر الحكام خطرها على عروشهم.

وخلال عمر الثورات التي شهدناها في «**الربيع العربي**» الذي لم يزد عن عقد واحد، أعاد الإعلام الموجَّه تشكيل عقول ملايين البشر، وسقطت شعبيّة تلك الجماعات نحو الحضيض في زمن قياسي، لا سيما بعد فشلها في تحقيق أهدافها، أو حتى في حماية نفسها

(1) قد نوافق على تداول مصطلح «الخلافة العثمانية» على اعتبار أنها كانت الدولة الوحيدة التي تحمي حمى الإسلام وتفتح الفتوحات وتقيم الشريعة، مع كل ما شابها في مراحل عديدة من شوائب، لكن التحقيق المستند إلى تقسيم التاريخ الإسلامي إلى مراحل الخلافة ثم الملكين العضوض والجبري لا يسمح لنا بهذا الإطلاق إن توخّينا الدقة، لا سيما إذا أخذنا أيضًا برأي من يحصر الخلافة بقريش، إذ لم يكن العثمانيّون من العرب أصلًا، وكان ملكهم وراثيًّا كالذي سبقه.

من الانقلابات والعودة إلى ما دون مربع الصفر، وهو ما يراه الكثير من الشباب الثائرين خيانة لأحلامهم الكبرى.

وليت شعري ماذا كان الشاعر محمود غنيم (توفي عام 1973) سيقول لو شهد حالنا اليوم؟ وهو القائل قبل عقود:

إني تـــذكّرتُ والـــذكرى مُؤَرِّقـــةٌ	مجـــدًا تليـــدًا بأيـــدينا أضـــعناه
ويحَ العروبة كان الكونُ مسرحها	فأصـــبَحت تتـــوارى في زوايـــاه
أنَّـى اتجهـتَ إلـى الإسـلام في بلـد	تجـدْهُ كـالطير مقصوصًـا جناحـاه
كـــم صـــرّفَتْنا يـــدٌ كنّـــا نصـــرِّفها	وبـــات يملكنـــا شـــعبٌ ملكنـــاه

لقد كان هنتنغتون صريحًا -كما ذكرتُ سابقًا- عندما تخلّص من عبء الدبلوماسيّة ومجاملات التسامح الليبراليّ، وشدّد على أن الغرب لن يقبل بعودة النموذج الإسلاميّ لينافسه، فحقُّ تقرير المصير الذي تتغنّى به مبادئ الشرعة الدوليّة وشعارات العولمة تتوقّف عند عتبات الشريعة الإسلاميّة.

وسأذكّر لك عزيزي القارئ هنا مثالًا يغنّي عن أي بيان، ففي جزء من جزيرة **بورنيو**، ما بين إندونيسيا وماليزيا، تقع مملكة صغيرة للغاية تدعى «**سلطنة بروناي**»، ولو لم تكن غنيّة بالنفط ويحكمها سلطان يتباهى بثرائه الفاحش ما كان سيسمع بها معظم الناس.

في عام 2013 أعلن سلطان بروناي **حسن البلقيه** المصادقة على قانون يسمح بتطبيق الشريعة الإسلامية في القانون الجنائيّ خلال ستّة أشهر، وذلك بعد نقاشات استمرّت عدّة سنوات.

ومع أنّنا نتحدّث عن بلد صغير للغاية، بالكاد يبلغ عدد سكانه 437 ألف نسمة تقريبًا، ومع أن تطبيق الشريعة سيقتصر على المواطنين المسلمين فقط الذين تبلغ نسبتهم إلى بقية السكّان 78٪ تقريبًا[1]، أي أنّ عدد الذين سيخضعون لقوانين الشرع الإسلاميّ يبلغ

(1) Muslim Population by Country, worldpopulationreview.com

حوالي 355 ألفًا فقط، وهو أقل بسبع مرّات من عدد سكان حيّ **بروكلين** وحده في مدينة نيويورك. مع ذلك كله، انتفض العالم الغربي كله لهذا الخبر، ولم تبق وسيلة إعلام تقريبًا إلا نقلت لنا تصريحات كبار المسؤولين للتنديد بالقرار، ولم يفكر أحد منهم بحق هذه الدويلة في تطبيق القانون الذي تريده استنادًا إلى ثقافتها وعقيدة شعبها.

لم يقتصر التنديد على الحكام الذين يتحركون بعقلية المصالح والصراع الاستراتيجيّ كما شرحها لنا هنتنغتون، بل كان الحقوقيّون في المقدمة، إذ اعتبرت منظمة «**هيومن رايتس ووتش**» مثلا أن **بروناي** «كشفت عن وجهها الإقطاعي كدولة تعود إلى القرن الثامن عشر أكثر من كونها عضوًا مهمًّا في جنوب شرق آسيا في القرن الحادي والعشرين»، ووصفت تطبيق الشريعة بأنه أمر «مُشين تمامًا وغير مبرر»[1]!

وإذا سألتني عزيزي القارئ عن السبب الذي يدفع الحقوقيّين إلى التصريح بأن تطبيق شريعة الإسلام -وهو دين يؤمن به أكثر من مليار إنسان- أمر «مشين»، فالسبب هو اعتناق الليبراليّة العولميّة عقيدة أشدّ أصوليّةً من الإسلام وكل الأديان الأخرى، فهي تؤمن إيمانًا راسخًا بأن مبادئ حقوق الإنسان أكثر صلابة من الشرائع الدينيّة، وعليه فإن حكم إعدام القاتل وقطع يد السارق وجلد شارب الخمر ورجم ممارس الزنا واللواط تعدّ في شريعتها المقدسة جرائم أكثر بشاعة بكثير من القتل والسرقة، أما شرب الخمر وممارسة الجنس بأي شكل (ما لم يكن اغتصابًا) فهي حسب الشريعة الليبراليّة ليست جرائم ولا محظورات ولا منكرات أصلًا.

ما حدث بعد ذلك كان موافقًا لتوقّعات الكثيرين، إذ أجّل السلطان تطبيق القرار بضع سنوات، وفي مارس 2019 أعاد السلطان إعلان تطبيق الشريعة، وخلال دقائق، ولا أقول أيامًا، بدأت الحملات الغربيّة ضد الدويلة التي كان العالم قد نسي موقعها على الخريطة.

لم يضيّع النقّاد وقتهم في مناقشة القرار وحيثيّاته، بل تمّ التركيز على أمر واحد فقط وهو «حقوق المثليّين»، إذ كان العالم قد تم تطبيعه بنجاح مع هذه الحقوق، وأصبح كل من

(1) سلطنة بروناي تعتمد الشريعة الإسلامية بشكل تدريجي، موقع dw العربي، 22 أكتوبر 2013.

يرى أن «المثليّة» أمر خارج عن الفطرة مجرمًا بحكم القانون في دول عدة. لذا أصبح من البدهي إطلاق حكم النفي إلى خارج منظومة الحضارة على من يفكر -ولو مجرد فكرة- بأنّ من يمارس هذا الفعل يستحق أن يُطبق عليه أي عقاب.

وكما هو متوقّع، طالبت الدول الغربية على الفور بضرورة فرض عقوبات على بروناي، ومنها تقييد تأشيرات السفر، وكذلك فرض عقوبات على استثمارات السلطان في الدول الأوروبية.

لم يكتف السياسيّون بالنقد كي لا يظلّ الأمر محصورًا في أروقة الصراع الاستراتيجي، بل تفرّغ مشاهير هوليود للمشاركة في حملة مقاطعة الفنادق التي تملكها وكالة بروناي للاستثمار التابعة للسلطنة، وكان من أشهرهم وأكثرهم حماسًا الممثل الأمريكي **جورج كلوني**، ومع أن شركة الفنادق حاولت التبرّؤ وإثبات أنها ضد «**التمييز**» لكن هذا لم ينفعها، فالعالم كله يقف على ساق واحدة عندما يُذكر مصطلح «**حقوق المثليّين**»، وخصوصًا إذا كان الطرف الآخر في القضيّة «**سلطان مسلم**»**!**

حاولت بروناي الصمود قليلًا، وأرسلت خطابًا إلى الأمم المتحدة تعلن فيه تمسّكها بحقّها في تطبيق الشريعة، لكن الضغوط كانت أقوى، وسرعان ما أعلنت التراجع عن قرارها مرة أخرى![1]

ولعلك تتساءل عزيزي القارئ: ما الذي يضرّ الدول الكبرى في تطبيق الشريعة على بقعة صغيرة لا تكاد تُرى على خريطة العالم؟ وهل حكام الغرب مهتمّون حقا بالمثليّين في بلاد المسلمين ويخشون على حياتهم وحرّيّتهم؟ وهل يخشون على حياة بقية المسلمين بالدرجة نفسها؟

وأنا أقول: هل يشكّ عاقل بأنّ الأمر لا علاقة له بحقوق المسلمين أيًّا كانت ميولهم الجنسيّة، بل هو الذعر من النموذج الإسلاميّ، فإن تجرّأت دويلة صغيرة على تطبيق

(1) «من التطبيق للإلغاء».. القصة الكاملة لرحلة سلطنة بروناي مع الشريعة، صحيفة أخبار اليوم، 6 مايو 2019.

الشريعة اليوم فقد تفكر دول أخرى بالمطالبة بحقّها في ذلك لاحقًا، والغرب ليس مستعدًّا للقبول بذلك حتى لو كان مقتصرًا على السكّان المسلمين داخل حدود بلادهم.

أليس مضحكًا أن ينشغل القادة السياسيّون والإعلاميّون والحقوقيّون ونجوم هوليود بحقوق المثليّين والمرأة تحديدًا في بلاد المسلمين؟ فبينما كانت طائراتهم تقصف مجتمعات كاملة -بما فيها من مثليّين ونساء- في أفغانستان والعراق، كانت المطالبات مستمرّة بتمكين هاتين الفئتين تحديدًا من ممارسة أي شيء يسمى حقوقًا طالما كان يتعارض مع الإسلام.

خذ مثلًا الفتاة الباكستانيّة **ملالا يوسفزي** التي تتحدّر من عائلة كانت تدير سلسلة مدارس في منطقة **وادي سوات**، قبل أن تحاول حركة «طالبان باكستان» السيطرة عليها. إذ كتبت في أوائل سنة 2009 -عندما كان عُمرها 12 عاما- تدوينة لموقع قناة بي بي سي عن حياة النساء هناك، فاحتفى بها الإعلام الغربي على الفور، وأصبحت وجها إعلاميًّا عالميًّا، إلى درجة اقتراح القس الجنوب أفريقي **ديزموند توتو** الحائز على جائزة نوبل للسلام أن تُمنح جائزة السلام الدولي للأطفال، مع أنها لم تكن داعية للسلام أصلًا.

وعندما شعرت حركة طالبان باكستان بالخيانة، حاول أحد مسلّحيها قتل **ملالا** بإطلاق الرصاص على رأسها، لكن الله قدّر لها أن تنجو، وبالطبع انتقلت شهرتها بذلك إلى مرحلة كونيّة.

لم يتوقّف أحد تقريبًا عند البيان الذي وقّعه خمسون من شيوخ باكستان ضد محاولة اغتيال الفتاة، ولم يحاول أحد أن يسمع مطالب المجتمع القبليّ المحافظ في تلك المنطقة التي تعاني أساسًا من الفقر، فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يجذب الصحافة الغربية إلى جبال سوات هو وضع المرأة هناك.

تخيّل الآن عزيزي القارئ هذه الفرصة: فتاة مسلمة تعتبر طفلة في التصنيف الغربي (تحت الثامنة عشرة)، لديها مهارات كافية للظهور الإعلامي، وتتمتع بخلفيّة ثقافيّة غربيّة جيدة، وقد نجت للتوّ من محاولة اغتيال على يد «**الإرهاب الإسلامي**». هل يمكن للعالم أن يفوّت جائزة كهذه؟



في مطلع 2013 أكدت قناة دويتشه فيله الألمانية أن **ملالا** أصبحت «المراهقة الأكثر شهرةً في العالم»[1]، وبعد بضعة أشهر كانت **ملالا** تلقي كلمة في مقرّ الأمم المتّحدة للمطالبة بدعم التعليم، ثم استقبلها كبار الرؤساء والزعماء حول العالم، ووضعتها مجلة تايم ضمن قائمتها المئويّة لأكثر الأشخاص تأثيرًا في العالم ثلاث سنوات متتالية، كما حازت على الجنسيّة الكنديّة الفخريّة، ثم على دكتوراه فخريّة أيضًا، ولم ينته عام 2014 إلا وهي تضيف إلى قائمة الجوائز والميداليّات والتكريمات جائزة نوبل للسلام، وليس جائزة السلام الدولي للأطفال التي رشحها لها **توتو**، إذ لم يمنعها تصنيفها في فئة القاصرين (17 عاما آنذاك) من أن تنال شرف لقب أصغر حاصل على جائزة نوبل في تاريخها!

لا حاجة للقول إننا لا نبرّر ما تعرضت له **ملالا** من أذى، ولسنا في المقابل بحاجة للإشارة إلى أن حجم اهتمام الغرب بهذه الشخصيّة لا يتناسب أبدًا مع اهتمامه بأي قضيّة أخرى تمسّ الحاجات الملحّة للبشر في باكستان!

في عام 2015 قدّم المخرج الأمريكي اليهوديّ **ديفيس غوغنهايم** -الذي سبق أن حصل أحد أفلامه على الأوسكار- فيلمًا وثائقيًّا بعنوان «**سمّاني ملالا**»، ووصل أيضًا لقائمة ترشيحات الأوسكار المبدئيّة. ونجح المخرج في هذا الفيلم بصناعة أسطورة ملائكيّة اسمها **ملالا**، وكأننا أمام قديسة كُتب لها قبل أن تولد حمل رسالة عظمى للبشريّة!

المهم في هذا السياق أن المخرج عرض علينا آراء عيّنة من الباكستانيين في الشارع، فكلهم كانوا يرون في هذه «**القديسة**» عدوا لبلادهم وثقافتهم، وكأن المخرج يقول لنا إن

---

(1) Kyle McKinnon, Will Malala's Influence Stretch to Europe?", Deutsche Welle, 18 Jan 2013.

رأي الشارع المسلم نفسه تحت أقدام الغرب، وإن المجتمع هو الذي تجب مواجهته وتطويعه وليست حركة طالبان فقط.

ولكن، ماذا عن حياة النساء والأطفال الذين تطالب **ملالا** برعاية حقهم في التعليم؟ هل تدخّل الطائرات المسيّرة الأمريكية لقصف طالبان أدّى في النهاية إلى إنقاذ أرواح هؤلاء من الموت أم العكس؟

في السنة نفسها التي شهدت تحول **ملالا** إلى أسطورة، أكدت منظمة «**نيو أمريكا فاونديشن**» -نقلًا عن تقرير مسرّب للحكومة الباكستانية- أنّ واحدًا من بين كل خمسة ضحايا للغارات الأمريكيّة في باكستان من المدنيّين[1].

الواقع يؤكد أن حياة المرأة المسلمة لا تهمّ صانع القرار الغربي، ولكن إذا بقيت حيّة فعليها أن تنخرط في الثقافة النسويّة الغربيّة، وهذا الانخراط ليس مجرّد مشروع ثقافيّ تعمل عليه منظّمات اليونسكو واليونيسيف، بل هو بند أصيل في مشاريع الحرب والسلام، وإليك فيما يلي شاهد آخر.

بعد ثلاثة أيام من تولي **جو بايدن** السلطة في البيت الأبيض مطلع عام 2021، تحدّث مستشار الأمن القوميّ الجديد **جيك سوليفان** عن خطة إدارة بايدن للتعامل مع الملف الأفغانيّ والاتفاق الموقع مع طالبان، وكان من بين ما قاله إن «**حماية المكاسب الاستثنائية التي حققتها النساء والفتيات والأقليات الأفغانية جزء من عملية السلام**»[2].

الأمر واضح وليس مخطّطًا سريًّا، فمشروع مساواة المرأة بالرجل وفقًا للفلسفة النسويّة هو ركن أساسي في «**عملية السلام**»، وتحقيقه محميّ بقوة السلاح.

في عام 2016 كتبت الأكاديمية الباكستانيّة **بينا شاه** مقالًا تندّد فيه برؤية الغرب للنساء في أفغانستان، ونقلت عن الباحثة الأفغانية التي تعد لدرجة الدكتوراه في كندا **سبوغماي**

(1) نقلا عن وكالة الأنباء الألمانية، 24 يوليو 2013.

(2) إستراتيجية بايدن.. واشنطن تراجع تصنيف الحوثي منظمة إرهابية والاتفاقية مع طالبان، موقع الجزيرة نت، 23 يناير 2021.

أكسير أن وصف الأفغانيات «**كضحايا سلبيات وكضحايا لثقافتهن، ولرجالهن، ولسياسة بلادهن**» ساهم في تبرير غزو بلادهن الذي تنكّر في هيئة بعثات إغاثة إنسانية، كما نقلت عن الباحثة **لينا أبيرافي** أن برامج المعونة تجاهلت حقيقة أنّ دعم النساء وحدهنّ وتجاهل الرجال أدّى إلى تعقيد وضع النساء بدلًا من الحل، وأنّ التركيز الشديد على تمكين المرأة يتسبب باستياء متزايد للرجال والنساء معًا، فحتى المرأة التي تسعى للتحرّر لم تعد ترغب في فرض التغيير من الخارج.

وأكدت الباحثتان أيضًا من خلال دراستهما للواقع أن المرأة الأفغانيّة غاضبة من إظهارها في الإعلام الغربيّ دائمًا في صورة تشبه الإماء، فهي ترى نفسها امرأة شجاعة تكافح إلى جانب الرجل، والإسلام مهمّ في حياتها، كما أنّ شرفها ركن جوهريّ في شخصيّتها[1]، وهذه أمور لا يحب أن يراها ناشطو حقوق الإنسان الذين يعتقدون أنهم جاؤوا من أقصى الأرض لإنقاذها، فهم ليسوا معنيين كما يبدو بتحقيق حقوق المرأة، بل تغيير **نمط حياة Life Style** هذه المرأة.

باختصار، المرأة الأفغانيّة والباكستانيّة -في الغالب- تريد أن يتحرّر بلدها من الغزو الأجنبّي، وأن يجد الرجال في بلدها فرص عمل لتعيش معهم حياة كريمة. هي تعاني حقًّا من قهر العادات السيّئة التي تتشدّد في حمايتها والغيرة عليها إلى درجة حرمانها من بعض حقوقها، لكن هذا لا يعني أنها تريد أن تتعرّى، أو أن تعمل كالرجال، أو أن يكفّ محارمها عن حمايتها وتدبير شؤونها. هي تريد أن يُطبّق الرجال شرع الإسلام ووصايا رسوله في حقّها، وليس تدخّل جهات أجنبيّة -عسكريّة أو مدنيّة- بذريعة منحها بعض حقوقها.

أليس منكم رجل رشيد؟

كي أكون منصفًا ما استطعت، لن أقصر رؤيتي على الجانب الفارغ من الكأس، فهناك الكثير من العقلاء في الشرق والغرب، وكثير من محاولات التصدي للرواية السائدة لتنميط

(1) Bina Shah, Afghan Women: What the West Gets Wrong, New York Times, 28 April 2016.

المسلمين والإساءة لدينهم، والأهم من ذلك أن هؤلاء لا يعانون من عقدة «**الخوف من الإسلام**».

ففي الهند تندّد الصحافة والكثير من الناشطين الليبراليّين بتطرّف الحكومة التي يقودها القوميّون المتعصّبون، وتُوجّه للشرطة انتقادات كثيرة لانتهاجها أسلوب القمع والتمييز ضد المسلمين، وفي ميانمار أيضًا هناك أقلّيّة من النقاد الذين لا تعجبهم إدارة زعيمتهم **أونغ سان سو تشي** لملف الروهينغيا، وقد خسرت جزءا من شعبيّتها بعدما كانت بطلة قومية، ليس لفشلها فقط بل لأنها أظهرت وجهها العنصريّ الذي لم يكن معروفًا من قبل.

ولا أغفل الانتقادات المتكررة في الغرب لحكومات الهند والصين وميانمار، كما لا أنسى أن البرلمان الأوروبي أقصى الزعيمة البورميّة من «**مجموعة حائزي**» جائزة **ساخاروف الحقوقيّة** المرموقة بعد عشر سنوات من فوزها بها[1]، بينما ردّت لجنة جائزة نوبل على المطالبات بسحب الجائزة من **أونغ** بأن قوانين الجائزة لا تتضمّن هذا الإجراء في حال صدور تصرّفات من الفائز تتعارض مع استحقاقه السابق لها.

وفي أواخر 2019 بدأت المحكمة الجنائيّة الدوليّة النظر في دعوى أقامتها منظمة التعاون الإسلامي -وبدعم كندي وهولندي وبريطاني- ضد ميانمار بتهم الإبادة الجماعيّة للمسلمين، وذهبت أونغ بنفسها إلى لاهاي لتدافع عن بلدها وتنفي التهم[2]، وبعد نحو شهر تبنّت المحكمة بالإجماع «**تدابير مؤقتة**» تطلب من ميانمار منع الإبادة الجماعيّة واتخاذ خطوات للحفاظ على الأدلة. ومع أن القرار لم يكن -في رأيي- موافقًا للتطلّعات، قياسًا إلى قرار اعتقال الرئيس السودانيّ السابق **عمر البشير** مثلًا بتهم مماثلة في دارفور، إلا أنّ صدور قرار كهذا قد يمنع على الأقل استمرار المجازر[3]، حتى لو ظلّت الزعيمة وضبّاطها المجرمون خارج نطاق المحاسبة.

(1) وكالة الصحافة الفرنسية (فرانس برس)، 10 سبتمبر 2020.
(2) في وجه اتهامات بالإبادة الجماعية: زعيمة ميانمار تدافع عن بلادها في محكمة العدل الدولية، موقع الأمم المتحدة news.un.org، 11 ديسمبر 2019.
(3) محكمة دولية تحكم ضد ميانمار بشأن الروهينغا، موقع منظمة هيومن رايتس ووتش hrw.org، 23 يناير 2020.

أضف إلى كل ما سبق جهود الحقوقيّين الغربيّين التي لا تتوانى عن التنديد بانتهاكات اليمين المتطرف وظاهرة «**الإسلاموفوبيا**»، فمع أنّ الكراهية تشهد تصاعدًا مؤسفًا في العقود الثلاث الأخيرة، أي منذ انتهاء الحرب الباردة، ثم تصاعدًا صاروخيًّا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنّ الرأي المضاد والمدافع عن حقوق المسلمين بصفتهم أقلّيّة مستضعفة لم يكن موجودًا بمثل قوّته الحالية.

وإذا نظرتُ للجانبين معًا برؤية متوازنة، وحاولت الحصول على صورة كاملة، فلا يمكنني التفاؤل كثيرًا بمستقبل أفضل إن لم ينحدر باتجاه الأسوأ، ولا يلزم من هذا الواقع أن نتشاءم بقدر ما يحثّنا على العمل والتمسّك بأي فرصة أمل، فالملام هنا ليس الآخر بالمطلق، بل يتشاطر المسلمون مسؤوليّة ضعفهم وانشقاق صفوفهم، إذ لا تكاد تجد جالية مسلمة في أي بلدٍ غربيٍّ قادرة على حلّ مشاكلها بنفسها، فضلًا عن أن تقدِّم صورة مشرقة للإسلام الذي ينبغي أن تحمل رسالته.

* * * *

الفصل التاسع
الخوف من الموت وما بعده

«سبحان من قهر عباده بالموت»، مقولة نسمعها كثيرًا، ونحسبها المشترك الوحيد بين البشر أيًا كانت مشاربهم وقناعاتهم، فلا يمكن لأحد أن ينكر حقيقة نهايته الحتميّة، والأسوأ من ذلك أنه لا أحد يعرف متى تحين ساعته، وحتى لو نُبِّئ بموعد إعدامه فليس بقادر على دفع الموت إن باغَتَه قبل ذلك، وأيًا كان سبب الموت فلن يملك تأجيله عندما تحشرج الروح مؤذِنة بالخروج.

لطالما كان الموت مصدر الخوف الذي يعكر صفو الحياة، وكأنه يطرق باب القلوب منذ بدء وعي الإنسان بذاته وبما حوله، فلا تطمئنّ نفسه لهذه الدنيا التي يعلم أنّه حتمًا مفارقها. وما بلغ الجبابرة فيها من الطغيان إلا حمقًا وسفَهًا، وكأن أحدهم يسابق الزمن ليجمع من حُطام الأرض ما استطاع إليه سبيلًا، ثم يوصي بدفن عظامه في أضخم الأضرحة وأكثرها هيبة.

مرّ بنا في فصل سابق ما زرع إبليس في عقول عبيده من غرور، حتى صدّقوه بأن المجد الذي نالهم منه في الدنيا سيمضي معهم إلى ما بعد الموت، فشيّد الفراعنة جبالًا من حجارة على هيئة أهرام ليدفنوا فيها، واستأثر بعضهم بمدافن فاخرة في وادي الملوك، وتركوا لنا في «**كتاب الموتى**» المدوّن على ورق البرديّ أحلامهم الفارغة بالخلود في ضيافة الشيطان، وكأني أراه واقفًا بينهم في جهنم صارخًا: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22].

وها قد ولّى زمن الفراعنة والأهرام والكهنة والسحر، وجاء زمن يرتدي فيه الكهنة ياقات بيضاء، ويمارسون سحرهم في المعامل والمختبرات. وصرنا نسمع من العلماء من

يقول جادًّا غير هازل إن الموت إهانة للبشرية التي بلغت مبلغها من العلم، وفيهم من يعزم حقًّا على البحث عن ترياق الخلود!

من يتحدّى الموت؟!

في الفيلم الوثائقي «**شباب للأبد**» Forever Young وهو من إنتاج قناة «بي بي سي» عام 2018، يبشّر كهنة العلم بأن الشيخوخة مجرد مرض، وبما أن الطبّ يجد كل يوم علاجًا للمزيد من الأمراض، فما الذي يمنع من إيجاد حل للشيخوخة إذن؟!

وفي فيلم آخر بنفس الاسم، بثّته شبكة «سي بي سي» الكندية عام 2015، يستبشر العلماء بتضاعف متوسط العمر الافتراضيّ خلال القرن الماضي، كما يحدّثنا المخرج عن شركة أمريكية تجمّد أجساد بعض الأثرياء الذين منحوها جثثهم، أملًا بأن تبقى هناك عقودًا ريثما «يكتشف العلم» طريقة تعيد لهم الحياة.

ويضع القائمون على الفيلم كل أملهم في التداخل المستقبلي المتوقع بين الروبوت والأعضاء البشرية، وفي تطوّر الذكاء الاصطناعي، فالوعي وفقًا لهذه الفلسفة المادّيّة ليس سوى إفراز طبيعي لتطوّر الجهاز العصبي، وثمة محاولات قديمة لتطوير أدمغة «القردة العليا» -وعلى رأسها الشمبانزي- كي تتمتّع بوعي البشر، وتصبح تمامًا مثلنا، تحلم وتتكلّم وتعي وجودها وتفكّر بأصلها ومصيرها وتخطّط لمستقبلها.

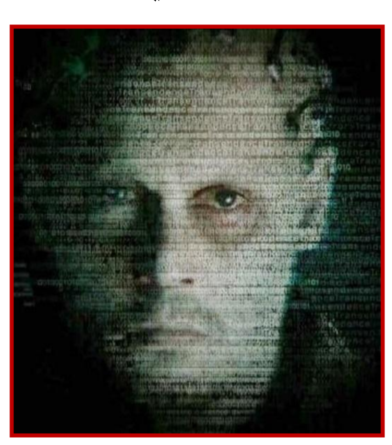


كما قدّمت لنا هوليود أكثر من فيلم لتجسيد قصة تطوّر القِرَدة في سلسلة تسمى «**كوكب القِرَدة**»، ففي النسخة القديمة للقصة كانت القردة الواعية مجرد سلالة تطورت أدمغتها وبقيت أجسادها كما هي، حيث يكتشفها روّاد فضاء من الأرض عندما تهبط مركبتهم على كوكب بعيد، ثم قفزت النسخة

الجديدة من الفيلم إلى مرحلة أخطر بافتراض تطوّر القردة على الأرض بفعل التكنولوجيا، ودخول هذه الكائنات الواعية في صراع دموي مع البشر!

في فيلم «**أليتا**» Alita: Battle Angel المنتَج عام 2019 بتكلفة باذخة قاربت 200 مليون دولار، لا يكاد الموت الذي نعرفه يشكّل أي مشكلة، فعندما يتلف الجسد لسبب ما يمكن الحفاظ على الدماغ واستعادة حياته، وهذا ما يقوله العلماء الحالمون في الوثائقيّ السالف ذكره، معتبرين أن كيان الإنسان يتلخّص في دماغه فقط، وبذلك يمكن ببساطة تركيب الرأس على جسد آليٍّ (روبوت) وبدء حياة جديدة، بل يتمتع هذا الجسد بليونة ولياقة وقوة أكبر بكثير مما كان لدى الجسد العضوي الميت، وهكذا يصبح الإنسان كائنًا خارقًا تتناغم فيه وظائف الآلة مع الخلايا العضوية في انسجام رومنسي جميل.

أما نحن فنقول إن الدماغ آلة، وكذلك القلب وبقيّة الأعضاء، ولا يمكن للدماغ أن يعمل من دون قلب، وللقلب دورٌ أعمقُ وأهمّ من ضخّ الدم إلى بقيّة الجسد، وهذا ما أثبته الطبيب **بول بيرسال** في كتابه «**شفرة القلب**» The Heart Code، متحدّثًا عن مشاهداته لما يطرأ على الإنسان من تغييرٍ نفسيٍّ ومعرفيٍّ بعد زراعة قلب شخص متوفى في جسده.



وفي فيلم آخر أنتج عام 2014 بعنوان «**التعالي**» Transcendence، يلعب النجم **جوني ديب** دور البطولة مجسّدًا شخصية عالم متخصص في الذكاء الاصطناعي، تُعاونه زوجته وفريق من زملائه على تحويل الوعي البشري إلى لغة برمجية يمكن تخزينها وتفعليها آليًّا، وعندما يموت هذا العالِم فجأة يقرر الفريق إجراء التجربة عليه بالتفاعل مع وعيه المخزّن في حواسب خارقة، وتحدث المفاجأة عندما يجدون أنفسهم بالفعل أمام صاحبهم وهو يحدّثهم عبر شاشة الحاسب بعدما صار في عداد الموتى. ثم تتوالى سلسلة المفاجآت

عندما يكتشفون أن الوعي أصبح بلا حدود، فيخرج من قيود دماغه الصغير إلى عالم واسع من الحواسب العملاقة.

وبالطبع، لا نسمع في تلك الأفلام الوثائقيّة ولا الخياليّة شيئًا عن الروح، فكهنة العلم المادي لا يرون في هذه الأجساد سوى تطور كمّيٍّ لخلايا حيّةٍ، ولا يحرجون أنفسهم في الإجابة عن سؤال النقلة النوعيّة لهذه المواد المعقّدة من الموت إلى الحياة عند بداية قصة الإنسان. ومع ذلك يبلغ الغرور بالعقول الملحدة حدّ الطمعِ في الإجابة عن أسئلة الموت والبعث والخلود، وهي عوالم غيبية لا تملك العقول الوصول إليها أصلًا، بينما لم تقترب خطوة باتجاه الإجابة عن أسئلةَ بَدءِ الحياة مع أنها في متناوَل اليد لتكرُّرها بين أيدينا كل يوم.

صدمة كهربائية، وبعض العقاقير، هذا ما يجود به الخيال العلمي في قصة **فرانكنشتاين،** التي كتبتها الإنجليزية **ماري شيلي** قبل نحو مئتي عام، إذ تخيّلت فيها عالِمًا يجمعُ أعضاء الجثث ليشكّل منها مخلوقه المخيف، ثم ينجح في بث الحياة فيه ليتحوّل إلى وحش قاتل، وما زالت صرخة الممثّل الذي قام بهذا الدور في أول تجسيدات القصة في هوليود: «**إنّه حي.. إنّه حي**» تداعب خيال الحالمين اليوم.

أما نحن المؤمنون بصدق الوحي فنعلم أن العلم مهما تطوّر فلن يملك كشف ألغاز الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 86]، هذا فضلًا عن الطمع بامتلاك الأرواح وتطويعها واستعادتها بعد مفارقتها للأبدان.

وبالعودة إلى المنظور اللاديني، يعترف **إريك فروم** -وهو عالم نفس ألماني أمريكي سبق استشهادنا بأفكاره- بأن الحضارات المؤمنة كانت متصالحة مع فكرة فناء الحياة الفرديّة، لأنها جعلت من الموت بداية لحياة أخرى سعيدة، ثم يقول متحسرا «أما حقبتنا فهي تنكر الموت بكل بساطة، وتنكر معه جانبًا رئيسيًّا من جوانب الحياة»[1].

هذه الكلمات تذكّرني بمشهد من المسلسل السوري «**هوى بحري**» (1997)، وهو عمل درامي قائم على رواية أدبية، عندما يقحم كاتب النص فلسفته الخاصة في موقف عابر،

(1) الخوف من الحرية، مرجع سابق، ص 197.

فيعرض لنا حلّاق القرية متحدثًا لزبائنه عن رؤيته للموت بأسلوبه الفكاهي، ويلخّصها بالقول إنه تغلب على خوفه الشخصي من الموت بحيلة بسيطة، وهي أن يتناساه، فيعيش تفاصيل حياته دون اكتراث لحقيقة النهاية الحتميّة، وبذلك يستمتع بحياته من غير قلق. وهذا بالضبط ما يبشر به «أنبياء» الحداثة وما بعد الحداثة، وهم يطالبون الفرد العادي بعد تجريده من معتقداته الدينيّة بألّا يفكر في الموت وما بعد الموت، وهذا كل شيء!

وبالطريقة نفسها يحدثنا اللاديني **زيغمونت باومان** عن حيلة الحداثة للتغلّب على هذا الخوف الفطري، وهي «**تهميش المخاوف المرتبطة بحتميّة الموت، عبر نزع قيمة أي شيء قد يتجاوز الحياة الفردية أو تفاصيلها المحددة، بل نزع قيمة التجارب التي تمثّل المادّة التي تصاغ منها فكرة الأبديّة لإثارة الانشغال بمكان الإنسان فيها**»[1].

يستشهد **باومان** بأمثاله من اللادينيين والملحدين، مثل **سيغموند فرويد ورولان بارت وجاك دريدا**، إذ تجمعهم الرؤية نفسها في النظر للموت باعتباره الفناء الذي لا يمكن إخضاعه للتجربة، فهو مخيف لأنه مختلفٌ عن كل ما جرّبناه، ولأنه المجهول الذي لا رجعه منه، ولأنه العدم الذي لا يحدث فيه شيء، ولا تدركه الحواس والوعي. لذا فإني أشفق على من لا يؤمن بالبعث عندما يُعمِل عقله في التكفير بحالة العَدَم التي يتوقّع قدومها في أي لحظة، فإذا كان قد تغلّب على خوفه لأنه يؤمن بأنه لن يكون واعيًا أصلًا بعدمه عندما يبلغ تلك المرحلة، فلا أصدّق زعمه بأن إيمانه بمصيره العَدَمي نفسه هو أمر لا يثير الرعب في حياته هذه قبل أن يصل إلى العَدَم، وأرى في استعجاله للاغتراف من ملذّات الحياة الاستهلاكيّة دليل واضح على تهرّبه من الشعور بهذا الرعب.

يعترف **باومان** -اللاديني- بأن أفضل «**الابتكارات**» فعاليّة ضد الموت هي رفض نهائيته، والإيمان بأنه مجرد مرحلة عابرة إلى حياة أخرى، فهو ليس نهاية الوجود، سواء كان ذلك بالبعث في عالم الآخرة، أو التناسخ في أجساد أخرى. كما يعترف بأن أبدية الروح

---

(1) الخوف السائل، مرجع سابق، ص 67.

تضفي على الحياة الدنيوية «**قيمة نفيسة لا نظير لها**»[1]، وكأنه يقول هنيئًا للمؤمن بلوغه الراحة التي لن ينالها الملحد واللاديني مهما أنكر وكابر.

في عام 1974، مُنِحت جائزة **بوليتزر** المرموقة لعالِم النفس الأمريكي **إرنست بيكر**، والمؤسف في الأمر أنه لم يفز بها إلا بعد شهرين من وفاته، أما اللافت في القصة فهو عنوان الكتاب الذي نال به الجائزة، وهو «**إنكار الموت**».

لم يحقّق بيكر في حياته نجاحًا مهنيًّا كبيرًا، وعندما علم بإصابته بسرطان القولون في أواخر الأربعينات من عمره قرر أن يكتب هذا الكتاب ملخِّصًا فيه تأمّلاته على فراش الموت، وربما لم يكن يعلم أنه سيُحدث صدمة كبيرة في حقول علم النفس والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) والدراسات الدينية بعد موته.

كان بيكر يرى أن الإنسان يتميّز عن الحيوانات بقدرته على التأمّل في ذاته، وكذلك التفكير في الماضي والمستقبل، وتصوّر واقع مفارق لتجاربه المألوفة، ولهذا السبب -حسب رأيه- فالإنسان يعاني من القلق عندما يدرك أنه سيموت، ويظل «**الخوف من الموت**» يلاحقه طوال حياته.

يقول أيضًا إن لكل منا نفس جسدية وأخرى متخيَّلة، والثانية هي التي تحمل أفكارنا وتصوراتنا عن ذواتنا، وعندما ندرك أن نفسنا الجسدية ستموت، ويبدأ الرعب بالتسلّل إلى قلوبنا، نسارع إلى التعويض عبر تنمية النفس المتخيّلة، وكأننا نسعى بذلك إلى تخليدها، فنهتم مثلًا بما سيذكره الناس عنا بعد موتنا، وقد نسعى -إذا كنا من المشاهير- إلى تسمية الشوارع والمباني بأسمائنا، أو نصْب صورنا وتماثيلنا في الأماكن العامة، مما يمنحنا الشعور بالأمان ونيل شرف الخلود المعنوي بعد الفناء الجسدي.

ويذهب **بيكر** إلى أبعد من ذلك عندما ينسب كل الإنجازات البشرية الكبرى لتلك النزعة الكامنة نحو الخلود في نفوس الشخصيات المؤثرة، أما الحروب والمجازر فيرى أنها

---

(1) المرجع السابق، ص 59- 60.

نتيجة اصطدام «**مشاريع الخلود**» بين المتنافسين الكبار، ويقول إن الحل لهذه الأزمة التي تتسبب بكوارث مدمِّرة يكمن في تقبّل الإنسان لحقيقة موته والتصالح معها، بدلًا من محاولة الهروب منها بتدمير الآخرين.

يلتقط كاتب أمريكي شاب هذه الفلسفة ويختم بها كتابه الذي تُرجم إلى لغات عدة، ومنها اللغة العربية، بعنوان «**فن اللامبالاة**»، معتبرًا أنها تدعم النصائح التي يقدمها لقرّائه ومتابعيه على أنها «**منهج غير مألوف لعيش حياة جيدة**»، وأعتقد أن هذه هي ذروة ما يمكن أن يصل إليه العقل اللاديني لتجاوز أزمته الوجوديّة، ففي هذا الكتاب المصنّف ضمن حقل «**التنمية البشرية**» أو «**المساعدة الذاتية**» لا تجد أثرًا يُذكَر للدين ووعد الآخرة، وبعد عشرات النصائح التي لا تخلو من الحكمة العمليّة للتخفّف من أعباء الحياة والرضا بما نسمّيه نحن قدَرًا، تأتي النصيحة الأخيرة بالتصالح مع حقيقة الموت للتغلّب على الخوف منه، من دون الاقتراب خطوة واحدة من دائرة الأسئلة الوجوديّة[1].

ولكن، السؤال ما زال ملحًّا بالضرورة، فهل هذا يكفي لتجاوز الخوف من الموت فعلًا؟ مؤلف «**فن اللامبالاة**» الثلاثيني يذكر لنا أنه استمتع بحياته حتى الثمالة، لقد شرب من الخمور وعاشر من النساء ما يكفي حتى لم يعُد يجدُ في المزيد أي لذّة، كما سافر إلى عشرات الدول وذاق من مُتَع الحياة وتجاربها ومغامراتها ما يتجاوز حدّ المفاجآت والبحث الفضولي عن ملذّات جديدة. هو يقرّ بأنه لم يبلغ حدّ القناعة والرضا إلا بعد الشبع والتخمة، وكأنه يقول إنه لم يصل إلى مراتب «الحكمة» التي تؤهله لتقديم نصائحه للبشر إلا بعد الخوض في وحل الملذّات، وإن على جمهوره من الشباب أن يخوضوا مثله قبل أن يرتعوا في جنة الرضا بنهاية المطاف!

حسنًا، وماذا عمّن لا يجد ما يشبع به ملذّاته؟ وهذا حال غالبيّة الشباب الذين لم يولدوا في الدول الغنيّة مثل صاحبنا، أيبقى لاهثًا وراءها كل حياته؟ ثم ماذا عن ملايين الشباب الذين بلغوا فعلًا مرحلة الإشباع وما زال الخوف يقضّ مضاجعهم؟

---

(1) مارك مانسون، فن اللامبالاة، ترجمة الحارث النبهان، منشورات الرمل، 2018، ص 241 وما بعدها.

ما الذي تقدمه لنا الحضارة المادّيّة اليوم في مواجهة قلق الموت بعد أكثر من أربعة آلاف سنة على تجربة **غلغامش**؟ أي البطل الأسطوري -وربما الحقيقيّ- في ملحمة بلاد الرافدين (العراق)، الذي يصاب بالذعر بعد مقتل صديقه البطل **إنكيدو**، فيبدأ جولته في الأرض بحثًا عن سر الخلود، ليجد أن العلاج الوحيد للخوف من الموت هو أيضًا التصالح معه!

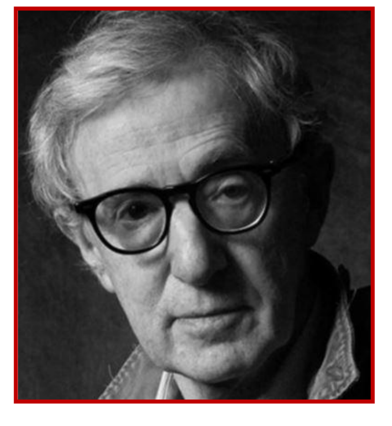
ملحمة **غلغامش** عمل نموذجيّ للأساطير الشيطانية، وهي الوجه المقابل لخطاب الوحي الإلهي في تناول الأسئلة الوجوديّة. القصة التي تُركت لنا على ألواح الطين تحكي قصة نزول **إنكيدو** إلى العالم السفلي، وتجسُّد الشياطين في هيئات الآلهة، وتنتهي من دون أن يقدّم إبليس إلى بني آدم سر الخلود الذي كان قد وعد به أباهم آدم عليه السلام في الجنة.

الخلود هو حلمنا منذ أيام أبينا الأول، والموت هو هادم اللذّات كلها[1]، ومنغّص الحياة، ومحطّم الأحلام. وليس في جعبة إبليس لتضليلنا عن التفكير فيما بعد الموت والاستعداد له إلا دعوتنا للتصالح معه، والانغماس في اللذّات قبل فوات الأوان، أو السقوط في جحيم العَدَميّة والخوف.

وبعيدًا عن تمحّكات الفلاسفة، لن نجد أفضل من الفنّانين للإعراب عن شعور العدمية الذي ينتاب نفسية الإنسان إذا انتزع الإيمان من قلبه، ومن بين الفنانين لا أظن أني سأجد مثالًا أضعه بين يديك أفضل من المخرج الأمريكي اللاديني (من أصل يهودي) **وودي آلن**، ولا أقصد هنا الاستشهاد بأفلامه الكوميدية التي تطرق فيها مرارًا لقلقه الوجودي، بل تصريحاته الصحفيّة التي لا يوفر فيها أي فرصة لتجسيد القلق في أبهى صوره.

---

(1) جاء في الحديث الشريف: «أكثروا ذكر هادم اللَّذات: الموت» [رواه الترمذي والنَّسائي، وصحَّحه ابن حبَّان].



ففي حوار أجري معه عام 2015 وهو على عتبة الثمانين من العمر، قال بتواضع نادر إنه شخص لا يسعى للكمال مثل بقيّة المخرجين، ويرضى بما هو جيد في الطبقة الوسطى، كما أنه يرضى في حياته بتكرار كل التفاصيل اليومية دون خوض التجارب، وهو ليس شخصًا فضوليًّا، ولا يرى في عمله الفني السينمائي سوى وسيلة ممتعة لكسب الرزق والتخلّص من الملل.

ثم سئل: بعد كل هذه السنوات في صناعة أفلام عن الخوف من الموت وكيفيّة التغلب عليه، هل تشعر بأيّ تحسّن الآن وأنت في العام التاسع والسبعين من عمرك؟ فأجاب بأنه لا يمكن التغلّب على هذا القلق أبدًا، وأن الأمر لا يتغير كثيرًا عندما يتقدّم الإنسان في العمر. فعندما يصحو في العشرين من عمره ليفكر في الحياة وانقراضه منها، سيراوده نفس الشعور بعد ستين سنة.

وعندما خُتم الحوار بسؤال كيف تريد أن يتذكّرك الناس بعد موتك؟ كان أكثر صراحة مما يفعل معظم الناس، فقال إنه لا يهتم حقًّا بذلك، وإذا رمى الناس جميع أفلامه فلن يضره ذلك. ثم زاد الإجابة وضوحًا بقوله «يمكن أن نقف أنا وأنت فوق قبر ويليام شكسبير وننشد ترانيم في مدحه، ولكن هذا لا يعني شيئًا. أنت ذاهب إلى الفناء»[1].

قد تشاطرني التساؤل عزيزي القارئ عن سبب تمسّك شخص كهذا بالحياة، فأنا لا أستبعد أن يلجأ إلى الانتحار عندما يتوقّف عن الاستمتاع بعمله، أي عندما لا يسمح له جسده العجوز بإخراج فيلم آخر، فكلما سئل عن تقدّمه في العمر أجاب على الفور بأنه أمر سيئ، وأنه لم يجد فيه شيئًا رومنسيًّا ولم يزدد فيه حكمة.

حسنًا، إذا كانت هذه نظرة **آلن** لنفسه وحياته وإرثه فماذا تتوقّع أن تكون فلسفة أعماله التي يبثها في المجتمع؟ هو نفسه لا يرى في الفن سوى محاولة لطمس الحقيقة المرعبة

(1) Sam Fragoso, At 79: Woody Allen Says There's Still Time To Do His Best Work, npr.org, 29 July 2015.

القائلة بأن الحياة بلا معنى، ويقول إن الفنان لا يمكنه أن يبدع شيئًا من دون أن يخدع الناس، كما أنه يسخر من أي شيء جادّ يُثار حول أفلامه، بل تقريبًا يسخر من كل شيء ولا يمانع في أن يسخر الجمهور منه[1].

وفي صورة أكثر عَدَميّة، قال آلن أمام الجمهور -أثناء مشاركته في مهرجان كان السينمائي عام 2015- إن الكون كله عشوائي وذاهب إلى الزوال، وإنه لا يرى أي شيء إيجابي في السينما سوى أنها تلعب دور التشتيت، فانشغاله بإنتاج فيلم جيّد يشتت ذهنه هو وأذهان من يعملون معه عن التفكير في قلقهم الوجودي، وإن لم يفعلوا ذلك فسيسترخي كل منهم على أريكته ويفكر في معنى الحياة والموت، كما ستمارس هذه الأفلام الجميلة دور تشتيت الجمهور، أو بعبارة أخرى دور تنويمهم كي يبقوا في غفلتهم، فيضحك الحاضرون لظرافة المتحدث، بدلًا من البكاء على عمق أزمتهم!

ولا أظن أن إبليس لو نطق كان سيفصح بكلمات أفضل من هذه، فهي شهادة من عمق هوليود بالوظيفة التي تلعبها السينما لتنويم مليارات البشر، بدءا بصنّاع الأفلام أنفسهم!

ماذا أعددت لها؟

عن أنس رضي الله عنه، سأل رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ويلك، وما أعددت لها؟»، قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت» قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها[2]

سؤال هذا الصحابي هو الذي يقلقنا جميعًا، لكن رسول الله ﷺ نفسه لم يكن يعلم متى تحين ساعته هو، ولا موعد الساعة التي تقوم فيها القيامة، فصرَف أنظارنا إلى السؤال العملي: وما أعددت لها؟ وهو الذي نملك الإجابة عليه، والاستعداد له.

ومع انتشار التفاهة وأيديولوجيا الترفيه والكسل المعرفي وثقافة الليبرالية المائعة،

(1) أيوب واوجا، وودي آلن.. الحياة كئيبة ومتشائمة فلنقاومها بالسينما، مدونات الجزيرة، 5 مارس 2019.
(2) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (6171)، ومسلم برقم: (2639)

يغلب اليوم تقديم الرجاء على الخوف، واستيراد مصطلحات الكنائس من قبيل «**الله محبة**»، ثم تقريع الآباء والمعلّمين والمشايخ الذين كانوا يخوفوننا في طفولتنا من عذاب القبر وأهوال الحشر وزلة الصراط وحرّ النار، وربما يشارك البعض قصة عن أطفال في مدرسة أوروبية، طلبت منهم معلمتهم أن يكتبوا رسائلهم إلى الله، فجاءت رسائلهم البريئة مليئة بالحب وخالية من التكلّف، ثم تختتم القصة المتداولة على مواقع التواصل بجلد الذات: انظروا كيف يربون أطفالهم على محبة الله بدلًا من الخوف منه، فلا تلومونا على كرهنا للدين بعدما تربينا على العكس.

وأنا أقول إننا لو ربّينا أطفالنا على المحبة لوجد المتراخون المتخاذلون ألف ذريعة أخرى للتملّص من عبء التكليف، وكأن أطفال أوروبا يملؤون الكنائس بترانيم التضرّع، بل لم يزدهم ذاك التمييع إلا بعدًا عن الدين واستهانة بأمره!

لما أمر الله تعالى نبيه بالصدع بالدعوة بعدما كانت محصورة بين أقاربه وأصحابه، صعد ﷺ على جبل الصفا وصاح بالناس، فاجتمعت إليه قريش وقالوا ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني؟ فقالوا بلى. فقال «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1] فكان هذا الإنذار أول كلمات الدعوة، وكأن الإسلام بدأ محذّرا من العذاب الشديد، لا مبشّرًا بنعيم مقيم.

والسبب لا يخفى على عاقل، فالإنسان مجبول على حب الراحة والدَّعة وطلب اللذة في الشهوات، ولا يردعه عنها الترغيب في الجنة بقدر ما يردعه الترهيب من الحساب الشديد.

ولو نظرنا إلى التاريخ البعيد، سنجد أن المجتمعات المنضبطة بقواعد السلوك لم تبلغ درجة الانتظام إلا بعد سلسلة من تراكم المخاوف، إذ يقال إن الحاشية في بلاد الفرس اعتادوا كلما مات أحد ملوكهم على ترك المملكة في حالة فوضى لمدة ثلاثة أيام، فيسود قانون الغاب ويأكل القوي الضعيف، ثم سرعان ما يبسط الملك الجديد سيطرته ويقبض

(1) أخرجه البخاري برقم: 4801.

على اللصوص وقطّاع الطرق، ويعلق المشانق، وينادى له في الشوارع والأسواق، لتنحني له الهامات مهلّلة بعودة الأمن والسلام.

والحال نفسه نجده أينما شاع السلم، حتى لو كانت قبضة السلطان في ظاهرها رخوة، كما هو الحال في دول الرفاه الأوروبية اليوم، فشعوبها كانت تعاني شظف العيش قبل بضعة عقود فقط، ثم عضّتهم الحروب بأنيابها، وأدركوا بعد ذلك قيمة الانضباط وسيادة القانون كلما ارتقوا في سلّم الحضارة، وما سادت تلك الثقافة إلا بقوة الشرطة وهيمنتها في الأجيال الأولى، ونحن نرى بأعيننا ما تنقله الشاشات من فوضى عارمة كلما غابت عين السلطة في أي بلد أوروبي، بدءًا بمشاغبي المظاهرات ومشجعي المباريات (الألتراس)، ووصولًا للتجارب الاجتماعية التي يصورها هواة ويبثونها على الإنترنت، وهي تكشف استعداد غالبية الناس لمخالفة القانون والأعراف والأخلاق عندما يُخيّل إليهم ألا أحد يراهم من المجتمع أو السُّلطات.



وفي مقارنة طريفة، يمكننا أن نقرأ خلفية الانتشار الفيروسي لكاميرات المراقبة في كبرى مدن العالم، حيث تحتلّ المدن الصينية معظم قائمة المدن الخمسين التي تتمتع بأعلى نسبة لكاميرات المراقبة مقابل عدد السكان، وأولها عالميًّا مدينة تاي يوان الصينية التي تنتشر فيها أكثر من 465 ألف كاميرا، بنسبة 119 كاميرا لكل ألف شخص، وتضمّ القائمة مدُنًا مثل لندن (الثالثة عالميًّا) وموسكو وسنغافورة وسيدني ولوس أنجلوس وبرلين(1).

ومع حلول عام 2021، يقدّر المراقبون أن العالم مغطى بمليار كاميرا مراقبة، أكثر من

(1)Surveillance camera statistics: which cities have the most CCTV cameras?, comparitech.com, 22 July 2020.

نصفها في الصين وحدها، مع أن الشائع عالميا أن شعوب شرق آسيا -وعلى رأسها الصيني- هي الأكثر انضباطًا[1].

لذا لا يمكن لأي ملحد أن يتمسك بحجة الوازع الذاتي، وهو يعلم في قرارة نفسه أننا لن نبلغ قمة الانضباط إلا عندما يدرك الإنسان أن إلهًا مسيطرا يطّلع عليه عندما تغيب عنه العيون والكاميرات، وعندما يعلم يقينًا أن إلهًا قادرًا سيحاسبه في موقف رهيب تنفطر له القلوب.

كجناحي طائر

في كتابه «**الدين والتحليل النفسي**»، كان **إريك فروم** يدافع عما يسميه الدين الإنساني في مقابل الدين التسلّطي، معتبرًا أن الأول يدفع الإنسان إلى تحقيق أكبر قدر من القوة لا العجز، حيث لا يكون فيها الإله سوى رمز لقوى الإنسان الخاصة، وهذا ما نجده تمامًا في الأديان الشيطانية التي صيغت في إطار التصوّف الباطني، مثل الهندوسية والبوذية والطاوية وكافة المذاهب الغنوصية الباطنية التي تشكّلت تحت مظلّة الأديان الكبرى، وعلى رأسها القبّالاه اليهودية.

أما الدين التسلّطي -الذي يصب عليه فروم جام غضبه- فيظهر جليًّا في البروتستنتية على طريقة كالفن، حيث تحتقر هذه العقيدة كل شيء فى الإنسان وتخضعه لقوة الإله القاهرة، حتى يكاد الإنسان يفقد إرادته، ويصبح ضحية للسلوك العُصابي، ويغترب عن قواه الخاصة.

ثم يضرب فروم على هذه الديانة مثالًا دنيويًّا بالنازية -التي انشغل كثيرًا بتحليلها في كتبه لكونه يهوديًّا ألمانيًّا عاصر محنة اليهود- فيرى أن هتلر صار كالإله المتسلّط، كما صارت دولته موضوعًا للعبادة.

(1) المرجع السابق.

دافع فروم عن رأيه هذا أيضًا في كتابه «**الخوف من الحرّيّة**»، مقدما تحليلًا نفسيًّا لمؤسّسي البروتستنتية لوثر وكالفن، وقال إن علاقة الإنسان بالإله في المذهب اللوثري هي علاقة خضوع على أساس العجز، ومع أن لوثر كان يشدّد على أن الخضوع إراديّ ناجم عن الحب وليس الخوف، لكن هذا لم يشفع له عند فروم، فالمؤمن البروتستنتي في رأيه سيظلّ خاضعًا للرب على الطريقة المازوشيّة دون أن يشعر![1]

ما لا يوضحه لنا فروم هو التحليل النفسي للمؤمن على الطريقة الإسلامية، فإذا كان فروم ينتصر للباطنيّة التي تؤلّه الإنسان عبر خرافات الحلول ووحدة الوجود، وينتقد الإيمان البروتستنتي الذي يسلب من الإنسان إرادته، فقد كان فروم بأمسّ الحاجة للتعرف على وسطيّة الإسلام وتوازنه.

لو عدنا إلى سِيَر الصحابة الذين مثّلوا في سلوكهم اليومي التجسيد العملي الأول للإسلام، لكونهم الجيل الذي نشأ على يد الرسول نفسه ﷺ، فسنجد لديهم مواقف عجيبة من الخوف والخشوع الذي تنفطر له القلوب، ثم نجد في مواقف أخرى من المرح والضحك والمزاح ما تكتمل به الصورة.

وفي الأثر، سئل ابن عمر: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟ قال «نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال»[2] وفي القرآن الكريم، تقترن آيات الترغيب بالترهيب دائمًا لتربية النفوس على التوازن، فلا ينفرد أي جانب منهما في السرد مهما كان السياق كي لا يغلب منهما الآخر، وهذا ما ألّف في شرحه **محمد سعيد رمضان البوطي** كتيّبًا بعنوان «**منهج تربوي فريد في القرآن**»، متحدثًا عن الأسلوب القرآني في كل من المحاكمة العقليّة والإثارة الوجدانيّة، إذ تتكافأ فيه العواطف بين الدفع والردع.

ومهما أنعمت النظر عزيزي القارئ في آيات القرآن فستجد هذا الجمع بين الكفّتين لتحقيق التوازن في نفس المؤمن، فيقول القرآن مثلًا عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

(1) الخوف من الحرية، ص 62.

(2) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، برقم: 20976

﴿الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، ويقول أيضًا عن المؤمنين عامّة: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16].

ومن هنا خلُص الفقهاء إلى ضرورة التوازن حتى يكون الخوف والرجاء كجناحي طائر، فهما متوازيان متساويان، لا يميل أحدهما فيسقط الطير. يقول ابن القيِّم: «ولكن السلف استحبوا أن يقوّي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف» وذلك لأنّ الخوف يردع الشباب تحقيقًا لوظيفة الردع في ذروة التمكّن والاندفاع، أما عند الموت فيكون الإنسان قد وافى خط النهاية وأشرف على انقطاع عمله ولقاء ربه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا أنه قال: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة»[1] والمقصود بالأمن في الدنيا نقيض الخوف من الله، فالذي يأمن هو الذي لا يؤمن، أو لا يكاد يكترث لما بعد الموت لشدة الغفلة.

وبالمجمل، لا يكفي أن يؤمن الإنسان بالله فيعبده بدافع المحبة فقط، مستوردًا شعارات الاستمتاع بالحياة وعيش اللحظة، ومتبنّيًا نمط الحياة Life Style القائم على تحقيق أكبر قدر من اللذة حتى لو كان في إطار الحلال، فالانغماس في الشهوات المباحة يؤدي غالبًا إلى السقوط في هوّة المحرمات.

اشتكى بعض الناس للتابعي الجليل الحسن البصري فقالوا: يا أبا سعيد، إننا نخالط أقوامًا يخوفوننا بالله حتى تكاد قلوبنا أن تطير. فقال الحسن: إنك إن تخالطْ أقوامًا يخوّفونك بالله في الدنيا حتى يدركك الأمن في الآخرة خير من أن تخالط أقوامًا يؤمنونك في الدنيا حتى يدركك الخوف في الآخرة. فالخوف في الإسلام دافع للعمل، ووازع عن الاقتراب من دائرة المنهي عنه، وإذا غلب في النفس حتى كاد أن يفضي إلى اليأس فينبغي

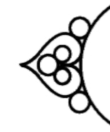
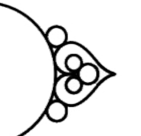
(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه والبزار في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان وابن المبارك في كتاب الزهد وأبو نعيم في حلية الأولياء وصححه الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد البزار

على المسلم أن يعالجه بجرعة من الأمل كي يستعيد توازنه، وهذا ما يفعله القرآن الكريم بالضبط كما أسلفنا في اقتران الترغيب بالترهيب.

علاوة على ذلك، فالخوف من الله يجرّد المسلم من مخاوفه الأخرى، فهو وجه من وجوه التوحيد وسلامة القلب وصفاء العقيدة، لاحظ مثلًا هذه الآيات: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150]، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13]. فهذه النصوص تقدّم توجيهات صريحة مباشرة بنفي الخوف من الشيطان وأوليائه ومن بقيّة الأعداء من البشر، وتربط الأمن من شرّهم بالخوف من الله، وكأنّ القلب المؤمن إذا التجأ إلى الله وخصّه وحده بالخوف، فإنّ الله تعالى سيُلبِسُه ثوب الأَمْنِ من كلّ ما عداه.

وليس ذلك إلّا للمؤمن.

* * * *

قبل الوداع
عرفتَ فالزم!

ها نحن نقترب عزيزي القارئ من نهاية هذه الرحلة التي جمعتنا على صفحات من ورق، ولا بدّ أنّك مدركٌ أن حياتنا كلها ليست سوى رحلة سريعة الانقضاء، وأنّنا جميعا عابرو سبيل قد أوشكوا على الرحيل.

لستُ أزعم أني ربّان السفينة التي أبحرتَ فيها معي، فكيف بالرحلة الكبرى التي تجمعنا مع مليارات البشر، ولا أحد فيها يعلم مصيره؟

ستسمع كل يوم صرخات تتردّد في جنبات السفينة، من أشخاص مثلي ومثلك، بعضهم يزعم أنه سيأخذ بيدك إلى برّ الأمان، والبعض ينفي وجود البرّ نفسه، والبعض قد يدعوك لنسيان ما ستؤول إليه الرحلة، وقضاء بعض الوقت الممتع قبل انقضائها، وربما تصطدم بأحدهم وقد أعياه الخوف من المجهول فألقى بنفسه في البحر، وهو يشجّعك على اللحاق به.

أما أنا فلا أعرض عليك ما لا أملكه، ولا أقول لك سوى هلمّ لنسمع ذاك الرجل الذي جمع أمارات النبوّة، ففي الوحي الإلهي الذي بين يديه خلاصنا معا.

لم يكن هدفي من هذا الكتاب بثّ الخوف في قلبك، غير أني لا أملك أيضًا ما يطمئنك أكثر مما سنجده معًا في إرث النبوة.

أما إن كنتَ تصرّ على أن أدع بين يديك وصيّة تعينك على ما بقي من هذه الرحلة، فإليك خلاصة ما أتطلّع إليه معك من الحكمة:

عصر الفتن

لعلك توافقني على أنّنا في عصر فتن استثنائي، فما كنتُ لأكتب هذا الكتاب، وما كنتَ لتهتمّ بقراءته، لو لم يكن الخوف من الحاضر والمستقبل يشغل حيّزًا من اهتمامنا، وهذا يستلزم حذرًا مضاعفًا بدلًا من التساهل الذي نراه شائعًا بين كثير من المسلمين.

حاول ما استطعت استحضار هذه الحقيقة في حياتك اليوميّة، أي أنّنا وُلِدنا في عصرٍ تحيط به الفتن من كل جانب، من دون أن يفضي بك الوعي بالحقيقة إلى القلق النفسيّ والاكتئاب، بل اجعل التوازن هدفًا بذاته.

الحذر واجب

مهما قرأت وبحثت في تحليلات المحلّلين فلن تجد تنبّؤًا تطمئنّ إليه النفس بما سيحدث بعد غد، فالأزمات التي تحيط بمستقبلنا لا تخفى على أحد، والغموض أصبح كالضباب الذي يشوّش الرؤية، ممّا يستدعي منا جميعًا اتخاذ الحيطة والحذر.

احرص على عدم المخاطرة في أيّ قرار يمسّ مستقبلك، فلا تغامر بمشاريع استثماريّة ضخمة، ولا تضع خططًا طويلة الأمد دون أن ترسم لمستقبلك المهنيّ والاجتماعيّ عدّة سيناريوهات بديلة. ادّخر مالك السائل بالذهب أو العقار الآمن، وحاول قدر المستطاع الاحتفاظ بوظيفتك وعدم القفز في المجهول، واحذر من الديون، فالدَّين همٌّ بالليل ومذلّة بالنهار.

الرضا كنز

الخبراء يحذّرون منذ عقود من مستقبَل غامض لهذا الكوكب، وآثار التلوّث وطفرة الاستهلاك صارت واضحة للعيان ولا تحتاج إلى أجهزة العلماء. الاحتباس الحراريّ أصبح واقعًا نعيشه، ولا ندري حقًّا إن كنا سنشهد الكارثة في عصرنا الحالي، لكن المؤكّد أنّنا قادرون على التقليل من هذه المخاوف.

تقشَّف وتخفَّف ما استطعت، فالاستهلاك المفرط حالة غير طبيعيّة على المستويَين الفرديّ والجماعيّ، وقد تعلّمنا في السنوات الأخيرة أن حياتنا تسير بسلالة مع تخلُّصنا من عادات كثيرة، بل ربّما صرنا أكثر سعادة مع تخلُّصنا من أسر الشهوات وقيود الالتزامات الاجتماعيّة.

لا تنسَ أن تُخلِص النية أيضًا لتكسب مرّتين، لعلك تنال أجر الزهد مع لذة الرضا، وتبعِد عن نفسك وعن أبنائك الخطر.

جدل المؤامرة

في عصر الفتن يزداد رواج نظريات المؤامرة، ومع انتشار استخدام منصّات التواصل الاجتماعي يصبح من الصعب التحكّم فيها أيضًا، وستجد دفقًا هائلًا للنظريّات الجنونيّة، وبعضها لا يكون خاطئًا فحسب بل تافهًا وعديم الجدوى، ويستهلك الوقت والجهد في خرافات لن ينتج عنها أيّ عملٍ أو مصلحة حتى لو كانت صحيحة، مثل خرافة الأرض المسطّحة التي تحوّلت في غضون سنوات قليلة من نكتة إلى ظاهرة تشوّش عقول الناس، وتشوّه الإسلام بربطه بخرافة ينقضها العلم.

الخطر الذي يجب الحذر منه هو «**عقلية المؤامرة**»، أي أن يصبح الاعتقاد بوجود مؤامرة وراء كل الظواهر مبدأً فكريًّا وجوديًّا، وهذا يتعارض بالبداهة مع الواقع، ويؤدي إلى نتائج خطيرة عقليًّا وسلوكيًّا، وقد تنتج عنه أيضًا إجراءات عمليّة خاطئة، فإمّا أن يؤدي إلى استنفار في مواجهة عدو مزيّف مثل محاربة طواحين الهواء[1]، ومن ثمّ تشتيت الجهود بدلًا من تركيزها في المعركة الصحيحة، أو قد يؤدّي إلى السلبيّة والتقاعُس عندما يشعر الفرد أو المجتمع باستحالة المقاومة.

في المقابل، يتبنّى الخطاب الليبرالي «**عقلية اللامؤامرة**»، وهو التيّار المسيطر على مواقع السلطة ووسائل الإعلام. وهذه العقلية على النقيض تمامًا من «**عقليّة المؤامرة**»، فاحذر منها كحذرك من الأولى، إذ يؤّدي اعتناقها أيضًا إلى السلبية وتشتيت الجهود والإفراط الرومنسي في التفاؤل، وهذا ما رأيناه عيانًا بعد نجاح الثورات في اقتلاع بعض الأنظمة المستبدة، فظنّ الناشطون العزّل أن هدير صراخهم في المظاهرات أقوى من

(1) هذا المصطلح المجازي مقتبس من قصة «دون كيخوتي» التي كتبها الإسباني ثيربانتس في مطلع القرن السابع عشر، إذ كان بطل القصة يتخيل نفسه محاربًا عظيمًا يواجه الشياطين التي تجسّدت على هيئة طواحين الهواء، معتقدًا أنها مصدر الشر.

الجيوش، وأنهم قادرون على إعادة بناء الدول بأحلام الديمقراطية، وأن الشارع وحده هو الذي يحسم المعركة!

الترفيه غير البريء

احفظ عقلك وقلبك وحواسك من الرسائل الشيطانيّة التي تبثّها منابر إبليس كل يوم، من أفلام هوليود والمسلسلات وبرامج الترفيه، إلى ألعاب الفيديو، وحتى الروايات والقصص المصوّرة (كوميكس).

لا تستهن بقوّة خبراء **الهندسة الاجتماعية** والتضليل الإعلامي في قدرتهم على ترك آثار رسائلهم في أعماق نفسك، حتى لو بدت لك الرسائل صارخة الوضوح وأنك على علم بها، فالخطر لا يكمن فقط في قدرتهم على إخفائها لخداعك، بل يمكن لتراكم الرسائل الظاهرة الجليّة أن يهزّ كيانك وأنت بكامل وعيك.

اعتزل تلك الوسائل ما استطعت، فستجد من وسائل الترفيه الآمنة ما يغنيك. واحذر خدعة إبليس التي ما فتئ يظفر بضحاياها منذ قرون: أنت ذكي ولن يضرّك شيء، فما أكثر العباقرة الذين سقطوا، وما أسهل دخول إبليس إلى قلوب بني آدم من باب الغرور[1].

سيل التفاهة

احذر قصف التفاهة المتواصل، فالحرب ليست مع الباطل فقط، بل هناك سيلٌ من التفاهة المتدفّق عبر وسائل التواصل الاجتماعي الذي قد يكون أثره على المدى البعيد أسوأ من الرسائل المباشرة.

التفاهة تحطّ من همّتك ومستوى وعيك واهتماماتك، وقد يؤدّي تراكمها إلى الكسل المعرفي، فتسهّل على جنود إبليس والدجّال مهمّة الاختراق والتضليل[2].

---

(1) يمكنك العودة إلى كتابي «**ضريبة هوليود**»، وأيضا كتابي «**قوة الصورة**»، للاطلاع على دور هوليود والإعلام البصري عمومًا في تمرير الرسائل المؤدلجة.

(2) للقراءة عن خطر التفاهة، أنصح بكتاب «**نظام التفاهة**» للكندي آلان دونو، وكتاب «**التتفيه والتجهيل**» للمحامي مصطفى الزراق، وكتاب «**رحلة الدجال الناعمة**» للمؤلف عبد اللطيف المحيميد.

التفاهة تزاحم أيضًا الحق والعلم على الانتشار، وهي تنجح غالبًا عندما تتساوى فرص المنافسة. فالإنسان يميل عادةً إلى الدّعة والراحة والترفيه، وينفر ممّا يستلزم إعمال العقل وإنعام النظر والجدّ والاجتهاد، مهما كان ذكيًّا وفطِنًا، وهذا من صلب الابتلاء في هذه الدنيا.

الفضول أيضًا غريزة، فمن منّا لم تحدثه نفسه بالنقر على رابط إلكتروني يخبره بأنّ فضيحة ما قد عصفت بأحد نجوم الفن؟ وهل يخفى على أحد ما نجده في لذة الاستماع إلى عجائب القصص والأخبار. فلا جرم أن العلاج يكمن في اعتزال كل ما يفتح علينا تلك الأبواب، حفاظًا على قلوبنا وعقولنا وأوقاتنا، وعلى صحائفنا التي قد تُملأ بجبال من صغائر الذنوب من دون أن نشعر.

فتنة الروحانيّات الباطنيّة

لا تقترب من مجالات «**حركة العصر الجديد**»، ولا حتى بدافع الفضول، ولا تغترّ بتلبيس إبليس عندما يلحّ عليك بأن الحكمة ضالّةُ المؤمن، فالبحث عن «**الحكمة**» لدى معلّمي الطاقة والتأمّل واليوغا ليس سوى الخطوة الأولى في طريق استهلك أعمار الكثير من الناس، وانتهى بهم الحال جنودًا في جيش إبليس[1].

لا تقرأ كل شيء

لطالما كانت سعة الاطلاع -على مرّ العصور- من مداخل الغرور والتعالي على الآخرين، حتى على المثقّفين المخالِفين وليس العوام فقط، أما في عصرنا فأصبحت القراءة من مكمّلات «**الموضة**» حتى لدى التافهين، لأن مواقع التواصل فتحت باب الاستعراض على مصراعيه، وجعلت من شهوة استعراض الثقافة إحدى أبواب تسويق الذات واكتساب الشهرة وتعويض الشعور بالنقص.

(1) للاستزادة: أنصحك بكتاب «**التطبيقات المعاصرة لفلسفة الاستشفاء الشرقية**» لهيفاء بنت ناصر الرشيد، وكتاب «**حركة العصر الجديد**» لفوز عبد اللطيف كردي.

هذه الشهوة تغرينا جميعًا، فأصبحنا نعاني من فتنة إغراء الكتب لنا بتصوير أغلفتها على طاولات المقاهي لمشاركة صورها مع الأصدقاء. وقد لا يخلو هذا من فائدة، لكن لا بدّ أوّلًا من تجريد النيّة.

لن أوصيك بعدم الاستعراض فقط، بل بعدم الانجراف من حيث لا تشعر مع سيل الكتب ذائعة الصيت، التي قد يكثر فيها الغثاء من دون فائدة، أو ربما مع الكثير من الضرر. وتذكّر أنّ القراءة ليست فعلًا مقدّسًا بذاته، بل هي وسيلة نحو غايات أسمى. وإن لم تُصفَّ النية ويصْدق الهدف، انقلبت القراءة ضررًا في الدنيا والآخرة.

تذكّر أيضًا ضحايا القراءة العشوائية، فما أكثر من ضلّوا الطريق بسبب لهاثهم وراء العناوين الكبيرة، فقرأوا عن الإلحاد واللادينية والنسوية والعلموية والداروينية والماركسية قبل أن تنضج لديهم عوامل المناعة، حتى اختلطت في عقولهم الأفكار والعقائد مع نقائضها في تركيبة عجيبة، وما زال شعارهم هو تبجيل «**الانفتاح**» على أفكار الآخرين خشية «**الانغلاق**» على ما لديهم. ولو أنهم تدبّروا قليلا مطلع سورة العلق لتبَصّروا، فالأمر الإلهي الأول لنبيّه لم يقف عند حدود «**اقرأ**»، بل أتمها بقوله: «**باسم ربك**»، فاجعل قراءتك باسمه تعالى.

المعرفة قوّة

إن كنتُ أحدّثك طوال صفحات هذا الكتاب عن الخوف، فلا بد أن أذكّرك في نهايته بقيمة العلم في مواجهته. فالإنسان عدوّ ما يجهل، والوعي بالواقع هو بداية طريق المقاومة.

الوعي يبدأ بفهمنا لحقيقة أنفسنا والمجتمع من حولنا، ثم بموقعنا من خارطة الوجود، وبمسيرتنا في الزمان والمكان. والوحي الذي نؤمن به يختصر أكثر من نصف الطريق، لكن كتب التراث لا تكشف لنا مستجدّات السياسة وخفايا الصراع، فلا بد من التكامل.

احرص إذن على التعلّم المنهجي المنضبط، ولا تكتفِ بمجال تخصّصك المهني، فلا بدّ من حصيلةٍ تُغنيك من العلوم الدينيّة، ثم ادعمها بما يتيسّر لك من العلوم الإنسانيّة وفقه التاريخ، واضبط بوصلتك في كل خطوة.

تحدّي التربية

إذا كنت أبًا أو أمًا فكن على يقين بأن تربية أبنائك تختلف جذريًّا عن إرث التربية الذي حملناه عن آبائنا. في الماضي كان يكفي أن يقرأ آباؤنا كتابًا أو كتابين عن بعض الأصول والقواعد والنصائح، أما التربية اليوم فتتطلّب منك دراسة الحد الأدنى من خلاصات علوم النفس والاجتماع والتربية، لأن تربية الأبناء صارت تخصّصًا لا يقلّ أهمّيّة عن التخصّص الذي يستهلك من عمرك عدّة سنوات في الدراسة الجامعيّة كي تمتهنه وتكسب منه رزقك[1].

في الماضي كانت النفوس والطباع أقلّ تعقيدًا وأكثر تجانسًا في المجتمعات المغلقة، أما اليوم فيتلقّى ابنك معظم ثقافته من هاتفه المحمول والشبكة العالميّة. فإذا نجحت في تقييد وصوله إلى منابع التضليل فقد قطعت نصف الشوط، وتبقى أمامك مهمّة منحه الثقة في هويّته المستَضعفة، كي يتابع مسيرته بأمان في عالم يموج بالفتن.

قد لا تنجح حتى في تحصينه من ضخّ التفاهة ورسائل إبليس، فتجد نفسك أمام تحدّي الانسجام مع مراهق ينضج أمام عينيك بينما يتشكّل عقله في مكانٍ آخر. لا تيأس مهما حدَث، استشِر خُبَراءَ التربيةِ، افتح قنوات النقاش الهادئ، امنح الثقة والمسؤوليّة، لا تصادم مراهقًا أو مراهقة وهما يثبّتان أقدامهما على سفينة تضطرب في وسط المحيط، تذكّر ما عانينا منه عندما كنّا في مثل هذا العمر الصعب، ثم حاول أن تستوعب هول ما تعانيه الأجيال الناشئة.

---

(1) من الكتب الجيدة في التربية: كتاب «**نماء: منهج بناء الشخصية الإسلامية**» وهو مشروع تربوي شامل لكل المراحل من تأليف محمد عبد الله الدويش ومجموعة باحثين. وأنصح أيضا بكتب الدكتور **مصطفى أبو سعد**، وبمحاضرات تربوية يمكن العثور عليها في الإنترنت للدكتور عبد الرحمن ذاكر الهاشمي.

اغتنم ما لديك

تأمّل معي جيّدًا في هذا الحديث الجامع: «اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1]، وستجد في وضوحه وإيجازه ما يغني عن الشرح، وربما تشاركني الشعور بالحسرة والتقصير كلّما أعدت قراءته.

لا تشتّت طاقتك في الجدل، واحفظ وقتك من الهدر فهو رأس مالك الأوّل، لا سيّما إن كنت شابًّا. لا تدع للقلق والخوف سبيلًا إلى قلبك فيُقعِدانك عن العمل، واجعل همّتك في إتقان العمل وإخلاص النيّة وليس في ترقُّب النتائج التي قد لا توافق توقّعاتك. وتذكّر أنّنا قد نموت قبل أن يثمر ما غرسناه، وربّما لن يثمر على هذه الأرض أبدًا، إلا أنّه قد يكون مغروسًا من أجلنا في جنّة الخلد، وسيثمر هناك إلى الأبد.

لا تستهن بقدراتك

أثناء غزوة الخندق، تقول الرواية إن **نعيم بن مسعود** أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرْني بما شئت؛ فقال ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»، ثم نجح نعيم في خلخلة صفوف قريش وحلفائها مما ساهم في قلب كفة المعركة. ومع أن القصة رُويت من طرق عدة إلا أنها لم تبلغ درجة الصحة، ويكفينا ذكرها للاستئناس بما فيها من الحكمة، فقد تكون -عزيزي القارئ- رجلًا واحدًا، أو امرأة واحدة، لكن قدرتك على التحشيد والتأثير والتغيير أكبر من جهود مؤسسات وجيوش كاملة.

(1) أخرجه الحاكم (7846)، والبيهقي (10248)، وصححه الألباني.

تأمّل معي أيضًا في قصة **سالم مولى أبي حذيفة**، فقد كان عبدًا مملوكًا، لكن القرآن الكريم الذي حفظه والعلم الذي اكتنزه في صدره رفعاه إلى مرتبة كبار الصحابة، وعندما خرج مجاهدًا ضد مسيلمة الكذاب يوم اليمامة وقُتل زيد بن الخطاب أخذ سالم عنه الراية، فقال له المهاجرون: أتخشى أن نؤتى من قِبَلك؟ فقال سالم: بئس حامل القرآن أنا إذن، وظل صامدًا حتى بُترت يداه وهما تحملان الراية إلى أن استشهد في سبيل الله[1].

أرأيت ما أعظم هذه المواقف؟ رجل واحد يُخذّل أحزاب العدو ولا يلتفت إلى ضخامة حشودها، ورجل آخر يأبى أن يؤتى المسلمون من طرفه وكأنه سدّ منيع. فخذّل عن هذه الأمة الجريحة ما استطعت، واحذر أن يأتيها أعداؤها من قِبَلك.

لا تترك الساحة

قال المعلم المعصوم ﷺ: «مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر»[2]، فالسلبيّة والانكفاء على النفس ليس من ديننا، وكل فرد في المجتمع مسؤول عن نفسه وعمن حوله، كما في الحديث: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه»[3].

اعمل ما استطعت بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد عدّها بعض العلماء من أركان الإسلام[4]. ولا تلتفت إلى شعارات الفردانيّة الليبراليّة والحرّيّة

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 6، ص 370.

(2) أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (2586).

(3) أخرجه البخاري (2554)، ومسلم (1829).

(4) عن حذيفة رضي الله عنه: «الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، وحج البيت سهم، والصيام سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد في سبيل الله سهم، وقد خاب من لا سهم له» [رواه البزار موقوفا].

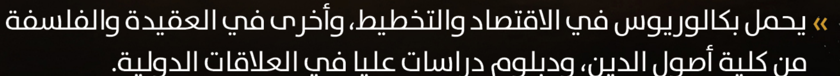
الشخصيّة، فالإصلاح بالمستطاع من الأوامر الإلهيّة التي لا تنفكّ عن جوهر الإسلام، وسلامةُ السفينة التي نستقلّها جميعًا منوطة بتصرّفاتنا الفرديّة.

أرجوك، لا تترك الساحة لشياطين الإنس والجن. افعل ما بوسعك، فحتّى لو كانت بضاعتك من العلم مزجاة فلن تعجز عن تقديم نصيحة أو التذكير بموعظة. غيّر المنكَر بيدك أو بلسانك ما استطعت، فإن لم تستطع فحاول -مع إنكارك بقلبك- تضييق حدود هذا المنكر ومنعه من الانتشار.

أخيرًا

استعن بالله ولا تعجز، ولا تيأس، ولا تحزن، فمهما ضعُفتْ همّتك ستجدُ نفسك أقوى بعد حين، ومهما بدا لك الليل طويلًا فلا بدّ للظلام أن ينجلي.

* * * *





» من مواليد 1979م- 1399 هـ.

» يحمل بكالوريوس في الاقتصاد والتخطيط، وأخرى في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين، ودبلوم دراسات عليا في العلاقات الدولية.

» من أهم مؤلفاته: "ضريبة هوليود"، و"قوة الصورة".

» ساهم في إعداد وإخراج العديد من البرامج والأفلام الوثائقية.

» يعمل في الصحافة السياسية والثقافية منذ 2011.

» المؤسس والمشرف العام على موقع السبيل (http://al-sabeel.net).

مستقبل الخوف

» لماذا نزداد خوفًا كلما ازداد التقدم العلمي؟ ولماذا لا تمنحنا التكنولوجيا الشعور بالأمان؟

» كيف حاصر فيروسٌ واحد العالم كلّه؟ وكيف عرّى وباء كورونا المنظومة الرأسماليّة وهياكل العولمة؟

» هل ما زال هناك فلاسفة يحلمون بالمدينة الفاضلة في هذا العالم؟

» كيف يستثمر الطغاة في غريزة الخوف؟ ولماذا ينجحون دائمًا؟ وهل هم أكثر شعورًا بالأمن منّا؟

» كيف حوّلت الرأسماليّة الخوف إلى تجارة رابحة؟

» » هل ما زالت العولمة مخيفة؟ وهل سنشهد تبدّلًا في أقطاب هذا العالم؟ وأين موقعنا منه؟

» ما دور إبليس في قصة الحياة؟ وما هي خطّته؟ وهل علينا الخوف من كيده؟

» ما موقع الدجال من أحداث العالم؟ ومتى نستعدّ لنقطة التحول الكبرى في مسار التاريخ؟

» هل نعيش اليوم في المراحل الأخيرة من آخر الزمان؟ وما المطلوب منّا لمواجهة الفتن؟

» كيف أصبح الإسلام مصدر الخوف الأول للعالم بدلًا من كونه مصدرًا للطمأنينة؟!

» هل نحن على أعتاب مرحلة "الإرهاب الأبيض الجديد"؟ وهل نشهد أجواء شبيهة بما قبل الحرب العالمية الثانية؟

» متى يتواضع الإنسان؟ ولماذا يصرّ على تجاهل خوفه الأكبر: الموت؟



من إصدارات مؤسسة السبيل

www.al-sabeel.net

للتواصل مع المؤلف







